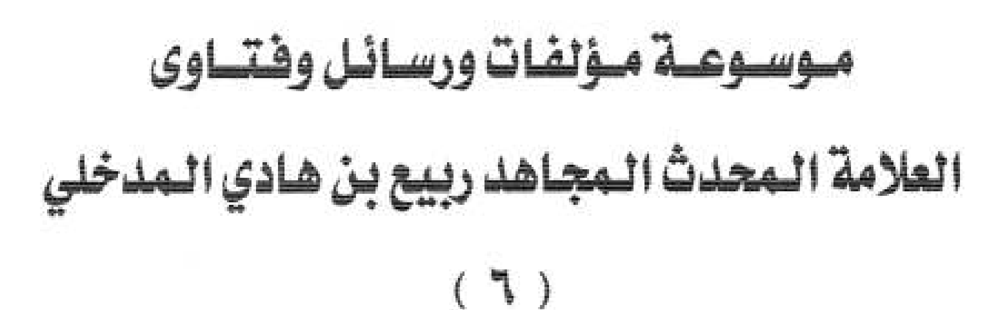


موسوعة مؤلفات ورسائل وفتاوى

العلامة المحدث المجاهد ربيع بن هادي المدخلي

(٦)

١ - أضواء إسلامية علىٰ عقيدة سيد قطب وفكره

٢ - مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ



أضواء إسلامية

على عقيدة سيد قطب وفكره

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا



كلمة حق وإنصاف وتأييد

قال العلامة المحدث محمد بن ناصر الدين الألباني في انتقاد الشيخ ربيع بن هادي المدخلي لعقائد سيد قطب ومنهجه:

«كل ما رددته على سيد قطب حق وصواب، ومنه يتبين لكل قارئ مسلم على شيء من الثقافة الإسلامية أن سيد قطب لم يكن على معرفة بالإسلام بأصوله وفروعه.

فجزاك اللَّه خير الجزاء أيها الأخ (ربيع) على قيامك بواجب البيان والكشف عن جهله وانحرافه عن الإسلام»[1].

* * *

كل ما رددته على سيد قطب حق وصواب، ومنه
يتبين لكل قارئ مسلم على شيء من الثقافة الإسلامية أن
سيد قطب لم يكن على معرفة بالإسلام بأصوله وفروعه
فجزاك الله خير الجزاء أيها الأخ (الربيع) على قيامك بواجب البيان
والكشف عن جهله وانحرافه عن الإسلام

---

(١) قالها العلامة الألباني معلقًا على خاتمة كتاب: «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم».

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ثم أما بعد: فهذا المقطع جزء من خطبة النبي ﷺ، كان يردده في كل خطبه أو جلها؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه.

لقد وصف رسول الله ﷺ البدع بأنها شر الأمور، وبأنها ضلالة، وفي رواية في غير هذا الحديث: **«وكل ضلالة في النار»**، ويكرر هذا في كل خطبة من خطب الجمعة، يصاحب ذلك غضبه الشديد، كأنه منذر جيش يقول: **صبحكم ومساكم**، ويعلو بذلك صوته.

كل هذا ولم تكن قد حدثت البدع بعد، بل لم يحدث شيء منها.

ولقد وقع الكثير والكثير مما حذر منه رسول الله ﷺ، ولاسيما في القرون المتأخرة.

ثم هيأ الله للأمة الإسلامية من يجدد لها دينها، ويرد الكثير ممن أراد الله له الخير إلى حظيرة التوحيد والسنة في الجزيرة العربية وغيرها من بلدان المسلمين، فعمت اليقظة أنحاء العالم الإسلامي، وبدأت الأنظار تتجه إلى الحق والتوحيد،

وتتنكر للشرك والبدع، وبدأ شباب الأمة في العالم يبحث عن النور والهدى، ويرفض الخرافات والبدع، ويرفض كل أشكال الباطل والضلال الذي زحف على الأمة من دول الكفر الشرقية والغربية، سواء منها ما يتعلق بالعقائد، أو ما يتعلق بالحاكمية والتشريع، وما يتعلق بالأخلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة.

ولقد كان في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، ثم فقه سلف الأمة، ومؤلفات من التزم منهج السلف ودعا إليه في كل مجال؛ مثل مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، ومؤلفات رجال الدعوة السلفية في الجزيرة والهند والشام ومصر، ما يكفي ويشفي ويروي غلة هؤلاء الشباب ويشبع تطلعاتهم.

ولكن مع الأسف الشديد، تصدى لدعوة الشباب وتوجيههم وتربيتهم كثير وكثير ممن لا يعرف منهج السلف في العقيدة وغيرها، ولا يميز بين السنة والبدعة، وكتبوا الكثير والكثير في شتى الميادين، وكان لما طرحوه وكتبوه للتوجيه دعايات ضخمة ونشاطات قوية، احتوت كثيرًا من شباب الأمة، وألقت في روعهم التهوين من شأن البدع والشرك، والتهوين من شأن التوحيد والسنة ومنهج السلف الصالح، فكان لذلك آثاره الخطيرة حتى في نفوس من ينتسب إلى مدرسة السلف والمنهج السلفي -إلا من رحم الله-.

واستفحل هذا الأمر واشتد، ورافقه غلو وتقديس للأشخاص مهما غلظت بدعهم وعظمت أخطاؤهم، مما ينذر بشر خطير، وينذر بعودة الأمة إلى الدوامة التي تطلعت وتحفزت للخروج منها.

فرأيت أن لهؤلاء الشباب الذين لا يشك عاقل أنهم يريدون للإسلام وللأمة الخير والعزة والكرامة حقًّا عظيمًا، وواجبًا كبيرًا على حملة العلم أن يبينوا لهم الحق، ويفصلوا لهم بين الهدي والضلال، والحق والباطل، ويميزوا بين دعاة الحق والهدي وبين غيرهم ممن حذر منهم رسول الله ﷺ، حتى يُنزلوا الناس منازلهم.

فتصديتُ لبيان بعض ما وقفت عليه في كتب سيد قطب من مخالفات خطيرة لما جاء به رسول الله ﷺ، وما كان عليه أصحابه وخيار الأمة في العقائد وغيرها، وتفنيد ذلك بالحجة والبرهان ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ كل ذلك نصحًا للأمة.

وإني لأرجو الله أن يوفق كل عالم مخلص يشعر بثقل الأمانة التي حملها، ويشعر بعظم المسئولية أمام الله أن ينهضوا بواجب النصح والبيان لهؤلاء الشباب وغيرهم؛ حتى يقيموهم على المحجة البيضاء التي تركهم عليها رسول الله ﷺ، والتي لا يزيغ عنها إلا هالك.

وأرجو الله أن يوفقهم ليسلكوا مسلك أئمة الإسلام في بيان الحق والتحذير من الشر والبدع وأهلها؛ كالإمام الشافعي، والإمام أحمد، والإمام البخاري، وعبدالله بن أحمد، وابن خزيمة، والآجُرِّي، واللالكائي، وابن بطة، وابن تيمية، وابن القيم، وابن عبدالوهاب، وأمثالهم ممن صدع بالحق ولم تأخذهم في الله لومة لائم.

الأسباب الموجبة للكتابة في عقيدة سيد قطب وفكره:

إن على المسلم -وخاصة حملة العلم الشرعي- واجبات عظيمة نحو الأمة الإسلامية والشباب، ويرجع معظمها:

أولاً: إلى بيان الحق، والفصل بينه وبين الباطل وبين الهدي والضلال.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٣).

وحيث إن سيد قطب قد فسر كتاب الله، وتعرض للعقائد والقضايا التي بينها القرآن للناس ليهتدوا بها فيسعدوا في الدنيا والآخرة، وآمن بها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وتابعهم عليها أئمة الهدى من مفسرين ومحدثين وفقهاء، وخالفهم

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) البقرة: ١٧٤.

(٣) البقرة: ١٥٩-١٦٠.

فيها أهل البدع والضلال، وكانت مواقف سيد قطب على سنن هؤلاء المخالفين؛ رأيت أنه يتحتم عليَّ وقد علمت ذلك أن أقوم بواجب البيان الذي حتمه اللَّه علي.

ثانيًا: وقد يلتقي مع الأول: أن اللَّه فرض علينا النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن مخالفة ما بيَّنه اللَّه في كتابه من أمر العقائد، وبينه رسول اللَّه ﷺ في سننه وهديه من أعظم المنكرات، وإغفالها والسكوت عن بيانها بعد العلم بها من أعظم الغش والخيانة للإسلام والمسلمين، ولاسيما إذا رافق هذا الكتمان والسكوت تلبيس وتمويه وإشعار بأن كتابات هذا الرجل كلها نور وهدى، وكأنما كتبت من الجنة، وقد قيل ذلك مع الأسف!

ثالثًا: الغلو الشديد في سيد قطب، وإطراؤه، ونسج الهالات الكبيرة حول شخصيته ومؤلفاته، مما بهر الناس به وبكتبه، فجعلهم في وضع لا يفكرون فيه ولا يتصورون سيد قطب على حقيقته، ولا يتصورون كتبه على حقيقتها، ولا يدركون ما حوته من أخطاء كبيرة، إذا اكتشفها المؤمن؛ ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأدرك أن دينه يحتم عليه واجب البيان لما انطوت عليه هذه الكتب من باطل وضلال قد أخفته تلك الدعايات.

رابعًا: إصرار المشرفين على تراثه وعلى رأسهم محمد قطب على طبع كتبه، والإلحاح على ذلك بحيث يطبع كل كتاب من كتبه المرات العديدة:

فهذا «الظلال» الذي جمع فأوعى من ألوان البدع الشيء الكثير قد طبع سبع عشرة مرة[1].

وهذا كتابه «معالم في الطريق» قد طبع خمس عشرة مرة.

وهذا كتاب «العدالة الاجتماعية» قد طبع اثنتي عشرة طبعة.

وهناك طبعات أخرى غير شرعية لهذه الكتب.

وهكذا سائر كتبه مع ما حوته من باطل وبدع عظيمة، حظيت بما لم تحظ به مؤلفات أئمة الإسلام الكبار؛ كالإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن حبان،

(١) وقد بلغت طبعات الظلال إلى الآن إلى ثلاث وثلاثين طبعة.

والدارقطني، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن عبد الوهاب، وغيرهم من أئمة الإسلام. . . ، وما ذلك إلا نتيجة التدليس على الأمة، والدعايات الضخمة لترويج هذه الكتب وأمثالها، وترويج مافيها من عقائد وأفكار.

خامسًا: أقدم نموذجًا لإصرار سيد على ما ضمنه كتبه من أفكار ومبادئ، كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، هذا الكتاب من أقدم مؤلفاته، وفيه من الضلال ما يرفضه ويستنكره أشد الناس جهلًا في العالم المتتسب إلى السنة، وأشدهم إغراقًا في التصوف، ألا وهو الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ.

لقد أصر سيد قطب وأخوه محمد، بل والإخوان المسلمون، على بقاء هذا الطعن واستمراره أكثر من أربعين سنة، على الرغم من تنبيه العقلاء على فظاعة هذا العمل وبشاعته.

قال الدكتور صلاح الخالدي -أحد المعجبين بسيد قطب ومنهجه ومبادئه- في كتابه: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» خلال حديثه عن كتاب «العدالة الاجتماعية»:

«وقد أشرنا إلى أثر الكتاب في مختلف الأوساط الحكومية والشيوعية والإخوانية، وأن سيدًا اقترب بكتابه هذا كثيرًا من الإخوان المسلمين، إلى أن ربط مصيره بمصيرهم بعد ذلك.

وقد اتهم محمود شاكر سيد قطب في «العدالة» بإساءته القول في حق الصحابة، وانتقاده للخليفة الراشد عثمان بن عفان.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات في حياة سيد، كانت آخرها الطبعة السادسة التي أصدرتها دار إحياء الكتب العربية عام ١٩٦٤م، وهي طبعة منقحة، حيث حذف منها العبارات التي أخذها عليه محمود شاكر وغيرُه، والمتعلقة بعثمان ومعاوية رضي الله عنهما، وأضاف لها فصل (التصور الإسلامي والثقافة)؛ أحد فصول «معالم في الطريق».

أي أن سيدًا أضاف لكتاب «العدالة الاجتماعية» عام ١٩٦٤م أفكاره الحركية الإسلامية، ودعوته إلى بعث طلعي، واستئناف الحياة الإسلامية على أساس مبادئ الإسلام.

وبهذا نعرفُ أنَّ سيدًا لم يتخلَّ عن كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، بل بقيَ يقول بما فيه من مبادئ وأسس وأفكار حتى محنته عام ١٩٦٥م»[١].

فهذا يبين إصرار سيد قطب على الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ، وإصراره على الاشتراكية الغالية التي قررها في هذا الكتاب، وإصراره على رمي المجتمعات الإسلامية كلها بأنها مجتمعات جاهلية -أي: كافرة!-، ويشاركه في المسئولية عن هذه الأمور المروِّجون لفكره ومذاهبه، بل يتحملون المسئولية أكثر منه.

سادسًا: احتجاج أهل البدع والضلال بطعن سيد قطب في عثمان رضي الله عنه وفي أصحاب رسول الله ﷺ؛ إذ يرون أن في طعن سيد قطب وأمثاله من أهل الأهواء المنتسبين إلى السنة حجة لهم على جواز الطعن والنيل من الصحابة الكرام.

فهذا الإباضي الخارجي المحترق أحمد محمد الخليلي مفتي عمان وكبير خوارج هذا العصر، الحاقدين على أصحاب رسول الله ﷺ يقول في مقابلة أجراها معه لفيف من اللجنة الثقافية حينما زار النادي الثقافي في السلطنة في يوم الإثنين ٢٩ رجب ١٤٠٤هـ، ونشرتها مجلة جبرين التي يصدرها الطلبة العمانيون في الأردن؛ كتب يقول الخليلي الإباضي المذكور من كلام طويل في هذا المقابلة:

«ولست هنا بصدد الحكم في تلك الفتنة العمياء، ولا على أحد ممن خاض في تلك الفتنة أو من أصيب بشيء من شررها، وإنما كل ما أريده الآن هو دفع الاتهامات التي توجه إلى الإباضية لأنهم يعادون بعض أصحاب رسول الله وينالون من كرامتهم.

والذي أريد أن أقوله: إن الإباضية ليسوا وحدهم في هذا الميدان؛ فكثير من الناس تحدثوا عن تلك الفتنة وبينوا ماحدث فيها».

ونقل شيئًا عن «العقد الفريد»، وعن «البيان والتبيين»، وعن «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة زورًا.

ثم دلف إلى القول الآتي:

«وإذا جئنا إلى أعلام الفكر الإسلامي لعصرنا الحاضر؛ نجد كثيرًا منهم تناول

---

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص٥٤٠).

هذه الفتنة، وتحدثوا عما جرى فيها بكل جراءة، ومن هؤلاء شهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام».

ثم قال:

«فلنسمع معًا بعض ما قاله الأستاذ سيد قطب في (ص٢١٠) من كتابه المذكور: وهذا التصور لحقيقة الحكم قد تغيَّر شيئًا ما دون شك على عهد عثمان، وإن بقي في سياج الإسلام.

لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرِّف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أن طبيعة عثمان الرخيَّة، وحدبه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة...».

ثم نقل عن سيد من (ص٢١٠-٢١٢) طعنًا شديدًا على عثمان الخليفة ﷺ لا يتسع المجال لنقله في هذه المقدمة، لكن فيه شاهدًا على أن سيدًا قد أصبح حجة لأهل البدع في الطعن والتحامل على أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

هذه الأسباب وغيرها دفعتني إلى أن أقوم ببعض الواجب الذي يُطْمِعني في أحسن الجزاء والمثوبة من اللَّه الكريم العظيم، ويُطْمِعُني في أن يستجيب لصوت الحق أناس مخدوعون ببريق الباطل وجعجعته وضجيجه، فأدخل باستجابتهم في قول الرسول ﷺ: «من دعا إلى هدى؛ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة».

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية

لمحة عن حياة سيد قطب

لا أريد أن أترجم لسيد قطب؛ فقد كتب عنه الكثير والكثير، وشحنت الكتابات عنه بالمبالغات والمغالاة، وإذا ذُكِرت بعض أخطائه؛ نُسِجَتْ حوله الهالات؛ لتسمو به إلى أعلى الدرجات، وأقلها أنه مجتهد من مجتهدي الأمة. . . فتكفيره للأمة، وطعنه في أصحاب رسول الله ﷺ، وتعطيله لصفات الله ﷻ، وقوله بخلق القرآن، وأن الله لا يتكلم وإنما قوله مجرَّد إرادة، وقوله بالحلول، ووحدة الوجود، والجبر، وقوله: إن الروح أزلية، وقوله بالاشتراكية الغالية، وبموادَّة أعداء الله، وقوله عن مساجد المسلمين: إنها معابد جاهلية، وتهوينه من معجزات الرسول ﷺ، ورده لأخبار الآحاد، بل للمتواترات من أحاديث رسول الله ﷺ، وغير هذا من الضلالات. . .

كل ذلك لا يحط من قدر سيد قطب شيئًا، ولا يهز مكانته!

لماذا؟!

وما سر هذه الخصوصية؟!

أنزل من عند الله وحي بهذه الخصوصية يُستثنى به هذا الرجل من بين أهل البدع ويقدسه وينزهه عن مساواة أمثاله من البشر؟!

فإذا قال غيره مثلًا بأن القرآن مخلوق؛ خرج من دائرة أهل السنة، وأسلك في عداد المبتدعة والمعتزلة، كائنًا من كان، وفي أي عصر كان، ولو في القرون المفضلة، وإذا قال سيد بخلق القرآن، وأنكر أن الله يتكلم، وكفَّر المجتمعات الإسلامية، وأضاف إلى ذلك بدعًا أكبر وأغلظ؛ فمن أعظم المستحيلات أن يُقال: إنه مبتدع!!

لماذا؟!

لأن سيوف الإرهاب الفكري تحميه، وأسنة الباطل والاتهامات تشرع في نحور وصدور من يفكر في القول بذلك، ولو رغم أنف الحق، ولو ألحق ذلك بالإسلام ونصوصه وقواعده ومنهجه أشد الأضرار، وأنزل بها أشد الأخطار؛ فإن

كل ذلك يهون إلى جانب سيد قطب.

وسوف أنقل من ترجمته ما يتناسب مع المآخذ التي أخذتها عليه، وبيِّن منشأها وأسبابها.

قال صلاح عبد الفتاح الخالدي، وهو أحد المعجبين بسيد قطب والمغالين فيه: «الفترة الزمنية لضياعه:

متى كان ضياع سيد قطب؟

لقد أخبر سيد أبا الحسن الندوي لما قابله الأخير عام ١٩٥١م -بعدما انتهت رحلةُ ضياعه- أنه نشأ على تقاليد الإسلام في طفولته في القرية، ولمَّا سافر للقاهرة؛ أقبل على الأدب والنقد والدراسة والثقافة والمعرفة، وصار يتلقى من الثقافة الغربية المادية، وهذا جعله يمرُّ بمرحلةٍ من الشك والارتياب في الحقائق الدينية إلى أقصى حد (على حسب قوله بالحرف)!

وفي هذه المرحلة (أي: أثناء ضياعه) أقبل على القرآن يدرُسُه لدَواعٍ أدبية، ثم نقله القرآن نقلةً بعيدة إلى عالم الإيمان واليقين!

لقد استمرت رحلة ضياعه حوالي خمسة عشر عامًا، ولم يكن ضياعه فيها كلها على درجة واحدة وعلى مستوى واحد، بل كانت الدرجة متفاوتة ومتذبذبة.

تسلَّلت إليه الوساوس والشكوك والأوهام بالتدريج، ووصلت إلى نفسه وتصوره بالتدريج، وظهر أثرُها عليه بالتدريج، ولما تمكنت منه؛ ظهرت آثارُها عليه بصورةٍ واضحة صارخة، وانعكست على ملامحه، بحيث بدَتْ فيها تلك الملامح بارزةً شاخصة، ثم صار أثرها يضعف ويقلُّ بالتدريج، وهو يحاول جاهدًا أن يتخلص منه بمشقةٍ ومجاهدة، وكانت تبدو أحيانًا في بعض نتاجه الشعري، وتخفت وتختفي في غيره!

وما أن تعامل سيد مع حقائق الإسلام ومقررات الإيمان؛ حتى زالت آثارُ وملامحُ الضياع عنه، وتلاشتْ عن نتاجه!

إن رحلة ضياعه استمرت حوالي خمسة عشر عامًا، ما بين ١٩٢٥-١٩٤٠م،

أي أنها بدأت معه وهو في الدراسة الثانوية، وتفاعلت معه وهو في الدراسة الجامعية في كلية دار العلوم، وبلغت أوجَها في آخر سنتين من دراسته الجامعية؛ أي: عامي ١٩٣٢-١٩٣٣م.

واستمرت في أعلى درجاتها في السنوات الأولى من حياته الوظيفية، وبخاصة في السنتين الأوليين منها: ١٩٣٤-١٩٣٥م، ثم صارت تضعف تدريجيًا إلى أن أوشكت على الزوال والتلاشي عام ١٩٤٠م، لا نكاد نرى لها آثارًا عليه في المرحلة الأولى -غير الواضحة- من حياته الإسلامية، ما بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٥م، وهي المرحلة التي درس فيها القرآن لدواعٍ أدبية»[1].

أقول: إن سيد قطب لم يخرج من دوامة الحيرة والبلبلة والاضطراب، وإن آثارها لواضحة على كثير من كتاباته، ولاسيما في العقائد والغيبيات، فلا تجوز المكابرة والمغالطات.

* * *

---

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص٢١٤-٢١٥).

الفصل الأول: أدب سيد مع رسول الله وكليمه موسى -عليه الصلاة والسلام-

قال في كتابه «التصوير الفني في القرآن»[(١)] :

«لقد عرضنا من قبل قصة صاحب الجنتين وصاحبه، وقصة موسى وأستاذه، وفي كل منهما نموذجان بارزان، والأمثلة على هذا اللون من التصوير هي القصص القرآني كله؛ فتلك سمة بارزة في هذا القصص، وهي سمة فنية محضة، وهي بذاتها غرض للقصص الفني الطليق، وهاهو ذا القصص القرآن ووجهته الأولى هي الدعوة الدينية، يلم في الطريق بهذه السمة أيضًا، فتبرز في قصصه جميعًا، ويرسم بضع نماذج إنسانية من هذه الشخصيات، تتجاوز حدود الشخصية المعنية إلى الشخصية النموذجية.

فلنستعرض بعض القصص على وجه الإجمال، ولنعرض بعضها على وجه التفصيل:

١- لنأخذ موسى؛ إنه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج.

فها هو ذا قد رُبي في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قويًّا.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾[(٢)].

وهنا يبدو التعصب القومي، كما يبدو الانفعال العصبي.

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه؛ شأن العصبيين:

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(٣)].

---

(١) (ص٢٠٠-٢٠٤).

(٢) القصص: ١٥.

(٣) القصص: ١٥-١٧.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[١].

وهو تعبير مصور لهيئة معروفة، هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة، وتلك سمة العصبيين أيضًا.

ومع هذا، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين؛ فلننظر ما يصنع... إنه ينظر:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾[٢] مرة أخرى على رجل آخر! ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[٣].

ولكنه يهم بالرجل الآخر كما هم بالأمس، وينسيه التعصب والاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقُّبه، لولا أن يذكره من يهم به بفعلته، فيتذكر ويخشى:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[٤].

وحينئذٍ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا.

فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات؛ فلعله قد هدأ وصار رجلًا هادئ الطبع حليم النفس.

كلا! فهاهو ذا يُنادي من جانب الطور الأيمن: أن ألق عصاك. فألقاها؛ فإذا هي حيةٌ تسعى، وما يكاد يراها حتى يثب جريًا لا يعقبُ ولا يلوي...

إنه الفتى العصبي نفسه، ولو أنه قد صار رجلًا؛ فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة الكبرى.

ثم لندعه فترة أخرى لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه.

---

(١) القصص: ١٨.

(٢) القصص: ١٨.

(٣) القصص: ١٨.

(٤) القصص: ١٩.

لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعَبَرَ بهم البحر، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور، وإنه لنبي، ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالًا عجيبًا:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[1].

ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية، بَلْه أعصاب موسى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

عودة العصبي في سرعة واندفاع!

ثم هاهو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلًا إلهًا، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريَّث وما يني، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[3].

وإنه ليمضي منفعلًا يشدُّ رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولًا: ﴿قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[4].

وحين يعلم أن السامري هو الذي فعل الفعلة؛ يلتفت إليه مغضبًا، ويسأله مستنكرًا، حتى إذا علم سر العجل:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[5].

هكذا في حنق ظاهر، وحركة متوترة.

فلندعه سنوات أخرى.

لقد ذهب قومه في التيه، ونحسبه قد صار كهلًا حينما افترق عنهم، ولقي

---

(١) الأعراف: ١٤٣.
(٢) الأعراف: ١٤٣.
(٣) الأعراف: ١٥٠.
(٤) طه: ٩٤.
(٥) طه: ٩٧.

الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه اللَّه علمًا، ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسرِّ ما يصنع مرة ومرة ومرة، فافترقا . . .

تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعًا.

٢- تقابل شخصية موسى شخصية إبراهيم؛ إنه نموذج الهدوء والتسامح والحلم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[1].

فهاهو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته، يبحث عن إلهه.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

وما يكاد يصل إلى هذا اليقين حتى يحاول في برٍّ وودٍّ أن يهدي إليه أباه، في أحب لفظ وأحياه:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[3].

ولكن أباه ينكر قوله، ويغلظ له في القول، ويهدده تهديدًا:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[4].

فلا يخرجه هذا العنف عن أدبه الجمِّ، ولا عن طبيعته الودود، ولا يجعله

---

(١) هود: ٧٥.

(٢) الأنعام: ٧٦-٨٠.

(٣) مريم: ٤٢-٤٥.

(٤) مريم: ٤٦.

ينفض يديه من أبيه .

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[١] .

ثم هاهو ذا يحطم أصنامهم، ولعله العمل الوحيد العنيف الذي يقوم به، ولكنه إنما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر، عسى أن يؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جُذاذًا، وعلموا أنها لا تدفع عن نفسها الأذى، ولقد كادوا يؤمنون فعلًا، ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢] ولكنهم عادوا فهموا بإحراقه، وحينئذٍ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٣] .

ولقد اعتزلهم عهدًا طويلًا مع النفر الذي آمن معه، ومنهم ابن أخيه لوط . . . » .

والظاهر: أن سيدًا ساق قصة إبراهيم عليه السلام في مقابل ما صوَّر فيه موسى من باب: (وبضدها تتبين الأشياء)!

وأقول: إن موسى رسول كريم من رسل الله الكرام أولي العزم -عليهم الصلاة والسلام-، وإن له عند الله لمنزلة عظيمة ومكانة رفيعة توجب على الناس تعظيمه وتوقيره كسائر أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- .

قال الله في شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[٤] .

وقال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[٥] .

لقد كان يكفي سيدًا أن يقرأ (كتاب أحاديث الأنبياء) من صحيح البخاري؛ ليرى أنه قد أسرف واشتطَّ وحلق بعيدًا في خياله المجنح وأسلوبه القصصي في التهويل والتمثيل، بما ألصقه من صفات الاندفاع، والعصبية، والحدة، والفزع،

---

(١) مريم: ٤٧-٤٨.
(٢) الأنبياء: ٦٤.
(٣) الأنبياء: ٦٩.
(٤) الأحزاب: ٦٩.
(٥) طه: ١٣.

والتوتر بكليم الله ورسوله موسى -عليه الصلاة والسلام-.

فلقد أخرج البخاري في صحيحه[١] عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: قسم النبيُّ ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «يرحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

إن ما نسبه سيد إلى نبي الله وكليمه موسى -عليه الصلاة والسلام- ينافي ما يستحقه من التبجيل والتوقير والاحترام، وذلك مما تقشعر له الجلود، وإن حكم هذا العمل الخطير عند العلماء غليظ جدًّا وكبير.

راجع: كتاب «الشفاء»[٢] للقاضي عياض، وكتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ»[٣] لشيخ الإسلام ابن تيمية.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٠-أحاديث الأنبياء، رقم ٣٤٠٥).

(٢) (٢/ ٢١٤-٢١٩).

(٣) (ص٥١٢) فما بعدها.

الفصل الثاني:
موقف سيد من عثمان ومعظم الصحابة رضي الله عنهم

مكانة الصحابة عند الله ورسوله والمؤمنين:

إن لأصحاب رسول الله ﷺ منزلة رفيعة عند الله وعند رسوله والمؤمنين؛ فقد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، وأخبر عن رضاه عنهم ورضاهم عنه:

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

قال الخطيب البغدادي: «وهذا اللفظ وإن كان عامًا؛ فالمراد به الخاص، وقيل: هو وارد في الصحابة دون غيرهم».

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) الفتح: ١٨.

(٤) التوبة: ١٠٠.

(٥) الواقعة: ١٠- ١٢.

(٦) الأنفال: ٦٤.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

والآيات في بيان فضلهم ومنزلتهم كثيرة.

وكذلك فقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ، وبين فضلهم في أحاديث كثيرة:

فمن ذلك: قوله ﷺ: **«خير الناس: قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»**[٢].

وقال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا؛ ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[٣].

وأثنى عليهم السلف الصالح من الصحابة وغيرهم من خير القرون:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ؛ فلمقام أحدهم ساعة -يعني: مع النبي ﷺ- **خيرٌ من عبادة أحدكم عمره»**[٤].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا؛ فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا؛ فهو عند الله سيئ»[٥].

---

(١) الحشر: ٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢-فضائل الصحابة، رقم ٣٦٥٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ومسلم (٤٤-فضائل الصحابة، حديث ٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ومن حديث عمران وأبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢-فضائل الصحابة، رقم ٣٦٧٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٤٤-فضائل الصحابة، حديث ٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) «شرح الطحاوية» (ص٥٣٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٥) «شرح الطحاوية» (ص٥٣٢)، وقال الألباني: حسن موقوفًا. أخرجه الطيالسي وأحمد وغيرهما بسند حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[١].

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بعد أن استشهد بآيات كريمة وأحاديث شريفة على مكانتهم وفضلهم**: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له؛ فهم على هذه الصفة؛ إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنه.

على أنه لو لم يرد من الله ﷻ ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه؛ لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين؛ القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين المزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتدُّ بقوله من الفقهاء»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

---

(١) «شرح الطحاوية» (ص٥٢٨).

(٢) «الكفاية» (ص٩٦).

(٣) الحشر: ١٠.

وطاعة رسول الله ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدهم أنفق مثل أُحد ذهبًا؛ ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم...

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما جرى بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله به عليهم من الفضائل؛ علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»[١].

وبعد؛ فما هو موقف سيد قطب من عثمان ومعظم الصحابة ﷺ؟!

لقد طعن سيد قطب في الخليفة الراشد الشهيد المظلوم عثمان بن عفان ﷺ، وأقذع في طعنه:

١- أسقط خلافته؛ فقال: «ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علي امتدادًا طبيعيًّا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان كان فجوة بينهما»[٢].

٢- زعم أن التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئًا ما بدون شك على عهد عثمان، ثم قال: «ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان وكيد أمية من ورائه»[٣].

٣- وقال في سياق نقده لعثمان ﷺ: «فهم عثمان -يرحمه الله- أن كونه إمامًا

---

(١) «الواسطية» (ص١٤٢- ١٥١).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٦/ الطبعة الخامسة).

(٣) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٦/ الطبعة الخامسة).

يمنحه حرية التصرف في مال المسلمين بالهبة والعطية، فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة: وإلا؛ ففيم كنت إمامًا؟ كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية من قرابته على رقاب الناس وفيهم الحكم طريد رسول الله، لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم»[١].

ففي هذه المقاطع طعن شديد في عثمان رضي الله عنه.

٤- وقال: «منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم، فلما أصبح الصباح؛ جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن، وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولما علم منه السبب، وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين؛ قال مستغربًا: أتبكي يا بن أرقم أن وصلت رحمي؟! فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: لا يا أمير المؤمنين! ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضًا عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله، والله؛ لو أعطيته مائة درهم لكان كثيرًا!

فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: ألق بالمفاتيح يا بن أرقم! فإنا سنجد غيرك.

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات...» ثم ضرب بعض الأمثلة عليها[٢].

وفي هذا المقطع افتراء على عثمان، وطعن فيه، وتعريض به بأنه لا يستشعر روح الإسلام، وبأنه يصر على الباطل، ولا تجدي فيه النصيحة!!

٥- واتهمه بإغداق الولايات على قرابته، فقال: «وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان، وفيهم معاوية[٣] الذي وسع عليه عثمان في

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٦/ الطبعة الخامسة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٦-١٨٧/ الطبعة الخامسة).

(٣) معاوية قد استعمله رسول الله ﷺ كاتبًا للوحي، واستعمله أبو بكر وعمر على الشام؛ فكيف يطعن في عثمان بتوليته.

الملك فضم إليه فلسطين وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة علي وقد جمع المال والأجناد، وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله، وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخوه من الرضاعة... إلخ»[١].

وهذه تهم فظيعة ظالمة لا تخفى على الفطن.

٦- واتهمه بالانحراف عن روح الإسلام، فقال: «ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبره وهرمه لا يملك أمره من مروان، وأنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في ولايته الخلافة، وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أمية»[٢].

٧- ويمدح الثورة على عثمان، ويرى أنها أقرب إلى روح الإسلام من موقف عثمان أو من موقف عثمان ومن ورائه أمية[٣].

٨- ويدعي أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة، فيقول: «واعتذارنا لعثمان رَحِمَهُ اللَّهُ أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله، وهو يدلف إلى الثمانين، واهن القوة، ضعيف الشيخوخة، فكان موقفه كما وصفه صاحبه علي بن أبي طالب: إني إن قعدت في بيتي؛ قال: تركتني وقرابتي وحُقي، وإن تكلمت فجاء ما يريد به مروان، فصار سيقة[٤] له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبته لرسول الله ﷺ»[٥].

وفي هذا الكلام سوء معتقد سيد، واعتذار أقبح من فعل لحظه الشنيع على

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٧/ الطبعة الخامسة)، ومعناه في (ص١٥٩/ الطبعة الثانية عشرة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٧/ الطبعة الخامسة)، ومعناه في (ص١٥٩/ الطبعة الثانية عشرة).

(٣) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٩/ الطبعة الخامسة)، ومعناه في (ص١٦٠-١٦١/ الطبعة الثانية عشرة).

(٤) السيقة: ما استاقه العدو من الدواب. قاله الأزهري. انظر: لسان العرب (١٠/ ١٦٦).

(٥) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٩/ الطبعة الخامسة)، ومعناه في (ص١٦١/ الطبعة الثانية عشرة).

عثمان، واعتباره سيقة لمروان.

٩- اتهامه لعثمان بأنه ممكن للدولة الأموية في حياته:

يقول: «ولقد كان من جراء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كبرته أن تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول وقد نشأ في عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية، ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام، وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان كما سيجيء، وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر شديد التبكير.

ومع كل ما يحمله تاريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين تكشف عن نقلة بعيدة جدًا في تصور الناس للحياة والحكم، وحقوق الأمراء وحقوق الرعية؛ إلا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى»[1].

ألا ترى هذه الطعون الظالمة:

١- تضخيم الثروات نتيجة لسياسة عثمان، وهذه جريمة كبرى في نظر الاشتراكيين، برأ الله عثمان منها.

٢- تخلخل بناء الأمة في وقت مبكر بسبب عثمان، وهذا إنما سببه بغي وبطر الثوار، ولقد أعيد بناء الأمة في عهد بني أمية على أروع ما يكون، رغم أنوف الحاقدين من الروافض وغيرهم.

١٠- اتهام سيد قطب لعثمان رضي الله عنه بأنه مكَّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام وطعون شديدة أخرى... يقول: «مضى عثمان إلى رحمة ربه:

١- وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض، وبخاصة في الشام.

٢- وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام من إقامة الملك الوراثي.

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٦١/ الطبعة الثانية عشرة).

٣- والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع.

٤- مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام، وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية، إن حقًّا وإن باطلًا.

٥- أن الخليفة يؤثر أهله ويمنحهم مئات الألوف.

٦- ويعزل أصحاب رسول اللَّه ليولي أعداء رسول اللَّه.

٧- ويبعد مثل أبي ذر:

أ- لأنه أنكر كنز الأموال.

ب- وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء.

ج- ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق في البر والتعفف.

فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار، إن حقًّا وإن باطلًا أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس.

١- تثور نفوس الذين أشربت أنفسهم روح الدين إنكارًا وتأثمًا.

٢- وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار.

وهذا كله في أواخر عهد عثمان...»[1].

١١- طعون في عثمان والصحابة وبني أمية بأنهم نفعيون، وأن المصالح هي التي دفعتهم إلى الانحياز إلى معاوية.

ويقول: «فلما أن جاء علي؛ لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة، وقد علم المستنفعون على عهد عثمان، وبخاصة من أمية، أن عليًا لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية، ولو قد جاء عليٌّ عقب عمر؛ ما كان لهم إلى هذا الانحياز من سبيل، فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة الخلافة، ولا لقوة الروح الدينية في النفوس، وما كان معاوية ليخاطر

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٦١/ الطبعة الثانية عشرة)، وأصله في (ص١٩٠/ الطبعة الخامسة).

بالخروج على الخليفة كما خرج؛ فإن ثلاثة عشر عامًا من حكم عثمان هي التي جعلت من معاوية معاوية، إذ جمعت له قوة المال، وقوة الجند، وقوة الدولة في الأقطار الأربعة بالشام»[١].

وفي هذا الكلام أن الأمر قد خرج عن نصابه في عهد عثمان، وأن هناك في مجتمعه مستنفعين من الصحابة وغيرهم ومن بني أمية.

إنها المحنة الحقة.

١٢- ويقول: «إنها المحنة الحقة أن عليًا لم يكن ثالث الخلفاء!

جاء علي ليرد التصور الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس، جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها، ويختم هو على جراب الشعير، ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم»[٢].

وفي هذا المقطع إسقاط لخلافة عثمان، واعتبارها محنة حقة، وأن التصور الإسلامي للحكم قد فسد أو فقد، وجاء علي ﷺ ليصلح ذلك التصور الذي فسد، أو ليرد ذلك التصور المفقود.

١٣- ويروي سيد إفك الروافض على الخليفة الراشد علي -رضي الله عنه وبرأه الله من إفكهم-؛ ليطعن به في عثمان ﷺ، فيقول:

«ولقد كان منهاجه -أي: عليّ ﷺ- الذي شرعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له:

أيها الناس، إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمرت به؛ ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال؛ فإن الحق لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك الإماء، وفرق في البلدان؛ لرددته؛ فإن في العدل

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٠-١٩١/ الطبعة الثانية عشرة)، وملخصه في (ص١٦١/ الطبعة الثانية عشر).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩١/ الطبعة الخامسة)، و(ص١٦٢/ الطبعة الثانية عشرة).

لسعة، ومن ضاق عليه الحق؛ فالجور عليه أضيق»[١].

وفي هذا الكلام المفترى طعن في عثمان بأنه قد خرج عن منهاج رسول الله ﷺ، وإسقاط لخلافته، وأن تصرفاته باطلة تبعًا لخروجه عن منهاج رسول الله ﷺ وسقوط خلافته، وبرأ الله عليًا من هذا الباطل والإفك.

١٤- الطعن في المهاجرين والأنصار من أهل بدر وبيعة الرضوان وأهل الشورى؛ لأنهم هم الذين كان يفضلهم عمر وعثمان في العطاء لفضلهم وسابقتهم؛ فهم الذين اعتادوا التفضيل.

قال سيد قطب: «ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن علي رضي الله عنه، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل ومن مردوا على الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر، معسكر أمية، حيث يجدون فيه تمليقًا لأطماعهم، وتواطئوا على عناصر العدل والحق والضمير في السيرة وفي الحكم سواء»[٢].

إن هؤلاء الشرفاء الذين تسميهم بالمستنفعين وتصفهم بأنه لا يقنعون بشرعة المساواة واعتادوا التفضيل ومردوا على الاستئثار... إلخ؛ هم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، الذين كان يفضلهم عمر على غيرهم لسابقتهم وحسن بلائهم وجهادهم[٣]، وأنت لا تجهل هذا، ولكن أهل الحق والإنصاف والصدق لا يصدقون هذه الافتراءات على ذلك الجيل النزيه البريء الذي تلطخه بهذه التهم، والتاريخ الواقعي لهذا الجيل النبيل يشهد بنزاهته وبراءته، وبعده كل البعد عما تلصقه به من التهم.

١٥- طعون في عثمان رضي الله عنه ترميه بأنه قد ذهبت روح الإسلام في عهده، وضعفت التقاليد الإسلامية، فجاء عليٌ ليرد هذه الروح الذاهبة، وليعيد إلى التقاليد قوتها، ويجلو عن روح الإسلام الغاشية ثم يتناول معاوية، فيقول سيد قطب:

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٣/ الطبعة الخامسة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٣/ الطبعة الخامسة).

(٣) وقد ذكر سيد قطب نفسه هذا التفضيل من عمر (ص٢٠٤) من هذا الكتاب، ولام عليه عثمان.

«والذين يرون في معاوية دهاء وبراعة لا يرونها في علي ﷺ، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف كما يخطئون فهم علي وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير: أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه؛ لسقطت مهمته، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين؛ فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية؟!

إن عليًّا إما أن يكون عليًّا، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها، وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه -كرم الله وجهه- وهو يقول: والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر؛ لكنت من أدهى الناس»[1].

برأ الله عليًّا ومعاوية من هذا الباطل، ومتى كان الغدر والفجور إلا في عقول الروافض.

١٦- إسقاط خلافة عثمان ﷺ، واعتبارها فجوة بين عهد الشيخين وعهد علي.

ذكر سيد قطب مذهب أبي بكر وعمر في قسمة الفيء، وأن أبا بكر كان يسوي في العطاء، وزعم أن عمر كان يفضل في العطاء، ثم ندم وعزم على المساواة، ثم قال بعد ذلك:

«وا أسفاه! لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر، ووقعت النتائج المؤلمة التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة، بما أضيف إليها من تصرف أمية وإقرار عثمان!

رجع عمر إذن عن رأيه في التفرقة بين المسلمين في العطاء حينما رأى نتائجه السيئة إلى رأي أبي بكر، وكذلك جاء رأي علي مطابقًا لرأي الخليفة الأول، ونحن

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٣-١٩٤/ الطبعة الخامسة).

نميل إلى اعتبار خلافة علي امتدادًا طبيعيًا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان كان فجوة بينهما».

أقول: في هذا الكلام طعن من منطلق اشتراكي يتباكى فيه على التوازن الذي خيل إليه الشيطان أن تصرف عثمان قد أودى به، ومن منطلق شيعي دفعه إلى إسقاط خلافة عثمان.

١٧- طعن سيد قطب في عثمان ﷺ عدة طعنات لا يحتملها مسلم، ثم طعنه في قريش في ذلك العهد، ووصفه للمجتمع الإسلامي في عهد عثمان بأنه قد ساده الإقطاع؛ قال:

«وجاء عثمان، فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداهما:

١- ترك الفضول لأصحابها فلم يردها.

٢- وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها، ولكن هذا لم يكن كل ما كان.

٣- بل وسع أولًا على الناس في العطاء، فازداد الغني غنًى، وربما تبحبح الفقير قليلًا.

٤- ثم جعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة.

٥- ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض تتاجر بأموالهم المكدسة فتزيدها أضعافًا مضاعفة.

٦- ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد.

فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله»[1].

وهكذا يوجه سيد قطب الطعنات النجلاء لعثمان وقريش ولسادة المهاجرين والأنصار وعهد خير القرون، فيشبه مجتمعهم -بعد تلك الطعنات- بأشد

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٧/ الطبعة الخامسة)، و (ص١٧٣/ الطبعة الثانية عشرة)، وفيها: فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي... إلخ.
وما هو إلا تغيير للفظ مع الحفاظ على المعنى.

مجتمعات أوربا النصرانية ظلمة وظلامًا، ويطلق على ذلك المجتمع الذي لم يعرف التاريخ له نظيرًا في العفة والطهارة والنقاء والتضحيات بالمال والنفس عبارات الشيوعيين والاشتراكيين الضالين.

١٨ - طعنه في عثمان وفي رءوس قريش من الصحابة -رضي اللَّه عنهم وبرأهم-.

ادعى سيد قطب أن أبا بكر وعمر كانا يتشددان في إمساك الجماعة من رءوس قريش بالمدينة، لا يدعونهم يضربون في الأرض المفتوحة؛ احتياطًا أن تمتد أبصار هؤلاء الرءوس إلى المال والسلطان حين يجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول اللَّه ﷺ أو بحكم بلائهم وسابقتهم في الجهاد.

«١- . . . فلما جاء عثمان؛ أباح لهم أن يضربوا في الأرض.

٢- ولم يبح لهم هذا وحده، بل يسر لهم وحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم.

٣- بعدما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف.

٤- لقد كان ذلك كله برًّا ورحمة للمسلمين، وبكبارهم خاصة، ولكنه أنشأ شرًّا عظيمًا لم يكن خافيًا على فطنة أبي بكر وفطنة عمر بعده، أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية.

٥- كما أنشأ طبقة أرستقراطية فارغة، تأتيها أرزاقها من كل مكان، دون كد ولا تعب.

٦- فكان الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته كما حاربه الخليفتان قبل عثمان»[1].

أقول: هكذا يوجه سيد قطب هذه الطعنات الظالمة والاتهامات الآثمة إلى أصحاب رسول اللَّه ﷺ بغير حجة ولا برهان، ولا هدى ولا علم، ولا مصدر

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٩/ الطبعة الخامسة)، ومعناه في (ص١٧٣/ الطبعة الثانية عشرة)، وقد حذف بعض ألفاظ هذا المقطع، مع الحفاظ على جوهره.

لهذه الاتهامات والطعون إلا خيالاته الناشئة عن عقيدته الاشتراكية الغالية، وإلا السموم التي ارتواها من مصادر الرفض وتعاليم الاشتراكيين.

١٩- إشادته بالثورة على عثمان ﷺ.

قال سيد قطب: «عندئذٍ سار الروح الإسلامي في نفوس بعض الناس، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة، أبوذر، ذلك الصحابي الجليل، الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصرًا بالدين أكثر من بصره بدينه»[١].

أقول: في هذا الكلام مدح للثوار على الخليفة الراشد ﷺ، وطعن في أبي ذر ﷺ من حيث يظن أن يمدحه؛ فإن أبا ذر ﷺ كان من ألزم الناس للطاعة والجماعة، وأبعد الناس عن الخوارج وثورتهم، لكن سيد قطب يحاول أن يربط بينه وبين الثورة والثوار، مع أنه قد ربط بين الثورة وبين ابن سبأ اليهودي، حيث قال بعد مدح الثورة:

«وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ عليه لعنة الله»[٢].

فثورة هذا حالها؛ كيف تمدح؟! وكيف يكون ممثلها أبو ذر الصحابي الجليل -رضي الله عنه وبرأه-؟! وقد بينت براءته في بحث فيه دفاع عن الصحابة ﷺ كما بينه غيري.

٢٠- سياقه للثورات، ومنها ثورة القرامطة، مساق الاعتزاز والتباهي؛ يقول:

«والواقع أن اتهام النظام الإسلامي بألا يحمل ضماناته إغفال للممكنات الواقعة في كل نظام، كما أن فيه إغفالًا لحقائق التاريخ الإسلامي الذي شهد الثورة

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٨/ الطبعة الخامسة)، و(ص١٧٤/ الطبعة الثانية عشرة)، وفيها: «ثم عادت في مناسبة أخرى، فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه عندما تغيرت الظروف الأولى، كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات»، ونحن نستنكر هذا التصرف إن كان تابعًا للأهواء، ونبرأ إلى الله منه ومن نظائره.

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٦١/ الطبعة الثانية عشرة).

الكبرى على عثمان، وشهد ثورة الحجاز على يزيد، كما شهد ثورة القرامطة وسواها ضد الاستغلال والسلطة الجائرة وفوارق الطبقات، وما يزال الروح الإسلامي يصارع ضد هذه الاعتبارات جميعًا على الرغم من الضربات القاصمة التي وجهت إليه من ثلثمائة وألف عام»[1].

وإذا كان سيد يرى ثورة القرامطة من الثورات التي تمثل في صراعها الروح الإسلامي؛ فلا يستغرب منه أن يتباهى بثورات الخوارج والروافض والزنج وأمثالها، ويعتبرها ثورات تنطلق من الروح الإسلامي، ثائرة ضد الاستغلال وفوارق الطبقات، وهذا والله يثير استفهامات كثيرة.

٢١- وصفه الصحابة والمجتمع الإسلامي المجاهد في عهد عثمان الزاهر بالترف الذي لا يعرفه الإسلام، مع الطعن في عثمان ﷺ؛ قال:

«قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف وتستزيد منه وتتمرغ فيه، وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف، فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين، علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية، والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم وزيد بن ثابت مئة ألف...

وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئًا من هذا كله، فانطلق يخطب في الناس: لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله، ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله؛ إني لا أرى حقًّا يطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذبًا، وأثرة بغير تقى... اتخذتم ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربي، وكان رسول الله ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير»[2].

وفي هذا المقطع تهم ظالمة يوجهها سيد قطب إلى عثمان -رضي الله عنه

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٢٣/ الطبعة الخامسة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٨/ الطبعة الخامسة)، و (ص١٧٤/ الطبعة الثانية عشرة).

وبرأه الله-، وطعن وتشويه لخير أمة أخرجت للناس، ونقل للأكاذيب والافتراءات التي يسندها الروافض إلى أبي ذر ﷺ بدافع الأغراض والأهواء والأحقاد على أصحاب رسول الله ﷺ.

٢٢- طعون في عثمان ﷺ؛ منها: تحطم الأسس التي جاء بها الإسلام في عهده.

قال سيد قطب: «وما كانت مثل هذه الدعوة[1] ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم؛ فمازالا به عند عثمان يحرضانه عليه، حتى كان مصيره إلى الربذة، منفيًّا من الأرض في غير حرب لله ولرسوله، وفي غير سعي في الأرض بالفساد؛ كما تقول شريعة الإسلام، ولقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير لم تخدره الأطماع أمام تضخم فاحش في الثروات يفرق الجماعة الإسلامية طبقات، ويحطم الأسس التي جاء بها هذا الدين ليقيمها بين الناس»[2].

أقول: هل يطيق مسلم سماع هذا البهت والإفتراء على أصحاب رسول الله ﷺ؟!

وهل يجرؤ على هذا مسلم في قلبه ذرة من الاحترام لمن أثنى الله عليهم ورسوله في القرآن والسنة، ووصفوا بأنهم خير أمة أخرجت للناس، والذين فتحوا الدنيا، وأخرج الله بهم الأمم من الظلمات إلى النور؟!

وهكذا يطعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ، ويشوه سمعتهم، ويدعي ظلمًا وزورًا أن أسس الإسلام قد تحطمت في عهدهم.

أأئمة الرفض والزندقة هم الذين يقيمون أسس هذا الدين وينافحون عنه؟!

ألا ساء ما يحكمون.

٢٣- نقل سيد قطب لطعن المسعودي الشيعي الحاقد في أصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) أي: دعوة أبي ذر في زعم سيد.

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٩/ الطبعة الخامسة)، و (ص١٧٥/ الطبعة الثانية عشرة).

قال سيد قطب محتجًا به:

«ويحسبنا أن نعرض نموذجًا للثروات الضخام أورده المسعودي؛ قال: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلًا وخيلًا كثيرة.

وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة.

وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك.

وكان في مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا.

وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع.

وبنى الزبير داره بالبصرة، وبنى أيضًا بمصر والكوفة والإسكندرية.

وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة، وشيد داره بالمدينة، وبناها بالجص والآجر والساج.

وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، ورفع سمكها، وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات.

وبنى المقداد داره بالمدينة، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارًا وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم»[1].

أقول: برجوع القارئ إلى كتاب المسعودي يدرك أنه ساق هذا الهراء للطعن

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٩-٢١٠/ الطبعة الخامسة)، و (ص١٧٥/ الطبعة الثانية عشرة).

في هؤلاء الصحابة الكبار.

وقد فندت هذا بحق -والحمد لله- في بحث موسع فيه رد على سيد قطب[1].

ويدرك القارئ مرة ثانية أن مراد سيد بالإقطاعيين والمترفين الذين يخبون في الترف وبالأرستقراطيين هم هؤلاء الصحابة النجباء، الذين جعلهم نموذجًا لفساد الأوضاع وترديها في عهد عثمان؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار!

قال سيد قطب معلقًا على كلام المسعودي:

«هذا هو الثراء الذي بدأ صغيرًا بإيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء في أيام عمر، ذلك الإيثار الذي كان معتزمًا إبطاله وتلافي آثاره، لولا أن عاجلته الطعنة التي لم تصب قلب عمر وحده، وإنما أصابت قلب الإسلام.

ثم ازداد:

١- بإبقاء عثمان عليه، فضلًا عن العطايا والهبات والقطائع.

٢- ثم فشا فُشُوًّا ذريعًا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال.

٣- بما أباحه عثمان من شراء الأرضين في الأقاليم وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة.

٤- وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر، وكانت جديرة لو بلغت غايتها، ولو وجدت من الإمام استماعًا لها؛ أن تعدل الأوضاع، وأن تحقق ما أراده عمر في أواخر أيامه من رد فضول الأغنياء على الفقراء بما يبيحه له سلطان الإمامة لدفع الضرر عن الأمة، بل بما يحتمه عليه تحقيقًا لمصلحة الجماعة.

٥- وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت في جانب؛ كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر حتمًا، وكانت النقمة والسخط كذلك.

٦- وما لبث هذا كله أن تجمع وتضخم لينبعث فتنة هائجة يستغلها أعداء الإسلام، فتودي في النهاية بعثمان وتودي معه بأمن الأمة الإسلامية وسلامتها

---

(١) انظره في كتابي «مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ».

وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخبُ أواره حتى كان قد غشي بدخانه روح الإسلام وأسلم الأمة إلى ملك عضوض»[١].

٧- «لذلك لم يكن غريبًا أن يغضب أصحاب رءوس الأموال والمستنفعون من تفاوت الحظوظ في العطاء على سياسة المساواة والعدالة التي اعتزمها عليٌّ بعد عثمان، وأن يتظاهروا بأنهم إنما ينصحون بالعدول عن هذه السياسة خوفًا من الانتقاض، فما كان جوابه إلا أن يستلهم روح الإسلام في ضميره القوي، فيقول: أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ لو كان هذا المال لي؛ لسويت بينهم؛ فكيف وإنما المال مال الله؟! ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة»[٢].

هكذا يصور سيد قطب الأوضاع في عهد عثمان ﷺ، مثل أحلك عصور أوربا المظلمة التي ساد فيها الإقطاع والظلم والاستبداد من جهة، واشتد الفقر والذل والضياع من جهة أخرى.

فهناك طبقة إقطاعية تستأثر بالأموال والأرضين، وطبقة فقيرة تعاني من البؤس والشقاء ما يندى له جبين الإنسانية، فكانت النتيجة في عهد عثمان أن ثار المحرومون والكادحون على عثمان والإقطاعيين، مثل ما حصل في أوربا من الثورات التي قام بها الفقراء والكادحون والمحرومون من تلاميذ ماركس وأمثاله من الشيوعيين.

والذي يعرف التاريخ الإسلامي وتاريخ الذين ثاروا على عثمان يدرك تمامًا أن ما يقوله سيد من نسج خياله وأوهامه الاشتراكية، ويدرك أن الذين ثاروا عليه ليسوا من الفقراء والمحرومين، فليس هناك في ذلك العهد الذي كان يتمتع المسلمون جميعًا بنوع من الرخاء الشامل -والحمد لله- فقراء وبؤساء، وليس فيه إقطاعيون، وإنما كان الثائرون من أهل البطر والأشر والبغي والحسد، ومن طلاب الفتن والطموح إلى الملك.

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢١٠/ الطبعة الخامسة)، و(ص١٧٥/ الطبعة الثانية عشرة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص٢١٠/ الطبعة الخامسة)، و (ص١٧٦/ الطبعة الثانية عشرة).

والذي يدقق النظر في تصرفات سيد قطب وأساليبه ويعرف مذهبه؛ يدرك أنه ناقم حتى على عمر؛ لأنه كان يفضل في العطاء طول حياته، وهذا التفضيل جور في نظر سيد سنه عمر، وإنما يترك الطعن في عمر تقية من جهة، وتمشية لمذهبه الاشتراكي من جهة أخرى.

والذي يمعن في فهم كلام سيد قطب يدرك أنه يوجب على الحكام ابتزاز أموال الأمة وتوزيعها على الطريقة الاشتراكية الماركسية.

٢٣- حكم بني أمية كارثة قصمت ظهر الإسلام عند سيد قطب.

يقول:

«لقد اتسعت رقعة الإسلام في عهدهم، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح، ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية؛ لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير، ولكن روحه ظلت تقاوم وتغالب، وما تزال فيه الطاقة الكامنة للغلب والانتصار»[١].

لعل هذه القوة الكامنة والفيض العارم والطاقة الروحية كانت تكمن وتتفاعل في نفوس الروافض والخوارج أشد الناس عداء لبني أمية، وأشدهم تنكُّرًا وجحودًا لجهود بني أمية في الفتوحات ونشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، التي يصدق عليها قول رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض...**»[٢] الحديث.

فهذه الفتوحات في عهد بني أمية يعتبرها رسول الله ﷺ من أعظم نعم الله عليه وعلى أمته.

لكن سيد قطب لا يرى أي قيمة لهذه النعمة العظيمة التي أشاد بها رسول الله ﷺ، وكفى بذلك مصادمةً!!

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٤/ الطبعة الخامسة).

(٢) صحيح مسلم (٥٢-الفتن، حديث ٢٨٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ١٤/ ١٢٣).

ثم إن هذا العهد هو عهد خير القرون، التي أثنى عليها رسول الله ﷺ، وشهد لها الواقع التاريخي، وشهد لها علماء الإسلام.

وقال سيد قطب:

«وإذا كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية، ولكن للروح الإسلامي في الحكم؛ نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار في هذا الروح بإثبات ثلاث خطب».

فساق خطبتين يزعم أنهما لمعاوية، وخطبة واحدة يزعم أنها للمنصور العباسي، ثم علق عليها بقوله:

«وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًا عن دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام، فأما سياسة المال؛ فكانت تبعًا لسياسة الحكم»[1].

ثم دندن حول سياسة المال، ثم قال في النهاية:

«وخرج الحكام بذلك نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال»[2].

ومن يعرف منهج سيد قطب في التكفير لا يستبعد أنه يكفر الدولة الأموية والعباسية، ويبغضهما أشد البغض، على غرار الروافض والخوارج، وعلى خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة.

ثم إنا لا نراه يتحدث عن أبي مسلم الخراساني، ولا عن دولة الفاطميين ولا غيرها من دول الرفض والباطنية! فما هو السر يا ترى؟!

صورة مشرقة عن عهد معاوية رضي الله عنه:

وأحب قبل أن أنتقل إلى فصل آخر أن أعرض صورة مشرقة عن عهد معاوية رضي الله عنه، يتجلى فيها صدق الإيمان والورع وكمال الأخلاق، وأن هؤلاء الرجال هم من خير القرون بحق وجدارة.

«حدثنا الفزاري، عن صفوان بن عمرو، قال: حدثنا حوشب بن سيف، قال:

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٠ ط الخامسة، ص١٦٨ ط الثانية عشرة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٩-٢٠٠/ الطبعة الخامسة، ص١٦٨ الطبعة الثانية عشرة).

غزا الناس في زمان معاوية، وعليهم عبد الرحمن بن خالد، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية، فلما قفل الجيش ندم الرجل، فأتى عبد الرحمن بن خالد فأخبره خبره، وسأله أن يقبلها منه، فأبى وقال: قد تفرق الجيش، فلن أقبلها منك حتى تأتي بها يوم القيامة.

فجعل يستقرئ أصحاب النبي ﷺ يسألهم فيقولون مثل ذلك.

فلما قدم دمشق على معاوية، فذكر ذلك له، فقال له مثل ذلك.

فخرج من عنده وهو يبكي ويسترحم، فمر بعبد اللّه بن الشاعر السكسكي، فقال: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال: أمطيعي أنت يا عبد الله؟ قال: نعم. قال: فانطلق إلى معاوية، فقل: أقبل مني خمسك، فادفع إليه عشرين دينارًا، وانظر إلى الثمانين الباقية، فتصدق بها عن ذلك الجيش؛ فإن اللّه يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. ففعل الرجل، فقال معاوية: لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه، أحسن الرجل»[1].

* * *

(١) كتاب «السير» لأبي إسحاق الفزاري (ص٢٤٩)، ورواه سعيد بن منصور، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢٤) باختلاف يسير.

طعونه في معاوية وعمرو ومن في عهدهما وغلوه في علي رضي الله عنه

قال سيد قطب في كتابه: «كتب وشخصيات» (ص٢٤٢-٢٤٣):

«إن معاوية وزميله عمرًا لم يغلبا عليًّا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع.

وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل؛ فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح.

على أن غلبة معاوية على عليٍّ كانت لأسباب أكبر من الرجلين: كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه.

كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر، وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار، من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار.

وهنا نصل إلى الملاحظة الرابعة؛ إذ نرى المؤلف يهش لروح النفعية في السياسة، ويشيد بأصحابها، ولا يعترف بغير النجاح العملي، ولو على أشلاء المثل العليا والأخلاق».

ثم واصل كلامه إلى أن قال:

«لقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الإسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس، ولو قد قدر لعلي أن ينتصر لكان انتصاره فوزًا لروح الإسلام الحقيقية: الروح الخلقية العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال.

ولكن انهزام هذه الروح ولمَّا يمض عليها نصف قرن كامل، وقد قضى عليها فلم تقم لها قائمة بعد إلا سنوات على يد عمر بن عبد العزيز، ثم انطفأ ذلك

السراج، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الإسلام الحقيقية.

لقد تكون رقعة الإسلام قد امتدت على يدي معاوية ومن جاء بعده، ولكن روح الإسلام قد تقلصت، وهزمت، بل انطفأت.

فأن يهش إنسان لهزيمة الروح الإسلامية الحقيقية في مهدها، وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضوض فتلك غلطة نفسية وخلقية لا شك فيها.

على أننا لسنا في حاجة يومًا من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية؛ فهي جزء من طبائع الناس عامة، إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلى خطة علي، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يجهد الكثيرين أن ينالوه.

وإذا احتاج جيل لأن يدعى إلى خطة معاوية، فلن يكون هذا الجيل الحاضر على وجه العموم.

فروح (مكيافيلي) التي سيطرت على معاوية قبل (مكيافيلي) بقرون، هي التي تسيطر على أهل هذا الجيل، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها؛ لأنها روح النفعية التي تظلل الأفراد والجماعات والأمم والحكومات!

وبعد، فلست شيعيًا لأقرر هذا الذي أقول، إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي والخلقي، ولن يحتاج الإنسان أن يكون شيعيًا لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن الوصولية الهابطة المتدنية، ولينتصر لعليٍّ على معاوية وعمرو، إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة».

يريد الرجل بعد هذه الطعون التي يخجل منها، بل ويحرمها كثير من الشيعة أن يتخلص من تهمة التشيع، ولكن من يحترم أصحاب محمد ﷺ يحكم بالرفض الخبيث على من انتقص واحدًا من أصحاب محمد ﷺ، فكيف وهو يحكم على الكثير من أصحاب محمد ﷺ والتابعين بأنهم قد ارتدوا إلى المنحدر الذي انتشلهم منه الإسلام؟!

حكم السلف على من ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ أو واحدًا منهم:

قال أبو زرعة الرازي:

«إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن

أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «إذا رأيت رجلًا يذكر أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ بسوء؛ فاتهمه على الإسلام».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله، أو أبغضه لحدث كان منه، أو ذكر مساويه؛ كان مبتدعًا، حتى يترحم عليهم جميعًا، ويكون قلبه لهم سليمًا»[٢].

وقال أبو الحسن الأشعري:

«وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم، والتبري من كل من ينتقص أحدًا منهم -رضي الله عن جميعهم-»[٣].

وقال الإمام يحيى بن معين -رحمه الله تعالى-:

«تليد كذاب، كان يشتم عثمان، وكل من يشتم عثمان أو طلحة أو أحدًا من أصحاب النبي ﷺ دجال، لا يكتب عنه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٤].

وقال الإمام أحمد:

«من قال: أبو بكر وعمر وعثمان؛ فهو صاحب سنة، ومن قال: أبو بكر وعمر وعلي وعثمان؛ فهو رافضي -أو قال: مبتدع-»[٥].

فكيف بمن يسقط خلافة عثمان ويقول: إن خلافته كانت فجوة بين الشيخين وعلي؟!

---

(١) «الكفاية» للخطيب (ص٩٧).

(٢) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» (١٦٠-١٦١).

(٣) «الإبانة عن أصول الديانة» (ص٦٨/ طبعة الجامعة الإسلامية ١٩٧٥م).

(٤) «التاريخ» ليحيى بن معين (ص٦٦/ ترجمة رقم ٢٦٧٠).

(٥) «السنة» للخلال (٢/ ٣٨١/ أثر رقم ٥٣٢).

وقال الإمام أحمد بعد أن ذكر الخلفاء الأربعة، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة:

«ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بعث فيهم، كل من صحبه سنة أو شهرًا أو يومًا أو ساعة أو رآه؛ فهو من أصحابه، له من الصحبة على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه، وسمع منه، ونظر إليه نظرة؛ فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال؛ كان هؤلاء الذين صحبوا رسول الله ﷺ ورأوه وسمعوا منه أفضل لصحبتهم من التابعين، ولو عملوا كل أعمال الخير.

ومن انتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، أو أبغضه لحدث كان منه، أو ذكر مساويه؛ كان مبتدعًا، حتى يترحم عليهم جميعًا، ويكون قلبه لهم سليمًا»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى»:

«لكن المنصوص عن أحمد تبديع من توقف في خلافة علي، وقال: هو أضل من حمار أهله، وأمر بهجرانه، ونهى عن مناكحته، ولم يتردد أحمد ولا أحد من أئمة السنة في أنه ليس غير علي أولى بالحق منه، ولا شكوا في ذلك؛ فتصويب أحد لا بعينه تجويز لأن يكون غير علي أولى منه بالحق، وهذا لا يقوله إلا مبتدع ضال فيه نوع من النصب، وإن كان متأولًا»[٢].

ففي هذا تبديع من الإمام أحمد لمن يتوقف في خلافة علي دون أن يطعن فيه؛ فكيف بمن يسقط خلافة عثمان رضي الله عنه، ويطعن فيه أشد أنواع الطعن، ويتنقصه في عدد من المرات؟!

وعند ابن تيمية أن الذي لا يقطع بأن عليًا أولى بالحق من معاوية وسائر من خالف عليًا: مبتدع ضال فيه نصب، وإن كان متأولًا؛ فكيف بمن يسقط خلافة عثمان، ويرى أن الثوار من الرعاع ومن تلاميذ ابن سبأ أقرب إلى روح الإسلام من عثمان؟!

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص١٦١).
(٢) (٤/ ٤٣٨).

الفصل الثالث: شذوذ سيد في تفسير (لا إله إلا الله) عن أهل العلم

خالف سيد في تفسير (لا إله إلا الله) علماء التوحيد، والتفسير، والفقه، واللغة المعتبرين، وتابع المودودي في هذه النظرة بأن الإله هو الحاكم المتسلط، والمودودي في نظرته هذه تابع الفيلسوف الألماني (هيجل) في الحكومة الكلية.

قال العلامة صوفي نذير الكشميري -وهو من كبار علماء السلفيين رَحِمَهُ اللهُ- بعد حكاية قصة له مع المودودي:

«وبعد مدة علمت تفسير هذه الرؤيا بأن الشيخ المودودي يعرض فكرة الفلسفي الألماني في (الحكومة الكلية) في لباس الفكر الإسلامي بدل وجهة النظر الإسلامية»[1].

يقول سيد في كتابه «العدالة الاجتماعية»:

«إن الأمر المستيقن في هذا الدين: أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير عقيدة، ولا في واقع الحياة دينًا؛ إلا أن يشهد الناس أن لا إله إلا الله؛ أي: لا حاكمية إلا لله، حاكمية تتمثل في قضائه وقدره، كما تتمثل في شرعه وأمره»[2].

فقد فسر (لا إله إلا الله) بالحاكمية، وفسر الحاكمية بالقدر والشرع!

فأين توحيد العبادة الذي جاء به جميع الأنبياء، الذي هو المعنى الحقيقي الخاص بـ(لا إله إلا الله)؟!

لقد أضاعه سيد قطب.

ويقول في تفسير قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]:

---

(١) صلاح الدين مقبول: «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية» (ص١١٥)، نقلًا عن مجلة محدث الأردية الصادرة في بنارس (العدد ٤٨/ ١٤٠٦هـ).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٢/ الطبعة الثانية عشرة).

(٣) القصص: ٧٠.

«أي: فلا شريك له في الخلق والاختيار»[1].

فهذا معنى من معاني الربوبية ضيَّع به المعنى الحقيقي لهذه الكلمة.

قال الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية:

«يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا معبود تجوز عبادته غيره»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه»[3].

وقال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[4] من سورة الناس:

«والإله هو المستعلي المستولي المتسلط»[5].

فمن قال بهذا التفسير من الصحابة ومن علماء الأمة المعتبرين؟!

إن الاستعلاء، والسلطان، والحكم، والملك، والسيادة من صفات الرب العظيم ﷻ، وكذلك الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والتدبير، كل ذلك من صفات الله العليا وأفعاله الكاملة القائمة على العلم والحكمة والقدرة.

أما العبادة التي هي التذلل، والخضوع، والخشوع، والخوف، والتأله، والخشية، والرجاء، وكذا السجود، والركوع، والطواف ببيت الله، وسائر المناسك، والتسبيح، والتهليل، والتمجيد، والتحميد، والتعظيم؛ كل هذه من صفات العباد وأفعالهم الناشئة عن الافتقار إلى الله والذل والعبودية له، واعتقادهم أن هذه العبادات كلها وغيرها لا تجوز إلا لله.

فهو إلههم ومعبودهم، لا يستحق غيره شيئًا منها؛ لأن غيره فقراء لا يملكون

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٧٠٧).

(٢) في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٢).

(٣) في «تفسيره» (٣/ ٣٩٨).

(٤) الناس: ٣.

(٥) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٠١٠).

مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والله هو الإله الحق، وهو الغني الحميد، خالق ومالك ما في السموات وما في الأرض، موصوف بكل صفات الكمال، ومنها ما ذكرناه آنفًا.

فالخلط بين معاني الربوبية والاستعلاء والحاكمية التي هي من صفات الله، وبين معاني التأله والعبادة بفروعها؛ خلط بين صفات الله الرب العظيم المعبود المستحق للعبادة وحده، وبين صفات المخلوقين الفقراء العابدين.

وهذا الخلط كثيرًا ما يحصل من سيد قطب، وأحيانًا يقلب معاني الألوهية إلى الربوبية، فيضيع بذلك التوحيد الذي بعث الله به رسله جميعًا.

وبهذا الخلط والقلب الذي وقع من علماء الكلام جهل كثير من المسلمين توحيد الألوهية، فوقعوا في تقديس الأولياء والقبور وغيرها، وصرفوا لهم حقوق الألوهية من الدعاء والذبح والنذر . . . إلخ.

وفي تصرفات سيد قطب تجديد لعمل أهل الكلام، وتضييع لتوحيد الألوهية الذي بعث الله به الرسل جميعًا، وهو موضع الصراع بينهم وبين أعدائهم ومكذبيهم.

ويقول سيد قطب:

«فلقد كانوا -أي: العرب- يعرفون من لغتهم معنى (إله)، ومعنى (لا إله إلا الله) . . . كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا . . .»[1].

وقال أيضًا:

«لا إله إلا الله؛ كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد؛ لأن السلطان كله لله . . .»[2].

أقول: إن هذا الذي ينسبه سيد إلى العرب من أن الألوهية تعني الحاكمية لا يعرفه العرب ولا علماء اللغة ولا غيرهم، بل الإله عند العرب هو المعبود

---

(١) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٠٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٠٦).

الذي يُتقرَّب إليه بالعبادة، يُلازمها الخضوع والذل والحب والخوف، وليس معناه عندهم الذي يُتحاكم إليه.

لقد كان لهم سادة وأمراء يتحاكمون إليهم ولا يسمونهم آلهة[1].

وكان لهم ملوك يسوسونهم في الشمال والجنوب من الجزيرة ولا يسمونهم آلهة.

وكانوا يعترفون بتوحيد الربوبية، وفي ذلك آيات كثيرة.

وكانوا يعارضون رسول الله ﷺ في توحيد الألوهية أشد المعارضة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

وقال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[3].

قال ابن كثير في تفسيره:

«أي: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك -قبحهم الله تعالى-، وتعجبوا من ترك الشرك بالله؛ فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية؛ أعظموا ذلك، وتعجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾»[4].

ويقول سيد في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[5]:

«فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربًا؛ أي: حاكمًا وسيدًا ومتصرفًا ومشرعًا وموجهًا»[6].

أقول: قد عرفت خطأ هذا التفسير بما قررناه وناقشنا فيه سيدًا مرارًا وتكرارًا؛ فتذكر.

---

(١) وكانت لهم أوثان وأصنام يعبدونها ولا يسمونها حكامًا، ولا عبادتها تحاكمًا.

(٢) الصافات: ٣٥.

(٣) ص: ٥.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٠/ ط. دار المعرفة).

(٥) إبراهيم: ٥٢.

(٦) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١١٤).

الفصل الرابع: عدم وضوح الربوبية والألوهية عند سيد قطب وفي ذهنه

قال سيد قطب في تفسير سورة هود:

«فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف، وإنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات، وهي التي تواجهها الرسالة الأخيرة، إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك، والخضوع لله وحده بلا منازع، ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره؛ كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعًا»[١].

ويقول كذلك في نفس السورة:

«وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام، ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت على ألوهية الله سبحانه للكون، وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية، إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس، الذي يحكمهم بشرعه، ويصرفهم بأمره، ويدينهم بطاعته»[٢].

ويقول في سورة إبراهيم:

«ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم عليه السلام في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة (ربنا) أو (رب)؛ فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى. . .

إنه لا يذكر الله سبحانه بصفة الألوهية، إنما يذكره بصفة الربوبية؛ فالألوهية قلَّما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات، وبخاصة في الجاهلية العربية.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٤٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٥٢).

إنما الذي كان موضع جدل هو قضية الربوبية، قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية، وهي القضية العملية والواقعية المؤثرة في حياة الإنسان، والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية، وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع. . . فإما أن يدين الناس لله، فيكون ربهم، وإما أن يدينوا لغير الله، فيكون غيره ربهم. . .

وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك، وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة، والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية؛ كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء!»[١].

وهذا واضح في أن سيدًا يجهل الفرق بين الربوبية والألوهية، ويجهل كذلك أن توحيد الألوهية هو موضع الصراع والخصومة والجدال بين الأنبياء وأممهم[٢]، ويجهل أن الأمم كلها تعرف وتعترف بتوحيد الربوبية!

وكأنه لم يسمع قول الله تعالى في رسالات الله جميعًا إلى جميع الأمم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٣].

فالله ﷻ لا يقول إلا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٤]، فهو واضح كل الوضوح في الدعوة إلى توحيد العبادة، ولم يقل: إنه لا ربَّ إلا أنا؛ لأن الأمم لا تكابر ولا تجادل في ذلك.

وكذلك يقول الله تعالى في تقرير الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٥].

وفي توحيد الألوهية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٦].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١١١).

(٢) وانظر للفائدة كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل» للمؤلف. الناشر.

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٤) الأنبياء: ٢٥.

(٥) لقمان: ٢٥.

(٦) الصافات: ٣٥.

فقد بين اللَّه تعالى أنهم يأنفون ويستكبرون إذا دُعوا إلى توحيد الألوهية، ولا يفعلون ذلك إذا قُرِّروا بتوحيد الربوبية؛ لأنهم يعرفونه حق المعرفة، ولا يجادلون فيه ولا يكابرون.

ويقول سيد:

«وما كان لدين أن يقوم في الأرض، وأن يقوم نظامًا للبشر؛ قبل أن يقرِّر هذه القواعد.

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة، وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم، وللوسطاء عند اللَّه من خلقه، وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون[1] أخص خصائص الألوهية، وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة»[2].

ويقول في تفسير قوله اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[3]:

«هذا التعقيب يجيء بعد مشهد القيامة السابق، وبعد ما حوته السورة قبل هذا المشهد من جدل وحجج ودلائل وبينات...

يجيء نتيجة طبيعية منطقية لكل محتويات السورة، وهو يشهد بتنزيه اللَّه سبحانه عما يقولون ويصفون، ويشهد بأنه الملك الحق، والمسيطر الحق، الذي لا إله إلا هو، صاحب السلطان والسيطرة والاستعلاء، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ

---

(١) يجب تنزيه اللَّه عن مثل هذا الأسلوب؛ فإن اللَّه هو العزيز القاهر الغالب، فلا يقال في العباد الضعفاء: إنهم اغتصبوا سلطان اللَّه وأخص خصائصه -تعالى اللَّه عن ذلك-، إذ كل شيء في الكون لا يكون إلا بمشيئته وإرادته الكونية القدرية، وإن كان لا يريده ولا يرضاه من الناحية الشرعية، والظاهر أن سيدًا مثل سائر أهل البدع لا يفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فتصدر منه مثل هذه العبارات القبيحة التي تتنافى مع جلال اللَّه وعظمته وقهره لكل شيء.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٥٢).

(٣) المؤمنون: ١١٦-١١٨.

﴿الْكَرِيمِ﴾»[(١)].

ويقول:

«ونقف لحظة أمام قوله تعالى بعد عرض دلائل الألوهية في السموات والأرض: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[(٢)].

وقد قلنا: إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدي من المشركين؛ فقد كانوا يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، المتصرف، القادر على كل شيء، ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته؛ فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بالألوهية على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده في حياتهم، فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلا له، ولا يحكمون في أمرهم كله غيره... وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[(٣)]»[(٤)].

ألا ترى أن في هذا الكلام اضطرابًا وخلطًا نتيجة لعدم الوضوح والغبش في الرؤية؟!

* * *

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٤٨٢).

(٢) يونس: ٣.

(٣) يونس: ٣.

(٤) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٧٦٣).

الفصل الخامس: سيد قطب وتكفير المجتمعات الإسلامية

يقول في كتابه «معالم في الطريق»:

«وأخيرًا؛ يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة!

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار؛ لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا أنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا[1]، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها؛ فهي -وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله- تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها، وتقاليدها... وكل مقومات حياتها تقريبًا!

والله سبحانه يقول عن الحاكمين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

---

(١) بل كثير وكثير من هذه المجتمعات يُضفون على أناس صفات الإله؛ كاعتقادهم أنهم يعلمون الغيب، ويتصرفون في الكون، ويفرجون الكروب، ويتقدمون لهم بالشعائر التعبدية من الاستغاثة في الشدائد والدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والطواف بقبورهم، وتعظيم هذه القبور، وإقامة الأعياد والاحتفالات والموالد لهذه الأضرحة، وشد الرحال إليها، وتقديم الذبائح، والنذور بالأموال الطائلة لها، كل هذه الأمور وغيرها من أنواع الشرك لا يعدها سيد من أنواع الشرك الناقضة للتوحيد المنافية لمعنى لا إله إلا الله.

ونحن -والحمد لله- مع أننا نرى هذا من أنواع الشرك الأكبر، لا نكفر إلا من قامت عليه الحجة، وسيد لا يرى هذا من الشرك، ولا يستنكره؛ كحال كثير من الصوفية والروافض، لا يرون الشرك إلا في عبادة الأوثان، فإذا كفر سيد الناس؛ فإنما يكفرهم لأنهم يدينون بالحاكمية لغير الله، ولا يشترط إقامة الحجة، ولا يدرك أن أكثر من يكفرهم بالحاكمية لا يدينون بالحاكمية لأحد على الوجه الذي ذكره، ولا يدرك أن الروافض والقبوريين يفرحون بموقفه هذا من القبورية، ويأنسون إليه.

(٢) المائدة: ٤٤.

ويقول عن المحكومين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[١].

كما أنه سبحانه قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة اللَّه وحده، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دونه لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم مسلمون لناس منهم!

واعتبر اللَّه سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركًا؛ كاتخاذهم عيسى بن مريم ربًّا يؤلهونه ويعبدونه سواء؛ فهذه كتلك: خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين اللَّه، ومن شهادة أن لا إله إلا الله[٢].

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلًا، وبعضها يعلن أنه يحترم الدين، ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلًا، ويقول: إنه ينكر الغيبية، ويقيم نظامه على العلمية؛ باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل، لا يقول به إلا الجهال[٣].

وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير اللَّه، ويشرع ما يشاء، ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله! وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده. . .

---

(١) النساء: ٦٠-٦٥.

(٢) وهذا واضح في تكفيره المجتمعات الإسلامية.

(٣) وهذا في غاية الصراحة والوضوح في تكفير المجتمعات الإسلامية.

وإذا تعين هذا؛ فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره»!!

قلت: يلاحظ أن سيد قطب في هذا الموضع، وفي جميع كتاباته في «الظلال» وغيره أنه لا يعبأ بشرك القبور، والغلو في أهل البيت، وفي الأولياء بالاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون، ويتقديم القرابين لهم، وإراقة الدموع والخشوع عند عتباتهم، ودعائهم والاستغاثة بهم لكشف الكروب وإزالة الخطوب، وشد الرحال والحج إلى قبورهم، والطواف بها، والاعتكاف حولها، وإقامة الأضرحة والمشاهد، وتشييد القباب بالأموال الطائلة لها، وغير ذلك من التصرفات.

ولا يحاسب الناس إلا على مخالفة الحاكمية، ولا يدور في تفسيره لـ (لا إله إلا الله) إلا على الحاكمية والسلطة والربوبية؛ مفرغًا لا إله إلا اللّه عن معناها الأساسي الذي جاءت به جميع الكتب وجميع الرسل، ودان به علماء الإسلام مفسرون ومحدثون وفقهاء.

ولا يكفر الناس إلا بالعلمنة وما تفرع عنها، ويبالغ في هذا أشد المبالغة؛ لأنها ضد الحاكمية في نظره، ويرمي المجتمعات الإسلامية بالكفر من هذا المنطلق.

فيكون كلامه حقًا في العلمانيين فعلًا، وهم قلة في المجتمع، ويكون كلامه باطلًا وظلمًا بالنسبة للسواد الأعظم من الناس؛ فإن كثيرًا منهم يعادون العلمنة، ويبغضون أهلها إذا عرفوهم بذلك، وكثير منهم لا يعرفون هذه العلمنة، فهم مسلمون في الجملة، وعندهم خرافات وبدع، فإذا عُرِّفوا بها؛ حاربوها وأهلها حاكمين أو محكومين، أحزابًا أو أفرادًا.

وبالجملة؛ فسيد سلك مسلكًا في تكفير الناس لا يقره عليه عالم مسلم[1]؛ يرسل الكلام على عواهنه في باب الحاكمية، ويكفر عامة الناس بدون ذنب وبدون

---

(١) وقد أنكر ذلك عليه كثير من الناس، منهم: أبوالحسن الندوي، وحسن الهضيبي، ويوسف القرضاوي في مؤلفاتهم.

إقامة حجة وبدون التفات إلى تفصيلات العلماء في هذا الباب، هذا من جهة.

ولا يعبأ بشرك القبور الذي يرتكبه الروافض، وغلاة الصوفية ومن تابعهم من جهة أخرى، ولا يرى في هذا الموضوع وفي كثير من المواضع هذه الشركيات منافية لمعنى لا إله إلا الله!

لذا ترى الخوارج والروافض وكثيرًا من أهل البدع والأهواء يرحبون بمنهجه وبكتبه، ويفرحون ويعتزون بها، ويستشهدون بأقواله وتفسيراته.

وإني لأرجو لكل مسلم صادق في دينه، خصوصًا الشباب الذين انخدعوا بمنهج سيد قطب أن يمن الله عليهم بجوده وفضله، فيدركوا ما وقعوا فيه من خطأ وبعد عن فقه الكتاب والسنة، وفقه سلف الأمة، فيعودوا إلى رحاب الحق والعلم والفهم الصحيح.

اعتبار سيد قطب مساجد المسلمين معابد جاهلية انطلاقًا من تكفير مجتمعاتهم واعتبارها جاهلية:

قال سيد قطب في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] قال[2]:

«وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئًا كثيرًا في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وأنتنت البيئة، وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة،

---

(١) يونس: ٨٧.

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٨١٦).

وهنا يرشدنا الله إلى أمور:

١- اعتزال الجاهلية نتنها وفسادها وشرها ما أمكن في ذلك، وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.

٢- اعتزال معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعًا من التنظيم في جو العبادة الطهور».

فأي تكفير بعد هذا؟!

وقد ينظر هذا الرجل إلى بعض الأعمال الإسلامية، وإلى المعتقدات الإسلامية الصحيحة، فيراها جاهلية وضلالًا!!

أليس هذا منه سعيًا في تخريب مساجد الله، وتعطيل أعظم شعائر الإسلام؟!

هذا الرجل لو عاش في بلاد التوحيد؛ لرآها تعيش في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

قال سيد عند آية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]، وذكر الشرك الخفي:

«وهذا الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شئون الحياة، الدينونة في شرع يتحاكم إليه، وهو نص في الشرك لا يجادل عليه، والدينونة في تقليد من التقاليد، كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله، والدينونة في زي من الأزياء[2] يخالف ما أمر الله به من الستر، ويكشف أو

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) كل من سيد قطب وأخيه يحلقان لحاهما، ويكشفان رأسيهما، ويلبسان البدلة والكرفتة على طريقة الإفرنج؛ تقليدًا واعتزازًا بهذا المظهر الإفرنجي، ولا ينكران على غيرهما هذا وأمثاله، فبماذا يحكمان على أنفسهما؟!

وبعد جهد ومدة طويلة في الحجاز، أرسل محمد قطب رمزًا للحيته، وعمره يناهز الستين، ولعله على مضض، ولم يغير زيه.

يحدد العورات التي نصت شريعة اللَّه أن تستر.

والأمر في مثل هذه الشئون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعًا ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد، وتركًا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد...

إنه عندئذٍ لا يكون ذنبًا، ولكنه يكون شركًا؛ لأنه يدل على الدينونة لغير اللَّه فيما يخالف أمر اللَّه... وهو من هذه الناحية أمر خطير... ومن ثم يقول الله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]»[2].

وفي هذا الكلام أمران خطيران:

أولهما: تكفير المجتمعات الإسلامية بالمعاصي والمخالفات الواقعة في العادات والتقاليد والأزياء، وهذا المذهب أشد وأخطر من مذهب الخوارج.

وثانيهما: تفسير القرآن بغير ما أراده اللَّه بالشرك، إذ المراد بالشرك هنا ما استقر في القرآن والسنة وعرفه المسلمون، وهو الشرك الأكبر المطلق، وهو اتخاذ أنداد مع اللَّه يستغاث بهم، ويذبح لهم، ويتقرب إليهم، ويصرف لهم حق اللَّه من العبادات التي أمرهم اللَّه أن يعبدوه بها ويخلصوا بها الدين لله.

شرك العرب الحقيقي والأساسي عند سيد قطب إنما هو في الحاكمية فقط، وليس في العبادة والاعتقاد:

قال سيد:

«فهكذا كان تصورهم للحقيقة الإلهية، واستحضارهم لها في كل مناسبة، ولم يكن أمرهم أنهم لا يعرفون اللَّه، أو لا يعرفون أنه ما لأحد باللَّه من طاقة، أو

لا يعرفون أنه هو الذي يحكم ويفصل بين الجبهتين حيث لا راد لحكمه! إنما كان شركهم الحقيقي يتمثل ابتداء في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير اللَّه، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو...

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) «الظلال» (٤/ ٢٠٣٣).

الجاهلية!

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا مسلمين، فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقادًا وتعبدًا؛ فإن هذا وحده لا يجعل الناس مسلمين ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكمية، ويرفضون حاكمية العبيد، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادته الجاهلية.

إن كثيرًا من المخلصين الطيبين تخدعهم هذه الخدعة... وهم يريدون لأنفسهم الإسلام، ولكنهم يُخدعون عنه، فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية والوحيدة، وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم المشركين لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته -كما تبين-، ويقدمون له شفعاء من أصنامهم، وكان شركهم الأساسي يتمثل لا في الاعتقاد، ولكن في الحاكمية [1].

وإذا كان ينبغي للطيبين المخلصين الذين يريدون أن يكونوا مسلمين أن يتبينوا هذه الحقيقة؛ فإن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق، ويجب ألا تتلجلج فيها أي تلجلج، ويجب أن تعرف الناس بها تعريفًا صريحًا واضحًا جازمًا...

فهذه هي نقطة البدء والانطلاق... فإذا انحرفت الحركة عنها -منذ البدء- أدنى انحراف؛ ضلت طريقها كله، وبنت على غير أساس، مهما توافر لها من

---

(١) أقول: إن النجاشي أسلم في عهد النبي ﷺ، وكان إسلامه في الاعتقاد فقط، فلم يستطع أن يطبق شعائر الإسلام التعبدية، ولم يطبق الحاكمية في دولته، ولم يقم بالهجرة، ومع هذا كله كان له منزلة عند رسول الله ﷺ، ولما مات أخبر رسول الله ﷺ بموته، وقال لأصحابه: «صلوا على أخيكم»، وصلى عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

أفرأيت لو أن النجاشي آمن بالحاكمية فقط، ولم يؤمن بعقيدة التوحيد، أيعده رسول الله ﷺ مؤمنًا ويصلي عليه هو وأصحابه كما يصلي على المسلمين؟!

نريد الإجابة على هذا السؤال الملح.

ثم ألا يرى السياسيون على طريقة سيد قطب الفرق الهائل بين دعوة الأنبياء إلى التوحيد وبين دعوتهم، وأنهم متنكبون لدعوة الرسل ومنهجهم في الدعوة إلى توحيد الله في العبادة أولًا، ثم بناء ما بعدها من أمور الإسلام عليها؛ إذ هي الأصل والأساس والقاعدة الصلبة لدعواتهم جميعًا.

الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق!»[1].

فترى الرجل يضطرب ويتناقض في هذا الموضع، ولكنه ينتهي إلى تقرير أن الشرك الحقيقي والأساسي إنما يتمثل في الحاكمية، لا في الاعتقاد، وهذه هي القاعدة الخطيرة التي ينطلق منها اليوم كثير ممن يسمون بالدعاة إلى الإسلام، في الضياع توحيد الأنبياء!

انظر قوله: «. . . فهذا كان مبلغ تصورهم لها -أي: الأصنام- مجرد شفعاء عند اللّه. . . وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة، ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلًا في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام، وإلا فإن الحنفاء الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا لله وحدة الشعائر ما اعتبروا مسلمين»!

أقول: هذه حال معظم الأنبياء والرسل وأممهم، حيث لم تكن لهم دول ولا حكومات، ويأتي النبي ومعه الرهط، ويأتي النبي ومعه الرهيط، والرجل، والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد. . .

وهذا يكشف لنا سر تهاون سيد قطب بالشرك الأكبر، الشرك الاعتقادي، شرك القبور، والشرك في العبادة، الذي حاربه الرسل جميعًا، والذي هو محور الصراع بينهم وبين أقوامهم.

ومن موقف سيد قطب هذا من عبادة الأوثان ندرك أنه أقل حساسية وأقل مبالاة ضد عبادة الأوثان من الروافض والقبوريين؛ لأن هؤلاء لا يشكون ولا يترددون في الحكم على عبادة الأوثان أنها أعظم الذنوب، وأنها الشرك الأكبر، ولا يهونون من شأنه؛ مثل سيد، أما سيد؛ فحاله وموقفه كما رأيت مع الأسف الشديد.

ومن هنا ندرك سر اهتمام أتباعه بالسياسة والحاكمية، وتجنيدهم كل طاقاتهم وإمكاناتهم في سبيلهما، وتوجيه الأمة لهما، ورمي من اشتغل بغيرهما من التوحيد وفروض الأعيان والكفايات من أمور الإسلام بالعلمنة، واستخفافهم بدعاة

---

(١) «الظلال» (٣/ ١٤٩٢).

التوحيد وإخلاص العبادة لله على طريقة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، واتباعًا لتوجيهات القرآن الكريم المنزل من رب العالمين، يستخفون بهم وبدعوتهم، ويعتبرون ذلك من الانشغال بالجزئيات.

ويسمون الشرك الأكبر بالشرك البدائي والشعبي، وما يسمونه هم شركًا ويتخيلونه بالشرك الحضاري، ويلبسون على الناس دينهم وعقائدهم، ويزعمون لهم أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما كانوا على منهج قطب وأمثاله، همهم الأكبر ودعوتهم الأساسية إنما هما الصراع السياسي والمصارعة على الكراسي، ومحاربة القصور لا الأوثان والقبور.

فاللهم أنقذ دينك وأمة الإسلام من هذا الخبط والتلبيس والحيل والتدليس.

وأما قوله: «إن الحنفاء ما كانوا مسلمين»: ففي غاية المجازفة والقول على الله وعلى الإسلام بغير علم، ومن البراهين الواضحة على استهانته بالتوحيد، واستهانته بالشرك الأكبر!

كيف يقول هذا في قوم بذلوا غاية وسعهم في الفرار من غضب الله والفرار من الشرك الأكبر، والفرار من النار من دون داع يدعوهم إلى الله، بل ذلك بدافع من فطرتهم السليمة وعقولهم المستقيمة، بل قبل ذلك برعاية الله لهم وتوفيقه إياهم، بهذا وذاك خرجوا من الجاهلية والشرك إلى التوحيد والحنيفية دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، الذي قال الله في شأنه لنبيه الكريم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

أفمن كان على هذا الدين وهذه الملة يقال: إنه ليس من المسلمين؟!

فهذا زيد بن عمرو بن نفيل، أحد الحنفاء، يروي البخاري[2] قصته عن ابن عمر

---

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد عن أبي هريرة، ولفظه: نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة يوم الذي مات فيه، فقال: «استغفروا لأخيكم» (٣/ ٢٣٦/ رقم ١٣٢٧-الفتح).

وله بلفظ آخر عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه...» الحديث (باب الصفوف على الجنازة/ ٣/ ١٣٢٠-الفتح). =

ﷺ؛ قال: «إن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم؛ فأخبرني؟

فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب اللَّه.

فقال زيد: ما أفر إلا من غضب اللَّه، ولا أحمل من غضب اللَّه شيئًا أبدًا، أنى أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا.

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم؛ لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يعبد إلا اللَّه.

فخرج زيد، فلقي عالمًا من النصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة اللَّه.

قال: ما أفر إلا من لعنة اللَّه، ولا أحمل من لعنة اللَّه ولا من غضبه شيئًا أبدًا، وأنى أستطيع، فهل تدلني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا.

قال: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يعبد إلا اللَّه.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام؛ خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم».

أفبعد هذا الجد والإلحاح في طلب الحق واختياره بعد رفض الشرك واليهودية والنصرانية يقال فيه وفي أمثاله من الحنفاء [1]: إنهم ليسوا بمسلمين؟!

وقد روى البخاري عن ابن عمر عن زيد بن عمرو: أنه كان ينكر على قريش الذبح للأوثان.

= وأخرجه مسلم بلفظ: «إن أخًا لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه» (التكبير على الجنازة / ٧/ ٢٣- نووي). (٦٣-مناقب الأنصار / رقم ٣٨٢٦ و ٣٨٢٧).

(١) كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وشيوخ سلمان الفارسي من الرهبان الذين كانوا على دين الحق.

وقال ابن كثير: وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان، وفارق دينهم، وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده[١].

وقال يونس بن بكير: عن محمد بن إسحاق، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر؛ قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة؛ يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده؛ ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكنني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته[٢].

وروى ابن كثير رحلة زيد بن عمرو في البحث عن الدين الحق نحوًا مما روى البخاري، وفي آخرها: قال زيد: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم، عليه أحيا وعليه أموت، فذكر شأنه للنبي ﷺ، فقال: «هو أمة وحده»[٣].

ثم قال ابن كثير: إن ابن عساكر أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**».

ثم ساق ابن كثير طريقًا عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية، ويقول: إلهي إلهُ إبراهيم، وديني دين إبراهيم، ويسجد، فقال رسول الله ﷺ: «**يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم**»، ثم قال: إسناده جيد[٤].

وقال الحافظ ابن حجر: وكان -يعني: زيدًا- ممن يطلب التوحيد وخلع الأوثان، وجانب الشرك، لكنه مات قبل المبعث، فروى محمد بن سعد والفاكهي من حديث عامر بن ربيعة... وساق قصة طويلة عنه، وفيها قال النبي ﷺ: «ولقد رأيته في الجنة يسحب ذيولًا»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢١).
(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢١)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٢٤).
(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢٢).
(٤) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٢٤).
(٥) «الفتح» (٧/ ١٤٣).

وقال الحافظ: وروى البزار والطبراني من حديث زيد بن عمرو . . . وذكر قصته، وفي آخرها قال سعيد بن زيد: فسألت أنا وعمر رسول الله ﷺ عن زيد، فقال: «غفر الله له ورحمه؛ فإنه مات على دين إبراهيم».

فهذا حاله وواقعه في نظر الإسلام وعلمائه، ومثله كل من مات على الحنيفية، وذلك يخالف ما يراه سيد قطب الذي لا يرى للتوحيد والكفر بالأوثان كبير قيمة ولا كبير وزن، والله المستعان.

وانظر مرة أخرى إلى قوله -بعد تمهيد خطير فيه أن المسلمين اعتقادًا أو تعبدًا ليسوا مسلمين، ولا فرق بينهم وبين مشركي العرب في الجاهلية-؛ يقول:

«فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية الوحيدة، وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم المشركين لم يكونوا يختلفون عنهم في شيء؛ فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته -كما تبين-، ويقدمون له شفعاء من أصنامهم، وكان شركهم الأساسي يتمثل لا في الاعتقاد، ولكن في الحاكمية»!!

ألا ترى في قوله هذا أكبر مغالطة ومجازفة؟!

ألا ترى في محاولة إبعاد الشرك الاعتقادي والعبادي عن ميدان الدعوة والجهاد؟!

ومن هنا يكاد يحصر الشرك الأساسي والحقيقي في شرك الحاكمية، ويوجه نصيحته لأتباعه بأن الحاكمية هي نقطة البدء والانطلاق، فإذا انحرفت الحركة عنها -منذ البدء- أدنى انحراف؛ ضلت طريقها كله، وبنيت على غير أساس، مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق.

أقول: إن من يعرف دعوات الأنبياء التي قصها الله علينا في كتابه الكريم ليدرك تمام الإدراك المصادمة الواضحة بين كلام سيد وبين ما قصه الله عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في منطلق الدعوة إلى الله، وأنها تبدأ بالتوحيد ومحاربة الشرك الأكبر (عبادة الأوثان) وما شاكلها، وأن ما يدعو إليه سيد ويدعيه من أن نقطة البدء تكون من الحاكمية، والانطلاق منها، لهو الانحراف الحقيقي من البداية، وذلك لأمور:

أولًا : لأن هذا الانطلاق مخالف لمنهج الأنبياء في البدء بالدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك العقائدي (عبادة الأوثان) وغيرها من دون اللَّه .

ثانيًا : لأن الانطلاق من الحاكمية لابد أن يكون قائمًا على الهوى والرغبة في الوصول إلى السلطة، والتحكم في رقاب الناس، ولابد أن تقوم على الكذب والمراوغات، ولابد أن يندس في صفوف حملة هذه الدعوة السياسية أناس أهل أغراض وأهواء وعقائد فاسدة؛ كما هو الشأن في الدعوات السياسية .

وإننا لنشاهد ثمار مثل هذه الدعوة ونتائجها متمثلة في تحالفات شيوعية وعلمانية ورافضية، ومتمثلة في نزاعات دموية للوصول للسلطة، يستعان فيها بالملاحدة والشيوعيين وأصناف الغالين .

ويقول سيد قطب تحت عنوان (حاضر الإسلام ومستقبله) :

«ونحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكم الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي، ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية -على هذا النحو- قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن وجود الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك .

ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة، على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا مسلمين .

ونجهر بها على هذا النحو في الوقت الذي ندعوا إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي، ولا نرى أن في رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة .

على العكس، نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة -حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن وجود الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك- نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام، ومحاولة استئناف حياة إسلامية ضرورة لا مفر منها» .

ثم فسر (لا إله إلا الله) بالحاكمية، والحاكمية بالقدر والشرع، وأعرض عن

تفسيرها الحقيقي: (لا معبود بحق إلا الله).

ثم قال: «ونحن لا نحدد مدلول الدين ولا مفهوم الإسلام على هذا النحو من عند أنفسنا . . . ففي مثل هذا الأمر الخطير الذي يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله كما يترتب عليه الحكم بتوقف وجود الإسلام في الأرض اليوم، وإعادة النظر في دعوى مئات الملايين من الناس أنهم مسلمون»[١].

. . . في مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتي الإنسان فيما يقصم الظهر في الدنيا والآخرة جميعًا، إنما الذي يحدد مدلول الدين على هذا النحو ومفهوم الإسلام هو الله سبحانه، إله هذا الدين[٢]، ورب هذا الإسلام . . .

وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٣].

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥].

وساق آيات أخر كلها في الحاكمية، ولم يسق آية واحدة من آيات توحيد العبادة، ولا من آيات توحيد الأسماء والصفات، ثم ساق مقطعًا حصر فيه الإسلام في الحاكمية، ثم قال:

«وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم، على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام، لا نرى لهذا الدين وجودًا . . . إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله بالحاكمية في حياة البشر،

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٢/ الطبعة الثانية عشرة).

(٢) هذا التعبير غير صحيح؛ فالدين هو شرع الله وكلامه المنزل على رسوله، وليس عبدًا مخلوقًا مكلفًا بعبادة الله والتأله له حتى يقال: إله هذا الدين، وإنما يقال: إله الناس، وإله الملائكة... وغيرهم ممن خلق للتأله والعبادة.

(٣) يوسف: ٤٠.

(٤) المائدة: ٤٩.

(٥) المائدة: ٤٥.

وذلك يوم أن تخلت عن الحكم بشريعته وحدها في كل شئون الحياة.

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة، وأن نجهر بها، وألا نخشى خيبة الأمل التي تحدثها في قلوب الكثير الذين يحبون أن يكونوا مسلمين؛ فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا؛ كيف يكونون مسلمين؟!

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون كثيرة ومايزالون يبذلون جهودًا ضخمة ماكرة خبيثة؛ ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين، من وقع هذه الحقيقة المريرة، ومن مواجهتها في النور، وتحرجهم كذلك من إعلان أن وجود هذا الدين قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة اللَّه في أمرها كله، فتخلت بذلك عن إفراد اللَّه سبحانه بالحاكمية [أو بالألوهية]؛ فهذه مرادفة لتلك أو ملازمة لها، ولا تتخلف»[(١)].

أقول:

١- فترى الرجل يدعو إلى استئناف حياة إسلامية بحرارة؛ لأنها غير موجودة.

٢- ويصرح بأن الحياة الإسلامية قد توقفت.

٣- وأن وجود الإسلام قد توقف.

٤- ويصرح بقوله: «ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا مسلمين»؛ فهو لا يراهم مسلمين، بل يرى أنهم لا يزالون يحبون أن يكونوا مسلمين؛ فهم كفار جاهليون وليسوا مسلمين.

٥- ويكرر القول بأنه لا يرى لهذا الدين وجودًا: «إن هذا الدين قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد اللَّه بالحاكمية في حياة البشر».

ويكرر أن هذه المجتمعات تحب الإسلام فقط؛ يعني: وليسوا بمسلمين، فضلًا عن أن يكونوا أو يكون جماعة منهم مؤمنين.

٦- ويكرر مرة أخرى ويؤكد أن الموجودين من المسلمين إنما هم محبون

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٨٣-١٨٤ الطبعة الثانية عشرة).

للإسلام، ولا ينبغي أن يتحرجوا من إعلان أن وجود هذا الدين قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة في الأرض عن تحكيم شريعة الله، ولا يعترف أبدًا بأن هناك جهادًا سلفيًا في الجزيرة العربية قد قام وجدد الإسلام وأقام دولة تحكم بشريعة الله على أساس التوحيد والكتاب والسنة، أفبعد هذا التكفير للأمة تكفير؟!

فما هو التكفير إذن إذا لم يكن هذا التقرير القوي بالتكفير تكفيرًا أيها العقلاء؟!

حكم سيد قطب على المجتمعات الإسلامية بأنها مجتمعات مرتدة، وأنها أشد عذابًا عند الله من الكفار الأصليين:

قال سيد:

«لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية، وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله ﷺ ويوم جاءها الإسلام مبنيًا على قاعدته الكبرى: (شهادة أن لا إله إلا الله)... شهادة أن لا إله إلا الله بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس وهو يسأله: ما الذي جاء بكم؟ فيقول: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام

وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلهًا خالقًا للكون[1]،

---

(١) إن الفرس الذين اندفع المسلمون لجهادهم كانوا مجوسًا يعبدون النار، وعقائدهم وشرائعهم تقوم على الوثنية، والمسلمون يريدون إخراجهم من هذا الشرك بالدرجة الأولى؛ فكيف يغفل سيد قطب هذا ويحاسبهم على الجانب السياسي فقط.

ليس في قول ربعي ما يفيد إلا إخراج الناس من عبادة العباد كالملائكة والأنبياء الصالحين، ولا تعرض فيه للأنظمة، وإنما هو تفسير سياسي فيه تحريف لهذا النص كعادة سيد قطب في تحريف معنى العبادة ومعنى الألوهية إلى الحاكمية والسلطة والأنظمة إلى آخر التحريفات الرهيبة لدعوات الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وينبغي أن أسوق هنا ما أخرجه البخاري في صحيحه في الجزية حديث (٣١٥٩) عن جبير بن حية قال: «...فندبنا عمر واستعمل علينا النعمان بن مقرن، حتى إذا كنا بأرض العدو خرج علينا عامل كسرى في=

ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة، ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه، فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد، ويقرون لهم بخصائص الألوهية -وهي: الحاكمية، والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية، والطاعة لهذا التشريع، وهي الأديان- . . . إلى عبادة الله وحدة وإلى عدل الإسلام.

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بـ(لا إله إلا الله)؛ فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: لا إله إلا الله؛ دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية الحاكمية التي يدعيها العباد لأنفسهم، وهي مرادف الألوهية، سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو كشعوب؛ فالأفراد كالتشكيلات كالشعوب ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية . . . إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء . . .

البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات لا إله إلا الله؛ بلا مدلول ولا واقع . . . وهؤلاء أثقل إثمًا وأشد عذابًا يوم القيامة؛ لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد من بعدما تبين لهم الهدى-، ومن بعد أن كانوا في دين الله!

= أربعين ألفًا، فقام ترجمان فقال: ليكلمني رجل منكم. فقال المغيرة: سل عما شئت. قال: ما أنتم؟ قال: نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد، وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر ونعبد البحر والحجر، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين -تعالى ذكره وجلت عظمته- إلينا نبينا من أنفسنا نعرف أباه وأمه؛ فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم.

فهذا النص يفيد أن الجهاد إنما هو ليعبد الناس الله وحده، وهذا تحقيق لمعنى لا إله إلا الله، والعبادة وأنواعها معروفة، ومن أبى ذلك أدى الجزية، فهل أداء الجزية عبادة لله يتحقق بها معنى لا إله إلا الله لاسيما بعد إسقاط أنظمة الكفر والشرك، نعوذ بالله من هذا التحريف الخطير الذي لا يعرف له نظير.

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلًا أمام هذه الآيات البينات»[١][٢].

ويقول سيد:

«إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[٣]؛ إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديًّا وشعوريًّا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها، حتى يأذن الله لها بقيام (دار إسلام) تعتصم بها، وإلا أن تشعر شعورًا كاملًا بأنها هي الأمة المسلمة، وأن ما حولها ومن حولها ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه، جاهلية وأهل جاهلية، وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج، وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين»[٤].

ويقول سيد:

«إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي»[٥].

ويقول سيد:

«فأما اليوم؛ فماذا؟! أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته لله وحده، والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد، والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته، والذي رفض بالفعل شريعة أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد؟ لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود!»[٦].

نقول: ليس بعد هذا التكفير العنيف شيء مع معاصرته لجهاد السلفيين في

---

(١) في هذا الكلام تكفير واضح للأمة الإسلامية كلها، وحكم عليها بالردة، وأنهم أشد الكفار عذابًا؛ لأنهم ارتدوا بعدما تبين لهم الهدى.

(٢) «في ظلال القرآن» (٢/ ١٠٥٧).

(٣) الأنعام: ٦٥.

(٤) «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٢٥).

(٥) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١٢٢).

(٦) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٧٣٥).

الجزيرة، وإقامتهم دولة إسلامية على التوحيد والكتاب والسنة، ومعاصرته للسلفية في الهند تجاهد بالسيف وفي ميدان الدعوة، وأهلها يقدرون بالملايين، وكذلك دعوة التوحيد كانت قائمة في مصر في عصره على أيدي السلفيين أنصار السنة، والرجل لا يعد هذه المجتمعات إسلامية.

ويقول وهو يتحدث عن حكم تزكية النفس:

«لقد نشأ هذا الحكم -كما نزلت تلك النصوص- في مجتمع مسلم، ليطبق في هذا المجتمع، وليعيش في هذا الوسط، وليلبي حاجة ذلك المجتمع، وفق نشأته التاريخية، ووفق تركيبه العضوي، ووفق واقعه الذاتي؛ فهو من ثم حكم إسلامي، جاء ليطبق في مجتمع إسلامي، وقد نشأ في وسط واقعي، ولم ينشأ في فراغ مثالي.

وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طبق في مجتمع إسلامي... إسلامي في نشأته، وفي تركيبه، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة، وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر فراغًا بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يصلح له كذلك.

ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامي، وإن كنا في هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم، بمناسبة ذلك السياق القرآني»[1].

وهكذا يرى سيد أن المجتمعات الإسلامية اليوم لا يصلح تطبيق أحكام النظام الإسلامي، ولا ينشئ آثاره فيها.

فلو أن حاكمًا من حكام بلدان الإسلام رغب وجد في تطبيق الإسلام في بلده؛ فإن سيد قطب يوجه له هذه النصيحة: إنه لا يصلح تطبيق الإسلام في هذا البلد، ولا ينشئ تطبيق أحكام الإسلام آثاره حتى ينشأ مجتمع إسلامي جديد، تتوافر فيه الشروط التي يشترطها سيد قطب؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار!

ويقول سيد قطب مؤكدًا ما سبق، منتقدًا من يفكرون في النظام الإسلامي:

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠٠٧).

«إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته -أو يكتبون-، يدخلون في متاهة! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ، يحاولون تطبيقها في هذا المجتمع الجاهلي القائم، بتركيبه العضوي الحاضر، وهذا المجتمع الجاهلي الحاضر يعتبر -بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية- فراغًا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام، ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام. . .

إن تركيبه العضوي مناقض تمامًا للتركيب العضوي للمجتمع المسلم؛ فالمجتمع المسلم -كما قلنا- يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام مع تحمل ضغوط الجاهلية، وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل في نهاية المطاف.

أما المجتمع الجاهلي الحاضر؛ فهو مجتمع راكد، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام، ولا بالقيم الإيمانية . . . وهو- من ثم- يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغًا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام»[1].

وفي هذا الكلام تكفير واضح للمجتمعات الإسلامية، لا يجادل فيه إلا مباهت معاند.

ومن المستغرب: أن سيدًا لا يتململ مما وقعت فيه المجتمعات الإسلامية من انحراف في توحيد الألوهية، والتعلق بالقبور دعاءً واستغاثة، وذبحًا ونذرًا . . . إلى آخره، ولا يرى ذلك من الضلال، ولا يرى الانحراف إلا في الحاكمية، ثم مع كل هذا يعارض في تطبيق الحاكمية!!

فماذا يريد هذا الرجل؟!

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠٠٩).

ويقول مؤكدًا ما سبق:

«إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ، ولا يعيش في فراغ كذلك، لا ينشأ في الأدمغة والأوراق، وإنما ينشأ في الحياة، وليس أية حياة، إنما هي حياة المجتمع المسلم على وجه التحديد ومن ثم لابد أن يوجد المجتمع أولًا بتركيبه العضوي الطبيعي، فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق، وعندئذٍ تختلف الأمور جدًا، وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص -بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة- إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل... إلخ، وقد لا يحتاج!

ذلك أننا لا نملك سلفًا أن نقدر أصل حاجته، ولا حجمها ولا شكلها، حتى نشرع لها سلفًا! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها... ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداء بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية، ولا يرضى ببقائها ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها، ولا بتلبيتها كذلك»[1].

وفي هذا إلى جانب تكفيره للمجتمعات الإسلامية لأجل أن حياتها قامت على غير حاكمية الله، يفهم من كلامه أنه يجيز أن تقوم شركات تأمين في المجتمع الذي سيقيمه سيد وأتباعه، وكذلك يفهم من كلامه أن يجيز تحديد النسل، وهذه فكرة يهودية ناشئة عن سوء الظن بالله.

ويقول سيد بالاشتراكية الغالية، التي منها تأميم الثروات والممتلكات، ولو قامت على الأسس الإسلامية، وهي اشتراكية كافرة، ينشرها ويروج لها الشيوعيون، وقد تقوم هذه الدولة على تشييد القبور ونشر الرفض؛ فماذا يستفيد الإسلام والمسلمون من وراء هذا الهدم والبناء الفاسد؟ والله إن دلائل ما نقوله لتلوح، بل قد قامت في بعض البلدان التي ضاع فيها جهاد المسلمين الطويل المرير.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠١٠).

ويقول سيد قطب مؤكدًا ما سبق[١]:

«إن المحنة الحقيقية لهؤلاء الباحثين أنهم يتصورون أن هذا الواقع الجاهلي هو الأصل الذي يجب على دين الله أن يطابق نفسه عليه! ولكن الأمر غير ذلك تمامًا. . . إن دين الله هو الأصل، يجب على البشرية أن تطابق نفسها عليه، وأن تحور من واقعها الجاهلي وتغير حتى تتم هذه المطابقة. . . ولكن هذا التحور وهذا التغير لا يتمَّان عادة إلا عن طريق واحد، هو التحرك في وجه الجاهلية، لتحقيق ألوهية الله في الأرض، وربوبيته وحده للعباد، وتحرير الناس من العبودية للطاغوت، بتحكيم شريعة الله وحدها في حياتهم. . .

وهذه الحركة لابد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء، فيفتن من يفتن، ويرتد من يرتد، ويصدق الله من يصدقه، فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من يصبر، ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يمكن الله له في الأرض، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي، وقد انطبع المتحركون لتحقيقه بطابعه، وتميزوا بقيمه. . .

وعندئذ تكون لحياتهم مطالب وحاجات تختلف في طبيعتها، وفي طرق تلبيتها عن حاجات المجتمعات الجاهلية ومطالبها وطرق تلبيتها. . . وعلى ضوء واقع المجتمع المسلم يومذاك تستنبط الأحكام، وينشأ فقه إسلامي حي متحرك، لا في فراغ، ولكن في وسط واقعي محدد المطالب والحاجات والمشكلات».

أقول: إن قيام الدعوة إلى الله لإصلاح المجتمعات الإسلامية بإصلاح عقائدهم وعباداتهم وأعمالهم وسياستهم أمر لازم لابد منه، ولكن كل هذا لا يعني ما يقوله سيد قطب من أنه لابد من وجود حركة تنشئ الإسلام من فراغ وتنشئه من جديد في مجتمعات جاهلية كافرة على حد قوله: «وهذه الحركة لابد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء، فيفتن من يفتن، ويرتد من يرتد. . .» إلخ.

فالداعي إلى الله قد يتعرض للابتلاء فيصبر، وقد يصاب بالعجز والفتور

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠١٠).

ولا يستمر؛ فكيف يحكم عليه سيد بالردة؟!

ما سبب ذلك إلا تكفير سيد للمجتمعات الإسلامية؛ لأنها لا تؤمن بما جاء به سيد قطب من عقائد وتصورات وفهوم غريبة على الإسلام: عقائده، وفقهه، وسياسته.

ويؤكد مرة أخرى ما قرره سابقًا، فيقول:

«إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامي، ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام... لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ في فراغ، ولم تتحرك في فراغ كذلك!

إن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي... ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت في وجه الجاهلية لإنشائه، وتحددت أقدارها، وتميزت مقاماتها في ثنايا تلك الحركة.

إنه مجتمع جديد، ومجتمع وليد، ومجتمع متحرك دائمًا في طريقه لتحرير الإنسان؛ كل الإنسان... في الأرض؛ كل الأرض... من العبودية لغير الله، ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت؛ أيًا كانت هذه الطواغيت»[1].

١- يصرح سيد هنا باستحالة تطبيق الأحكام الفقهية الخاصة بالنظام الإسلامي.

٢- يعلل ذلك بأن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك في فراغ... إلخ.

٣- وأن المجتمع الإسلامي ينشأ بتركيب عضوي آخر غير التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي.

٤- لأنه ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت في وجه الجاهلية

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠٠٩-٢٠١٠).

لإنشائه . . . إلخ .

٥- ويرى أن هذا المجتمع مجتمع جديد، وليد، متحرك دائمًا، لتحرير الإنسان في كل الأرض من ذل العبودية للطواغيت .

والظاهر أنه يريد بالطواغيت الحكام فحسب، أما شرك القبور؛ فلايمكن أن يدور بخلده، وأما عبادة الأوثان؛ فما هي إلا أمور ساذجة، ويمكن مؤاخاة أهلها وموادتهم إذا لم يحاربونا، ولو كانوا مجوسًا وشيوعيين ونصارى وغيرهم[1] .

ويؤكد ما سبق من أحكام بعيدة عن العدل والرحمة، فيقول :

«وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلًا؟! وهكذا . . . وإذا كنا لا نملك افتراض أصل حاجات المجتمع حين يكون مسلمًا، ولا حجم هذه الحاجات أو شكلها، بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن تركيب المجتمع الجاهلي، واختلاف تصوراته ومشاعره وقيمه وموازينه . . . فما هذا الضنى في محاولة تحوير وتطوير وتغيير الأحكام المدونة؛ لكي تطابق حاجات هي في ضمير الغيب، شأنها شأن وجود المجتمع المسلم» .

ويقول :

«إن نقطة البدء في المتاهة -كما قلنا- هي افتراض أن هذه المجتمعات القائمة هي المجتمعات الإسلامية، وأنه سيجاء بأحكام الفقه الإسلامي في الأوراق لتطبق عليها، وهي بهذا التركيب العضوي ذاته، وبالتصورات والمشاعر والقيم والموازين ذاتها . . . كما أن أصل المحنة هو الشعور بأن واقع هذه المجتمعات الجاهلية وتركيبها الحاضر هو الأصل الذي يجب على دين اللَّه أن يطابق نفسه عليه، وأن يحور ويطور ويغير في أحكامه ليلاحق حاجات هذه المجتمعات ومشكلاتها المنبثقة أصلًا من مخالفتها للإسلام ومن خروج حياتها جملة من إطاره»[2] .

---

(١) سيأتي توضيح ما قلناه فيما بعد إن شاء اللَّه.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠١١).

وعلى هذا المقطع من الملاحظات ما يأتي:

١- يبدو أن سيدًا يرى جواز تحديد النسل!

٢- يرى أن المجتمع المسلم لايزال في ضمير الغيب، وهذا عين التكفير للمجتمعات الإسلامية، وقد عرفت على أي أساس يكفر هذه المجتمعات.

٣- وأن هذه المجتمعات كافرة، وأن افتراض أنها إسلامية: دخول في متاهة.

٤- وأننا لا نملك افتراض أصل حاجات هذا المجتمع؛ لأنه لا علاقة له بالإسلام؛ بسبب اختلاف تركيبه العضوي عن المجتمع الإسلامي الذي يصلح فيه تطبيق الإسلام ويمكن أن نعرف حاجاته ومتطلباته؛ فهذا المجتمع لا يزال في ضمير الغيب.

* * *

شهادات على سيد قطب وأتباعه بتكفير المسلمين

١ - شهادة القرضاوي على سيد قطب وكتبه بالتكفير:

قال القرضاوي في كتابه «أولويات الحركة الإسلامية»[١]:

«في هذه المرحلة ظهرت كتب الشهيد سيد قطب، التي تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره، والتي تنضح بتكفير المجتمع، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامي بفكرة تجديد الفقه وتطويره، وإحياء الاجتهاد، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع، وقطع العلاقة مع الآخرين، وإعلان الجهاد الهجومي على الناس كافة، والإزراء بدعاة التسامح والمرونة، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية.

ويتجلى ذلك أوضح ما يكون في تفسير «في ظلال القرآن» في طبعته الثانية، وفي «معالم في الطريق»، ومعظمه مقتبس من الظلال، وفي «الإسلام ومشكلات الحضارة»، وغيرها، وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابي الكبير؛ كما كان لها تأثيرها السلبي»[٢].

وقد قاوم هذا الفكر الأستاذ الهضيبي وآخرون في أبحاث أشرف عليها الهضيبي في كتاب «دعاة لا قضاة».

وقاومه الأستاذ أبوالحسن الندوي في كتابه «التفسير السياسي».

وقاومه العلامة المحدث ناصر الدين الألباني، وكثير من علماء المسلمين.

نسأل الله أن يبصر الأمة وشبابها بالحق في كل ميادين الإسلام، وأن يجنبهم

---

(١) (ص١١٠).

(٢) نأسف لمثل هذا المنهج؛ أعني: منهج الموازنات بين الحسنات والسيئات، الحائد عن منهج الإسلام الذي ضيع شباب الأمة، وقذف في قلوبهم حب البدع وأهلها، ولاسيما مذهب الخوارج في تكفير الأمة، وهون من شأن الرفض والتصوف الغالي، بما فيه وحدة الوجود، فمتى يستيقظ المؤمنون لمثل هذه الحيل.

الغلو والباطل في كل مجال.

٢- شهادة فريد عبد الخالق (أحد كبار الإخوان المسلمين) على سيد قطب وأتباعه بأنهم يكفرون المسلمين:

قال في كتابه «الإخوان المسلمون في ميزان الحق»[١]: «ألمعنا فيما سبق إلى أن نشأة فكر التكفير بدأت بين شباب بعض الإخوان في سجن القناطر في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، وأنهم تأثروا بفكر الشهيد سيد قطب وكتاباته، وأخذوا منها أن المجتمع في جاهلية، وأنه قد كفر حكامه الذين تنكروا لحاكمية الله بعدم الحكم بما أنزل الله، ومحكوميه إذا رضوا بذلك»[٢]اهـ

ويقول فريد عبد الخالق:

«إن أصحاب هذا الفكر وإن تعددت جماعاتهم، يعتقدون بكفر المجتمعات الإسلامية القائمة، وجاهليتها جاهلية الكفار، قبل أن يدخلوا في الإسلام في عهد الرسول ﷺ، ورتبوا الأحكام الشرعية بالنسبة لهم على هذا الأساس، وحددوا علاقاتهم مع أفراد هذه المجتمعات طبقًا لذلك، وقد حكموا بكفر المجتمع لأنه لا يطبق شرع الله، ولا يلتزم بأوامره ونواهيه.

ومنهم من قال بعدم كفر مخالفيهم ظاهريًا، وقالوا بنظرية (المفاصلة الشعورية)، فأجاز هذا الفريق الصلاة خلف الإمام الذي يؤم المصلين المسلمين في سجونهم ومتابعته في الحركات دون النية، وقالوا بعدم تكفير زوجاتهم، وأجلوا كفرهم[٣] على أساس نظرية (مرحلية الأحكام)، وأنهم في عصر الاستضعاف -أي: العهد المكي- بأحكامه التي نزلت إبانه، فلا تحرم المشركات، ولا الذبائح، ولا تجب صلاة الجمعة ولا العيدين، ولا يجوز الجهاد، ويكفرون من لم يؤمن بفكرهم، وأخذوا ببعض أساليب الباطنية في (التقية)، ألا يذكروا أسرار معتقداتهم لغيرهم، ويظهرونها لخواصهم وأتباع

---

(١) (ص١١٥).

(٢) (ص١١٥).

(٣) لعله أراد: نكاحهم.

فكرهم، وذلك عندهم ضرورة حركية.

وطائفة تمسكت بالمفاصلة الصريحة، وكفرت مخالفيهم ومن كان معهم، ومنهم جماعة الإخوان المسلمين، ومرشدهم، وآباؤهم، وأمهاتهم، وزوجاتهم، وهم جماعة (التكفير والهجرة)، الذين يسمون أنفسهم (جماعة المؤمنين)»[1].

٣- شهادة علي جريشة (وهو من كبار الإخوان المسلمين):

قال بعد أن تحدث عن غلو الخوارج وتكفيرهم لعلي وأصحابه:

«وفي الحديث انشقت مجموعة على جماعة إسلامية كبيرة إبان وجودهم في السجون... ومع ذلك لجأت تلك المجموعة إلى تكفير الجماعة الكبيرة؛ لأنها لا تزال على رأيها في تكفير الحاكم، وأعوان الحاكم، ثم المجتمع كله، ثم انشقت المجموعة المذكورة إلى مجموعات كثيرة، كل منها يكفر الآخر»[2].

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في سياق حديثه عن الحكم بغير ما أنزل الله:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[3]، ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلًا من غير اتباع لما أنزل الله؛ فهو كافر؛ فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم.

بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسوالف البادية، وكأوامر المطاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر؛ فإن كثيرًا من الناس أسلموا، ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم، التي يأمر بها المطاعون.

فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل

---

(١) (ص١١٨).

(٢) راجع كتابه «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» (ص٢٧٩).

(٣) المائدة: ٤٤.

استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله؛ فهم كفار، وإلا كانوا جهالًا كمن تقدم أمره.

وقد أمر الله المسلمين كلهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم؛ فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزمًا لحكم الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، لكن عصى واتبع هواه؛ فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة.

وهذه الآية مما يحتج بها الخوارج على تكفير ولاة الأمر الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ثم يزعمون أن اعتقادهم هو حكم الله، وقد تكلم الناس بما يطول ذكره هاهنا، وما ذكرته يدل عليه سياق الآية.

والمقصود: أن الحكم بالعدل واجب مطلقًا في كل زمان ومكان على كل أحد، ولكل أحد، والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو عدل خاص، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم به واجب على النبي ﷺ وكل من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله؛ فهو كافر، وهذا واجب على الأمة، في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية والعملية»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[4]:

«وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا، حيث أطاعوهم في تحليل

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) «منهاج السنة» (٣/ ٣٢-نشر مكتبة الرياض الحديثة).

(٤) التوبة: ٣١.

ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله؛ اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف».

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسل، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ﷺ، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول ﷺ؛ فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول ﷺ؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه؛ ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه»[1].

* * *

(١) انظر كتاب الإيمان (ص٦٧-٦٨) نشر المكتب الإسلامي، و«فتح المجيد» (ص١١١- المكتبة التجارية).

الفصل السادس: الشرك وعبادة الأوثان عند سيد ومن سار على نهجه

يقول سيد قطب:

«إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل، وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر، وحدود العقيدة أبعد كثيرًا من مجرد الاعتقاد الساكن. . .

إن حدود الاعتقاد تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة. . . وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة، كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة، فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء»[1].

وفي هذا الكلام حق وخلط:

أما أن العقيدة قاعدة لمنهج حياة متكامل؛ فمسلَّم.

وأما أن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة. . . إلخ؛ فهذا ما لم يدل عليه كتاب ولا سنة، ولا قاله علماء الإسلام؛ فهذا من شذوذات سيد قطب؛ ليوسع به دائرة التكفير لمن يخالف منهجه هو، وهو مع ذلك يحيد عن ذكر شرك القبور.

ثم يقول:

«إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى مجسمة في أحجار، أو أشجار، أو حيوان، أو طير، أو نجم، أو نار، أو أرواح، أو أشباح.

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١١٤).

إن هذه الصورة الساذجة كلها لا تستغرق صور الشرك بالله، ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله، والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها، ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة، ولابد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها، كما أنه لابد من التعمق في معنى الأصنام، وتمثل صورها المجردة المتجددة مع الجاهليات المستحدثة»[1].

وفي هذا الكلام:

أولًا: تهوين من دعوات الأنبياء التي ركزت على عبادة الأصنام والأوثان، وقد ضج من أسلوب سيد قطب هذا كل من يفهم حقيقة التوحيد والشرك، بل ضج منه المتساهلون في موضوع التوحيد والشرك من أصدقائه؛ مثل أبي الحسن الندوي، وعلي جريشة، وغيرهما، وأدركوا أن هذا تهوين من دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-.

ثانيًا: فيه صرف الدعاة عن أعظم وأكبر أنواع الكفر والشرك الذي حاربه كل الأنبياء والمرسلون والمصلحون، وأدركوا أنه أكبر خطر على الإنسانية، وأنه أعظم أنواع الانحطاط والانحدار الذي تهوي إليه البشرية إذا وقعت فيه.

ثالثًا: فيه خلط بين قضايا الشرك الأكبر والأصغر، وبين قضايا المعاصي صغيرها وكبيرها، فإذا كانت العقيدة تترامى حتى تشمل كل جوانب الحياة، وصور الشرك عند سيد لا نهاية لها؛ فكل معصية وكل مخالفة صغيرة كانت أو كبيرة تعتبر شركًا عند سيد[2]؛ إلا الشرك بالقبور، الذي لم يذكره سيد هنا، ولم يذكره ولم ينتقده في كل موضع يتحمس فيه للعقيدة وللتوحيد ولـ(لا إله إلا الله)، وكل موضع يتحمس فيه ضد الشرك.

رابعًا: إن هذا التفسير للشرك والتوحيد الذي يفسره سيد يُفرح عباد القبور من

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١١٤).

(٢) إن مذهب الخوارج في التكفير ليتضاءل جدًا أمام هذا المذهب الذي يوسع دائرة التكفير إلى ما لا نهاية له.

الروافض والصوفية؛ ذلك لأنه لا يمسهم ولا يمس عقائدهم وأعمالهم الشركية من قريب ولا من بعيد، وعنده وفي بلده ألوف القبور، تقدم لهم أنواع العبادات والشعائر، فلا يحرك اتجاهها ولا اتجاه أهلها أي ساكن، فضلًا عن بلدان العالم الإسلامي شرقًا وغربًا.

ويقول:

«إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن (لا إله إلا الله) يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شئون الحياة خالصة لله وحده[١]، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته... وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة...

والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته... إن العبد الذي يتوجه إلى الله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم... إلخ وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسة والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب البشر، تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره.

إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف شهادة (لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) في أخص حقيقتها... وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم، فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي يزاوله المشركون في كل زمان ومكان، والأصنام ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة، فالأصنام ليست إلا شعارات للطاغوت، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها»[٢].

---

(١) سيد لا يرى تقديم الشعائر للقبور شركًا، ولا يدخلها حتى في هذه الصورة؛ فإن هذه الصورة خاصة بالأصنام والأحجار والأشجار ... إلخ، ولا تدخل فيها الأضرحة والقبور.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢١١٤).

ثم ضرب أمثلة لهذه الأصنام بـ (القومية)، و(الوطن)، و(الشعب)، و(الطبقة)؛ إذا رفعت كشعارات.

أقول:

أولًا: لا يخفى على القارئ أن سيدًا لم يفهم معنى شهادة أن (لا إله إلا الله) حق الفهم، فلذا تراه كثيرًا ما يفسرها بالربوبية والحاكمية والسلطة والسيادة، وقد بينت ذلك فيما سلف.

ثانيًا: لا يبالي سيد قطب بعبادة القبور والأضرحة، والشرك بها، لذا لم يذكرها في الأمثلة الحاضرة اليوم في حياة البشرية.

ثالثًا: إن هذه الأمور التي ذكرها من السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والتقاليد والأزياء والقومية والوطن والشعب والطبقة موجودة في حياة البشرية كلها، وعلى امتداد تاريخها، والقول: إنها خاصة بهذا الزمان! مجازفة.

ومع وجودها في كل زمان وفي كل أمة؛ فإن الله لم يسمها أصنامًا، والأنبياء والعلماء والمصلحون حقًّا لم يسموها أصنامًا، وهي تتراوح ما بين المعصية الكبيرة والصغيرة، ومنها ما هو من المباحات ومما سكت عنه الشارع، فهو عفو، والأصل في الأشياء التي لم يتناولها الشارع بالتحليل والتحريم الإباحة، وما كان من هذه الأمور قد تناوله الشارع بالتحريم؛ فإنه يكون حرامًا، ومرتكبه عاص مخالف لأمر الله وشرعه، ما لم يستحل هذا الأمر الذي علم تحريمه، فإذا استحله على هذا الوجه؛ كفر بالاستحلال، لا بمجرد العمل، هذا هو الفقه في هذه الأمور عند علماء الإسلام.

أما أن يأتي رجل كسيد، فيجعل الأعمال والعادات والتقاليد والأزياء كلها على مستوى واحد، وكلها شرك وعبادة للأصنام، ويصبح التقليد المعين صنمًا، والزي صنمًا، والعادة صنمًا، ومعظم الناس عباد لهذه الأصنام، مشركون! فهذا لا يقوله إنسان شم رائحة الفقه والفهم للإسلام والتوحيد والشرك.

وإلى جانب هذا التشديد، نرى سيدًا يستهين بما شدد الله على أهله النكير، فبعث الله من أجله الرسل جميعًا لمحاربته والقضاء عليه، مسوٍّ بينه وبين المعاصي

والمباحات، بل هو يعطي لهذه الأمور العناية القصوى، ويوجه إليها كل أو جل اهتمامه واهتمام أتباعه، ويصرف نفسه وأتباعه عن محاربة الشرك الأكبر الذي يهون من شأنه ويسميه الشرك الساذج ويسميه أتباعه بالبدائي والشعبي، ويسمون هذه الأمور التي منها الشرك غير المطلق والمعاصي والمباحات بالشرك الحضاري، تطاولًا على أهل التوحيد والسنة الذين يحاربون الشرك الساذج البدائي في نظر هؤلاء التقدميين المتحضرين، الذي هو موضوع جهاد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-.

ويقول محمد قطب وارث سيد قطب وشارح فكره ومنهجه وناشره في كتابه «دراسات قرآنية»[1] **مفسرًا قوله تعالى:** ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[2]:

«لقد تغيرت ولا شك بعض مظاهر العبادة، فلم يعد هناك تلك (الإناث) التي كان العرب في شركهم يعبدونها، ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير، وحلت محل (الإناث) القديمة أوثان أخرى: الدولة، والزعيم، والمذهب، والحزب، والعلم، والتقدم، والإنتاج، والحضارة، والتطور، والمجتمع، والوطن، والقومية، والعالمية، والإنسانية، والعقلانية، و(المودة)، والجنس، والحرية الشخصية . . .

عشرات من (الإناث) الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة التي كان يعبدها العرب في الجاهلية، تضفى عليها القداسات الزائفة، وتعبد من دون اللَّه، ويُطاع أمرها في مخالفة أمر اللَّه وفي تغيير خلق اللَّه . . .

---

(١) (ص٤٦٩).

(٢) النساء: ١١٧-١٢١.

ما تغيرت إلا مظاهر العبادة . . .

(تطورت)!

ولكن الجوهر لم يتغير . . . إنه عبادة الشيطان»[1] .

هكذا يصور محمد قطب الأوثان، فنسأله : هل بعث اللّه الرسل جميعًا إلى أمم لا دول لها، ولا زعماء، ولا مذاهب، ولا أحزاب، ولا علم، ولا وطن، ولا مجتمع، ولا قومية؟!

فلماذا أغفل اللّه هذه الأشياء الخطيرة الجسيمة عند سيد ومحمد قطب فلم يسمها أوثانًا ولا أصنامًا؟!

ولماذا خصَّ اللّه لفظ الأوثان والأصنام بتلك الأشياء الساذجة البسيطة في نظر سيد ومحمد قطب، وكرر ذمها وذم أهلها في آيات قرآنية كثيرة، وكفر عابديها، واعتبرهم كفارًا مشركين، وأباح دماءهم وأموالهم، وأباح استعبادهم واسترقاقهم من أجل هذه الأنداد وذم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟!

وقال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2] .

فهل هذه الأحكام تنطبق على من ينتمي إلى دولة، أو حزب، أو مجتمع، أو قومية كافرًا مشركًا يباح دمه وماله واسترقاقه، ويستحق الخلود في النار، وأنواع الوعيد الذي توعد اللّه به الكافرين المشركين؟!

ولقد هدم رسول اللّه ﷺ ثلثمائة صنم في غداة واحدة، وكان يبعث الناس لهدم الأصنام والقبور؛ فهل للدعاة الآن أن يهدموا العلوم والحضارات والمجتمعات والأوطان والقوميات، ويدمروا التقدم والإنتاج والحريات

---

(١) وقد نقل هذا النص الدكتور سفر الحوالي مفسرًا به كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) في كتابه «العلمانية» (ص٦٨٠)، وهذا من العجائب.

(٢) الحج: ٣٠-٣١.

الشخصية؛ لأنها أوثان تعبد من دون الله.

ونسأله مرة أخرى: حينما حمل أصحاب رسول الله ﷺ راية التوحيد وراية الجهاد ليفتحوا الدنيا لتكون كلمة الله هي العليا، ودعوا البلدان التي يُراد فتحها إلى توحيد الله وإخلاص الدين له أو القتال؛ هل قالوا للأمم ذات الحضارات، والعلوم، والقوميات، والمجتمعات، والأحزاب، والإنتاج الزراعي، والصناعي، والأوطان الإنسانية، والعقلانية، والحريات الشخصية... إلخ.

هل قالوا لهم: إن هذه الأمور أوثان وأنداد لله، وأنتم تعبدونها من دون الله، ونحن جئنا لقتالكم حتى تكفروا بها وتهدموها، أو نقاتلكم ونستبيح دماءكم وأموالكم ونسترق رقابكم بسبب أنكم اتخذتم هذه الأشياء آلهة من دون الله؟

أو أن أصحاب رسول الله ﷺ ذهبوا للجهاد في سبيل الله، وكانوا يعرفون حق المعرفة ما هي الأوثان التي تعبد من دون الله، وما الشرك الأكبر، وما هي العادة التي إن صرفت لغير الله كانت شركًا أكبر، والأشياء التي تصرف لها العبادات هي الأوثان والأصنام والأنداد، مثل معبوداتهم التي كانوا يعبدونها في جاهليتهم، وأن عابديها هم المشركون الذين تُباح دماؤهم وأموالهم، ويباح استرقاقهم واستعبادهم؟

إن الصحابة ﷺ لم يقولوا للأمم أبدًا: إن حضارتكم وعلومكم ومجتمعاتكم أوثان وأنداد.

فهل هم بهذا لم يبلغوا رسالة الإسلام على وجهها، ولم يبينوا للناس حقيقة التوحيد والشرك؟

ولقد أغفل ونسي محمد قطب الشرك الحقيقي والأوثان الحقيقية التي لا تزال قائمة على أشدها في معظم البلدان، وعبادتها وتقديسها على أشدها في مختلف الشعوب، يعبدها الملايين الهائلة من البشر، وفيهم المثقفون الذين يحملون أعلى الشهادات في السياسة، والاقتصاد، والطب، والآداب، واللغات، والهندسة، وغيرهم من سائر طبقات الناس وأصنافهم...

تلك البلدان مثل الهند، والصين، واليابان، وتايلند، وسنغافورة، وفيها من

المعابد والأوثان ما لا يحصي عدده إلا اللَّه، وتنتشر فيها تماثيل بوذا في المنازل والميادين العامة ودور العبادة.

وأهل أوربا وأمريكا يقدسون ويعبدون الصلبان والصور من دون اللَّه.

وفي كثير من دول إفريقيا تعبد الأصنام والأوثان. . .

فأين يذهب محمد قطب عن هذا الواقع الكبير الذي لا يخفى على من له أدنى إلمام بواقع البشر وديانتهم وأحوالهم، لاسيما في هذا العصر الذي توفرت فيه وسائل المعرفة، وتطورت إلى حد بعيد؟!

وتقوم في الهند اليوم مذابح رهيبة في المسلمين من أجل هذه الأوثان.

ونسي محمد قطب تعلق معظم المنتسبين إلى الإسلام بالقبور؛ ففي مصر بالذات التي ولد وعاش فيها مئات من القبور المقدسة، تدعى من دون اللَّه، ويستغاث بها في الشدائد، وتقدم لها القرابين والنذور، وتقام لها الأعياد والاحتفالات، وتشد إليها الرحال، ويعتكف حولها، ويطاف بها، ويعتقد فيها أنها تعلم الغيب وتتصرف في الكون. . .

وفي الهند، وباكستان، وإيران، وشرق آسيا، ووسطها، وأفغانستان، وفي تشاد، والسودان، والحبشة، والصومال، وسائر دول إفريقية ألوف الأضرحة تعبد من دون اللَّه، وتقدم لها القرابين، ويحلف بها، وتخاف وتخشى أكثر مما يخاف ويخشى من اللَّه رب العالمين.

فلماذا لا يذكرها محمد قطب، ولا يتململ منها في مؤلفاته؟!

ولماذا لا يشدد النكير عليها وعلى المتعلقين بها من المنتسبين إلى الإسلام، ويكون لهم مثل النذير العريان؟!

بل هو وأخوه بأسلوبهما هذا يهوّنان من شأن الشرك الأكبر، الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، ويصرفان الدعاة عن مقاومة الشرك العظيم، ويوجهانهم ليصرفوا جلَّ اهتمامهم إن لم يكن كله إلى محاربة ما يسميانه بالأوثان

---

(١) لقمان: ١٣.

الجديدة أو الشرك الحضاري[1].

بل تطور الأمر بكثير من الدعاة المتأثرين بهما وبمنهجهما إلى السخرية والاحتقار لمن يحارب الشرك الأكبر الذي بعث اللّٰه الرسل لاستئصاله وتطهير الأرض منه.

إني أعتبر هذا التفسير حملًا لكلام اللّٰه على غير معناه، وعلى غير ما أراده اللّٰه، وفهمه أئمة التفسير والتوحيد وسائر علماء المسلمين، وأعتبر أن في هذا العمل تضييعًا لمعانيه الأساسية ومقاصده الحقيقية...

فلمحمد قطب أن يسمي تلك الأشياء بالكبائر والمعاصي والانحرافات، ويسميها أمورًا جاهلية، ويحاربها ويحض الدعاة على التحذير منها، أما أن يغير لها معاني القرآن ومقاصده، ويضع الأمور في غير مواضعها، ويهون من خطورة الأوثان بأنها قديمة وبسيطة وساذجة، ويتجاهل الوثنية القائمة الآن في معظم بلدان العالم، ويتجاهل عبادة القبور التي دمرت حياة المسلمين، فأصبحوا والإسلام موضع سخرية لليهود والنصارى والوثنيين، وأصبحوا يطلقون على الإسلام أنه دين وثنية وشرك، ويطلقون على المسلمين بسبب هؤلاء القبوريين أنهم وثنيون؛ فهذا ما لا يحتمل، ولا يجوز السكوت عنه.

فعلى علماء المسلمين الناصحين أن يبينوا للناس خطر هذه الجرأة على تفسير كتاب اللّٰه، وعلى النتائج الخطيرة التي تجعل المعاصي مهما كبرت أوثانًا، وأهلها عباد أوثان، وعلى إسدال الستار على الوثنية الحقيقة والوثنيين الحقيقيين، وعلى إسدال الستار على أعظم ذنب وأعظم مشكلة في حياة الأمة، ألا وهي التعلق بأهل القبور وتقديسهم، وتقديس قبورهم وأضرحتهم، وسائر الأعمال المنكرة ذات

---

(١) هذه عبارة سلمان العودة، حيث يقول: الشرك الحضاري والشرك البدائي، انظر (ص٤٥) من كتابه «هكذا علم الأنبياء».

ويقول في هذا الكتاب (ص٧٤): «لو كان الأنبياء والمصلحون إلى يوم القيامة يحاربون من ألوان الشرك المناقض لكلمة (لا إله إلا الله) ما يتعلق بالأوضاع الشعبية فقط؛ لما تعرض لهم أحد، ولما وقف في وجههم إلا القليل» اهـ

الصلة بهذه القبور.

وأخيرًا؛ لك أن تقول: إن في هذه الأمور المذكورة فسادًا وضلالًا وجاهلية عند كثير من المجتمعات والأفراد؛ لمخالفتهم لتعاليم الإسلام وآدابه، وقد يكون العلم واجبًا ونافعًا، والحضارة لازمة، والدولة مسلمة، والزعيم مسلمًا صالحًا، والمذهب حقًّا؛ إذا قامت هذه الأمور على الإسلام؛ فلماذا هذا الإطلاق؟! ولماذا هذه المجازفات؟!

ولماذا يأتي هذا الكلام في تفسير كلام اللَّه مخالفًا لما قرره كتاب اللَّه وقرره الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

وإذا تبين لك أن أحدًا يستحل شيئًا من المعاصي؛ فلك أن تقول: إن هذا الاستحلال كفر؛ لأنه مضاد لله في حق التشريع، مكذب بالنصوص التي نصت على تحريم تلك المعصية أو المعاصي التي استحلها، ولا تسمى تلك المعصية وثنًا ولا صنمًا؛ لأن غيره قد يرتكبها غير مستحل، فلا توصف بغير المعصية، ولأن العقول واللغات والشرائع ترفض تسمية تلك المعاصي أوثانًا وأصنامًا.

* * *

الفصل الثاني

معرفة العلماء حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وحقيقة دعوة الأنبياء وأهدافها بخلاف ما يقوله المودودي وسيد قطب وأتباعهما

قال أبوالحسن الندوي في «التفسير السياسي للإسلام»[١]:

«الدعوة إلى التوحيد واستئصال شأفة الشرك كانا هدف بعثة الأنبياء وتعليمهم ودعوتهم الأساسي عبر التاريخ البشري».

وقال في كتاب «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»[٢]:

«ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادئ الدين في شيء، أما ما كان من العقائد والمبادئ والفرائض والنصوص، وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله؛ فالأنبياء -عليهم السلام- على اختلاف عصورهم، أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لا يعرفون تنازلًا، ولا يعرفون هوادة، ولا يرضون مساومة».

ثم قال:

إخلاص الدين لله وإفراد العبادة له:

والسمة الثانية: هي أن الأنبياء -عليهم السلام- كان أول دعوتهم، وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه

---

(١) (ص٨٤/ طبعة دار آفاق الغد).

(٢) (ص٥١-٥٣/ طبعة دار القلم دمشق).

النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده.

وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية (أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكًا، ويقلده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام)[١].

وكل من له صلة بالقرآن -وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة- يعرف اضطرارًا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية، والإنكار عليها، ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها؛ كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدءون، وإليها ينتهون.

والقرآن تارة يقول بالإجمال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٢].

وتارة يقول بالتفصيل، فيسمي نبيًا نبيًا، ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد:

فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[٣].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾[٤].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

---

(١) التعبير منقول من «حجة الله البالغة» للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) هود: ٢٥ و ٢٦.

(٤) هود: ٥٠.

ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[2].

أما إبراهيم؛ فدعوته إلى توحيد الألوهية ونبذ الأصنام والأوثان أوضح وأصرح؛ ففي سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[3].

* * *

---

(1) هود: ٦١.

(2) هود: ٨٤.

(3) الأنبياء: ٥١-٥٢.

الفصل السابع: الشك والتشكيك في أمور عقدية يجب الجزم فيها

١- سيد يسير وراء المعتزلة والقدرية في المراد بالجنة التي كان فيها آدم وأخرج منها، مخالفًا عقيدة أهل السنة بأنها الجنة المعروفة عند المسلمين، التي أعدها الله للمتقين.

فيقول شاكًّا فيها ومشككًا:

«وبعد... مرة أخرى... فأين كان هذا الذي كان؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حينًا من الزمان؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟ كيف قال الله لهم؟ وكيف أجابوه؟ ...

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب، وبقدر ما سخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرفه بأسرارها؛ بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب فيما لا جدوى في معرفته»[1].

بل تجاوز سيد مذهب المعتزلة إلى التشكيك في الملائكة وإبليس، وفي تكليم الله آدم والملائكة وإبليس!

لا يجوز لمسلم أن يقول مثلًا: لا ندري من هو الله، ولا ندري معنى صفاته وعلمه وكلامه وقدرته، ولا يقول: ولا ندري من هم الملائكة، ولا، ولا...

بل عليه أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن الجنة حق، والنار حق، والملائكة حق، واليوم الآخر حق؛ بإيمان جازم لا تشكك فيه ولا ريب ولا تردد.

---

(١) «في ظلال القرآن» (ص٥٩/ الطبعة الأولى).

٢- وهذا التشكيك هو المنهج الذي سار عليه سيد في كثير من الأمور؛ مثل تشكيكه في السموات، انظر إليه يقول في تفسير قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[1].

«والسبع الشداد التي بناها اللّٰه فوق أهل الأرض هي السموات السبع، وهي الطرائق السبع في موضع آخر... والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه اللّٰه...

فقد تكون سبع مجموعات من المجرات، وهي مجموعات من النجوم، قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم، وتكون السبع المجرات هذه هي التي لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية... وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه اللّٰه من تركيب هذا الكون الذي لا يعلم الإنسان عنه إلا القليل»[2].

فترى ثقته في كثير من المواضع في العلوم الكونية بأخبار الفلكيين من اليهود والنصارى أقوى من ثقته بأخبار الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[4].

والنظر هنا هو النظر بالعين إلى أمور محسوسة مشاهدة.

وأما أخبار السنة؛ فيكفي منها أحاديث المعراج، وأن للسموات أبوابًا، وفي كل سماء نبي من الأنبياء... إلى غير ذلك مما ذكر في هذه الأحاديث، التي يستفيد منها المؤمن اليقين، لكن سيدًا يستفيد من أخبار الكفار ويثق بها ويعتمد عليها أكثر مما يعتمد على أحاديث الرسول ﷺ.

٣- وقال مفسرًا قول اللّٰه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[5]:

---

(١) النبأ: ١٢.

(٢) «في ظلال القرآن» (ص٣٨٠٥ و ٣٨٠٦-النبأ).

(٣) ق: ٦.

(٤) الغاشية: ١٧-١٩.

(٥) طه: ١١-١٢.

«نودي بهذا البناء للمجهول، فما يمكن تحديد مصدر النداء، ولا اتجاهه، ولا تعيين صورته، ولا كيفيته، ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه، نودي بطريقة ما، فتلقى بطريقة ما، فذلك من أمر الله، نؤمن بوقوعه، ولا نسأل عن كيفيته؛ لأن كيفيته وراء مدارك البشر»(١).

هكذا يقول: «بالبناء للمجهول؛ فلا يمكن تحديد مصدر النداء»؛ فهو لا يؤمن بأن هذا النداء من الله، مع صراحة قوله تعالى في الآية: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ في أن النداء من الله، ولا يؤمن بأن موسى سمع هذا النداء من الله!

وكأنه لم يسمع قول الله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(٢).

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٣)!!

فما فائدة قوله: «فذلك من أمر الله نؤمن بوقوعه»؟!

٤- ويقول عن تكليم الله لنبيه موسى عليه السلام:

«ولا ندري نحن كيف... لا ندري كيف كان كلام الله سبحانه لعبده موسى... ولا ندري بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله؛ فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر»(٤).

تشكيك سيد قطب في رؤية الله، بل إنكاره لها:

٥- ويقول متشككًا ومشككًا في رؤية الله في الدار الآخرة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٥):

«إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها، ذلك حين يعد الموعودين من السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة، حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل مافيها من

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٣٠-٢٣٣١).

(٢) النازعات: ١٦.

(٣) النساء: ١٦٤.

(٤) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٦٨).

(٥) القيامة: ٢٢-٢٣.

ألوان النعيم . . .

إلى أن يقول: فأما كيف تنظر، وبأي جارحة تنظر، وبأي وسيلة تنظر؛ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني في القلب المؤمن.

فما بال الناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟! ويشغلونها بالجدل حول مطلق لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته.

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية، وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة المطلقة[1] يوم ذاك، وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور مجرد تصور كيف يكون ذلك اللقاء. . .

وإذن؛ فقد كان جدلًا ضائعًا، ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في ذلك المقام».

وهكذا!! وبمثل هذه السفسطة والتهاويل يظن سيد قطب أنه قد حل مشكلة الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة!!

ولا يدري أنه قد انحاز إلى المعتزلة في إنكار رؤية الله تعالى؛ فما هي تلك الحالة من السعادة التي لا يدري القارئ ما هي؟!

والقرآن قد حددها بالنظر إلى الله، والسنة المتواترة أكدتها، وآمن بها السلف الصالح.

فعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر؛ قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته».

وعنه قال: «إنكم سترون ربكم عيانًا».

---

(١) هذا من تعبيرات غلاة الصوفية أهل وحدة الوجود.

وعن أبي هريرة ﷺ: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارُّون في القمر ليلة البدر؟**». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**فهل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟**». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة**»[1] الحديث.

وهكذا يوضح رسول الله ﷺ ويؤكد أقوى تأكيد أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة، والأحاديث متواترة بذلك.

إدانة الأستاذ أحمد محمد جمال لسيد قطب إنكار رؤية الله في الدار الآخرة:

وسيد قطب يشكك في هذا الأمر العظيم الثابت بالكتاب والسنة المتواترة، ويرى أنه يعز تصوره مجرد تصور، ولا يدري كيف ينظر وبأي جارحة وبأي وسيلة ينظر؟

ولست في هذا ببدع؛ فقد سبقني إلى إدانة سيد قطب بإنكاره لرؤية الله في الدار الآخرة الأستاذ أحمد محمد جمال في كتابه الشهير «على مائدة القرآن» (ص٥٣-٥٤)؛ حيث انتقد سيد قطب في مقال له صدر في عام (١٣٦٧) انتقد فيه سيد قطب في كتابه: «مشاهد في القيامة» حيث ناقشه في خمس عشرة مسألة من ضمنها إنكاره لرؤية الله فقال:

وعقب في (ص ١٩٩) على هذه الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ بقوله: (نشهد الفجار محجوبين عن ربهم لا يرونه، والله لن يراه إنسان، ولكن الحجب هنا معنوي مجسم، فهم لن يتطلعوا إلى ربهم، بل يقفون كما عهدناهم ناكسي رءوسهم يائسين).

وجدالنا في هذا الملحظ يتجه وجهتين: الأولى: نفي الأستاذ سيد رؤية الله نفيًا مؤكدًا أو مؤبدًا بـ(لن)، وطبيعي أنه يعني الرؤية الأخروية؛ لأنه إنما يتحدث عن مشاهدة الآخرة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، حديث (٧٤٣٤-٧٤٣٧).

والثانية: قوله بمعنوية الحجب، وتجسيمه بخضعان رءوس الفجار، وعدم تطلعهم إلى ربهم خجلًا ويأسًا.

ونحن -في الوجهة الأولى- لا نريد أن نطيل في سرد الأدلة القطعية والظنية من القرآن والحديث على إمكان رؤية الله، فالأستاذ سيد يعلمها؛ وإن كان لا يعتقدها كما يبدو، ومظانها ميسورة له قريبة منه، وإنما نكتفي باستنباط حجتنا عليه من نفس الآية التي عرض لتصوير مشهدها ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ فإنها تقرر -بطريق مفهوم المخالفة، وهو أحد علوم القرآن التي يعتمد عليها الأئمة في استنباط الأحكام- أن المؤمنين غير محجوبين.

ونقول -في الوجهة الثانية-: إن الحجب حسي أولًا ثم معنوي؛ فهم أولًا لا يرون ربهم كما يراه المؤمنون، وهم ثانيًا لا ينالون -كما ينال المؤمنون- تكريمه وتسليمه، ولا يكون معنويًا وحده إلا أن يقول الأستاذ سيد: إن الفجار يرون ربهم ولكنهم محرومون من عطفه ولطفه، ولم يقل هذا أحد من قبل، والأستاذ سيد نفسه ينفي الرؤية الحسية عامة، عن الأبرار والفجار.

ثم إن قوله: (فهم لا يتطلعون إلى ربهم، بل يقفون كما عهدناهم ناكسي رءوسهم). تصوير لحجب حسي، وإلا فما معنى إغضاء الطرف وطأطأة الرأس إلى أسفل وعدم التطلع غير عدم الرؤية الحسية؟

٦- ويقول في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[1]؛ قال:

«ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية ثمانية أملاك، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله

(١) الحاقة: ١٣-١٧.

لا ندري نحن من هم ولا ما هم، كما لا ندري نحن ما العرش ولا كيف يُحمل، ونخلص من كل هذه الغيبيات التي لا علم لنا بها ولم يكلفنا اللَّه من علمها إلا ما قصه علينا

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلًا لغويًا جاريًا على اصطلاحات اللغة العربية».

وهكذا يلقي سيد بضلال من الشك والحيرة والتردد على كثير من الأمور الغيبية التي مدح اللَّه المؤمنين بالإيمان والاستيقان بها على أنها حقائق ثابتة.

وهذه الاضطرابات والتشككات من أقوى البراهين على أن سيد قطب لم يخرج من دوامة الحيرة الرهيبة التي أحاطت به؛ فمن المغالطات القول بأنه تجاوز هذه المرحلة، وخرج من الحيرة والشكوك، حتى في القطعيات.

٧- ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾[1]:

«ونحن لا نعرف ما هو العرش؟ ولا نملك صورة له، ولا نعرف كيف يحمله حملته، ولا كيف يكون من حوله، ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع اللَّه عليها أحدًا من المتجادلين».

العرش أعظم مخلوقات اللَّه، وهو فوق الفردوس أعلى الجنة، وله قوائم وجوانب، وله ظل.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله؛ فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[2].

---

(١) غافر: ٧.

(٢) صحيح البخاري (٩٧-التوحيد، رقم ٧٤٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٥)، وأخرجه الترمذي والحاكم.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور**»[١].

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: المتحابون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي**»[٢].

وعن أبي قتادة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نفَّس عن غريمه أو محا عنه؛ كان في ظل العرش يوم القيامة**»[٣].

والملائكة خلق من خلق الله تعالى الكرام على الله، ويقومون بأعمال ووظائف عظيمة، وقد وصفهم الله تعالى بصفات:

منها: أن لهم أجنحة؛ قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

ومنها: أن لهم أيدي؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾[٥].

ومنها: أنهم يصلون لربهم صفوفًا؛ قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾[٦].

وقول النبي ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**». فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يُتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف**»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٦٠-الأنبياء، حديث ٣٣٩٨)، ومسلم في الفضائل حديث (٢٣٧٤).
(٢) مسند أحمد (٤/ ١٢٨).
(٣) مسند أحمد (٥/ ٣٠٠).
(٤) فاطر: ١.
(٥) الأنعام: ٩٣.
(٦) الصافات: ١٦٤-١٦٦.
(٧) أخرجه مسلم (٤-الصلاة، حديث ٤٣٠).

إلى غير ذلك من صفاتهم.

فهذه حقائق يجب أن يؤمن بها المؤمن، وله أن يتصور عظم خلق العرش وصفات الملائكة وخلقهم بعيدًا عن الشكوك والأوهام، وما يزلزل التصديق والإيمان.

* * *

أضواء إسلامية

الفصل الثامن: قول سيد بخلق القرآن وأن كلام الله عبارة عن الإرادة

مسألة إنكار كلام الله، والقول بأن القرآن مخلوق من البدع الكبرى التي كفر بها السلف، وهي مشهورة جدًّا بين فرق المسلمين، ومن يجهل من طلبة العلم ما جرى للإمام أحمد وأهل السنة على أيدي الجهمية والمعتزلة في خلافة المأمون والمتعصم والواثق؟! وسيد قطب لا يجهل هذا الحدث الكبير.

يقول في «الظلال»[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]:

«هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعًا

لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: (كن)، فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن، على هذه الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة، أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها بذلك الكائن المراد صدوره عنها؛ فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه؛ لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه».

ويقول في كتابه «السلام العالمي والإسلام»[٣]:

«عن إرادة هذا الإله الواحد يصدر الكون بطريق واحد، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤].

---

(١) (١/١٠٦).

(٢) البقرة: ١١٧.

(٣) (ص١٥).

(٤) يس: ٨٢.

فلا واسطة بين الإرادة الموجدة والكون المخلوق، ولا تعدد في الطريقة التي يصدر بها هذا الكون كله عن الخالق الواحد، إنها مجرد الإرادة التي يعبر عنها القرآن بكلمة (كن)، وتوجه هذه الإرادة كافٍ وحده لصدور الكون عنها»[١].

ويقول في «الظلال»[٢]:

«فقوله تعالى إرادة، وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد».

ويقول عن القرآن في كتابه «الظلال»[٣]:

«والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق اللَّه جميعًا، وهو مثل صنع اللَّه في كل شيء وصنع الناس

إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات؛ فقصارى ما يصوغون منها لبنة، أو آجرة، أو آنية، أو أسطوانة، أو هيكل، أو جهاز، كائنًا في دقته ما يكون

ولكن اللَّه المبدع يجعل من تلك الذرات حياة، حياة نابضة خافقة، تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز سر الحياة، ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر ولا يعرف سره بشر».

ويقول بعد أن تكلم عن الحروف المقطعة:

«ولكنهم لا يملكون أن يؤلفوا منها مثل هذا الكتاب؛ لأنه من صنع اللَّه، لا من صنع الإنسان»[٤].

ويقول في تقرير أن القرآن مصنوع (أي: مخلوق):

«وكما أن الروح من الأسرار التي اختص اللَّه بها؛ فالقرآن من صنع اللَّه الذي لا يملك الخلق محاكاته، ولا يملك الجن والإنس -وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي- أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة، ﴿قُل لَّئِنِ

---

(١) (ص١٥).

(٢) (١٤/ ٢٢).

(٣) «في ظلال القرآن» (١/ ٣٨).

(٤) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٧١٩).

اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

فهذا القرآن ليس ألفاظًا وعبارات[٢] يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصفوه، فهو كالروح من أمر الله، لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره»[٣].

ويقول في تفسير سورة (صٓ):

«هذا الحرف (صاد) يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذي الذكر، وهذا الحرف من صنعة الله تعالى، فهو موجده صوتًا في حناجر البشر، وموجده حرفًا من حروف الهجاء التي يتألف من جنسها التعبير القرآني، وهي في متناول البشر، ولكن القرآن ليس في متناولهم؛ لأنه من عند الله، وهو يتضمن صنعة الله التي لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا في القرآن ولا في غير القرآن.

وهذا الصوت (صاد) الذي تخرجه حنجرة الإنسان، إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع الذي صنع الحنجرة، وما تخرجه من أصوات، وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هذه الحنجرة الحية التي تخرج هذه الأصوات، وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة في كل جزئية من جزئيات كيانهم القريب»[٤].

فصرح بأن هذا الحرف من صنعة الله، فالله موجده صوتًا وموجده حرفًا، مع أن التحدي ليس بخلق الحروف ولا بصناعتها، وصرح بأن القرآن صنعة الله المعجزة، وشبهه بالمخلوقات كلها، إذ هي تشارك القرآن في كونه وإياها جميعًا خوارق معجزة!!

---

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) قوله على القرآن: «ليس ألفاظًا وعبارات» هو كقول الأشعرية: «إن القرآن ليس بحرف ولا صوت»، والأشعرية تعترف بالكلام النفسي لله، وسيد لا يقول بذلك، بل يقول: «إن كلام الله هو الإرادة».

(٣) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٤٩-٢٢٥٠).

(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٠٦-٣٠٠٧).

ويؤكد ما سبق: إنكاره أن الله يتكلم، حيث قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾(١):

«نودي بهذا البناء للمجهول، فما يمكن تحديد مصدر النداء، ولا اتجاهه، ولا تعيين صورته، ولا كيفيته، ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه؛ نودي بطريقة ما، فتلقى بطريقة ما، فذلك من أمر الله، نؤمن بوقوعه، ولا نسأل عن كيفيته؛ لأن كيفيته وراء مدارك البشر»(٢).

هكذا يقول: «بالبناء للمجهول، فما يمكن تحديد مصدر النداء»!!

وهذا قول من لا يؤمن ولا يتصور أن الله كلم موسى تكليمًا؛ لأنه لا يؤمن بأن هذا النداء من الله.

وهل هو يجهل تصريح الله تعالى بقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾(٥)؟!

ويقول إنكارًا لتكليم الله موسى عليه السلام، وإنكارًا لسماع موسى لكلام الله حقيقة:

«ولا ندري نحن كيف ولا ندري كيف كان كلام الله سبحانه لعبده موسى ولا ندري بأي حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر».

وهذا تشكك وتشكيك بالغ النهاية، وفيه تأييد لمذاهب أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والخوارج، وخذلان لمذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة.

---

(١) طه: ١١-١٢.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٣٠-٢٣٣١).

(٣) النساء: ١٦٤.

(٤) النازعات: ١٦.

(٥) الأعراف: ١٤٣.

ثم ما فائدة تمويهه بقوله: «فذلك من أمر اللَّه نؤمن بوقوعه»، وهو لا يؤمن بأن مصدره هو اللَّه، ولا يؤمن بسماع موسى لكلام الله؟

وهكذا أوقع نفسه ومن يتأثر بكلامه في هوة البدعة والجحود لكلام اللَّه تعالى.

وعلى كل حال؛ فالرجل مغرق في إنكار أن اللَّه يتكلم، مغرق في القول بخلق القرآن.

وهل قالت الجهمية والمعتزلة أكثر من هذا؟!

وهل فطرة سيد السليمة قادته إلى هذا القول الخطير في القرآن العظيم وفي كلام اللَّه عمومًا؟!

وهل سيد يعيش في غابات وأدغال وكهوف، فلم يسمع بتلك الفتنة الكبيرة التي دارت رحاها على أهل السنة ردحًا من الزمن أيام المأمون والمعتصم والواثق، يقود تلك الفتنة، ويؤجج نيرانها الجهمية والمعتزلة على الأمة الإسلامية التي يقودها أئمة السنة والحق، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل.

تلك الفتنة التي يتردد صداها إلى يومنا هذا في مسامع كثير من صغار طلاب العلم وعوام المسلمين عربهم وعجمهم.

ألا إنه انحياز من سيد قطب إلى صفوف خصوم أهل الحق والسنة، إلى أهل البدع الكبرى من الجهمية والخوارج والمعتزلة، الذين يقولون تلك المقولة الضالة: «إن القرآن مخلوق».

أقوال السلف فيمن يقول بخلق القرآن:

قال الإمام البخاري في «خلق أفعال العباد»[1]:

«وحلف يزيد بن هارون باللَّه الذي لا إله إلا هو من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر.

وقيل لأبي بكر بن عياش: إن قومًا ببغداد يقولون: إنه مخلوق. فقال: ويلك!

(١) (ص١٤-١٥-نشر الدار السلفية).

من قال هذا؟ على من قال القرآن مخلوق لعنة اللَّه، وهو كافر، ولا تجالسوهم.

وقال ابن مقاتل: سمعت ابن المبارك يقول: من قال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾. مخلوق؛ فهو كافر».

وقال البخاري:

«وقال ابن عيينة، ومعاذ، والحجاج بن محمد، ويزيد بن هارون، وهاشم بن القاسم، والربيع بن نافع الحلبي، ومحمد بن يوسف، وعاصم بن علي بن عاصم، ويحيى بن يحيى وأهل العلم: من قال القرآن مخلوق؛ فهو كافر»[1]!

وقال وكيع بن الجراح: «لا تستخفوا بقولهم: القرآن مخلوق؛ فإنه من شر قولهم، وإنما يذهبون إلى التعطيل»[2].

وقد قُتل الجعد بن درهم بسبب قوله: إن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا.

وأقوال السلف كثيرة في هذا.

* * *

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٢٥).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص٢٦).

الفصل التاسع: قول سيد قطب بعقيدة وحده الوجود والحلول والجبر

يقول سيد قطب في تفسير قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]:

«وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة، التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى لعلها أضخم وأقوى، حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه، ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء.

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في القلب؛ فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه؟! وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود، حتى ذلك القلب ذاته، إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى، وكل شيء وهم ذاهب، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء.

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة، فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار؛ فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش تدبرها وتصور مدلولها، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى.

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى، وهاموا بها وفيها، وسلكوا إليها مسالك شتى، بعضهم قال: إنه يرى الله في كل شيء في الوجود، وبعضهم قال: إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود، وبعضهم قال: إنه رأى الله فلم ير شيئًا غيره في الوجود، وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة، إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال؛ إلا أن ما يؤخذ عليهم على وجه الإجمال هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور.

---

(١) الحديد: ٣.

والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة، ويعيش بها ولها، بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد؛ لتحقيق منهج الله في الأرض، باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورًا متزنًا، متناسقًا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله»[1].

وهكذا يقرر سيد قطب وحدة الوجود والحلول، وينسبهما إلى أهلهما الصوفية الضالة في سياق المدح، ويدعو إلى ذلك بقوله: «والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة ويعيش بها ولها»!!

إنه يرى أن وحدة الوجود والحلول كمال لا يدركه كثير من الناس، ومن لا يصل إلى هذه المرتبة من الكمال؛ فحسبه أن يعيش في تدبُّر هذه الآية التي تدل على عظمة الله، فحولها سيد قطب إلى وحدة الوجود والحلول، أعظم أنواع الكفر بالله.

ولقد قال في تفسير سورة البقرة بإبطال وحدة الوجود[2]، ونفاها نفيًا قاطعًا، وبيَّن أنها عقيدة غير المسلم؛ فما باله يقررها هاهنا وفي تفسير سورة الإخلاص؟!

هل تسلل إليه غلاة التصوف أهل وحدة الوجود والحلول والجبر فأقنعوه بعقيدتهم فآمن بها وقررها؟!

أو أنه أمعن في دراسة كتب التصوف، فاقتنع بهذه العقيدة بنفسه، فصدع بها؟!

ويقول سيد قطب في تفسير سورة الإخلاص:

«إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر؛ فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية، وهي من ثم أحدية الفاعلية، فليس سواه

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٤٧٩-٣٤٨٠).

(٢) راجع «في ظلال القرآن» (١/ ٧٥/ الطبعة الأولى)، ولا تخدعك المغالطات التي تقول: إنه أبطل وحدة الوجود في الطبعة الثانية.

فاعلًا لشيء أو فاعلًا في شيء في هذا الوجود أصلًا، وهذه عقيدة في الضمير، وتفسير للوجود أيضًا.

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور؛ خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود، إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلًا.

فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية؛ فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته؟!

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله؛ فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد اللَّه في كل شيء يراه، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئًا في الكون إلا الله؛ لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة اللَّه.

كذلك ستصحبه نفي فاعلية الأسباب، ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت، وهذه هي الحقيقة التي عُني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني، ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائمًا، ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[2]. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3]، وغيرها كثير.

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة اللَّه وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده مايرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود»[4].

---

(١) الأنفال: ١٧.

(٢) آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠.

(٣) الإنسان: ٣٠.

(٤) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٠٠٢-٤٠٠٣).

ويقول:

«وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحقيقة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله، وأن لا وجود إلا وجوده، وأن لا فاعلية إلا فاعليته ولا يريد طريقًا غير هذا الطريق»[1].

ويقول:

«فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها، يستند إلى الرب الملك الإله، والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام العياذ بالله»[2].

وفي هذا تأكيد قوي لما قرره من وحدة الوجود في تفسير سورة الحديد.

فهل هناك أصرح في وحدة الوجود من قوله: «إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده»؟!

وهل هناك أصرح في وحده الوجود والدعوة إليها من قوله: «إن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة، وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله، وأن لا وجود إلا وجوده»؟!

وكذلك قوله: «الحقيقة التي لا حقيقة غيرها».

فنسبته هذا المذهب إلى أهله، واستخدامه تعبيراتهم نفسها، ألا يدل على دراسة متعمقة ثم قناعة بهذا المذهب بعد أن نفاه وأبطله في أول تفسيره؟!

ماذا يقول المدافعون عن سيد قطب؟

نقل ابن دليم عن الدكتور صلاح الخالدي عن عبد الله عزام الذي رد على الشيخ ناصر الدين الألباني قوله: «إن سيد قطب قال بوحدة الوجود»:

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٠٠٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٠١٢).

«قال الدكتور عبد اللَّه عزام: الأولى أن نتخذ الخطوات التالية قبل الحكم على سيد في مسألة وحدة الوجود على النحو التالي:

أولًا: يجمع بين النصوص لسيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فيحمل المجمل على المبين، والمبهم على الواضح.

ثانيًا: أن يلجأ إلى النسخ؛ فسورة البقرة التي كتبها سيد في الطبعة الثانية بعد سورة الحديد والإخلاص؛ لأنه لم يصل إليها في الطبعة الثانية.

ثالثًا: يرجح بين النصوص المتعارضة؛ فيرجح عبارة النص في سورة البقرة على إشارة النص في سورتي الإخلاص والحديد، ويُرجح المنطوق الصريح في مهاجمة وحدة الوجود على المنطوق غير الصريح في السورتين، ويرجح المنطوق الصريح في سورة البقرة والنساء: أن مقام العبودية غير مقام الألوهية، وأنهما متمايزان بلا امتزاج، على المفهوم الوارد في سورتي الإخلاص والحديد»[1].

أقول: الجواب على هذا من وجوه:

الوجه الأول:

أن هذا المنهج والتعامل به لا يكون إلا لله ولكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يكون إلا لرسل اللَّه -عليهم الصلاة والسلام- فيما يبلغونه عن اللَّه ﷻ، والذي ميزهم اللَّه فيه على سائر الناس بأن عصمهم فيما يبلغونه عنه من الخطأ والكذب والنسيان، ولا يقرون فيما يخطئون فيه من اجتهاد في أمور الدين.

أما سائر الناس؛ فليس لهم هذه المنزلة، فما أخطئوا فيه يسمى خطأ، وما ضلوا فيه يسمى ضلالًا، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد، أما الأنبياء -عليهم الصلاة

(١) «سيد قطب المفترى عليه» (ص٢٨-٢٩). وانظر: «في ظلال القرآن في الميزان» لصلاح الخالدي (ص٨٩-٩٠).

وفي عنوان ابن دليم وكتابه ظلم كبير للعلامة المحدث الناقد بعلم وإنصاف الشيخ عبد اللَّه الدويش رحمه اللَّه وأسكنه فسيح جناته وأعظم اللَّه جزاءه بما قدمه في كتابه «المورد الزلال» من نصح ونقد صحيح لسيد قطب، وإن شرق به أناس هان عليهم الحق والتوحيد بسبب تقديسهم للرجال وإن كانوا في غاية الضلال.

والسلام- فيما سوى ما يبلغونه عن الله؛ فقد يقع منهم ما يستوجب التصحيح والتوجيه.

فهذا نوح عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١].

وهذا إبراهيم كان يستغفر لأبيه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٢]؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

وقال الله لمحمد ﷺ وأصحابه الكرام في قضية الأسرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

وروى الإمام مسلم[٥] بإسناده قال ابن عباس: فلما أسروا الأسرى؛ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**». فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا بن الخطاب؟**». قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيب لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد

---

(١) هود: ٤٥-٤٧.

(٢) الشعراء: ٨٦.

(٣) التوبة: ١١٤.

(٤) الأنفال: ٦٧-٦٨.

(٥) في الصحيح (٣٢-الجهاد، حديث ١٧٦٣)، وابن عباس يرويه عن عمر، انظر بداية الحديث.

جئت، فإذا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان؛ قلت: يا رسول اللَّه، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة** -شجرة قريبة من نبي اللَّه ﷺ-».

وأنزل اللَّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[١]، فأحل اللَّه الغنيمة لهم.

فهذا تصحيح من اللَّه ﷻ، وعتاب لرسول اللَّه ﷺ ولكثير من أصحابه ممن حبذ وأشار بأخذ الفداء، بل فيه وعيد من اللَّه تجاوز اللَّه عنهم فيه برحمته وعفوه، وهكذا لكل حادث حديث، ولكل موقف مواجهة ولكل تصرف لا يوافق ما عند اللَّه تصويب.

ومن هذا الباب: أن رسول اللَّه ﷺ صلى على عبد اللَّه بن أبي وكفنه ودفنه، فقال عمر ﷺ: أتصلي عليه وقد قال يوم كذا كذا وكذا؟! فأنزل اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٢]، والحديث معروف، لا أرى الإطالة بسرده[٣].

أما غير الأنبياء؛ فالقاعدة فيهم أنهم غير معصومين، حتى من الكبائر، والقاعدة الأخرى: كل يؤخذ من قوله ويرد؛ إلا رسول اللَّه ﷺ.

فمن زنى أو سرق أو شرب الخمر؛ أقيم عليه الحد، بدون أي ربط بين ما ارتكبه من موجب الحد وماضيه، مهما علت منزلته، «والله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها».

ومن قال ببدعة كبرى أو كتبها؛ بأن قال بإنكار القدر، أو قال بقول الروافض من الطعن في أصحاب النبي ﷺ، أو سبهم، أو تنقصهم، أو كفرهم، أو طعن في

---

(١) الأنفال: ٦٧-٦٩.

(٢) التوبة: ٨٤.

(٣) انظر: الفتح (٨/ ٣٣٣).

عدالتهم، أو أنكر علو اللَّه على عرشه، أو أنكر رؤية اللَّه -تبارك وتعالى- في الدار الآخرة، أو قال بالجبر، أو الإرجاء، أو الحلول، أو وحدة الوجود، أو دوَّن شيئًا من ذلك في كتبه: لا يتعامل معه ومع بدعته، أو بدعه كما يتعامل مع نصوص القرآن والسنة الواردة مورد التشريع، بالجمع بين أقواله المتعارضة، أو البحث عن أيها الناسخ وأيها المنسوخ، أو الترجيح بين أقواله المتضاربة المتعارضة، خاصة في أبواب البدع الكبرى الواضحة.

فلو كتب مقالة في مدح الصحابة، ثم كتب كتابًا أو مقالًا يطعن فيه في أصحاب رسول اللَّه.

أو ألف كتبًا يحرم فيها الربا والزنا والخمر، ثم ألَّف كتابًا يبيح فيه هذه المحرمات، أو كتب كتابًا في إثبات الصفات، ثم كتب كتابًا يعطل فيه صفات اللَّه، أو كتب كتبًا ومقالات فيها توحيد اللَّه، والفصل بين الخالق والمخلوق، ثم كتب في أحد كتبه القول في وحدة الوجود مرة واحدة؛ فإنه يدان بعمله هذا، ويتحمل مسئوليته، ولا يربط بين ماضيه وحاضره، ولا يعبأ بما يناقض هذا الضلال، ولا يعامل انحرافه وضلاله معاملة نصوص الرب -تبارك وتعالى- في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وعلى هذا جرى عمل علماء السنة من هذه الأمة وسلفها الصالح، وهذه أقوالهم وكتبهم طافحة بهذا المنهج الحق في مواجهة أهل الضلال والبدع، ولم يستعملوا مع معبد الجهني، ولا مع الجعد بن درهم، وعمرو بن عبيد، وجهم بن صفوان، وبشر المريسي، وابن أبي دؤاد، ولا مع طوائفهم هذا المنهج الذي رفع فيه عبد اللَّه عزام والقطبيون سيد قطب إلى مكانة الرب، وأقواله إلى مكانة الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي»[1]:

«لأني لم أستشهد على كفره وقبيح أمره إلا بما لا ينفع معه التأويل من كلامه، فإنه ليس كل كلام يقبل تأويله وصرفه عن ظاهره، وذلك يرجع إلى قاعدة الإقرار بشيء، وتعقيبه بما يرفع شيئًا من معناه، ولا خلاف عند الشافعية في أنه إن كان

---

(١) (ص٢٢-٢٣).

مفصولًا لا يقبل، وأما إذا كان موصولًا ؛ ففيه خلاف.

ومن صور ما لا ينفع فيه الصرف عن الظاهر: كما لو أقر ببيع أو هبة، ثم قال: كان ذلك فاسدًا، فأقررت بظني الصحة؛ فإنه لا يصدق في ذلك.

وقال إمام الحرمين: لو نطق بكلمة الردة، وزعم أنه أضمر تورية؛ كفر ظاهرًا وباطنًا

قال الغزالي في «البسيط» بعد حكايته عن الأصوليين: لحصول التهاون منه، وهذا المعنى -يعني: التهاون- لا يتحقق في الطلاق؛ فاحتمل قبول التأويل بإطلاقه».

انظر كيف ينكر العلماء على المواقف والأقوال المعينة، وكيف يضعون القواعد والضوابط بحزم لإدانة المغالطين والمتلاعبين والمتهربين.

فليس كل كلام يقبل التأويل والصرف عن ظاهره، وليس هناك ربط بين ما يتضمن الكفر من كلامه وما يتضمن الإيمان من كلامه السابق أو اللاحق، ولو نطق بكلمة الردة فهو كافر باطنًا وظاهرًا، ولو أبدى أقوى المعاذير لأنه متهاون وتهاونه واستهانته بموجبات الكفر ذنب لا يغتفر، يسلكه في عداد الكافرين المرتدين.

قال البقاعي:

«قال الشيخ ولي الدين بن العراقي ابن الشيخ زين الدين: وقد بلغني عن الشيخ علاء الدين القونوي، وأدركت أصحابه، أنه قال في مثل ذلك: إنما يؤول كلام المعصومين. وهو كما قال».

ثم ذكر كلام الذهبي فيه -أي: في ابن عربي-، وساق الأسانيد إلى ابن عبد السلام بما يأتي من تكفيره.

ثم قال:

«وأما ابن الفارض؛ فالاتحاد في شعره، وأمرنا أن نحكم بالظاهر، وإنما نؤول كلام المعصومين»[1].

انظر إلى كلام العلماء في الكلام الذي ظاهره الكفر، لا يجوز عندهم تأويله؛

---

(١) «تنبيه الغبي» (ص١٣٦).

لأن التأويل لا يكون إلا لكلام المعصومين، ولم يقولوا: نجمع بين نصوصه المتعارضة، أو نرجع إلى النسخ أو الترجيح؛ لأن هذه الضوابط والقواعد إنما وضعت لكلام المعصومين عن الخطأ والكذب فيما يبلغونه عن الله، وليس حال غيرهم وشأنه كذلك، حتى يلجأ العلماء إلى مساواتهم بالمعصومين.

وقال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ في خلال رده على من يتأول كلام ابن الفارض:

«مع أن الفاروق ابن الخطاب رضي الله عنه الذي ما سلك فجًا إلا سلك الشيطان فجًا غير فجه، قد أنكر التأويل لغير كلام المعصوم، ومنع منه رضي الله عنه، وأهلك كل من خالفه وأراده وبسيف الشرع قتله وأخزاه، فيما رواه عنه البخاري في كتاب الشهادات من صحيحه: «إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر خيرًا؛ أمناه، وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا؛ لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة.

وقد أخذ هذا الأثر الصوفية، وأصلوا عليه طريقهم، منهم صاحب «العوارف»، استشهد به في عوارفه، وجعله من أعظم معارفه، فمن خالف الفاروق رضي الله عنه؛ كان أخف أحواله أن يكون رافضيًا خبيثًا، وأثقلها أن يكون كفارًا عنيدًا.

وهذا الذي سماه الفاروق رضي الله عنه ظاهرًا هو الذي يعرف في لسان المتشرعة بالصريح، وهو ما قابل النص، والكناية والتعريض.

وقد تبع الفاروق رضي الله عنه على ذلك بعد الصوفية سائر العلماء، لم يخالف منهم أحد؛ كما نقله إمام الحرمين عن الأصوليين كافة، وتبعه الغزالي، وتبعهما الناس.

وقال الحافظ زين الدين العراقي: إنه أجمع عليه الأمة من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الاجتهاد الصحيح.

وكذا قال الإمام أبوعمر بن عبد البر في «التمهيد».

وأصله إمامنا الشافعي في «الرسالة»؛ لقول النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته، فأقضي له» الحديث. رواه الستة عن

أم سلمة رضي الله عنها في أمثال كثيرة.

وقال الأصوليون كافة: التأول إن كان لغير دليل كان لعبًا، وما ينسب إلى بعض المذاهب من تأويل ما هو ظاهر في الكفر فكذب أو غلط منشؤه سوء الفهم وإنما أولنا كلام المعصوم؛ لأنه لا يجوز عليه الخطأ، وأما غيره؛ فيجوز عليه الخطأ سهوًا وعمدًا»[1].

هذه أقوال من يجيز التأويل؛ فكيف بأقوال أئمة الإسلام الذين لا يجيزون تأويل نصوص صفات الله، ويوجبون الأخذ بظاهرها اللائق بالله، المنزه عن مشابهة المخلوقين؟!

فإن هؤلاء أشد الناس أخذًا لأهل الباطل والبدع بظاهر أقوالهم، وهم أبعد الناس عن تطبيق ما اشترطه عبد الله عزام وتابعه عليه الخالدي وغيره.

وإذن؛ اتفقت أقوال العلماء على إدانة أقوال أمثال سيد قطب ومحاسبتهم عليها، ولا يلتفت إلى تأويلات أتباع ابن عربي، وابن الفارض، والتلمساني، والمحامين عنهم، ولا يلتفت كذلك إلى تأويلات القطبيين، ولا إلى تلاعبهم بعقول الناس، محاماة عن سيد قطب، وإهدارًا لحق الله وحق كتابه ودينه.

بل لقد ذهبوا في المحاماة إلى ما لا يخطر على بال غلاة التصوف وغلاة أهل التأويل.

الوجه الثاني: على قول عزام ومن تبعه: «ثانيًا: يلجأ إلى النسخ؛ فسورة البقرة التي كتبها سيد[2] في الطبعة الثانية بعد سورة الحديد والإخلاص؛ لأنه لم يصل إليها في الطبعة الثانية».

والجواب على هذا:

١- إن هذا لا يقال إلا في كلام الله أو كلام رسوله ﷺ؛ لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى.

---

(١) «تنبيه الغبي» (ص٢٥١-٢٥٣).

(٢) لا يقال: سورة البقرة التي كتبها سيد! وإنما ينبغي أن يُقال: تفسير سورة البقرة الذي كتبه إلخ.

فهذا المنهج الذي وضعه عزام لا يدرك الإنسان فيه فرقًا بين ما يستحقه كلام الله ثم كلام رسوله من الاحترام والإجلال، وبين كلام سيد قطب الذي هجم على تفسير كتاب الله، وفكره مشحون بشتى الثقافات والمعتقدات الباطلة والمضطربة.

٢- لو تنزلنا جدلًا إلى القول بمذهبهم؛ لأصابتهم ضربة الحق الدامغة في الصميم.

وذلك أن سيد قطب نفى وحدة الوجود في تفسير سورة البقرة أولًا وفي الطبعة الأولى، ولما وصل إلى سورة الحديد وسورة الإخلاص قرر في هذين الموضعين وحدة الوجود والحلول.

فماذا سيقولون إذا ثبت ما قررناه ثبوتًا قاطعًا من أن سيدًا نفى وحدة الوجود في سورة البقرة في الطبعة الأولى، ثم قرر بعد ذلك وحدة الوجود أقوى تقرير في سورتي الحديد والإخلاص؟!

هل سيقولون بالنسخ ويدينون سيد قطب بالقول بوحدة الوجود، وأن كلامه الأخير المكرر المؤكد ناسخ لكلامه الأول الصريح في نفي وحدة الوجود، وأنه ارتطم في وحدة الوجود لا عن جهل بها ولا مكره عليها، وإنما ارتطم فيها بعد العلم بفسادها وضلالها، وبعد العلم أنها قول غير المسلمين، ارتضاها طواعية وقررها اختيارًا ورغبة؟!

وإليك البيان الواضح بما في تفسير سورة البقرة في الطبعة الأولى سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

قال سيد قطب بالحرف الواحد:

«والنظرية الإسلامية هنا أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء ومن هنا تنتفي من التفكير الإسلامي الصحيح فكرة وحدة الوجود على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح؛ أي: بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة، أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس، والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به،

ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه.

والله ليس كمثله شيء، والوجود صدر عن توجه الإرادة إلى إيجاده بكيفية غير معلومة؛ لأنها فوق الإدراك البشري..

والله هو المبدع، فما أبدعه الله ليس هو الله، وليس صورة لله

والله له ما في السموات والأرض كل له قانتون، فليس أحد ممن خلق ابنًا له، ولا بضعة منه، سبحانه، إنما هي كلمته، هي أمره، هي إرادته: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]»[2].

هذا ما قرره سيد قطب في الطبعة الأولى، هذا الكلام الجيد القوي الذي هاجم فيه وحدة الوجود مهاجمة من يعرف أنها كفر وضلال، وأنها عقيدة غير المسلمين، ومهاجمة دارس يعرف أصنافها وأشكالها وتفاصيلها.

ثم لما وصل إلى تفسير سورة الحديد؛ سالمها وعانقها ونسبها إلى أهلها، وهم الصوفية، وعرضها على أنها كمال، وعرض أشكالها وأصنافها.

ثم عاد مرة أخرى وعانقها في سورة التوحيد والإخلاص، ونسبها إلى أهلها، وهم الصوفية، وقرر أنها كمال لا يرقى إليه كل أحد، وعرض أصنافها وأشكالها عرض عارف لها.

فما هو عذره إذن؟!

ثم أقرها في كتابه طوال أربعة عشر عامًا (من عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م إلى عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

---

(١) آل عمران: ٤٧.

(٢) «في ظلال القرآن» (١/ ٧٥)، الطبعة الأولى، رمضان سنة ١٣٧١هـ، يونيو سنة ١٩٥٢م، ط. دار إحياء الكتاب العربي عن البابي الحلبي، والطبعة الثانية (١/ ١٤٤)، والسابعة (١/ ١٤٤) ط. دار إحياء التراث العربي سنة (١٣٩١-١٩٧١م)، وطبعة دار الشروق التاسعة (١/ ١٠٦) سنة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، وطبعة دار الشروق السابعة عشرة (١/ ١٠٦) سنة ١٤١٢هـ-١٩٩٢م. وسيد يفصل بين الخالق والمخلوق من أول تفسيره «في ظلال القرآن»، إلى أن يصل إلى سورة الحديد، فيقرر في تفسيرها وحدة الوجود والحلول، ثم لما وصل إلى سورة الإخلاص؛ أكد القول بوحدة الوجود والجبر.

ويؤكد هذا ما قرره الخالدي في مواضع من كتبه؛ أن سيد قطب ثبت واستقر على تفسير الأجزاء الثلاثة الأخيرة من تفسيره «الظلال»؛ لأنه منها انطلق بمنهجه الفكري والدعوي والحركي.

قال الخالدي:

«مع الظلال في طبعته المنقحة:

قلنا: إن سيد قطب ألف ستة عشر جزءًا من «الظلال» قبل إدخاله السجن عام ٥٤، وتفسيره فيها لم يعد أن يكون تسجيلًا لخواطره المتنوعة حول الآيات، وبيانًا لما فيها من جمال وفن وتصوير، وعرضًا لما تضمنته من مبادئ ومناهج وتشريعات.

وفي المرحلة الأولى من سجنه، طالت حياته في ظلال القرآن، وتعمقت تجربته العلمية، واستفاد منها مكاسب شتى، وأمدته بزاد كبير في الفكر والمعرفة والثقافة والدعوة والحركة والجهاد، ووفقه الله إلى إدراك طبيعة هذا الدين الواقعية الجدية، والتعرف على مهمته الجهادية، واكتشاف المنهج الحركي للقرآن الكريم

وقع على هذه الكنوز وهو يفسر القرآن، وبعد أن قطع في تفسيره شوطًا طويلًا، حيث وصل إلى الجزء السابع والعشرين، وكان لابد أن يعيد النظر في تفسيره، وأن يؤلفه على أساس إدراكه الجديد، وأن ينطلق فيه من منطلق جديد على هدي اهتماماته الجديدة، وأن يضمنه فهمه الجديد للإسلام وتصوره للدعوة إليه، ومنهجه في الحركة به.

وهكذا كان. حيث فسر الأجزاء الثلاثة الأخيرة من «الظلال» وفق منهجه الحركي الجديد، ثم قرر أن يعيد النظر في تفسير الأجزاء الأولى، وأن يصوغ «الظلال» على أساس منهجه الحركي في فهم القرآن والحركة به، وأن يتناوله بالتنقيح، فكانت الطبعة الجديدة المنقحة من «الظلال»! وهي الطبعة الثانية الصادرة في مصر أثناء حياته، إذ كانت الطبعة الأولى عام ١٩٥١، والمتممة للأولى عام ١٩٥٣م.

كان سيد يريد أن يعيد كتابة أجزاء «الظلال» من الرابع عشر حتى السابع

والعشرين، وأن يفسرها على أساس منهجه الحركي الجديد، أما الأجزاء الثلاثة الأخيرة؛ فسيتركها على ما هي عليه؛ لأنه ألفها على أساس ذلك المنهج»[1].

فما هو عذره الشرعي بعد كل هذا عند أولي النهى وعند المنصفين العقلاء؟!

ثم ما هو عذر أخيه محمد قطب في إقراره لأخيه طوال حياته، فلم يحمله على حذف هذا الكلام الخطير؟!

وما عذره في نشر كل تراثه باعتزاز، وفيه من البلايا والدواهي ما لا يعلمه إلا الله؟!

ما عذره وقد قال لدار الشروق وقد عهد إليها بطبع جميع كتبه وكتب أخيه سيد قطب: «ولي كبير رجاء أن تكون إعادة طبعها في دار الشروق العامرة مناسبة طيبة لمراجعة الكتب كلها، وإجراء ما قد يقتضيه الأمر من تعديلات بها، أو إبراز لمعان معينة فيها، مع إخراجها في ثوب جديد ملائم»[2].

ثم يصر على إبقاء كلام سيد قطب في وحدة الوجود، ولم يكتف بذلك، بل يزيد الطين بلة بالدفاع عنه بالباطل وبما لا يقبله أهل العلم.

قال في مقدمته لـ «مقومات التصور الإسلامي»[3]:

«أمرًا آخر كنت أرد به على السائلين المعترضين، وهو أنني آليت على نفسي دائمًا وأنا أعيد نشر مؤلفات الشقيق أن أبقيها كما هي بلا زيادة ولا حذف ولا بيان؛ ليقرأها قراؤها كما كتبها بنفسه دون تعديل».

وكان الواجب عليه على الأقل أن يوقف طبعها؛ ليخفف عن أخيه من التبعات العظيمة والمسئوليات الكبيرة أمام اللَّه عما حوته كتبه من عقائد وأفكار تخالف أصول الإسلام وعقائده، أو أن يعلق على أخطائه ويناقشها ويفندها في ضوء توجيهات الإسلام ونصوصه وقواعده؛ ليجنب القراء خطرها، وليخفف عن أخيه

---

(١) «مدخل إلى ظلال القرآن» (٤٨-٥٠) لصلاح الخالدي، وانظر كتاب «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (ص٥٤٧-٥٤٨) للخالدي.

(٢) «في ظلال القرآن» (١/ ١٥).

(٣) «مقومات التصور الإسلامي» (ص٨).

الأعباء إن كان يخالف أخاه[1] في تلك الأمور النكراء، أما إذا كان يوافق أخاه فهذا شيء آخر.

والوجه الثالث: على قولهم: «ثالثًا: يرجح بين النصوص المتعارضة، فيرجح عبارة النص في سورة البقرة، على إشارة النص في سورتي الإخلاص والحديد».

فيقال:

١- هذا التقعيد لكلام سيد وغيره من البشر لم يعرفه العلماء، وينكرونه أشد الإنكار، وقد تقدم للقارئ من كلام العلامة البقاعي ما يشفي ويكفي.

٢- نقول بدون تطويل: نعم؛ يرجح ما في تفسير سورة البقرة؛ لأنه الحق، ونرفض وحدة الوجود التي قررها سيد قطب في سورتي الحديد والإخلاص؛ لأنها الباطل والضلال البعيد، ويدان سيد قطب بهذا الباطل، ويتحمل مسئوليته هو ومن يطبعه وينشره ومن يدافع عنه بالباطل.

وهو في غاية الوضوح والصراحة في تقرير وحدة الوجود، وليس بإشارة ولا تلميح، بل هو واضح وصريح، فإن كان يعتقد ما يقوله؛ فإنه للطامة الكبرى، وإن كان لا يعتقد ذلك؛ فهو متهاون بحق الله وبحق جلاله وعظمته، وقد علمت ما قرره العلماء في هذا أو ذاك، ولا يخرجه من هذا المأزق إلا التوبة الواضحة النصوح، وبإعلان البراءة من عقيدة وحدة الوجود، وبيان أنها إلحاد وزندقة، بعد حذف هذا الضلال من كتابه وتطهيره منه.

أما الادعاءات بأنه كثيرًا ما يفصل بين الخالق والمخلوق في كتابه «الظلال» وفي كتبه الأخرى؛ مثل: الخصائص والمقومات؛ فإنها لا تغني عنه فتيلًا، ولو كان مثل هذا الاعتذار يغني أحدًا ويعتبر توبة نصوحًا عند علماء الإسلام؛ لما

---

(١) وبعد هذا تأكدت من أن محمد قطب يعتقد أن أخاه سيد قطب سار في كتابه «في ظلال القرآن» وفق كتاب الله وسنة رسوله، أدلى بهذا في بيان لـ مجلة المجتمع، فعرفت أن هذا الاعتقاد هو الذي جعله لا يتصرف في شيء من كتب أخيه، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

طعنوا في ابن عربي وابن الفارض وأمثالهم وشنعوا عليهم بوحدة الوجود، ذلك أن هؤلاء الوحدويين كانوا كثيرًا ما يفصلون في كتبهم بين الخالق والمخلوق، ويتعبدون ويتزهدون ويتحدثون عن الأخلاق وعن الحلال والحرام، ولم يكن كل كلامهم ولا جله في وحدة الوجود.

يقول ابن عربي إمام أهل وحدة الوجود في كتابه «الفتوحات المكية»[1]:

«الباب الثالث: في تنزيه الحق تعالى عما في طي الكلمات التي أطلقها عليه سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من التشبيه والتجسيم -تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا-:

في نظرة العبد إلى ربه ... في قدس الأبد وتنزيهه
علوه عن أدواتٍ أتت ... تلحق بالكيف وتشبيهه
دلالة تحكم قطعًا على ... منزلة العبد وتنويهه
وصحة العلم وإثباته ... وطرح بدعي وتمويهه»

ثم يقول بعد كلام فيه من الفلسفة والضلال ما يليق بمثله:

«وصلٌ: ثم إنا إذا نظرنا في جميع ما سوى الحق تعالى؛ فوجدناه على قسمين: قسم يدرك بذاته، وهو المحسوس والكثيف، وقسم يدرك فعله، وهو المعقول واللطيف، فارتفع المعقول عن المحسوس بهذه المنزلة، وهي التنزه أن يدرك بذاته، وإنما يدرك بفعله.

ولما كانت هذه أوصاف المخلوقين؛ تقدس الحق تعالى عن أن يدرك بذاته كالمحسوس، أو بفعله كاللطيف أو المعقول؛ لأنه سبحانه ليس بينه وبين خلقه مناسبة أصلًا»[2].

ففي هذا الكلام فصل واضح بين الخالق تعالى والخلق، وله أشياء كثيرة من مثل ذلك، ولغيره كلام من هذا النوع، ولهم كلام صريح في القول بوحدة الوجود،

---

(١) (١/ ٩٢).
(٢) «الفتوحات» (١/ ٩٣-٩٤).

اتهمهم به وعلى أساسه أهل السنة والحق[1]، وأساءوا بهم الظن، ولم يصدقوهم فيما قالوه من الفصل بين الخالق والمخلوق، واعتبروه من مكرهم وحيلهم، ولقد أصاب أهل الحق والسنة في حكمهم عليهم بالضلال ووحدة الوجود، وعدم الانخداع بمكرهم وحيلهم.

ولابن عربي أربع عقائد، منها وحدة الوجود، فلم يقم العلماء وزنًا لتلك العقائد، ومنها الأشعرية، ودمغوه بوحدة الوجود، فكذلك يجب أن يعامل غيره، ولا يؤبه بتستره بعقائد أخرى.

قال ابن تيمية في كتابه «النبوات»:

«وابن عربي له أربع عقائد: الأولى: عقيدة أبي المعالي وأتباعه مجردة عن حجة. والثانية: تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة: عقيدة الفلاسفة ابن سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن. والرابعة: التحقيق الذي وصل إليه، وهو أن الوجود واحد.

وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في «ميزان الدنيا العمل» وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلًا، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام، والثالثة لا يطلع عليها أحد إلا الخواص.

ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها، وهي فلسفة محضة، سلك فيها مسلك ابن سينا، ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية، إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع، ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع، منها الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك»[2].

* * *

---

(١) ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي شدد عليهم النكير، وفضحهم في عدد من مؤلفاته.
وراجع «تنبيه الغبي» للبقاعي، فقد كفرهم وضللهم في ضوء الكتاب والسنة وقواعد الشريعة، وذكر عددًا كثيرًا من العلماء الذين كفروا أهل وحدة الوجود.

(٢) «كتاب النبوات» (ص١١٩-١٢٠).

الفصل العاشر: غلو سيد في تعطيل صفات الله كما هو شأن الجهمية

لقد أثنى الله تعالى على نفسه في كتابه العظيم، ووصف نفسه بصفات عليا، عرف المسلمون قدر تلك الصفات، فأثبتوها لله ﷻ، وأساء فهمها أهل البدع، فعطلوها، فأنكر عليهم أهل الحق وضللوهم وبدعوهم، وقتلوا بعض رءوسهم، وهذه الأمور لا تخفى على مثل سيد قطب.

قال سيد قطب في تفسير استواء الله على عرشه في تفسير سورة يونس: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١]: «والاستواء على العرش كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة باللغة التي يفهمها البشر، ويتمثلون بها المعاني على طريقة القرآن في التصوير، كما فصلنا هذا في فصل التخييل الحسي والتجسيم في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

و﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للتراخي الزماني، إنما هي للبعد المعنوي؛ فالزمان في هذا المقام لا ظل له، وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله سبحانه ثم كانت، فهو سبحانه منزه عن الحدوث، وما يتعلق به من الزمان والمكان.

لذلك نجزم بأن ﴿ثُمَّ﴾ هنا للبعد المعنوي، ونحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التي يحق فيها للعقل البشري أن يحكم ويجزم؛ لأننا نستند إلى قاعدة كلية في تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات وعن مقتضيات الزمان والمكان»[٢].

وقال في كتابه «التصوير الفني في القرآن»[٣]: «بهذه الطريقة المفضلة في التعبير عن المعاني المجردة سار الأسلوب القرآني في أخص شأن يوجب فيه التجريد المطلق والتنزيه الكامل، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٤]، ﴿وَكَانَ

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٧٦٢-١٧٦٣).

(٣) (ص٨٥-٨٦).

(٤) الفتح: ١٠.

عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[(١)]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٢)]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[(٣)]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[(٤)]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[(٥)]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٦)]، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾[(٧)]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(٨)]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[(٩)]، ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[(١٠)]. . . إلخ.

وثار ما ثار من الجدل حول هذه الكلمات، حينما أصبح الجدل صناعة، والكلام زينة، وإن هي إلا جارية على نسق متبع في التعبير، يرمي إلى توضيح المعاني المجردة وتثبيتها، ويجري على سنن مطرد، لا تخلف فيه ولا عوج، سنن التخييل الحسي والتجسيم في كل عمل من أعمال التصوير.

ولكن أتباع هذا السنن في هذا الموضوع بالذات قاطع في الدلالة -كما قلنا- على أن هذه الطريقة في القرآن أساسية في التصوير، كما أن التصوير هو القاعدة الأولى في التعبير».

أقول: وفي هذين النصين دلالات خطيرة:

أولاها: أن سيدًا لم يرجع عمَّا دونه في كتابه «التصوير الفني في القرآن»، وقد كتبه في مراحله الأولى؛ كما يقال.

وثانيتها: أنه لم يرجع عن تعطيل الصفات الذي دوَّنه في التصوير الفني، ولم يرجع عن تعطيله في «الظلال» بعد التنقيح المدَّعى.

وثالثتها: في «الظلال» و«التصوير» تعطيل لصفة الاستواء.

ورابعتها: اعتقاده الخطير أن هذه الصفات معان مجردة؛ أي: هي أمور ذهنية

(١) هود: ٧.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) الأعراف: ٥٤.
(٤) فصلت: ١١.
(٥) الزمر: ٦٧.
(٦) الأنفال: ١٧.
(٧) البقرة: ٢٤٥.
(٨) الفجر: ٢٢.
(٩) المائدة: ٦٤.
(١٠) آل عمران: ٥٥.

لا وجود لها، وهذا هو غاية التعطيل والضلال.

وخامستها: تعطيله لعدد من الصفات؛ كالاستواء، والنزول، واليد، ولا يستبعد أنه يجري على هذا المنوال في كل الصفات.

سادسيتها: إنكاره لرفع عيسى إلى السماء.

سابعيتها: معرفته بالخلاف بين أهل السنة والجهمية والمعتزلة، ثم انحيازه إلى أهل البدع، واعتماده على قواعدهم الباطلة في تعطيل صفات الله؛ فمن المغالطات أن يقال: إن سيد قطب يجهل مثل هذه الأمور، أو إنه قد رجع عنها إلى عقيدة السلف ومنهجهم.

وله مواقف في «الظلال» تدل على معرفته بالخلاف بين أهل السنة وأهل البدع، ومع ذلك؛ فهو ينحاز إلى أهل البدع، ثم يُتبع ذلك بالتهوين من قيمة الخلاف؛ ليسهل على السني اللحاق بأهل البدع، أو الاستخفاف بالخلاف في العقيدة واحترام أهل البدع الذين يبجلهم سيد وأمثاله.

سيد يرى أن عرش الله العظيم رمز وليس بحقيقة:

قال سيد قطب في تفسيره لسورة الأنبياء عند تفسيره آية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]؛ قال:

«وهم يصفونه بأنه له شركاء، تنزه الله المتعالي المسيطر رب العرش، والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء»[2].

وقال أيضًا في سورة المؤمنون عند قول الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[3]؛ قال:

«ويشهد بأنه الملك الحق، المسيطر الحق، الذي لا إله إلا هو، صاحب السلطان والسيطرة والاستعلاء، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[4]»[5].

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٧٤).

(٣) المؤمنون: ١١٦.

(٤) المؤمنون: ١١٦.

(٥) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٤٨٢).

وهذا بخلاف ما دل عليه الكتاب والسنة، وآمن به المسلمون، من أن العرش أعظم مخلوقات الله العلوية، وأنه فوق السموات، وفوق الفردوس الذي هو أعلى الجنان، وأن الله استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته، وسيد لا يعترف به، ولا يرى إلا أنه رمز الملك والسيطرة إلخ.

أقوال السلف في المعطلين لصفات الله:

قال البخاري في «خلق أفعال العباد»[1]:

«وقال سعيد بن عامر: الجهمية أشر قولًا من اليهود والنصارى، قد اجتمعت اليهود والنصارى وأهل الأديان أن الله -تبارك وتعالى- على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء.

وقال -يعني: علي بن المديني-: احذر من المريسي وأصحابه؛ فإن كلامهم يستجلب الزندقة.

وكان إسماعيل بن أبي أويس يسميهم زنادقة العراق».

وقال البخاري:

«نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس، فما رأيت أضل في كفرهم منهم، وإني لأستجهل من لا يكفرهم؛ إلا من لا يعرف كفرهم».

وقال البخاري:

«ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم، ولا تؤكل ذبائحهم»[2].

وأقوالهم كثيرة في هذا، ولا يتسع المقام لنقلها.

* * *

---

(١) (ص١٥ و ١٩).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص٢٢).

الفصل الحادي عشر: إنكاره للميزان على طريقة المعتزلة والجهمية

وذلك من الضلالات التي احتدم فيها النزاع بين أهل السنة والمعتزلة، وسيد قطب لا يجهل ذلك.

قال في كتابه «التصوير الفني»[(١)]:

«ثم لما كان هذا التجسيم خطة عامة؛ صوَّر الحساب في الآخرة كما لو كان وزنًا مجسمًا للحسنات والسيئات: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[(٢)]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ ... وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[(٣)]، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾[(٤)]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[(٥)]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(٦)].

وكل ذلك تمشيًا مع تجسيم الميزان.

وكثيرًا ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن، فيصور المعنوي المجرد جسمًا محسوسًا، ويخيل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير.

وفي الأمثلة السابقة نماذج من هذا، ولكنا نعرض هذه الظاهرة في أمثلة جديدة، فلدينا وفر من الأمثلة على كل قاعدة».

وقال في تفسير قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٧)] الآية[(٨)]:

«ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن، وحقيقة الميزان، كما دخل المتجادلون

---

(١) (ص٨٣).

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) القارعة: ٦-٨.

(٤) الأنبياء: ٤٧.

(٥) النساء: ٤٩.

(٦) النساء: ١٢٤.

(٧) الأعراف: ٨.

(٨) (٣/ ١٢٦١)، وراجع تفسير سورة المؤمنون (٤/ ٢٤٨١)، حيث تأول الميزان مثل هذا التأويل، وأحال إلى كتابه «التصوير الفني في القرآن».

بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر الإسلامي؛ فكيفيات اللَّه كلها خارجة عن الشبيه والمثيل، مذ كان اللَّه سبحانه ليس كمثله شيء؛ فحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق من أن الحساب يومئذٍ بالحق، وأنه لا يظلم أحدٌ مثقال ذرة، وأن عملًا لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع».

وفي هذا الكلام انحياز إلى أهل البدع من المعتزلة وغيرهم في إنكار الميزان، واتهام لأهل السنة الذين يثبتون الميزان احتجاجًا بنصوص الكتاب والسنة، بأنهم يجادلون بعقلية غير إسلامية، فلا فرق بينهم وبين أهل البدع والضلال في نظر سيد، بل أهل الضلال أرجح عنده وأولى بالحق -والعياذ بالله-.

وقوله: «فكيفيات اللَّه كلها خارجة عن الشبيه والمثيل»: خبط وخلط؛ فإن كلًّا من أهل السنة والجماعة وأهل البدع لم يقل: إن الميزان من صفات اللَّه ﷻ، بل أهل السنة يقولون: إن الميزان مخلوق، توزن به صحائف الأعمال وكتبها،

ولا يقولون: إنه من صفات اللَّه، بل هو مخلوق من مخلوقات اللَّه، له كفتان، إحداهما للحسنات، والأخرى توضع فيها السيئات؛ كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة.

وأهل البدع ينكرون الميزان والوزن، بناء على أن الأعمال أعراض يستحيل وزنها؛ إنكارًا لما أثبته اللَّه ورسوله بعقولهم السخيفة، ولو عاشوا في هذا العصر وشاهدوا مقاييس الحرارة والبرودة الدقيقة من صنع البشر؛ لما استبعدوا وزن الأعمال، بَلْه وزن الصحائف، ولربما آمنوا بالميزان والوزن في الآخرة.

ولأهل السنة أن يستشهدوا بقول اللَّه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١).

فقضية وزن الحرارة والبرودة بالمقاييس التي اخترعها البشر، وهي أعراض، توقف عقول أهل البدع أمام الواقع، وتنادي على هذه العقول بالجهالة والسخف، وتقف إلى جانب نصوص الكتاب والسنة، ومذهب أهل السنة والجماعة؛ انطلاقًا من قول الله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢).

---

(١) فصلت: ٥٣.　　(٢) فصلت: ٥٣.

الفصل الثاني عشر: اعتقاد سيد قطب أن الروح أزلية منفصلة من ذات الله

قال سيد قطب:

«لقد قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1].

وقد كان ما قاله الله، فقوله تعالى إرادة، وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد، ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي، بل عبث بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم.

وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع، وكل ما يثور، إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده، وإقحام له في غير ميدانه؛ ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأ في المنهج من الأساس، إنه يقول: كيف يتلبس الخالد بالفاني، وكيف يتلبس الأزلي بالحادث، ثم ينكر أو يثبت ويعلل!

بينما العقل الإنساني ليس مدعوًا أصلًا للفصل في الموضوع؛ لأن الله يقول: إن هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان؟ فالأمر إذن ثابت، ولا يملك العقل البشري أن ينفيه، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده، غير التسليم بالنص؛ لأنه لا يملك وسائل الحكم، فهو حادث، والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته، ولا على الأزلي في تلبسه بالحادث.

وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية، وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة من صوره، يكفي ليكف العقل عن إنفاق

---

(١) الحجر: ٢٨-٢٩.

طاقته سفهًا في غير مجاله المأمون»[١].

في هذا النص أن كلام اللَّه هو إرادته، وهذا تعطيل لصفة الكلام، تعالى اللَّه عن ذلك.

وفيه اعتقاد سيد أن الروح أزلية غير مخلوقة، أي: أنها جزء من اللَّه تعالى عن هذا القول علوًّا كبيرًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ومحمد بن نصر المروزي: «تأول صنف من الزنادقة، وصنف من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل عن ذات اللَّه، فصار في المؤمن، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعًا؛ لأن عيسى عندهم روح من اللَّه صار في مريم، فهو غير مخلوق عندهم.

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض: إن روح آدم مثل ذلك، إنه غير مخلوق، وتأوَّلوا قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾[٣].

فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق، كما تأول من قال: إن النور من الرب غير مخلوق. قالوا: ثم صاروا بعد آدم في الوصي بعده، ثم هو في كل نبي ووصي، إلى أن صار في علي ثم الحسن والحسين، ثم في كل وصي وإمام فيه، يعلم الإمام كل شيء، ولا يحتاج أن يتعلم من أحد.

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها، ثم أضافها إلى نفسه، كما أضاف إليه سائر خلقه.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٤]»[٥].

---

(١) «في ظلال القرآن» (١٤/ ٢٢-٢٣).
(٢) الحجر: ٢٩.
(٣) السجدة: ٩.
(٤) الجاثية: ١٣.
(٥) كتاب «الروح» (ص١٩٤-١٩٥).

فيا عجبًا لسيد قطب! يثبت أن الروح أزلي! من إجماع أهل السنة على أنه مخلوق؛ استنادًا إلى كتاب الله وسنة رسوله!

ويقول عن القرآن: إنه مخلوق! مع أن القرآن والسنة وإجماع أهل السنة والجماعة أنه كلام الله وصفة من صفاته المقدسة اللائقة بجلاله.

* * *

الفصل الثالث عشر: موقف سيد قطب من معجزات الرسول ودلائل النبوة

معجزات الرسل من أعظم البراهين والدلائل على صدقهم وصدق رسالاتهم، وإنها من عند اللَّه، وأعظمهم معجزات وأكثرهم محمد بن عبد اللَّه ﷺ، خاتم النبيين.

ولقد عرف المسلمون مكانة هذه المعجزات، فدونوها في مؤلفات كثيرة، وتناقلوها فيما بينهم؛ إيمانًا بها، وتعظيمًا لشأنها.

فما هو موقف سيد قطب من معجزات الرسول ودلائل نبوته وسائر المعجزات؟

إنه يقلل من شأن المعجزات، ويرى أن معجزة الرسول الوحيدة هي القرآن فقط[(١)].

يقول:

«إن الإسلام لم يشأ أن تكون وسيلته إلى حمل الناس على اعتناقه هي القهر والإكراه، في أي صورة من الصور، حتى القهر العقلي عن طريق المعجزة، لم يكن وسيلة من وسائل الإسلام، كما كان في الديانات قبله، من نحو الآيات التسع لموسى، والكلام في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص لعيسى

لقد شاء الإسلام أن يخاطب القوى المدركة في الإنسان، ويعتمد عليها في الإقناع بالشريعة والعقيدة، وذلك جريًا على نظرته الكلية في احترام هذا الإنسان

---

(١) لقد ساير سيد قطب بموقفه هذا(*) أصحاب المدرسة العقلية كمحمد عبده، وهيكل، والخضري، والغزالي، وأمثالهم، والعجب أن محمد سرور زين العابدين قد ناقش بعض هؤلاء في موقفهم من المعجزات، وأغفل سيد قطب، فما هو السر؟! انظر كتابه: «دراسات في السيرة النبوية» (ص٢٧٨-٢٨٦).

....

(*) كتاب «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٠٣).

وتكريمه».

أقول: إن المعجزات التي يجريها الله على أيدي رسله ليس فيها قهرٌ ولا إكراه، وليس فيها ما ينافي نظرية الإسلام الكلية في احترام الإنسان، بل فيها إكرام لأنبياء الله ورسله، وتأييد لهم، وبراهين على صدقهم، وإكرام لأتباعهم، وتقوية وتثبيت لإيمانهم.

وقد أكرم الله نبينا محمدًا ﷺ خاتمهم وأعلاهم منزلة عنده بمعجزات لا تحصى، وقد ألف في ذلك مؤلفات خاصة، وذكر في كثير من دواوين السنة.

قال القاضي عياض في كتاب «الشفا» بعد أن تحدث عن المعجزات، وأنها براهين على صدق الأنبياء:

«واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معًا، وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا كما سنبينه، وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط، فإن واحدًا منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر»[1].

ذكر سيد في تفسير قول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[2] الاختلاف في الإسراء أكان يقظة أو منامًا، ثم ذكر عن عائشة أنها قالت: «إن العروج كان بروحه».

أقول: وهذا لم يثبت عنها؛ لأن ابن إسحاق روى هذا عن بعض آل أبي بكر عنها[3]، وهذا البعض مجهول.

وذكر عن الحسن: «كان في المنام رؤيا رآها».

أقول: وهذا لم يثبت عن الحسن، بل روى ابن إسحاق عنه ما يدل على أنه كان في اليقظة[4].

---

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١/ ٢٥٣).

(٢) الإسراء: ١.

(٣) انظر «السيرة لابن هشام» (١/ ٢٩٧ و ٣٩٩ و ٤٠٠).

(٤) انظر «السيرة لابن هشام» (١/ ٢٩٧ و ٣٩٩ و ٤٠٠).

ثم قال:

«على أننا لا نرى محلًا لذلك الجدال الطويل الذي ثار قديمًا، ويثور حديثًا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة رسول الله ﷺ، والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم، وبين أن تكون رؤية في المنام أو رؤية في اليقظة المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئًا، وكونها كشفًا وتجلية للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة قصيرة

والذين يدركون شيئًا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة، لا يستغربون في الواقعة شيئًا، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته والى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده وما رآه، والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله.

أما طبيعة النبوة؛ فهي اتصال بالملأ الأعلى، على غير قياس أو عادة لبقية البشر، وهذه التجلية لمكان بعيد أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة، ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر الصديق ﷺ وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها، فيقول: إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء»[1].

فقوله: «على أننا لا نرى محلًا للجدل الطويل الذي ثار قديمًا والذي يثور حديثًا حول طبيعة هذه الواقعة» إلى قوله: «ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئًا، وكونها كشفًا وتجلية للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة وعوالم بعيدة».

أقول: إن معالجة الخلاف في هذه القضية الكبيرة بهذا الأسلوب يعتبر تهربًا عن بيان الحقيقة إن الفروق كبيرة جدًا بين الرؤية في النوم، وبين أن يسرى برسول الله ﷺ بروحه وجسده إلى السموات العلا، إلى رب السموات والأرض، وتكليم الله إياه، ومشاهدة الآيات الكبرى بعينيه في اليقظة في السموات كلها،

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢١٠-٢٢١١).

وعند سدرة المنتهى.

إن هذه التسوية بين هذه الأمور المتفاوتة، والتي منها التجلية والكشف التي يدعيها ضلال الصوفية، بل هو قول زنادقة الفلاسفة كابن سينا وأضرابه وأتباعه[١]، لأمر عجيب.

إن هذه التسوية والتقصير في البحث، وترجيح ما دلت عليه الأحاديث المتواترة من الإسراء والعروج برسول الله ﷺ بروحه وجسمه إلى ربه في اليقظة ناشئ عن تصور سيد قطب لعدم الجدوى لهذه المعجزة العظيمة، بل لجميع المعجزات

وإن هذا لتفريط كبير، وتهاون جسيم، عافانا الله منه.

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[٢]:

«إن معجزة الإسلام هي القرآن، وهو كتاب يرسم منهجًا كاملًا للحياة، ويخاطب الفكر والقلب، ويلبي الفطرة القويمة، ويبقى مفتوحًا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة، أما الخارقة المادية؛ فهي تخاطب جيلًا واحدًا من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل، على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا.

وقد ضرب السياق المثل بثمود، الذين جاءتهم الناقة وفق ما طلبوا، واقترحوا آية واضحة، فظلموا أنفسهم وأوردوها موارد الهلكة؛ تصديقًا لوعد الله بإهلاك المكذبين بالآية الخارقة، وما كانت الآيات إلا إنذارًا وتخويفًا بحتمية الهلاك بعد مجيء الآية.

هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق؛ لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها، لا رسالة جيل واحد يراها،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/٦).

(٢) الإسراء: ٥٩.

ولأنها رسالة الرشد البشري، تخاطب مدارك الإنسان جيلًا بعد جيل، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، والذي من أجله كرمه اللَّه على كثير من خلقه.

أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ، وأولها خارقة الإسراء والمعراج؛ فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء»[١].

وعلى هذا الكلام مآخذ:

الأول: على قوله: «إن معجزة الإسلام هي القرآن».

بهذا الأسلوب؛ أسلوب القصر، وسيد يريد القصر المطلق لا الإضافي، وفي هذا تهوين من شأن المعجزات العظيمة التي أكرم اللَّه بها نبينا، وهي من الكثرة بحيث لا تخفى، وإشعار بأنها لا وزن لها ولا جدوى، فلا تستحق الإشادة بها، بل يراها سيد تحط من كرامة الإنسان.

الثاني: على قوله بعد الحديث عن الخوارق: «هذه التجارب البشرية اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق».

أقول: هذا الكلام لا يليق بجلال اللَّه وعظمته، فكأن اللَّه ما كان يعلم بطبائع الأمم، ولا يعلم أن أكثر الناس من كل أمة ستكذب بالآيات التي يرسلها اللَّه براهين لصدق أنبيائه، فتكون النتائج عكس ما يريد من تلك الآيات

وأخيرًا، وبعد آلاف التجارب التي جربها اللَّه -على زعم سيد- استقرَّ عنده أنه لا جدوى لهذه الخوارق، فقرر بالنسبة للرسالة الخاتمة أن تكون غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة.

إن نظرة سيد المستهجنة إلى آيات اللَّه العظيمة الدالة على عظمته وقدرته وعلمه، وعلى صدق رسله؛ قادته إلى أن يقول هذا القول الخطير، الذي فيه إساءة عظيمة إلى اللَّه رب العالمين.

إن هذه العقيدة لهي أخت عقيدة البداء.

الثالث: على قوله: «ولأنها رسالة الرشد البشري، تخاطب مدارك الإنسان

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٣٧).

جيلًا بعد جيل، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، والذي من أجله كرمه الله».

أقول: إن القرآن الكريم كما قال سيد يخاطب مدارك الإنسان، ومع ذلك فإن الكتب السماوية السابقة من كتب الله كانت كذلك تخاطب مدارك الإنسان، وأنزلت لهداية الأمم، وقامت بها الحجج على الأمم المكذبة، وقد أثنى الله عليها، وأشاد بها، وكلفت الأمة الإسلامية بالإيمان بها واحترامها، واعتبر الإسلام الإيمان بها ركنًا من أركان ديننا وإيماننا.

ولكن كثيرًا من نفوس البشر فيها عتوٌّ وعناد، فتقتضي حكمة الله أن يردف هذه الكتب بآيات خوارق ومعجزات يؤمن بها على مثلها البشر.

والقرآن أعظم هذه الكتب، وأشملها، وأقواها حجة، ومع ذلك؛ فقد كفرت وكذبت به أمم، بل أول من كفر به صناديد قريش، وأكثر قبائل العرب أيام نزوله، فكانت تدهشهم بلاغة القرآن وإعجازه، ثم سرعان ما تغلبهم أهواؤهم وعصبياتهم الجاهلية، فينكصون على أعقابهم كافرين ومكابرين ومعاندين كسائر أعداء الرسل.

ولقد أردف هذا القرآن العظيم بمعجزات عظيمة، هي بحق دلائل وبراهين على صدق رسول الله ﷺ، هو نفسه ﷺ يستشهد بها على صدق رسالته، وأنه رسول الله حقًا، ويستدل بذلك أصحابه والمؤمنون بعدهم على صدق نبيهم وصحة رسالته، وعلى أنه رسول الله ﷺ يؤيده ربه بذلك، ويعطي البرهان العظيم تلو البرهان على أن محمدًا عبد الله ورسوله.

أما بلوغ البشرية رشدها؛ فهذا كثيرًا ما يردده العقلانيون المبهورون بالحضارة الغربية ومخترعاتها، وينسون أن البشر في أجيالهم كلها فيهم الرشيد -وهو من صدق الرسل واستجاب لأمر الله واستقام على هديه-، والضال الغاوي الجاهل، -وهو من يكذب رسله ويشرك به ويتبع هواه وشياطين الإنس والجن-.

فهذا في كل زمان ومكان أحط من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

---

(١) الفرقان: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾(١).

والناس في هذا الزمان الذي يسميه العقلانيون عصر الرشد أضل الأجيال، وأشدهم انغماسًا في الجهل، وانهماكًا في الشهوات، ووقوعًا في الكفر والإلحاد؛ إلا من هدى اللَّه من أمة الإجابة

وما أكثر الأمم التي تعبد الأوثان، بل تعبد القرود، والفروج، والصلبان في هذا العصر، وما أشد الناس عداوة في هذا العصر الذي يسميه العقلانيون عصر الرشد لما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

أفيجوز أن نهون من معجزات أعظم الأنبياء الثابتة عنه إلى أبعد من درجة التواتر مجاراة للعقلانيين أفراخ أوربا وأذيال فلاسفتها، فنقول: إنه ليس لنبينا إلا معجزة واحدة، هي القرآن؛ إرضاء لأعداء اللَّه، وانهزامًا أمام علمانيتهم وعقلانيتهم.

وأعجب لقول سيد: «أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ، وأولها خارقة الإسراء والمعراج؛ فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، وإنما جُعلت فتنة للناس وابتلاء».

وا عجباه لسيد! من سبقك إلى هذا من أئمة الإسلام، فقال: إن هذه الخارقة ليست معجزة مصدقة لرسول الله؟! ومن جعلها دليلًا على كذبه؟!

إن الخوارق من أقوى الأدلة على كذب الدجاجلة والسحرة والمشعوذين، أما للرسل؛ فهي من أعظم براهين صدقهم، وهي آيات ومعجزات يجعلها اللَّه براهين على صدقهم، وإثبات أنهم مرسلون من اللَّه حقًا، ولا يقول مؤمن غير هذا.

وجعل هذه المعجزة فتنة للكافرين لا يمنع أنها معجزة مصدقة للرسول ﷺ، ولا يمنع أنها نعمة للمؤمنين وتشجيع لهم وتأييد لهم على أعدائهم وتثبيت على دينهم، وليست معجزة الإسراح والمعراج بأول معجزات رسول اللَّه ﷺ، بل قد سبقتها معجزات، يعرف ذلك المعنيون بسيرته ﷺ وأحواله الشريفة.

---

(١) البقرة: ١٧١.

أثبت سيد قطب معجزة انشقاق القمر؛ لأنه ثبت بالقرآن والروايات المتواترة، ثم قال: «بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول: إن المشركين سألوا النبي ﷺ آية، فانشق القمر؛ فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله، لسبب معين: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا﴾[1]؛ فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات -أي: الخوارق- لما كان من تكذيب الأولين بها.

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ؛ كان الرد يفيد أن هذه الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا، وكان يردهم إلى القرآن، يتحداهم به، بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2].

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية -أي: خارقة- يبدو بعيدًا عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب -عن طريق القرآن- إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق، وفي أحداث التاريخ سواء

فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة؛ فكان إكرامًا من الله لعبده، لا دليلًا لإثبات رسالته

---

(١) الإسراء: ٥٩.

(٢) الإسراء: ٨٨-٩٣.

ومن ثم نثبت الحادث -حادث انشقاق القمر- بالنص القرآني، وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات، ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة، باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها، كما يوجهها دائمًا إلى الآيات الكونية الأخرى، ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها، كما يعجب من موقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى.

إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية الدائمة والتأثر الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل -صلوات الله عليهم- قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق»[1].

أقول: الكلام مع سيد قطب في نقاط:

الأولى: حول اصطدام هذا الحديث الصحيح المذكور بمفهوم الآية.

فلا يجوز رد أحاديث رسول الله ﷺ بمثل هذا الادعاء، فإذا كان مفهوم الآية المذكورة يصطدم بالحديث، فترى رده والطعن فيه بمثل هذه المصادمة الموهومة، فيلزمك أن ترد آية انشقاق القمر الثابتة بالآية القرآنية والثابتة بالأحاديث المتواترة كما ذكرت، وكذلك يلزمك رد آية الدخان، التي قال الله فيها: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[2].

الثانية: يلزم أن ترد الأحاديث المتواترة التي أخبرت بمعجزات كثيرة حصلت لرسول الله ﷺ.

الثالثة: يمكن حمل الآية على أن الكفار لا يجابون بكل ما طلبوه، وأما المسلمون؛ فقد يحتاجون إلى الماء أوالطعام لشدة العطش والجوع والقحط،

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٧).
(٢) الدخان: ١٠.

فيخبرون رسول اللَّه بذلك، أو يستشفعون به، فيسأل اللَّه لهم، فيستجيب اللَّه دعاءه، وتقبل شفاعته؛ كما في أحاديث الاستسقاء، وكما في أحاديث نبع الماء من بين أصابعه، وكما في أحاديث بركة الطعام أيام حفر الخندق وفي تبوك.

وقد يحتاجون في ميادين الجهاد إلى نصر من اللَّه، فيأتيهم المدد من السماء بالملائكة، أو ينصرهم اللَّه بحفنة من التراب؛ كما في غزوة بدر، حيث حصل النصر بالملائكة، وبرمية من تراب، حيث يقول الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]، وهذا ثابت بالقرآن.

وكما في غزوة حنين، إذ رمى رسول اللَّه ﷺ بحفنة من التراب، فانهزمت جيوش المشركين.

الرابعة: يمكن أن يقال بالنسبة للحديث: إن سؤال المشركين انشقاق القمر كان قبل نزول الآية الكريمة من سورة الإسراء، فلما اشتد تعنتهم؛ أنزل اللَّه الآية، فصاروا بعد ذلك لا يجابون على أسئلة التعنت.

الخامسة: أن يُقال: لكن ذلك لا يمنع وقوع الآيات والمعجزات لرسول اللَّه ﷺ لأسباب أخر ولمقاصد وحكم أخرى؛ فهذا قد وقع منه الكثير والكثير، منه ما نص عليه القرآن كما ذكرناه آنفًا، ومنه ما تواترت به السنة، ومنه ما صح، ومنه ما حَسُن.

وقد ألفت في ذلك كتب، وسلمت به الأمة محدثوها ومفسروها وفقهاؤها؛ فقد ألف في ذلك أبو نعيم كتاب «دلائل النبوة» في مجلدتين، وألف البيهقي أيضًا كتاب «دلائل النبوة» في سبع مجلدات، وألف في ذلك القاضي عبد الجبار أحد رءوس المعتزلة كتابًا سمَّاه «تثبيت دلائل النبوة»، أتى فيه بالعجب العجاب في تقرير نبوة رسول اللَّه، حتى إن كثيرًا منه لا يدرك أنه من دلائل النبوة إلا بعد تقريره وبيانه، وألف في ذلك القاضي عياض كتابه «الشفا»، وألفت في ذلك كتب أخرى.

ثم إن كتب الصحاح، والسنن، والمعاجم، والمصنفات، وكتب المغازي،

---

(١) الأنفال: ١٧.

والسير، تزخر بالأحاديث التي رواها الأئمة في ثناياها على أنها معجزات وآيات كبار ودلائل عظيمة على صدق رسول الله ﷺ، لا على أنها مجرد خوارق لا صلة لها بتصديق الرسول ولا بصدق رسالته -تعالى الله عن ذلك، ونزه الله رسوله والمؤمنين عن هذا القول الذي يقوله سيد قطب-.

السادسة: على قول سيد: «وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ؛ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا».

فيقال: هذا جواب الرسل جميعًا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

والآيات كثيرة في أجوبة الرسل أن الآيات إنما هي بيد الله، وأنهم بشر لا يملكون من ذلك شيئًا، ومع ذلك فإن الله سبحانه يُكرمهم ويُجري الآيات والمعجزات على أيديهم، وهكذا رسول الله إذ أسند أمر الخوارق والمعجزات إلى الله؛ فإن ذلك لا يمنع أن يجري الله على يديه تلك الآيات والمعجزات، وقد وقع من ذلك الكثير والكثير.

السابعة: على قوله: «وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة».

أقول: إن القرآن أعظم معجزات هذا الدين فعلًا، ولكن ليس كما يقول سيد،

---

(١) إبراهيم: ٩-١١.

إنه المعجزة الوحيدة! فلم يقل ذلك رسول الله ﷺ، ولم يصرح به القرآن، بل لم يشر إلى ما يقوله سيد قطب، ولم يقل هذا حتى العقلانيون القدامى من المعتزلة؛ إلا من حكم عليه بالإلحاد منهم؛ كالنظام وأمثاله، وإنما يقول هذا العقلانيون المعاصرون من تلاميذ أوربا وفلاسفتها.

الثامنة: على قوله: «فأما ما وقع فعلًا للرسول من خوارق شهدت بها روايات صحيحة، فكان إكرامًا من الله لعبده، لا دليلًا لإثبات رسالته».

أقول: إن الآيات والمعجزات التي أكرم الله بها رسوله محمدًا ﷺ كثيرة جدًّا، وكثير منها ثبتت بالنقل المتواتر، لا الصحة فحسب، وهي من أعظم الدلائل على صدق رسول الله ﷺ، وعلى أنه رسول الله حقًّا وصدقًا.

والقارئ يرى أن سيد قطب يزعم أن ما وقع من الخوارق للرسول ﷺ فيها إكرام لرسول الله ﷺ، ولا دليل فيها لإثبات الرسالة.

فنقول:

١- كيف يعقل أن يخص الله رسوله الكريم بمئات المعجزات الباهرة، بما فيها الإسراء والمعراج وانشقاق القمر، ثم لا يكون فيها أي دليل على أن محمدًا رسول الله صادق في دعواه أنه مرسل من الله ﷻ؟!

٢- يقول سيد قطب: «لقد شاء الإسلام أن يخاطب القوى المدركة في الإنسان، ويعتمد عليها في الإقناع بالشريعة والعقيدة، وذلك جريًا على نظرته الكلية في احترام هذا الإنسان وتكريمه»[1].

فنتساءل: لماذا أخرج الله محمدًا ﷺ عن نظرية الإسلام الكلية في احترام هذا الإنسان؟!

لماذا يتابع عليه هذه الخوارق وهي تتنافى مع كرامة الإنسان؟!

ولماذا يعتبر ما يحط من قدر الإنسان ويتنافى مع احترامه وتكريمه إكرامًا لرسول الله ﷺ؟!

---

(١) «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٠٣)، وقال نحوًا من هذا الكلام في تفسير سورة البقرة (١/ ١٩٢).

أيعقل هذا عند العقلاء وجرى في عاداتهم؟

أم أن هذا من سنة الله أن ما يتنافى مع احترام الإنسان وإكرامه إذا فعله بأنبيائه يكون من إكرام الله لهم مهما كثر هذا الفعل وتتابع عليهم؟

يقول سيد قطب خلال مدح رسالة الإسلام وذكر مزاياها:

«لأنها رسالة الرشد البشري، تخاطب إدراك الإنسان جيلًا بعد جيل، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه».

فنقول: لماذا يتابع الله الآيات الباهرة على محمد ﷺ أكمل الناس عقلًا وأعظمهم رشدًا، وهي لا تلائم ولا تليق بمن بلغ هذه المكانة من الكفار؟!

ولماذا يكتفي الإسلام فيمن بلغوا هذه المنزلة من الكفار بمخاطبة مداركهم ويحترم إدراكهم، ولا يراعي شيئًا من هذا في حق محمد ﷺ أعظم الناس رشدًا وأعلاهم مكانة، وأعظم الناس حرمة عند ربه، ولم يراع ذلك في حق أصحابه الراشدين الذين شهد الله لهم بالرشد، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1]؛ لم يراع من ذلك شيئًا، فتابع عليهم الخوارق (الآيات) مع منافاتها للرشد البشري، ومع منافاتها للإدراك والمدارك البشرية التي ميز الله بها البشر، وكرمهم على كثير من خلقه؟

ويقول سيد قطب مهونًا من شأن معجزات الأنبياء (آيات الله الكبرى)؛ كما قال تعالى في إحدى هذه الآيات: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾[2]؛ يقول:

«إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية الدائمة، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل -صلوات الله عليهم-، قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج، يوجد في الكون ما هو أكبر وأضخم منها»[3].

أقول: إن سيد قطب يعتقد أن البشرية وجدت منذ ملايين السنين[4]، ويفهم من كلامه أن البشرية استمرت تحبو في طفولتها طوال هذه الملايين من السنين، إلى

---

(١) الحجرات: ٧. (٢) النازعات: ٢٠-٢١.

(٣) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٣٧).

(٤) «العدالة الاجتماعية» (ص١٠٥).

عهد رسول الله محمد خاتم النبيين ﷺ.

ولا أدري كيف يتصور سيد بلوغ البشرية الرشد والنضوج؛ أتدرجت فيه على امتداد هذه الملايين من السنين أم هجم عليها فجأة؟!

فإن كانت بلغته بالتدريج؛ فكيف يمر عليها ملايين السنين إلى عهد موسى ثم عيسى -عليهما الصلاة والسلام-، اللذين كثرت على أيديهما الخوارق (الآيات)، ولم تتقدم خطوة إلى الكمال والرشد والنضج، بل أمعنت في الطفولة مما استدعى كثرة الآيات لإقناعهم بأن كلًا من موسى وعيسى صادق في دعوى النبوة والرسالة؟

وعلى هذا المذهب نسأل: لماذا احتاجت البشرية في آخر مراحلها إلى خوارق (آيات) أكثر من أوائلها، فلم تذكر مثلًا لنوح نبي الله إلا معجزة واحدة، وكذلك لنبي الله هود، وصالح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وغيرهم، لا يذكر لهم إلا النزر اليسير، ثم كثرت في عهد موسى، وعيسى، في آخر مراحل البشرية، بل محمد أكثر الأنبياء معجزات وآيات؟

وإن كان ذلك عن طريق الهجوم المفاجئ؛ فنحن نحتاج إلى معرفة اللحظة التي تم فيها هذا الهجوم والانقلاب المفاجئ، وإلى الأدلة والبراهين الواضحة التي تقنع المؤمنين العقلاء بصحة هذا الحدث العظيم، الذي فاجأ البشرية بما لم يتحقق لها خلال ملايين السنين والدهور.

فإن صعب أو استحال هذا أو ذاك؛ فخير لنا، بل فيجب علينا أن نتخلى عن أساطير فلاسفة أوربا حول خلق الإنسان والكون، وحول تاريخهما وأطوارهما، ونرجع في تواضع وأدب إلى ما قاله الله ورسوله، وإلى تاريخ المسلمين في آدم وذريته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ

أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

فهذا آدم أبوالبشر خلقه اللَّه على غاية من الكمال، وزوده بالعلم الذي فاق به الملائكة، ثم أسجد اللَّه له الملائكة أجمعين؛ تكريمًا له ولعلمه، ثم اصطفاه واختاره نبيًّا كريمًا.

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «خلق اللَّه آدم على صورته؛ طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه؛ قال: اذهب فسلم على أولئك -نفر من الملائكة جلوس-، فاستمع ما يجيبونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة اللَّه. فزادوه: ورحمة اللَّه. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن».

فبدأ خلق البشر على غاية الكمال والجمال، ثم ينتهي الناس في الكمال والجمال إلى هذه الحالة والخلقة، ثم لم يزل الخلق ينقص إلى الآن كما أخبر رسول اللَّه ﷺ، ثم تابع اللَّه إرسال الرسل إلى بني آدم حتى ختمهم بمحمد ﷺ.

فأين هي الطفولة التي مرت على البشرية؟!

ومتى بلغت الرشد والنضوج؟!

إن النقص إنما هو بالكفر والضلال من أول انحراف البشرية إلى قيام الساعة، والكمال والعقل والنضوج بالإيمان والتوحيد وطاعة الرسل، واتباعهم منذ خلق اللَّه آدم إلى أن ينتهي الإيمان والمؤمنون من هذه الحياة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3].

---

(١) البقرة: ٣٠-٣٣.

(٢) في الصحيح (٧٩-كتاب الاستئذان، حديث ٦٢٢٧)، ومسلم (٥١-كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث ٢٨٤١).

(٣) التين: ٤-٦.

أما تأريخ البشرية؛ فإن الأخذ فيه بأقوال المسلمين، بل وبني إسرائيل؛ أولى وأقرب إلى العقل والمنطق والواقع من أقوال الملاحدة والفلاسفة التي يقلدها الكتاب العصريون، ويتباهون بها.

قال الإمام محمد بن جرير الطبري في «تفسيره»[(١)]:

«حدثنا محمد بن بشار قال: ثنا أبوداود قال: ثنا همام بن منبه، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين؛ قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أمة واحدة فاختلفوا﴾[(٢)]».

وإذا كان بين آدم ونوح عشرة قرون؛ فما بين آدم ومحمد ﷺ مدة وإن كانت طويلة، لكنها لا يقال فيها ملايين السنين، بل نحكي فيها ما يقوله علماء الإسلام، وإن كان لا يثبت، وإن كنا لا نقطع به، بل نحكيه؛ لأن رسول الله ﷺ قد رخص لنا بقوله: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

فنحن نروي من أقوالهم ما يجيزه العقل، وما لا يصادم نصوص القرآن والسنة، وأما أقوال الجهلة الملاحدة الذين لا تُعرف لهم كتب سماوية، ولا يستندون إلى رسالات ولا تاريخ رسل؛ فلا يليق، بل لا يجوز الاعتماد على كذبهم وخرصهم وخيالاتهم؛ لأنها الكذب المحض، ومن روى حديثًا يرى أنه كذب؛ فهو أحد الكذابين.

إذا تبين هذا؛ فلننقل ما يقوله مؤرخو الإسلام بناءً على ماسبق.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بين موسى وإبراهيم ألف سنة، وبين إبراهيم ونوح ألف سنة، وبين نوح وآدم ألف سنة، وبين موسى وعيسى سبعمائة وألف سنة»[(٣)].

---

(١) (٢/ ٣٣٤).

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) «المنتظم» (١/ ٣٢١).

«وبين ميلاد عيسى والنبي ﷺ ستمائة وخمسين سنة»[1].

وذكر ابن كثير أعمار خليل الله إبراهيم ﷺ وآبائه إلى نوح، فبلغ ثلاثة آلاف ومائتين وأربعين سنة.

وهب أن الأمر كما ذكر أحد هذين العالمين، أو أكثر بضعف أو أضعاف، إلى الحد المعقول واللائق بتاريخ الإنسان

أما أن يركض إنسان إلى نظرية النشوء والارتقاء، أو يقول: إن البشرية مرت بمراحل طفولة تبلغ ملايين السنين؛ فهذا مما لا يجوز أن يقوله مسلم في الكلام العادي، فضلًا عن أن يذكره في تفسير كتاب اللّٰه.

والحاصل: أن معجزات الرسل كان يخاطب بها أقوامٌ عقلاء، لهم أسماع وأبصار وأفئدة تدرك بها الآيات الكونية الدائمة، وتدرك بها المعجزات وغيرها، فيهدي اللّٰه من يهدي منهم، فيصدق الرسل، ومنهم من أراد اللّٰه له الشقاء والضلال، فيكذب ويجحد بآيات الله؛ كما قال تعالى في عاد قوم هود: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[2].

وقال في شأن المكذبين لرسل اللّٰه عمومًا: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[3].

وقال عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[4].

وقال في كفار أمة محمد ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[5].

ولو كانت البشرية في طور الطفولة لم يبلغو الرشد؛ لما أرسل اللّٰه إليهم

---

(١) «المنتظم» (٢/ ١٦).

(٢) الأحقاف: ٢٦.

(٣) الأحقاف: ٢٦.

(٤) النمل: ١٤.

(٥) الأنعام: ٣٣.

الرسل، وأنزل الكتب؛ فإنهم على هذا القول ليس لديهم من العقول ما تقوم به عليهم الحجة؛ كالأطفال والمجانين.

قال في كتابه «السلام العالمي والإسلام» (ص٤٢) بعد نقده لكنائس وما فيها من أساطير وتهاويل وأوهام:

«والإسلام هو المنقذ للفكر البشري لا من الأسطورة والوهم وحدهما، بل كذلك من ضغط المعجزة المادية الخارقة للنواميس الكونية المعروفة.

فلم يشأ لهذا أن يجبر الفكر البشري على الإذعان له بالخوارق المادية، إنما جعل وسيلته إلى الإدراك البشري وضوحه وبساطته وحقائقه

وحينما اتفق أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم -ابن محمد الرسول-، وضج الناس للحادث، وقالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم بادر محمد ﷺ لنفي هذه الشبهة؛ كي لا يغشى وضوح العقيدة ونصوعها، وأعلن أن الشمس آية من آيات الله لا تكسف لموت بشر.

وبذلك الحزم الصارم، والصدق الناصع، نَهْنَهَ الناس عن الاستسلام للرغبة الكامنة في نفوسهم في التهاويل الغامضة، ولم يسايرها ولم يستغلها لنشر دينه الجديد، لأنها في صميمها مناقضة لطبيعة الدين الجديد».

أقول:

أولًا: لك أن تحارب الأسطورة والوهم، ولكن ليس لك أن تقرن بينهما وبين المعجزة؛ فالمعجزة يجريها الله على أيدي رسله أدلة وآيات وبراهين على صدق الرسل.

وفيها تأييد للرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وإقناع لخصومهم، وليس فيها إجبار للفكر البشري على الإذعان بالخوارق المادية.

ثانيًا: أن الرسول الكريم ﷺ لم ينكر أن كسوف الشمس والقمر آية من آيات الله، وإنما أنكر عليهم قولهم: إن الشمس كسفت من أجل إبراهيم ولده؛ قال ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولا لحياته؛ فإذا رأيتم منهما شيئًا فصلوا وادعوا حتى

ينكشف ما بكم» رواه البخاري في الكسوف حديث (١٠٤١)، ومسلم في الكسوف (٩١١).

فقد بين الرسول ﷺ أنهما من آيات اللَّه، وبين الحكمة من كسوفها، وأنه مما يخوف اللَّه به عباده ليفزعوا إليه فيصلون ويذكرون اللَّه حتى يكشف ما بهم؛ فكسوفهما آية من آيات اللَّه يخوف اللَّه بها عباده ليقلعوا عن معاصيه.

ولا دليل لسيد قطب في هذا الحديث ولا في غيره على استبعاد الإسلام للخوارق أي: المعجزات، واقتصاره على وسيلة الإدراك البشري، وهي الوضوح والبساطة في الإسلام؛ فليس الناس على مستوى واحد في الإدراك؛ إذ أدرك أغلبية البشر قاصر عاجز في كل زمان ومكان، فعندما تأتيه آيات صدق الأنبياء والخارقة ويستيقظ عقله، ويتحرك إدراكه إن أراد اللَّه هدايته فيهتدي إلى الحق وينقاد للرسل، كما حصل لسحرة فرعون فآمنوا.

وأيضًا يزداد بها المؤمنون إيمانًا وتعينًا، وهذا أمر مؤكد يحصل لهم بل يحصل ذلك للرسل أنفسهم، كما قال إبراهيم الذي آتاه اللَّه رشده: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وكما قال محمد ﷺ في غزوة تبوك لما بارك اللَّه في الطعام بدعوته حتى أشبع الناس وملئوا أزودتهم: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول الله»، قالها لافتًا أنظار المسلمين إلى صدق رسالته.

ثالثًا: قولك: «بادر محمد ﷺ لنفي هذه الشبهة كي لا يغشى وضوح العقيدة ونصوعها».

فنقول: كلا إنه لم يكن ذلك أبدًا من أجل أن الآيات الربانية تغشى وضوح العقيدة ونصوعها، وإنما تزيد العقيدة وضوحًا ونصوعًا، وهذا ما يدل عليه القرآن والسنة والعقل، ويؤمن به علماء الإسلام بما فيهم المعتزلة العقلانيون؛ فقد ألف علماء السنة وعلماء المعتزلة وغيرهم مؤلفات في دلائل النبوة، ومنهم أبو نعيم، والبيهقي، ومنهم عبد الجبار العقلاني المعتزلي ألف كتاب «تثبيت دلائل النبوة».

رابعًا: من الجرأة بمكان قولك: «نهنه الناس على الاستسلام للرغبة الكامنة في نفوسهم في التهاويل الغامضة ولم يسايرها ولم يستغلها لنشر دينه الجديد».

أليس هذا سوء ظن بأصحاب محمد ﷺ، أليسوا هم أعداء التهاويل الغامضة؟

ثم لماذا يقول لهم: «إنَّ هذه آية يخوف اللَّه بها عباده»، ويحضهم على الصلاة والذكر حتى يكشف اللَّه مابهم؟

فعلى منطقك لم ينهنهم رسول اللَّه عن الاستسلام للرغبة الكامنة في نفوسهم في التهاويل الغامضة، ويكون رسول اللَّه قد سايرها واستغلها لنشر دينه، فهذا ما يؤدي إليه تعليلك ومنطقك الأخرق؛ لأنه ﷺ اعتبر ذلك آية وبين الحكمة من هذه الآية وهي التخويف، وندبهم إلى الصلاة والذكر لجوءًا إلى اللَّه لإزالة هذا الأمر المخوف وكشفه عنهم.

فعلى منطقك الأخرق يكون هذا من الرسول مسايرة واستغلالًا، وحاشاه من ذلك.

والواقع: أن الآيات والمعجزات النبوية لا تزيد الناس إلا إيمانًا باللَّه ورسله، وإيمانًا بقدرة اللَّه وعلمه، ولا تزيد المؤمنين إلا إيمانًا ويقينًا وطمأنينة، والدليل: قصة إبراهيم الذي آتاه اللَّه رشده، وآتاه الحجة الدامغة.

وتعليلات سيد قطب كلها ترهات وأساطير قلد فيها العقلانيين الأوربيين والمستغربين.

خامسًا: من أعجب العجائب: أن يسلك المعجزات في التهاويل والأساطير، ثم يدعي أنها في صميمها مناقضة لطبيعة الدين الجديد، وهذا نهاية في حرب معجزات الرسول ﷺ الثابتة بالتواتر وإجماع المسلمين، ونهاية في الاستعلاء العقلي المزيف!

فأين احترام سنة رسول اللَّه ومعجزاته، وآيات اللَّه التي أجراها اللَّه على يديه، وآمن بها أعقل الناس وأرشدهم، وأرادوا بها إيمانًا ويقينًا وازدادوا، ولايزال المؤمنون على هذا الإيمان والرشد والهدى والاهتداء إلى يوم القيامة؛ فبعدًا وبعدًا وسحقًا لأهل الأهواء والجهل المتعاقلين.

الفصل الرابع عشر: سيد لا يقبل أخبار الآحاد الصحيحة في العقيدة، بل لا يقبل الأحاديث المتواترة

يقول في سياق رده للروايات التي تذكر أن النبي ﷺ قد سحره رجل من اليهود:

«وقد وردت روايات، بعضها صحيح ولكنه غير متواتر، وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة، والمرجع هو القرآن، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد»[1].

فأنت تراه يعترف بصحة بعض الروايات في الموضوع المذكور، ولكنه لا يأخذ بها؛ لأن التواتر عنده شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد!

لكن هذا الشرط ما دليله؟ ومن قاله؟

إنهم فرق الضلال من الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، الذين جاراهم سيد، وخالف جماهير العلماء من السلف والخلف، حيث ذهبوا إلى أن خبر الآحاد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقًا له وعملًا بموجبه؛ أفاد العلم، وعلى هذا المذهب الصحيح أهل الحديث قاطبة، وأحاديث الصحيحين من هذا النوع.

وعليه من الأئمة المشهورين: شمس الأئمة السرخسي، وأمثاله من الحنفية.

والقاضي عبد الوهاب، وأمثاله من المالكية.

والشيخ أبي حامد الإسفراييني، والقاضي أبي الطيب الطبري، والشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وسليم الرازي، وأمثالهم من الشافعية.

وأبي عبد الله بن حامد، والقاضي أبي يعلى، وأبي الخطاب، وغيرهم من الحنابلة.

وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم؛ كأبي إسحاق الإسفراييني،

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٤٠٠٨).

وأبي بكر بن فورك، وأبي منصور التميمي، وابن السمعاني، وأبي هاشم الجبائي، وأبي عبد الله البصري.

وأيد هذا المذهب ابن الصلاح، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والبلقيني، والحافظ ابن حجر، والسيوطي، وقبلهم ابن حزم.

ومن أنواع خبر الآحاد التي تفيد العلم: الخبر المحتف بالقرائن.

وممن صرح به إمام الحرمين، وأبوحامد الغزالي، والسيف الآمدي، وابن الحاجب، ومن تبعهم.

ومنها: الخبر المستفيض الوارد من وجوه كثيرة لا مطعن فيها، تفيد العلم النظري للمتبحر في هذا الشأن؛ أي: في علوم الحديث.

فهؤلاء جماهير العلماء من أصوليين، وفقهاء، ومتكلمين، مع أهل الحديث في أن خبر الآحاد إذا تلقته الأمة بالقبول، أو إذا احتفَّت به القرائن، أو كان مستفيضًا؛ أفاد العلم[1].

فمثل هذه الأنواع من أخبار الآحاد، هل يقيم لها سيد قطب وزنًا، ويرى أنها تصلح للاحتجاج في أبواب الاعتقاد لأنها تفيد العلم، أو يرى عدم صلاحيتها؟!

والظاهر: أنه يرى عدم صلاحيتها للاحتجاج بها في الاعتقاد.

بل الأحاديث المتواترة لا يقبلها في قضايا العقيدة لا احتجاجًا ولا استئناسًا؛ فلم يحتج بها، ولم يستأنس بها في صفة الاستواء على العرش والعلو عليه، ولا في صفة المجيء، ولا في رؤية المؤمنين ربهم، ولا في تكلم الله لرسله وعباده، ولا في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ولا في الإسراء والمعراج.

بل هو يتأول الآيات القرآنية التي تجاوزت حد التواتر؛ فكيف يحتج أو يستشهد بالأحاديث المتواترة، بَلْه الآحاد؟!

---

(١) انظر هذا البحث في «النكت» للحافظ ابن حجر على مقدمة ابن الصلاح (١/ ٣٧١-٣٧٩)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٨/ ٤٠ و ٤٨ و ٤٩)، و«مختصر الصواعق المرسلة» للحافظ ابن القيم (ص٤٨١-٤٨٢)، و«محاسن الاصطلاح بهامش مقدمة ابن الصلاح» للعلامة البلقيني الشافعي (ص١٠١)، و«الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/ ١١٩-١٣٧)، و«الباعث الحثيث» (ص٣٥-٣٦)، و«تدريب الراوي» للحافظ السيوطي (ص٧١).

الفصل الخامس عشر: سيد يجوِّز للبشر أن يشرعوا قوانين لتحقيق حياة إسلامية صحيحة

ومع أن سيد يكفر من لم يحكم بما أنزل اللَّه مطلقًا، ويتشدد في ذلك؛ فإنه يرى أنه يجوز لغير اللَّه أن يشرعوا قوانين لتحقيق حياة إسلامية صحيحة.

قال:

«فإذا انتهينا من وسيلة التوجيه الفكري؛ بقيت أمامنا وسيلة التشريع القانوني لتحقيق حياة إسلامية صحيحة تكفل فيها العدالة الاجتماعية للجميع.

وفي هذا المجال لا يجوز أن نقف عند مجرد ما تم في الحياة الإسلامية الأولى، بل يجب الانتفاع بكافة الممكنات التي تتيحها مبادئ الإسلام العامة وقواعده المجملة.

فكل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية، ولا تخالف أصوله أصول الإسلام، ولا تصطدم بفكرته عن الحياة والناس، يجب ألا نحجم عن الانتفاع به عند وضع تشريعاتنا، مادام يحقق مصلحة شرعية للمجتمع، أو يدفع مضرة متوقعة.

ولنا في مبدأ المصالح المرسلة، ومبدأ سد الذرائع، وهما مبدآن إسلاميان صريحان ما يمنح ولي الأمر سلطة واسعة لتحقيق المصالح العامة في كل زمان ومكان»[1].

وعلى هذا مآخذ:

١- كأن سيدًا يرى أن الإسلام غير كامل ولا وافٍ بمتطلبات الأمة الإسلامية.

٢- يمكن لأي دولة تنتمي للإسلام أن تأخذ كل ما تهواه من القوانين الوضعية

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٦١-الطبعة الخامسة).

بحجة تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وبحجة أنها لا تتنافى مع أصول الإسلام، ولو كانت مصادمة لأصوله ونصوصه

٣- يرى سيد أخذ كل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية إذا لم تخالف أصول تلك التشريعات وأصول تلك التنظيمات أصول الإسلام، ولا تصطدم بفكرته عن الحياة؛ أي: لا تحرم التشريعات والنظم الكافرة على المسلمين إلا في حالة مصادمة أصولها أصول الإسلام، فإذا خالفت أصول التشريعات الكافرة والتنظيمات الكافرة نصوص الإسلام من الكتاب والسنة والأمور الفرعية التي دلت عليها تلك النصوص؛ فلا حرج فيها، ولا تحريم، بل يجب الأخذ والحال هذه بتلك التشريعات والتنظيمات الكافرة.

وكذلك؛ إذا خالفت تفريعات تلك القوانين والنظم أصول الإسلام؛ فلا حرج فيها، بل يجب الأخذ بها؛ لأنها فروع صادمت أصول الإسلام، وذلك لا يضر، وإنما الضرر فقط في مصادمة الأصول الكافرة للأصول الإسلامية.

وبهذا التأصيل والتقعيد الذي يضعه سيد تنفتح أبواب التلاعب بدين الله لكل طاغية يريد التلاعب بالإسلام وبالأمة الإسلامية، فيمكنه جلب قوانين أوربا وأمريكا تحت ستار هذه التأصيلات التي وضعها سيد قطب.

وانطلاقًا من هذه القواعد التي وضعها سيد:

١- أخذ بالاشتراكية الغالية، فتوصل إلى أنه بيد الدولة أن تنتزع كل الممتلكات والثروات من أهلها، وتعيد توزيعها من جديد، ولو قامت على أسس إسلامية.

٢- ومن هذا المنطلق يرى أنه لا مانع من وضع نظام دولي يلغي الرق الذي شرعه الإسلام؛ فيقول في تفسير سورة التوبة:

«﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾[1]، وذلك حين كان الرق نظامًا عالميًا تجري المعاملة فيه

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٦٦٩)، وقد قرر هذا في تفسير سورة البقرة في «الظلال» (١/ ٢٣٠)، وفي تفسير سورة المؤمنون (٤/ ٢٤٥٥)، وفي تفسير سورة محمد (٦/ ٣٢٨٥).

على المثل في استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم، ولم يكن للإسلام بدٌّ من المعاملة بالمثل، حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الاسترقاق».

وهكذا يرى سيد أنه يجوز قيام نظام عالمي ينسخ ما قرره الإسلام في الكتاب والسنة، وأجمع على مشروعيته المسلمون في أبواب الجهاد والزكاة والكفارات والفضائل وغيرها في الرق وعتق الرقاب!

لماذا؟! لأن هذا كله لم يصطدم بأصل من أصول الإسلام في زعمه!

وكذلك استباحة مصادرة وتأميم ثروات المسلمين وملكياتهم الاستباحة المستوردة من الاشتراكيين الغربيين ومن أنظمتهم وقوانينهم يجب الأخذ بها؛ لأنها تحقق مصالح وتدرأ مفاسد، ولو صادمت نصوصًا قاطعة في تحريم ذلك، ولأنها لم تصطدم بأصول الإسلام في زعمه.

أما مصادمتها لنصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على حرمة أموال المسلمين؛ فهذا أمر هين عند سيد قطب؛ فلا يلتفت إليه.

وكل هذا مجاراة لأهواء الغربيين، وما أكثر وأشد ما يقع في هذا الميدان - أي: ميدان مجاراة الغربيين-!

ولو قامت له ولأمثاله دولة؛ لرأيت العجب العجاب من القوانين والتشريعات التي تحل الحرام، وتحرم الحلال؛ انطلاقًا من هذه القواعد التي تؤدي إلى هدم الإسلام باسم الإسلام، وبرأ اللَّه الإسلام من ذلك.

فأين التركيز على أنه لا حاكم إلا اللَّه، ولا مشرع إلا الله؟!

وأين ما قام على هذا من تكفير المجتمعات الإسلامية كلها لأنها تخضع لغير حاكمية اللَّه وتشريعاته في نظره؟!

فاعتبروا يا أولي الألباب.

ملاحظة:

يجب على المسلمين جميعًا أن يدينوا ويعتقدوا أنه لا مشرع إلا الله؛ فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا واجب إلا ما فرضه،

ولا مندوب ولا مكروه إلا ما قام عليه دليل من كتاب اللَّه وسنة رسوله .

فمن أبطل واجبًا ، أو أحلَّ حرامًا ؛ فقد جعل نفسه ندًّا لله ، ورد ما شرعه اللَّه (إذا كان عالمًا بذلك متعمدًا) ، وخرج بهذا التشريع من دائرة الإسلام .

أما الأمور الدنيوية المباحة ؛ فإذا احتاج المسلمون حكامًا ومحكومين إلى تنظيمها وضبطها ؛ فلا مانع من ذلك ، وعلى ذلك أدلة :

منها : قوله ﷺ في تأبير النخل : «أنتم أعلم بدنياكم» .

ومنها : إنشاء عمر للدواوين بإشارة من الصحابة وتأييد منهم .

والمصالح المرسلة تدور في هذا المجال ما لم تصطدم بنص من نصوص القرآن والسنة ، أو إجماع الأمة .

* * *

الفصل السادس عشر: إيمان سيد قطب بالاشتراكية المادية الغالية

لقد قرر سيد قطب الاشتراكية المادية الغالية في عدد من كتبه؛ كـ «العدالة الاجتماعية»؛ أي: الاشتراكية الغالية، ومثل كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية»، و«السلام العالمي والإسلام»، وقررها في «الظلال» في سورة الحشر في صورة موجزة، وأحال على كتابه «العدالة» فصل: في سياسة المال في الإسلام.

ومن أقواله بهذا الصدد:

«وأول مبدأ يقرره الإسلام بجوار حق الملكية الفردية:

١- أن الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة.

٢- وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكًا.

٣- وأن المال في عمومه إنما هو أصلًا حق الجماعة.

٤- والجماعة مستخلفة فيه عن الله الذي لا مالك لشيء سواه.

٥- والملكية الفردية تنشأ عن بذل الفرد جُهدًا خاصًا لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التي استخلف الله فيها جنس الإنسان.

وهناك ما هو أصرح من هذا في حقيقة الملكية الفردية بوصفها ملكية التصرف والانتفاع، وهذا هو الواقع، فالملكية العينية لا قيمة لها بدون حق التصرف والانتفاع، فشرط بقاء هذه الوظيفة هو الصلاحية للتصرف، فإذا سفه التصرف؛ كان للولي أو للجماعة استرداد حق التصرف: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾[1].

فحق التصرف مرهون بالرشد، وإحسان القيام بالوظيفة، فإذا لم يحققهما

(١) النساء: ٥.

المالك؛ وقفت النتائج الطبيعية للملك، وهي حقوق التصرف.

ويؤيد هذا المبدأ أن الإمام وريث من لا وريث له؛ فهو مال الجماعة، وُظف فيه فرد، فلما انقطع خلفه؛ عاد المال إلى مصدره»[1].

وقال سيد قطب:

«فخلاصة الحقيقة عن طبيعة الملكية الفردية في الإسلام:

١- أن الأصل هو أن المال للجماعة في عمومها.

٢- وأن الملكية الفردية وظيفة ذات شروط وقيود.

٣- وأن بعض المال شائع لا حق لأحد في امتلاكه، ينتفع به الجميع على وجه المشاركة.

٤- وأن جزءًا منه كذلك حق يرد إلى الجماعة لترده على فئات معينة فيها، وهي في حاجة إليه لصلاح حالها وحال الجماعة معها»[2].

أقول: إذا كان موظفًا؛ فالموظف يطرد ويفصل، وهذا ما سيقرره سيد قطب.

ثم تشتد لهجته أحيانًا، فيقول:

«ولكن الإسلام لا يدع حق الملكية الفردية مطلقًا بلا قيود ولا حدود؛ فهو يقرره، ويقرر بجواره مبادئ أخرى تحيله حقًّا نظريًا لا عمليًا، وتكاد تجرد منه صاحبه بعد أن يستوفي منه حاجاته، وهو يشرع ويشرع له الحدود والقيود التي تكاد تجعل صاحبه مسيرًا لا مخيرًا في تنميته وإنفاقه وتداوله، ومصلحة الجماعة كامنة من وراء هذا كله، ومصلحة الفرد ذاته كذلك، في حدود الأهداف الخلقية التي يقيم الإسلام عليها الحياة».

فيبلغ الحماس أوجه، فيقرر في كتابه «معركة الإسلام والرأسمالية»، فيقول بعد الحديث عن سوء توزيع الملكيات والثروات والحديث عن الاشتراكية:

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٩١-الطبعة الثانية عشرة).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٤).

«بل في يد الدولة أن تنزع الملكيات والثروات جميعًا، وتعيد توزيعها على أساس جديد، ولو كانت هذه الملكيات قد قامت على الأسس التي يعترف بها الإسلام، ونمت بالوسائل التي يبررها؛ لأن دفع الضر عن المجتمع كله أو اتقاء الأضرار المتوقعة لهذا المجتمع أولى بالرعاية من حقوق الأفراد»[1].

ولا يخفى أن هذه حجج الشيوعيين والاشتراكيين على ابتزاز أموال الناس وتأميمها باسم العدالة والمساواة، وباسم المصلحة للجماعة، وتلك هي حجج الشيوعيين والاشتراكيين، وذلك هو الظلم والعسف وهدم الأمم ومصالحها، وتحويل كل من الأغنياء بعد سلب أموالهم والفقراء إلى عبيد أذلاء، والضمانات الكاذبة التي يقدمها الاشتراكيون سوف تتبخر وتتلاشى.

وفي مصير الأنظمة الشيوعية والاشتراكية أعظم عبرة للمعتبرين.

* * *

(١) «معركة الإسلام والرأسمالية» (ص٤٤)، وانظر: «السلام العالمي» (ص١٤١-١٥٩).

الفصل السابع عشر:
الولاء والبراء عند سيد قطب

أساليب سيد قطب في كتاباته تغرس في نفوس من يقلدونه الحقد الشديد والكراهية والبغضاء للمجتمعات الإسلامية؛ لأنه يحكم عليها بأنها مجتمعات جاهلة لابد من مواجهتها بالجهاد لاستئناف حياة إسلامية وليدة جديدة، وإنشاء مجتمع إسلامي يبدأ من الصفر في هذه المجتمعات.

فإذا تحدث عن موقف الإسلام من أهل الذمة، بل وغيرهم؛ يتكلم بأسلوب ناعم رقيق رخي وديٍّ، يزعم فيه أن الإسلام يشرع موادة الكفار الذين لا يحاربوننا من الذميين وغيرهم؛ يهودًا كانوا، أو نصارى، أو مجوسًا، أو شيوعيين؛ فكل من لم يحاربنا فالإسلام يشرع موادتهم، ومحبتهم، ورحمتهم، وحمايتهم، وحماية عقائدهم ومعابدهم، والدفاع عنهم.

وبهذا يكون قد جنى على الإسلام جناية كبيرة، وسعى في تمييع وتضييع مبدأ الولاء والبراء، وقال على الله ما لم يقل، بل قال بضد ما قاله الله وقرره في محكم كتابه، وبضد ما قاله رسول الله ﷺ في سنته، وما قرره علماء الإسلام.

وسيد قطب يجاري في هذا الذي ينسبه إلى الإسلام أفراخ الاستعمار من الكتاب والأحزاب الضالة التي ضيعت الإسلام، وهدمت مبدأ الولاء والبراء في نفوس المسلمين وبلاد الإسلام.

ومع تشدد سيد قطب وتكفيره للمجتمعات الإسلامية، وتقرير معاداتهم وبغضهم ومفاصلتهم، ودعوة أتباعه إلى ما يسمى بالعزلة الشعورية؛ فإنه مع ذلك يدعو إلى موادة الكفار على مختلف مللهم إذا لم يحاربونا، وينسب ذلك إلى الإسلام، فيقول:

«والإسلام لا يكفل لأهل الذمة دماءهم فقط كما يقول الرسول ﷺ: «من قتل معاهدًا؛ لم يرح رائحة الجنة»، ولا أموالهم وحرياتهم فقط: «من ظلم معاهدًا أو

كلفه فوق طاقته؛ فأنا حجيجه»، ثم يدعهم في عزلة اجتماعية، مكتفيًا بحماية أرواحهم وأموالهم وحرياتهم

كلا؛ إنما هو يفسح في رحابه وبين أهله أن يعيشوا مواطنين محترمين، تربط بينهم وبين المسلمين صلات المودة والتبادل الاجتماعي والمجاملات العامة، فلا يعزلهم في أحياء خاصة، ولا يكلفهم أعمالًا خاصة، ولا يمنعهم الاختلاط بالمسلمين، على نحو ما يمنع البيض والسود في أمريكا، والملونون في جنوب إفريقيا.

إن الذميين في الإسلام يودُّون ويوادُّون، ويعيشون في جوٍّ اجتماعي طلق، يدعون إلى ولائم المسلمين، ويدعون المسلمين إلى ولائمهم، ويتم بينهم ذلك التواد الاجتماعي اللطيف ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾[1]»[2].

انظر كيف يلح سيد في حديثه عن الإسلام على قضية الموالاة بين المسلمين أولياء الله وبين أعدائه الذميين من أهل الكتاب وغيرهم، والله -تبارك وتعالى- قد حرم الموادة بين المؤمنين والكافرين في نصوص كثيرة قاطعة؛ مثل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية[3].

فأين يذهب سيد قطب عن هذا الأمر البدهي؟!

قال سيد قطب:

«على أن المهمة التي أناط الله بها الأمة المسلمة، ليست هي مجرد هداية الناس إلى الخير الذي جاء به الإسلام وحماية العقيدة الإسلامية وأصحابها، إنما هي أكبر من ذلك وأشمل

إنها كذلك حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعًا، واستبعاد عنصر القوة

---

(١) المائدة: ٥.

(٢) «نحو مجتمع إسلامي» (١١٩-١٢٠).

(٣) المجادلة: ٢٢.

المادية من ميدان الاعتقاد والعقيدة، وحماية الضعفاء من الناس من عسف الأقوياء، ودفع الظلم أيًا كان موقعه وأيًا كان الواقع عليه، وكفالة القسط والعدل للبشرية كافة، ومقاومة الشر والفساد في الأرض بحكم الوصاية الرشيدة التي ناطها الله بهذه الأمة؛ إذ يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2]»[3].

وقال أيضًا:

«وتبعًا لهذه الفكرة [أي: عدم القهر بالمعجزات] لم يشأ من باب أولى أن يجعل القهر المادي وسيلة للإقناع، أو لحمل الناس على اعتناقه بالإكراه، ولم يضق ذرعًا باختلاف الناس في المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا ضرورة من ضرورات الفطرة، وغرضًا من أغراض الإرادة العليا في الحياة والناس: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[4]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[5]»[6].

كيف يقول سيد: «ولم يضق ذرعًا (يعني: الإسلام) باختلاف الناس في المنهج والعقيدة، بل اعتبر هذا ضرورة من ضرورات الفطرة»؟!

نعوذ بالله من القول على الله بلا علم، بل القول بما يصادم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[7].

فلم يقبل الله من الناس جميعًا إلا الإسلام الحق الذي هو دينه في الرسالات كلها، ولم يجعل الله الاختلاف في الدين من ضرورات الفطرة، بل الله فطر الناس

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) البقرة: ١٤٣.
(٣) «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٠٠).
(٤) هود: ١١٨-١١٩.
(٥) المائدة: ٤٨.
(٦) «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٠٣).
(٧) آل عمران: ٨٥.

على الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

ومن حديث عياض بن حمار المجاشعي: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: **«ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: رب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك»**[3].

وكم في القرآن العظيم من الآيات الكريمة التي تذم المشركين واليهود والنصارى والمنافقين.

وقد شرع الجهاد في القرآن والسنة لإدخال الناس جميعًا في دين الله، ولتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، وشرعت الجزية على أهل الكتاب بعد دعوتهم إلى الإسلام؛ لإذلالهم، حتى يعطوا الجزية على يد وهم صاغرون.

فأين ما يقرره سيد مما يقرره الله ورسوله؟!

إن سيدًا لا يفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية؛ لذلك تراه يحتج بالآيات التي تتحدث عن إرادة الله الكونية الشاملة لخلق الخير والشر والإيمان والكفر، فلا يخرج عنها شيء في هذا الكون، فهي تتحدث عما أراده الله قدرًا

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣-كتاب الجنائز-٨٠-باب، إذا أسلم الصبي فمات رقم ١٣٥٨).

(٣) مسلم (٥١-كتاب الجنة، رقم ٢٨٦٥).

ونفذه فعلًا وواقعًا، ولم يفهم الآيات الدالة على أمر اللَّه الشرعي وإرادته الشرعية المرادفة لمحبته ورضاه.

فلقد كلف اللَّه عباده شرعًا أن يعبدوه ويطيعوه ويطيعوا رسله، وأمرهم جميعًا باتباع ما أوحاه وأنزله في كتبه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾(٣).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٤).

وقال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾(٥).

إلى غير ذلك من الآيات التي تأمر الناس جميعًا بتوحيده وعبادته وطاعته، وتتوعد وتستنكر الكفر والضلال والمعصية، وتدل على أن اللَّه يبغض ذلك ويمقته ويمقت أهله ويبغضه الرسل وأتباعهم المؤمنون ويبغضون أهله.

ويقول سيد قطب:

«ومع أن هذا النص [أي: قول اللَّه في سورة الحج من آية ٣٩-٤١] يكشف عن السبب المباشر في الإذن للمسلمين بالقتال؛ فإن بقيته تبين حكمًا عامًّا في مشروعية القتال، وغاية اللَّه من نصر من ينصرهم فيه، وذلك هو ضمان حرية العقيدة عامة

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) النساء: ١٣-١٤.

(٣) النساء: ٣٦.

(٤) البقرة: ٢١.

(٥) الزمر: ٧.

للمسلمين وغير المسلمين، وتحقيق الخير في الأرض والصلاح.

فهو يقول: إنه لولا مقاومة بعض الناس -وهم المؤمنون- لبعض الناس -وهم الظالمون-؛ لهدمت صوامع وبيعٌ وصلوات ومساجد، والصوامع معابد الرهبان، والبيع كنائس النصارى، والصلوات كنائس اليهود، والمساجد مصليات المسلمين، وهو يقدم الصوامع والبيع والصلوات في النص على المساجد توكيدًا لدفع العدوان عنها.

فهي إذن دعوة إلى ضمان حرية العبادة[1] للجميع واحترام أماكن العبادة جميعًا، ثم وعد بالنصر الذي يؤدي إلى تمكين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر العابدين لله الباذلين أموالهم للعفاة

فالإسلام لا يريد حرية العبادة لأتباعه وحدهم، إنما يقرر هذا الحق لأصحاب الديانات المخالفة، ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية، راية ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين

وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر، يستطيع الجميع أن يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحرياتهم الدينية، على قدم المساواة مع المسلمين، وبحماية المسلمين»[2].

أقول: إن الجهاد شُرع لإعلاء كلمة الله، ولإظهار دين الله على الأديان، لا لحماية الكفر، ولا لحماية حرية العقائد الكافرة، ولا لحماية معابد الكفر قبل حماية المساجد!

إن فيما يقوله سيد قطب تمييعًا للإسلام، وتشبيهًا له بمناهج اللادينيين من

---

(١) نعوذ بالله من هذا الادعاء الكبير الخطير على الإسلام! فوالله إنه ليس للإسلام أي علاقة بهذه الدعوة التي يزعمها سيد قطب إن رسالة الإسلام ما هي إلا دعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى خلع عبادة الأوثان، وكل ألوان الضلال والشرك؛ فهل كان الإسلام يدعو إلى عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟!

هل كان يدعو إلى عبادة النار والصلبان وسائر الأوثان؟!

إنها لكارثة أن يتصدى للدعوة والتوجيه مثل من يدعي على الإسلام هذه الدعاوى الباطلة المغرقة في البطلان والضلال.

(٢) «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٠٥).

الديمقراطيين وغيرهم

قاتل الله السياسات المائعة التي تميع الإسلام استرضاء وتملقًا لعواطف النصارى واليهود، وتوددًا وتحببًا إليهم، بينما لا نرى في تعاملهم مع المسلمين إلا الجبروت والشدة والتكفير.

ويقول سيد:

«إن قوة الإسلام قوة محررة، تنطلق في الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال، وهي لا تنظر من هذا المجال لجنس، ولا لون، ولا لغة، ولا لأرض، الناس سواء، كلهم ناس، أما فكرة القومية الضيقة التي اعتنقتها أوربا، والتي انتقلت إلينا عدواها في حدودها الضيقة الهزيلة السخيفة؛ فلا يعترف بها الإسلام، لأنها تخالف نظريته الكلية عن وحدة البشرية.

حيثما كان ظلم؛ فالإسلام منتدب لرفعة ودفعه، وقع هذا الظلم على المسلمين أو على الذميين -أي: الذين أعطاهم الإسلام ذمته ليحميهم-، أو على سواهم ممن لا يربطهم بالمسلمين عهد ولا اتفاق»[١].

ويقول:

«فإذا استسلم من يطلب السلام؛ فهؤلاء هم الذميون، أي: الذين أعطاهم الإسلام ذمته وعهده لحمايتهم ورعايتهم، وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين بنص الإسلام الصريح»[٢].

ويقول:

«وعندما يؤدي الإسلام واجبه في هداية البشرية، وينهض بتكاليفه في دفع الظلم والفساد عنها؛ لا تبقى له سلطة تعسفية على فرد أو قوم، ولا تبقى في صدره إحنة على طبقة أو جنس، وهي روح له من إقرار السلام في الأرض، ومن تأليف الأجناس والألوان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر»[٣].

---

(١) «السلام العالمي والإسلام» (ص١٧٤).

(٢) «السلام العالمي والإسلام» (ص١٧٥).

(٣) «السلام العالمي والإسلام» (ص١٧٧-١٧٨).

أقول: إن الإسلام بريء كل البراءة مما ينسبه سيد إلى الإسلام!

فلا والله؛ ما سوى الإسلام بين الذميين الكفار أعداء الله ورسوله والمؤمنين وبين أوليائه المؤمنين.

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

ولا كلفنا الإسلام بحماية كفار مجرمين ليس بيننا وبينهم عهد ولا اتفاق!!

أفنضحي بدماء المسلمين وأموالهم وقوتهم لحماية الشيوعيين؟!

لا والله؛ ما أمر الله ولا شرع محبة أعدائه ومودتهم!

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[3].

ونقول فيهم كما قال نبي الله نوح -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[4].

قال ابن القيم عن الخليفة الآمر بعد أن حكى استفحال أمر النصارى وطغيانهم:

«ثم انتبه الآمر من رقدته، وأفاق من سكرته، وأدركته الحمية الإسلامية والغيرة المحمدية، فغضب لله غضب ناصر للدين وبار بالمسلمين، وألبس الذمة الغيار، وأنزلهم بالمنزلة التي أمر الله تعالى أن يُنزلوا بها من الذلة والصغار، وأمر ألا يُولوا شيئًا من أعمال الإسلام»[5].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد كلام طويل فيه بيان تعامل الخلفاء عمر بن عبد

---

(١) القلم: ٣٥-٣٦.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) نوح: ٢٦-٢٨.

(٥) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٢٧).

العزيز، والمنصور، والمهدي، والرشيد إلى الآمر مع أهل الذمة بما يستحقون من الإذلال، وساق آيات كثيرة في بيان غضب الله عليهم، وبيان خبثهم وحقدهم على المسلمين، وآيات في تحريم موالاتهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ضروب الطاعات: إهانتهم في الدنيا قبل الآخرة التي هم إليها صائرون، ومن حقوق الله تعالى الواجبة: أخذ جزية رءوسهم التي يعطونها عن يد وهم صاغرون.

ومن الأحكام الدينية: أن تعم جميع الذمة إلا من لا تجب عليه باستخراجها، وأن يتعمد في ذلك على سلوك سبيل السنة المحمدية ومنهاجها، وألا يسامح بها أحد منهم، ولو كان في قومه عظيمًا، وألا يقبل إرساله بها، ولو كان فيهم زعيمًا، وألا يحيل بها على أحد من المسلمين، ولا يوكل في إخراجها عنه أحدًا من الموحدين، وأن تؤخذ منه على وجه الذلة والصغار؛ إعزازًا للإسلام وأهله، وإذلالًا لطائفة الكفار، وأن تستوفى من جميعهم حق الاستيفاء»[1].

إلزام الذميين بلبس الأغيار:

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **نقلًا من كلام الآمر بأمر الله:**

«وقد رأى أمير المؤمنين لقيامه -بما استحفظ من أمور الديانة، وحفظ نظامها، ولانتصابه لمصالح أمة جعله الله رأسها وإمامها، ولرعاية ما يتميز به المسلمون على من سواهم، ولجعل الكفار يعرفون بسيماهم- أن يعتمد كل من اليهود والنصارى ما يصيرون به مستذلين ممتهنين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فلتستأد جزية رءوسهم أجمع من غير استثناء من حزب المشركين لأحد، ولينبه في استخراجها والحوطة عليها إلى أبعد غاية وأمد، وليفرق بين المسلمين وبينهم في الحسبة والزي؛ ليتميز ذوو الهداية والرشد من ذوي الضلالة والبغي، وليوسموا

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) المنافقون: ٨.

بالغيار وشد الزنار، وإزالة ما على المسلمين من تشبههم بهم من العار، ثم أمر بأن يغيروا من أسمائهم وكناهم ما يختص به أولو الإيمان، ثم هددهم بالنكال الشديد إن لم ينفذوا ذلك، ثم أمرهم بصبغ أبوابهم باللون الأغبر والرصاصي.

ثم قال: ولا يمكنوا من ركوب شيء من أجناس الخيل والبغال، ولا سلوك مدافن المسلمين ومقابرهم في نهار ولا ليل، ولا يفسح لأحد منهم من المراكب المحلاة، وليمنعوا من تعلية دورهم على دور من جاورهم من المسلمين»[1].

وقال سيد قطب في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية[2]:

«إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله؛ إخوة متعارفين متحابين، ليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا؛ إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله، فأما إذا سالموهم؛ فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك!

وهو حتى في حال الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة؛ انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم»[3].

ويقول:

«وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي، من وراء كل اختلاف وتنويع.

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) «في ظلال القرآن» (ص٣٥٤٤).

وهي أساس شريعته الدولية، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعًا هي الحالة الثابتة، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء، أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا؛ فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين»[١].

ويقول:

«وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء؛ رخص الله لهم في موادة من لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم»[٢].

نبذة عن الولاء والبراء في الإسلام:

تذكر ما قدمناه قبل قليل.

وقال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية[٤]:

«نهى -تبارك وتعالى- عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعدهم على ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[٥]؛ أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا؛ فقد برئ من الله.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٦].

---

(١) «في ظلال القرآن» (ص٣٥٤٤-٣٥٤٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (ص٣٥٤٤).

(٣) آل عمران: ٢٨.

(٤) «التفسير» (١/ ٣٧٥-ط. الحلبي).

(٥) آل عمران: ٢٨.

(٦) الممتحنة: ١.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية[2].

وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[3].

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية[4]:

«قال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء.

ومثله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[5]. ومعنى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[6]. أي: فليس من حزب الله، ولا من أوليائه في شيء».

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[7].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير هذه الآية[8]: «ينهى الله -تبارك وتعالى- عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى، وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة؛ أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ»[9].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسير هذه الآية[10]:

«أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم ومتبعين لرضاه ومجانبين

---

(١) النساء: ١٤٤.
(٢) المائدة: ٥١.
(٣) الأنفال: ٧٣.
(٤) «التفسير» (٤/ ٥٧-ط. الحلبي).
(٥) آل عمران: ١١٨.
(٦) آل عمران: ٢٨.
(٧) الممتحنة: ١٣.
(٨) (٤/ ٣٥٦).
(٩) (٥/ ٢٢٦-٢٢٧).
(١٠) «التفسير» (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

لسخطه؛ ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار، ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تتولوهم فتوافقوهم على شرهم وشركهم، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا».

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية أيضًا[1]:

«هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ التولي؛ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[2].

وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾؛ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين؛ فلكم في هذا الحال الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصرة».

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية:

«أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة؛ إلا كان عاملًا على مقتضى إيمانه ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان؛ أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه ولا الشكوك»[4].

---

(١) «التفسير» (١/ ٢٣٨-٢٣٩).
(٢) المائدة: ٥١.
(٣) المجادلة: ٢٢.
(٤) «التفسير» (٥/ ١٩٩).

الخاتمة

أولًا : لقد تبين للقارئ الكريم أن سيد قطب قد وقع في بدع كبيرة وكثيرة، يبلغ ما سجلناه منها سبع عشرة بدعة؛ منها :

١- سوء أدبه مع نبي اللَّه وكليمه موسى -عليه الصلاة والسلام- .

٢- وطعنه في أصحاب رسول اللَّه ﷺ .

٣- ومخالفته لأهل السنة في تفسير كلمة التوحيد، حيث يفسرها بالحاكمية والسلطة، ويفرغها من معناها الإسلامي الأساسي الذي دعا إليه الرسل جميعًا .

٤- وتكفيره للمجتمعات الإسلامية، وعده لمساجدهم من معابد الجاهلية .

٥- والتشكيك في قضايا أصولية عقدية .

٦- وقوله بخلق القرآن، وأن اللَّه لا يتكلم، إنما كلامه مجرد الإرادة .

٧- وقوله بوحدة الوجود، والحلول، والجبر .

٨- تجهمه في صفات اللَّه، حيث يعطلها على طريقة الجهمية والمعتزلة؛ كالاستواء، والمجيء، واليد، والرؤية .

٩- وإنكاره الميزان والوزن يوم القيامة .

١٠- واعتقاده أن الروح أزلية .

١١- وتهوينه من المعجزات .

١٢- رؤيته أن شرك العرب الحقيقي والأساسي لم يكن في الاعتقاد، وإنما كان في الحاكمية، ومن هذا المنطلق لا ينكر شرك القبور، ولا يراه شركًا ولا فسادًا في الاعتقاد .

إلى بدع أخرى دونها في كتبه، ولاسيما في «الظلال» .

ثانيًا : وتبين للقارئ أن سيدًا لم يقع فيها عن جهل، بل كان يشير إلى الخلافات بين أهل السنة وأهل البدع من الجهمية والمعتزلة بعد أن ينحاز إلى أهل البدع والضلال، ثم يهوّن من شأن الخلافات بعد هذا الانحياز الواضح لأغراض

سياسية.

ثالثًا: إن سيدًا لم يرجع عن هذه البدع الكبيرة الكثيرة، التي ناقشناه فيها في ضوء الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وقد بينا لك إصراره على ما تضمنه كتاب «العدالة الاجتماعية» بعد أن نبهه الشيخ محمود شاكر على ما وقع فيه من طعن في الخليفة الراشد عثمان وإخوانه من الصحابة، فأصر على هذا الطعن، وبقي مشرفًا على طبعه إلى قبيل موته، بل أضاف إلى ما تضمنه الكتاب من ضلال موضوعًا آخر، وهو رميه للمجتمعات الإسلامية بأنها مجتمعات جاهلية.

ولو كان هذا الرجل يرجع عن شيء من آرائه الضالة؛ لرجع عن طعنه في أصحاب رسول الله ﷺ، ولو مراعاة لمشاعر المسلمين الذين يستفظعون هذا العمل، سواء السني منهم أو البدعي.

وهذا يبين لك أن دعاوى أنه رجع عن كذا وجهل كذا كلها دعاوى باطلة لا يستطيع أهلها إثباتها.

بل تصرفات سيد ونقله آراءه من كتاب إلى كتاب، وإحالته من كتاب متأخر على كتاب متقدم تؤكد إصراره وثباته على آرائه، وأنه لم يتزحزح عنها.

ولو أننا أخذنا دعاوى الرجوع والتراجع الباطلة بعين الاعتبار؛ لما أمكن أن يدان فرد من أفراد فرق الضلال بما دوَّن في كتبه من بدع وضلالات، إذ يمكن بسهولة جدًّا أن يُقال عن أي مبتدع ألف في البدع: إنه رجع عنها! وهذا يفتح من أبواب الفساد ما لا يعلمه إلا الله.

رابعًا: مما يوضح أن دعاوى الرجوع مفتعلة ومنتحلة: قول المدعين: إن سيد قطب وقع في القول بوحدة الوجود في الطبعة الأولى من «الظلال»، ثم إنه رجع عنها وهاجمها في الطبعة الثانية.

فتبين في ضوء الدراسة أن ما قالوه قول مفتعل لا أساس له، دفعهم إليه الغلو في الأشخاص، وهوان النصيحة للمسلمين عندهم، وقد بينا بما لا يدع مجالًا للشك أن سيدًا هاجم وحدة الوجود في الطبعة الأولى في تفسيره سورة البقرة، ووقع فيها وفي عقيدة الحلول في تفسير سورة الحديد والإخلاص في آخر تفسيره،

بعد موقفه السابق من وحدة الوجود ومهاجمته لها.

فهذان مثالان من أهم البدع التي وقع فيها ولم يرجع عنها[1].

والرجوع إنما يقع بالتوبة النصوح، والندم الواضح، والتبرؤ الواضح؛ بالبيان كتابة وإعلانًا وإلغاءً، وإزالة ما في الكتب من الضلال، ولم يقع شيء من ذلك، فسقطت الدعاوى الفارغة.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

ونسأله تعالى أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، وأن يوفق الأمة، خصوصًا شبابها، للرجوع إلى الحق، ونصرته، والدفاع عنه، وأن يخرجهم من دوامة الغلو في الأشخاص وتقديسهم التي هي من مفسدات العقول والأديان؛ إن ربي لسميع الدعاء.

فرغ من كتابته

لأربعة خلون من ذي القعدة لعام ١٤١٣هـ

كتبه

ربيع بن هادي المدخلي

---

(١) ومن أراد زيادة فائدة واطلاع على ما عند سيد من مخالفات للحق ومنهج أهل السنة والجماعة ومعتقدهم؛ فليرجع إلى كتاب «المورد الزلال»، تأليف الشيخ عبد الله الدويش؛ فقد أجاد فيه وأفاد، ونصح للأمة والعباد.

بوزيد بلقاسم

مطاعن سيد قطب

في أصحاب رسول الله ﷺ

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

هوزيد بلقاسم
هوزيد بلقاسم
هوزيد بلقاسم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فهذه مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ»، الذي شرح صدور قوم مؤمنين؛ لأنه حق، يتضمن دفاعًا علميًّا منصفًا عن أفضل الناس، وأكرمهم، وأشرفهم، وأعدلهم، وأعلاهم علمًا ودينًا وأخلاقًا وسموًّا بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

شرح هذا الرد، وأثلج وشفى صدور قوم مؤمنين، هم أهل السنة والجماعة حقًّا وصدقًا، وعلمًا، وعقيدةً، ومنهجًا، واحترامًا، وحبًّا لأولئك الصحب الكرام الذين أشاد الله بمكانتهم وعلو منازلهم عنده.

فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى مشيدًا بدرجاتهم، ومعلنًا رضاه عنهم وعمن اتبعهم بإحسان: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والآيات والأحاديث في فضلهم ومكانتهم كثيرة، يعرفها من عرف قدرهم.

وشَرِقَ بهذا الدفاع عن أصحاب رسول الله ﷺ الذي أدان سيد قطب وبين حقيقته وحقيقة عقائده ومنهجه الحاقدون من الروافض، ومن فتك مرض الهوى وتقديس أهل البدع والضلال بقلوبهم وعقولهم وعقائدهم، فسعوا بكل ما يملكونه من طاقات في محاربته، والإشاعات ضده، والطعن فيه بغير علم ولا هدى، ولا خوف من الله ولا ورع، ونسي أولئك أن الله سوف يحاسبهم على ما اقترفوه

في نصرة الباطل وأهله، وخذلان الحق وأهله، وخذلان أصحاب رسول الله ﷺ والترك لمكانتهم وتجاهلها.

سوف يقولون ويقولون كذبًا وزورًا وتلبيسًا: نحن ونحن . . . إلخ، ولكن الحقيقة لا تخفى على أولي النهى، لاسيما من أقوام ديدنهم التلبيس والمغالطات، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

هذا وقد أحببت أن أرفق بهذه المقدمة بعض ردود الشيخ محمود محمد شاكر، العالم الكاتب الأديب المصري الشهير، على طعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ.

صدرت تلك الردود في عدد من المقالات في مجلة «المسلمون»، التي كان يرأس تحريرها سعيد رمضان المصري الشهير، وأحد كبار الإخوان المسلمين، وفي مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات وصلني من هذه الردود خمس مقالات:

الأولى بعنوان: «حكم بلا بينة».

الثانية: «تاريخ بلا إيمان».

الثالثة: «لا تسبوا أصحابي».

الرابعة: «ألسنة المفترين».

هذه المقالات الأربع نشرت في مجلة «المسلمون»، الأول في العدد الأول منها السنة الأولى، والثاني في العدد الثاني السنة الأولى، والثالث في العدد الثالث السنة الأولى، والرابع في العدد الرابع السنة الأولى، وكلها في سنة (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، المقالة الخامسة نشرت في مجلة (الرسالة) سنة (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م) أيضًا بعنوان «ذو العقل يشقى . . .».

انتصر محمود شاكر -شكر الله له- في هذه المقالات لأصحاب رسول الله

ﷺ من سيد قطب الذي تجرأ عليهم وطعن فيهم، وبين فيها مكانة أصحاب رسول اللَّه ﷺ في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، ومنزلة من يطعن فيهم من الجهل والجرأة وسوء الأدب، وعرض نماذج من طعن سيد قطب في بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

وناقشه في ذلك مناقشة علمية قائمة على الكتاب والسنة ومنهج أئمة الهدى من أهل السنة والجماعة، وعلى التأريخ والعقل المستنيرين بهدي الإسلام، فلم يستفد سيد قطب من هذه المناقشات العلمية الواعية، ولم يدرك أن ذلك يتيح له الفرصة للعودة إلى جادة الحق والتكفير عما ارتكبه في حق الأصحاب الكرام، بل تمادى في جهلة وفيما ارتكبه في حق أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وأصر عليه.

فرد على محمود شاكر ردًّا عنيفًا، يغمطه فيه كما يغمط أصحاب محمد ﷺ، دون حياء ولا خوف من اللَّه، ولا احترام لمشاعر الأمة الإسلامية، وكيف يحترمها وهو يكفرها في هذا الكتاب الذي طعن فيه في أصحاب رسول اللَّه ﷺ، كتاب «العدالة الاجتماعية».

ثم بعد هذا الأخذ والرد مع محمود شاكر؛ استمر في طبع كتاب «العدالة»، الطاعن في أصحاب رسول اللَّه، والمكفر للأمة استمر يطبعه إلى آخر حياته، واستمر أنصاره وأولياؤه ينشرونه إلى يومنا هذا دون حياء ولا خوف من اللَّه، ولا احترام لمشاعر المسلمين.

فيا معشر المسلمين أين الغيرة على العقيدة الإسلامية ؟

وأين الغيرة على سادة هذه الأمة؟

وأين أنتم من موقف سلف الأمة ممن يطعن في أصحاب رسول اللَّه ﷺ؟

فإلى متى تتحملون هذا الظلم وهذا الضيم؟

ثم بعد هذا أقدم للقراء واحدة من مقالات محمود شاكر، ألا وهي: «لا تسبوا أصحابي»، مرفقة بجواب (سيد قطب)، وإصراره على الباطل والتمادي فيه.

ثم ليعلم القارئ أن طعن (سيد) كان قد تنازل الخليفة الراشد عثمان وسائر الصحابة في عهده، ثم بني أمية، وفي رده تظاهر للقراء أنه إنما طعن في معاوية

وفيمن بعده من بني أمية، يحسب أن ذلك أمر هين، ولم يعتذر عن طعنه في عثمان وسائر الصحابة، وأصر على طبع كتابه الطاعن فيهم، ونشره إلى أن مات[1]؛ فافهم ذلك جيدًا أيها المسلم المنصف النبيه، ولا تنخدع بالمغالطات.

ربيع بن هادي عمير المدخلي
في (٢٤/٨/١٤١٥هـ)

---

(١) بل لم يزل (سيد قطب) يعتز بهذا الكتاب؛ فقد زاره مندوب الجزائر في مؤتمر القاهرة، وطلب منه أن يكتب له بيانًا مختصرًا عن (النظام الاجتماعي الإسلامي ووسائله في تحقيق العدالة الاجتماعية) ليساعده هو وإخوانه هناك على مقابلة التيارات الشيوعية، فقال له (سيد قطب): «إن لي ثلاثة كتب في هذا الموضوع، هي: العدالة الاجتماعية في الإسلام، و(السلام العالمي في الإسلامي)، (ومعركة الإسلام والرأسمالي)».
انظر كتاب: «لماذا أعدموني» لسيد قطب (٧٩)، وهو كما ترى في آخر حياته؛ فمتى رجع عن هذه الضلالات؟

أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم».

فإذا كان هذا مبلغ صحبة رسول الله ﷺ؛ فأي مسلم يطيق بعد هذا أن يبسط لسانه في أحد من صحابة محمد رسول الله؟!

وبأي لسان يعتذر يوم يخاصمه بين يدي ربهم ؟!

وما يقول وقد قامت عليه الحجة من كتاب الله ومن خبر نبيه ؟!

وأين يفر امرؤ يومئذٍ من عذاب ربه؟!

وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله ﷺ معصومون عصمة الأنبياء، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا؛ فهم لم يدعوا هذا، وليس يدعيه أحد لهم، فهم يخطئون ويصيبون، ولكن الله فضلهم بصحبة رسوله، فتأدبوا بما أدبهم به، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا، وذلك حسبهم، وهو الذي أمروا به، وكانوا بعدُ توابين أوابين، كما وصفهم في محكم كتابه، فإذا أخطأ أحدهم، فليس يحل لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى سبهم والطعن عليهم.

هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله، بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولًا مطروحًا عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا، فإذا قرأ أحدهم شيئًا فيه مطعن على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، سارع إلى التوغل في الطعن والسب بلا تقوى ولا ورع، كلا، بل تراهم يحيط بها من الريب والشكوك، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب في الأخبار، ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة.

ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم؛ فهم كما نعلم، ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة على أهل الإسلام؛ كصاحب كتاب «الفتنة الكبرى» وأشباهه من المؤلفين، بل سآتيك بالمثل من كلام بعض المتحمسين لدين ربهم، المعلنين بالذب عنه والجهاد في سبيله، وأن سمة الحضارة الوثنية الأوربية، تنفجر أحيانًا في قلب من لم يحذر ولم يتق بكل ضغائن القرن العشرين، وبأسوأ سخائم هذه الحضارة المعتدية لحدود الله، التي كتب على عباده مسلمهم

وكفارهم ألا يتعدوها .

أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ، هم : أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وهند بنت عتبة بن ربيعة؛ أم معاوية رضي الله عنه، كيف يتكلم أحد الناس عنهم ؟!

١- «فلما جاء معاوية، وصير الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية؛ لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية» .

ولم يكتف بهذا، بل شمل بني أمية جميعًا، فقال : «فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبهم، وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات» .

٢- ثم يذكر يزيد بن معاوية بأسوأ الذكر، ثم يقول : «وهذا هو الخليفة الذي يفرضه معاوية على الناس، مدفوعًا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام، دافع العصبية العائلية القبلية، وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه؛ فمعاوية هو ابن أبي سفيان وابن هند بنت عتبة، وهو وريث أحد قومه جميعًا، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام؛ فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية؛ فهو منه ومنهم بريء» .

٣- «ولسنا ننكر على معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب، إنما ننكر عليه أولًا وقبل كل شيء إقصاءه العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام . . .

فكانت جريمة معاوية الأولى التي حكمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيًا باتًّا، ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيع . . .

ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر، وعلى أيدي عثمان ومروان . . . ثم على أيدي الملوك من أمية، ومن بعدهم من بني العباس، بعد أن خُنقت روح

الإسلام خنقًا على أيدي معاوية وبني أمية».

٤- «ومضى علي إلى رحمة ربه، وجاء معاوية ابن هند وابن أبي سفيان».

وأنا أستغفر الله من نقل هذا الكلام بمثل هذه العبارة النابية؛ فإنه أبشع ما رأيته.

ثم يقول: «فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزًا أمام أمية؛ لقد انهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدت أمية طليقة حرة إلى وراثاتها في الجاهلية والإسلام، وجاء معاوية تعاونه العصبة التي على شاكلته، وعلى رأسها عمرو بن العاص، قوم تجمعهم المطامع والمآرب، وتدفعهم المطامح والرغائب، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير».

وأنا أستغفر الله وأبرأ إليه.

ثم قال: «ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية؛ فنحن لا نؤرخ له هنا، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك لنعلم أي رجل هو، ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقدر أية جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين».

ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، يجيء فيها قول معاوية: «وكل شرط شرطته؛ فتحت قدمي هاتين»، ثم يعقب عليه مستدركًا: «والله تعالى يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾، والله يقول: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾؛ فيؤثر الوفاء بالميثاق للمشركين المعاهدين على نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين، أما معاوية؛ فيخيس بعهده للمسلمين، ويجهر بهذه الكبيرة جهرة المتبجحين، إنه من أمية، التي أبت نحيزتها أن تدخل في حلف الفضول».

٥- ثم يذكر خطبة أخرى لمعاوية في أهل المدينة: «أما بعد؛ فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم».

ثم يعلق عليها فيقول: «أجل، ما وليها بمحبة منهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام، ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام، وهو ابن هند وابن أبي سفيان؟!».

٦- «وأما معاوية بعد علي؛ فقد سار سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقي، فجعله للرشى واللهى وشراء الأمم[1] في البيعة ليزيد، وما أشبه هذه الأغراض، بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال».

٧- ثم قال شاملًا لبني أمية: «هذا هو الإسلام، على الرغم ما اعترض خطواته العملية الأولى من غلبة أسرة لم تعمر روح الإسلام نفوسها؛ فأمنت على حرف حين غلب الإسلام، وظلت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام».

هذا ما جاء في ذكر معاوية، وما أضفى الكاتب من ذيوله على بني أمية وعلى عمرو بن العاص.

وأما ما جاء عن أبي سفيان بن حرب؛ فانظر ماذا يقول:

٨- «أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ، والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام؛ فهو إسلام الشفة واللسان، لا إيمان القلب والوجدان، وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل؛ فلقد ظل يتمنى هزيمة المسلمين ويستبشر لها في يوم حنين، وفي قتال المسلمين والروم فيما بعد، بينما يتظاهر بالإسلام، ولقد ظلت العصبية الجاهلية تسيطر على فؤاده... وقد كان سفيان يحقد على الإسلام والمسلمين، فما تعرض فرصة للفتنة إلا انتهزها».

٩- «ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثي في بني أمية منذ تولى الخلافة عثمان؛ فهو يقول: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة؛ فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة!

وما كان يتصور حكم المسلمين إلا ملكًا، حتى أيام محمد، -وأظن أنا أنه من الأدب أن أقول: ﷺ-؛ فقد وقف ينظر إلى جيوش الإسلام يوم فتح مكة، ويقول للعباس بن عبد المطلب: والله يا أبا الفضل؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم

---

(١) كذا، ولعله: الذمم.

عظيمًا، فلما قال له العباس: إنها النبوة، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان».

ثم يقول عن هند بن عتبة أم معاوية:

١٠- «ذلك أبو معاوية، فأما أمه هند بنت عتبة، فهي تلك التي وقفت يوم أحد تلغ في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة، لا يشفع لها في هذه الفعلة الشنيعة حق الثأر على حمزة؛ فقد كان قد مات، وهي التي وقفت بعد إسلام زوجها كرها بعد إذ تقررت غلبة الإسلام تصيح: اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قبح من طليعة قوم، هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم؟».

هؤلاء أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ يذكرهم كاتب مسلم بمثل هذه العبارات الغريبة النابية، بل زاد، فلم يعصم كثرة بني أمية من قلمه، فطرح عليهم كل ما استطاع من صفات تجعلهم جملة واحدة براء من دين الله، ينافقون في إسلامهم، ونفون من حياتهم كل عنصر أخلاقي -كما سماه-.

وأنا لن أناقش الآن هذا المنهج التاريخي؛ فإن كل مدع يستطيع أن يقول: هذا منهجي، وهذه دراستي!!

بل غاية ما أنا فاعل أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ينظرون إلى هؤلاء الأربعة بأعيانهم، وكيف كانوا هؤلاء الأربعة عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم.

وأيضًا، فإني لن أحقق هذه الكلمة فساد ما بُني عليه الحكم التاريخي العجيب، الذي استحدثه لنا هذا الكاتب، بل أدعه إلى حينه.

فمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أسلم عام القضية، ولقي رسول الله ﷺ مسلمًا، وكتم إسلامه عن أبيه وأمه، ولما جاءت الردة الكبرى؛ خرج معاوية في هذه القلة المؤمنة التي قاتلت المرتدين، فلما استقر أمر الإسلام، وسير أبو بكر الجيوش إلى الشام؛ سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه، فلما مات يزيد في زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه؛ قال لأبي سفيان رضي الله عنه: أحسن الله عزاءك في يزيد. فقال أبو سفيان: من وليت مكانه؟ قال: أخاه معاوية. قال: وصلتك رحم يا أمير

المؤمنين .

ويقي معاوية واليًا لعمر على عمل دمشق، ثم ولاه عثمان الشام كلها، حتى جاءت فتنة مقتل عثمان، فولي معاوية دم عثمان لقرابته، ثم كان بينه وبين علي ما كان .

ويروي البخاري (٥/ ٢٨) أن معاوية أوتر بعد العشاء بركعة، وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس، فقال: دعه؛ فإنه صحب رسول الله ﷺ. وقال في خبر آخر: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؛ فإنه أوتر بواحدة؟ فقال ابن عباس: إنه فقيه .

وروى أحمد في «مسند» (٤/ ١٠٢) عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله ﷺ قصر شعره بمشقص[1]، فقلت لابن عباس: ما بلغنا هذا الأمر إلا عن معاوية! فقال: ما كان معاوية على رسول الله ﷺ متهمًا .

وعن أبي الدرداء: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا -يعني: معاوية-. مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٧).

وروى أحمد في «مسنده» (٤/ ١٠١) عن أبي أمية عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده: أن معاوية أخذ الإداوة[2] بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها، واشتكى أبو هريرة، فينا هو يوضئ رسول الله ﷺ؛ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين، فقال: «يا معاوية، إن وليت أمرًا فاتق الله ﷻ واعدل». قال معاوية: فما زلت أظن أني مبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت .

وروى أحمد في مسنده (٤/ ١٢٧) عن العرباض بن سارية السلمي قال: سمعت رسول الله وهو يدعونا إلى السحور في شهر رمضان: «هلموا إلى الغداء المبارك»، ثم سمعته يقول: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب».

وروى أحمد في مسنده (٤/ ٢١٦) عن عبد الرحمن بن أبي عميرة عن النبي ﷺ أنه ذكر معاوية، فقال: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به».

هذا بعض ما قيل في معاوية ؓ، وفي دينه وإسلامه .

---

(١) المشقص: نصل طويل عريض (المقص).

(٢) الإداوة: إناء من جلد صغير كالقربة.

فإن كان هذا الكاتب قد عرف واستيقن أن الروايات المتلقفة من أطراف الكتب تنقض هذا نقضًا، حتى يقول: إن الإسلام بريء منه! فهو وما عرف!!

وإن كان يعلم أنه أحسن نظرًا ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولَّى يزيد بن أبي سفيان، وهو من بني أمية، وأنفذ بصرًا من عمر حين ولَّى معاوية؛ فهو وما علم!!

وإن كان يعلم أن معاوية لم يقاتل في حروب الردة إلا وهو يضمر النفاق والغدر؛ فله ما علم!!

وإن كان يرى ما هو أعظم من ذلك؛ أنه أعرف بصحابة رسول الله ﷺ من رسول الله الذي كان يأتيه الخبر من السماء بأسماء المنافقين بأعيانهم؛ فذلك ما أعيذه منه أن يعتقده أو يقوله!!

ولكن لينظر فرق ما بين كلامه وكلام أصحاب رسول الله عن رجل آخر من أصحابه، ثم ليقطع لنفسه ما شاء من رحمة الله أو من عذابه، ولينظر أيهما أقوى برهانًا في الرواية، هذا الذي حدثنا به أئمة ديننا، أم ما انضمت عليه دفتا كتاب من عرض كتب التاريخ كما يزعمون؟

ولينظر لنفسه حتى يرجح رواية على رواية وحديثًا على حديث وخبرًا على خبر، وليعلم أن الله تعالى أدب المسلمين أدبًا لم يزالوا عليه منذ كانت لدين الله الغلبة، حتى ضرب الله على أهل الإسلام الذلة بمعاصيهم وخروجهم عن حد دينهم، واتباعهم الأمم في أخلاقها وفي فكرها وفي تصورها للحياة الإنسانية.

يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ويقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولينظر أنى له أن يعرف أن معاوية كان يعمل بوحي الجاهلية لا الإسلام، وأنه بعيد الروح عن حقيقة الإسلام، وأن الإسلام لم يَعمُر قلبه، وأنه خنق روح الإسلام هو وبنو أمية، وأنه هو وعمرو بن العاص ومن على شاكلتهم لا يمسكهم خلق

ولا دين ولا ضمير، وأن في أسلاخ معاوية وبني أمية جريمة أي جريمة على الإسلام والمسلمين، وأنه يخيس بالعهد ويجهر بالكبيرة جهرة المتبجحين!

وأنه ما لمعاوية وهذا الإسلام، وأنه ينفي العنصر الأخلاقي من سيرته، ويجعل مال الله للرشى واللهى وشراء الذمم، وأنه هو وبنو أمية آمنوا على حرف حين غلب الإسلام.

أما أبو سفيان ﷺ؛ فقد أسلم ليلة الفتح، وأعطاه رسول الله من غنائم حنين كما أعطى سائر المؤلفة قلوبهم، فقال له: «والله؛ إنك لكريم فداك أبي وأمي، والله؛ لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فلنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا».

ثم شهد الطائف مع رسول الله، وفقئت عينه في القتال.

ولاه رسول الله ﷺ نجران، ورسول الله لا يولي منافقًا على المسلمين.

وشهد اليرموك، وكان هو الذي يحرض الناس ويحثهم على القتال.

وقد ذكر الكاتب فيما استدل به على إبطان أبي سفيان النفاق والكفر أنه كان يستبشر بهزيمة المسلمين في يوم حنين، وفي قتال المسلمين والروم فيما بعد، وهذا باطل مكذوب، وسأذكر بعد تفصيل ذلك.

أما قول أبي سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا. فقال العباس: إنها النبوة، فقال أبو سفيان: فنعم إذن.

فهذا خبر طويل في فتح مكة قبل إسلامه، وكانت هذه الكلمة: «نعم إذن» أول إيذان باستجابته لداعي الله، فأسلم ﷺ، وليست كما أولها الكاتب: «نعم إذن، وإنها كلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه، فما كان مثل هذا القلب ليفقه إلا معنى الملك والسلطان» إلا أن يكون الله كشف له ما لم يكشف للعباس ولا لأبي بكر ولا لعمر ولا لأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، وأعوذ بالله من أن أقول ما لم يكشف لرسول الله ونبيه ﷺ.

وعن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاثًا أعطنيهن، قال: «نعم»، قال: تؤمرني حتى أقاتل الكفار كما قاتلت المسلمين، قال: «نعم»، قال:

ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك، قال: «نعم»، وذكر الثالثة، وهو أنه أراد أن يزوج رسول الله ﷺ بابنته الأخرى عزة بنت أبي سفيان، واستعان على ذلك بأختها أم حبيبة، فقال: «إن ذلك لا يحل لي».

وأما هند بنت عتبة أم معاوية ﷺ؛ فقد روي عن عبد الله بن الزبير (ابن سعد: ٨/ ١٧١)[1]؛ قال: لما كان يوم الفتح أسلمت هند بن عتبة ونساء معها، وأتين رسول الله وهو بالأبطح، فبايعنه، فتكلمت هند، فقالت: يا رسول الله، الحمد الله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها، وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله: «مرحبًا بك»، فقالت: والله؛ ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من خبائك، فقال رسول الله: وزيادة . . .

قال محمد بن عمر الواقدي: لما أسلمت هند؛ جعلت تضرب صنمًا في بيتها بالقدوم، حتى فلذته فلذة فلذة، وهي تقول: كنا منك في غرور.

وروى البخاري[2] هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة (٥/ ٤٠).

فهل يعلم عالم أن إسلام أبي سفيان وهند كان نفاقًا وكذبًا وضغينة؟

لا أدري، ولكن أئمتنا من أهل هذا الدين لم يطعنوا فيهم، وارتضاهم رسول الله ﷺ، وارتضى إسلامهم، وأما ما كان من شأن الجاهلية؛ فقل رجل وامرأة من المسلمين لم يكن له في جاهليته مثل ما فعل أبو سفيان أو شبيه بما يروى عن هند إن صح.

وأما عمرو بن العاص؛ فقد أسلم عام خيبر، قدم مهاجرًا إلى الله ورسوله، ثم أمَّره رسول الله ﷺ على سرية إلى ذات السلاسل يدعو بليًا إلى الإسلام، ثم استعمله رسول الله على عمان، فلم يزل واليًا عليها إلى أن توفي رسول الله ﷺ،

---

(١) انظر: (٨/ ٢٣٦، طبعة دار صادر، ١٣٧٧).

(٢) الظاهر أنه يقصد الخبر الأول الذي فيه: «ما كان على الأرض أهل خباء» الحديث، انظر: خ(٤/ ٢١٧، رقم ٦٦٤١)، ط/ السلفية.

ثم أقره عليها أبو بكر ﷺ، ثم استعمله عمر.

وروى الإمام أحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٧، ٣٥٣، ٣٥٤) من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان»؛ يعني: هشامًا وعمرًا.

وروى الترمذي وأحمد في مسنده (٤/ ١٥٥) عن عقبة بن عامر الجهني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص».

وروى أحمد في مسنده (١/ ١٦١) عن طلحة بن عبيد الله قال: ألا أخبركم عن رسول الله بشيء؟ ألا إني سمعته يقول: «عمرو بن العاص من صالحي قريش، ونعم أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله وعبد الله».

فإذا كان جهاد عمرو، وشهادة أصحاب رسول الله ﷺ له، وتولية رسول الله ﷺ ثم أبي بكر ثم عمر لا تدل على شيء من فضل عمرو بن العاص، ولا تدل على نفي النفاق في دين الله عنه؛ فلا ندري بعد ما الذي ينفع عمرًا في دنياه وآخرته ؟!

ولست أتصدى هنا لتزييف ما كتبه الكاتب من جهة التاريخ، ولا من جهة المنهاج، ولكني أردت -كما قلت- أن أبين أن الأصل في ديننا هو تقوى الله وتصديق خبر رسول الله ﷺ، وأن أصحاب محمد ﷺ ليسوا لعانين، ولا طعانين، ولا أهل إفحاش، ولا أصحاب جرأة وتهجم على غيب الضمائر، وأن هذا الذي كانوا عليه أصل لا يمكن الخروج منه؛ لا بحجة التاريخ، ولا بحجة النظر في أعمال السابقين للعبرة واتقاء ما وقعوا فيه من الخطأ.

ولو صح كل ما يذكر مما اعتمد عليه الكاتب في تمييز صفات هؤلاء الأربعة وصفة بني أمية عامة؛ لكان طريق أهل الإسلام أن يحملوه على الخطأ في الاجتهاد من الصحابي المخطئ، ولا يدفعهم داء العصر أن يوغلوا من أجل خبر أو خبرين في نفي الدين والخلق والضمير عن قوم، هم لقرب زمانهم وصحبتهم لرسول الله ﷺ أولى أهل الإسلام بأن يعرفوا حق الله وحق رسوله، وأن يعلموا من دين الله ما لم يعلمه مجترئ عليهم طعان فيهم.

وأختم كلمتي هذه بقول النووي في شرح مسلم (١٦/ ٩٣): «اعلم أن سب الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات، سواء من لابس الفتن منهم وغيره؛

لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون، وقال القاضي: سب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أن يعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يقتل».

وأسدي النصحية لمن كتب هذا وشبهه أن يبرأ إلى الله علانية مما كتب، وأن يتوب توبة المؤمنين مما فرط منه، وأن ينزه لسانه ويعصم نفسه ويطهر قلبه، وأن يدعو بدعاء أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

من أجل هذا أقول: إن خلق الإسلام هو أصل كل منهاج في العلم والفهم، سواء كان العلم تاريخًا أو أدبًا أو اجتماعًا أو سياسة، وإلا فنحن صائرون إلى الخروج عن هذا الدين، وصائرون إلى تهديم ما بناه أصحاب رسول الله ﷺ، وإلى جعل تاريخ الإسلام حشدًا من الأكاذيب الملفقة والأهواء المتناقضة، والعبث بكل شيء شريف ورثتنا إياه رحمة الله لهم، وفتح الله عليهم، ورضاه عن أعمالهم الصالحة، ومغفرته لهم ما أساءوا، رضي الله عنهم، وغفر لهم وأثابهم بما جاهدوا وصبروا وعَلِموا وعلموا، وأستغفر الله وأتوب إليه.

* * *

رد سيد قطب على محمود محمد شاكر

إلى أخي الأستاذ: رجب البيومي . . . السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد[١]: فإنني لم أرد أن أدخل بينك وبين الأستاذ شاكر فيما شجر بينكما من خلاف حتى ينتهي إلى نهاية كما انتهى، ذلك أنني كنت حريصًا على أن أدعك ورأيك، وألا أبدأ تعارفي بك في زحمة الجدل، وإن ظن أخونا شاكر أن بيننا صحبة وثيقة، وهي التي تدفعك إلى رد تهجمه أو تقحمه، حتى لقد أنذرنا معًا عداوة يوم القيامة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ لأن مألوف الناس قد جرى في هذا الزمن الصغير على أن الحق وحده أو الرأي وحده لا يكفي لأن يدفع كاتبًا فيكتب دون هوى من صداقة أو علاقة.

ولو كانت بيننا معرفة سابقة، ولو استشرتني قبل أن تدخل مع صاحبنا في جدل حول ما أثاره من صخب وما نفضه من غبار؛ لأشرت عليك ألا تدخل، ولآثرت لك ما آثرته لنفسي من إغضاء وإغفال . . .

ذلك أنني لم أستشعر في هذا الصخب الصاخب أثرًا من صفاء نية، ولا رغبة في تجلية حقيقة[٢]، ولو استشعرت شيئًا من هذا؛ ما تركت صاحبي دون أن أجيبه، على الأقل من باب الأدب واللياقة، ولكنني اطلعت على أشياء، ما كان يسرني والله أن أطلع عليها، في نفس رجل ربطتني به مودة، أصفيتها له في نفسي، بعدما كان بيننا من جدل قديم، يعرفه قراء «الرسالة» عام (١٩٣٨م)، وما أزال أرجو أن أكون مخطئًا فيما أحسست به، وأن تبقى لي عقيدتي في ضمائر الناس وفي الخير الذي تحتويه فطرتهم.

ولو كانت الحقائق هي المقصودة لما احتاج الكاتب الفاضل إلى اصطناع مثل

---

(١) مجلة (الرسالة) العدد (٩٧٧، بتاريخ ٢٤مارس ١٩٥٢م).

(٢) انظر إلى هذه الاتهامات التي تصدر ممن لا يحترم أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يرى ما أثاره حوله صخبًا، ويرى أن الدفاع عنهم صخبٌ ليس فيه صفاء نية ولا رغبة في تجلية حقيقة.

هذا الأسلوب الصاخب المفرقع، ولما لجأ منذ مقاله الأول في «المسلمون» إلى الشتم، والسب والتهم بسوء النية، وسوء الخلق والنفاق والافتراء، والسفاهة، والرعونة(١) . . . إلى آخر ما خاضه -ويغفر الله له فيه-، فبدون هذا تعالج أمور النقد العلمي، وبغير هذا الأسلوب يمكن تمحيص الحقائق(٢).

إنه لا «معاوية» ولا «يزيد»، ولا أحد من ملوك بني أمية قد اغتصب مال أبي أو جدي، أو قدم إلى شخصي مساءة، ولا لأحد من عشيرتي الأقربين أو الأبعدين . . .

فإذا أنا سلكت في بيان خطة «معاوية» في سياسة الحكم وسياسة المال، وخطة الملوك من بعده -فيما عدا الخليفة الراشد: عمر بن عبد العزيز ﷺ- مسلكًا غير الذي سلكته في بيان خطة «أبي بكر» و«عمر» و«علي»(٣) -رضوان الله عليهم جميعًا-، فليس أول ما يتبادر إلى الذهن المستقيم والنية السليمة أن ما بي هو سب صحابة الرسول ﷺ، لا عن خطأ، ولكن عن رغبة قاصدة في إفساد الإسلام، وسوء نية في تدنيس المسلمين!!

وكتاب «العدالة الاجتماعية» مطبوع متداول منذ أربع سنوات، وطبعته الثالثة في المطبعة، والصخب حوله الآن فقط قد يشي بشيء لا أرضاه للصديق، وقد قرأه الناس في أنحاء العالم الإسلامي، فلم يستشعر أحد من موضوعه ولا من سياقه أن النية السيئة المبيتة لهذا الإسلام وأهله هي التي تعمر سطوره.

إنما أحس الألوف الذين قرءوه -أو على الأقل المئات الذين أبدوا رأيهم فيه- أن كل ما كان يعنيني هو أن أبرئ الإسلام من تهمة يلصقها به أعداؤه، وشبهة تحيك في نفوس أصدقائه(٤)؛ إذا يحسبون أن سياسة بني أمية في الحكم وسياستهم في

---

(١) وماذا عملت أنت وقلت فيمن طعنت فيهم من أصحاب رسول الله ﷺ واتهمتهم بالنفاق... إلى آخر التهم؟

(٢) هلا التزمت بهذا المنهج عندما تحدثت عن أصحاب رسول الله ﷺ؟ أتأمر الناس بالبر عند الكتابة عنك وتنسى نفسك عندما تكتب عن أصحاب رسول الله ﷺ؟

(٣) ولماذا أسقطت عثمان ﷺ؟ ألا يدل هذا على أنك تبغض هذا الخليفة العظيم، وتنظر إليه بعين أعدائه من (الروافض) و(الخوارج)؟ ثم ما ذكرته من خطة بني أمية؛ ألم يكن مليئًا بالكذب والافتراء عليهم وعلى عثمان وعلى من عاصرهم من أصحاب رسول الله ﷺ؟

(٤) أتبرئ الإسلام بالطعن في أصحاب رسول الله ﷺ؟ إن هذا لهو العجب حقًا، إن أسلوبك هذا ليرضي (الروافض) و(المستشرقين)، وهم الذين فرحوا بكتابك وترجموه إلى لغاتهم.

المال تحسب على الإسلام، والإسلام بريء من هذا الاتهام.

روى سعيد بن جمهان، عن سفينة مولى رسول الله ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»، ثم قال سفينة: امسك: خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. فوجدناها ثلاثين سنة، قال سعيد: قلت له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم. قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك[1]. رواه أصحاب السنن بسند حسن.

وأحسب لقد كان بنفسي وأنا أعرض النظام الاجتماعي في الإسلام أن أقول شيئًا كالذي قاله مولى رسول الله ﷺ، لا عداء شخصيًّا لبني أمية، ولكن تبرئة للإسلام من أن تحسب عليه سياسة لا يعرفها؛ لا في الحكم ولا في المال، والإسلام منها بريء[2]؛ فيجب أن يعرف الناس براءته، وأن يعرض عليهم في صورته التي عرفتها الخلافة السمحة، وأن ينفى عنها ما لحقه في عهود الظلام

(١) هذا الحديث حسن، إلا قوله: «إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: كذبوا بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك»، فإنه قد تفرد بها حشرج بن نباتة عن سعيد بن جمهان، وانفرد بروايتها عن حشرج الإمام الترمذي من بين جميع الأئمة الذين أخرجوا حديث سفينة هذا.
فقد أخرجه أبو داود في (سننه) (كتاب السنة، حديث ٤٦٤٦-٤٦٤٧) من طريق عبد الوارث بن سعيد، ومن طريق العوام بن حوشب. كلاهما من طريق حماد بن سلمة، عن سعيد بن جمهان به.
ورواه الحاكم أيضًا في المستدرك (٣/ ١٤٥) من طريق عبد الوارث بن سعيد، ولم يذكر أحد من هؤلاء الأئمة هذه الزيادة التي رواها الترمذي عن حشرج بن نباتة؛ فهي زيادة شاذة، خالف فيها جماعة من الأئمة الحفاظ.
ثم إنها تخالف الحديث الصحيح: «لا تزال الإسلام عزيزًا إلى اثني عشر خليفة». رواه مسلم (كتاب الإمارة، حديث ١٨٢١/ ٧)، وهو يشمل خلفاء بني أمية.
ويلاحظ على سيد قطب:
١- أنه -مع احتجاجه بهذا الحديث- قد أسقط خلافة عثمان في مقاله هذا وقبله في «العدالة».
٢- أنه لم يأبه بالجزء الثابت من الحديث الذي فيه أن عثمان أحد الخلفاء، وتعلق بالجزء الضعيف الشاذ منه، ألا يدل ذلك على الهوى الجامح؟ بل لم يبال بكل ما ورد من الأحاديث الصحيحة في فضل عثمان رضي الله عنه، وما ساقه له محمود شاكر في فضل معاوية، ولم يبال بما قرره الصحابة والتابعون وأئمة الهدى في فضل عثمان ومكانته وأنه خليفة راشد.
(٢) بل الإسلام بريء مما قررته في كتبك، ومنها: «العدالة الإجتماعية»؛ من مكوس ظالمة، واشتراكية غالية، مأخوذة من النظم الشيوعية الحمراء، وبرأ الله الخلافة الإسلامية السمحة مما تلصقه بها.

والاستبداد.

وما كان لي بعد هذا؛ وأنا مالك زمام أعصابي، مطمئن إلى الحق الذي أحاوله، أن ألقي بالًا إلى صخب مفتعل، وتشنج مصطنع[١]، وما كان لي إلا أن أدعو اللَّه لصديقنا «شاكر» بالشفاء والعافية والراحة مما يعاني، واللَّه لطيف بعباده الأشقياء.

أما أنا؛ فما أحب أن يكون لي مع قوم خرجوا على خليفة رسول اللَّه، وقتلوا ابن بنت رسول اللَّه، وحرقوا بيت اللَّه، وساروا في سياسة الحكم وسياسة المال على غير هدى من اللَّه . . . أدب رفيع من أدب مولى رسول اللَّه الذي أدبه ورباه[٢].

* * *

(١) يصدق عليك القول: (رمتني بدائها وانسلت).

(٢) أليس عثمان خليفة رسول الله؛ فلماذا لم تتأدب معه كما تأدب سفينة معه وكما تأدب أصحاب رسول الله ﷺ؟ بل كانت الملائكة تستحي منه؛ فلماذا لم تستح منه؟

ولماذا تجاوزت حدود الأدب معه، فأسقطت خلافته، وادعيت عليه الدعاوى الباطلة، وفضلت فيه تلاميذ «ابن سبأ»؟

وأما قتلة الحسين ﷺ؛ فالناس يعرفون من هم، ويعرفون من الذي هدم الكعبة، ولم يحقد على بني أمية أحد من المسلمين كحقدك إلا (الروافض) و(الخوارج).

سيد قطب

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن خيرَ الحديث كتابُ اللَّه، وخير الهدْي هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتُها، وكل مُحْدَثَة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

هذا المقطع جزءٌ من خطبة النبي ﷺ، كان يردده في خطبه كلها -أو جُلها- كما في حديث جابر ﷺ.

ولقد وصف رسول اللَّه ﷺ البدعَ بأنها شر الأمور، وبأنها ضلالة، وفي رواية في غير هذا الحديث: «وكل ضلالة في النار»، ويكررُ هذا في كل خطبة من خطب الجمعة، يصاحب ذلك غضبه الشديد كأنه مُنْذِرُ جيش، يقول: «صبحكم ومساكم»، ويعلو بذلك صوتُه؛ كل هذا ولم تكن قد حدثت البدع، بل لم يحدث شيءٌ منها.

لقد وقع الكثيرُ والكثير فيما حذر منه رسولُ اللَّه ﷺ، ولاسيما في القرون المتأخرة؛ ثم هيأ اللَّه للأمة الإسلامية من يجدد لها دينَها، ويرد الكثير ممن أراد اللَّه له الخير إلى حظيرة التوحيد والسنة في الجزيرة العربية وغيرها من بلدان المسلمين؛ فعمت اليقظة أنحاء العالم الإسلامي، وبدأت الأنظار تتجه إلى الحق والتوحيد، وتتنكر للشرك والبدع.

وبدأ شباب الأمة في العالم يبحث عن النور والهدى، ويرفض الخرافات

والبدع، ويرفض كل أشكال الباطل والضلال الذي زحف على الأمة من دول الكفر الشرقية والغربية، سواء منها ما يتعلق بالعقائد، أو ما يتعلق بالحاكمية والتشريع، وما يتعلق بالأخلاق، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة.

ولقد كان في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، ثم فقه سلف الأمة، ومؤلفات من التزم منهج السلف ودعا إليه في كل مجال مثل مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، ومؤلفات الدعوة السلفية في الجزيرة، والهند، والشام، ومصر ما يكفي ويشفي ويروي غلة هؤلاء الشباب ويشبع تطلعاتهم.

ولكن مع الأسف تصدى لدعوة الشباب وتوجيههم وتربيتهم كثيرٌ وكثير ممن لا يعرف منهج السلف في العقيدة وغيرها، ولا يميزُ بين السنة والبدعة، وكتبوا الكثير والكثير في شتى الميادين، وكان لما طرحوه وكتبوه للتوجيه دعايات ضخمة ونشاطات قوية احتوت كثيرًا من شباب الأمة، وألقت في روعهم التهوين من شأن البدع والشرك، والتهوين من شأن التوحيد والسنة ومنهج السلف الصالح؛ فكان لذلك آثارُه الخطيرة حتى في نفوس من ينتسب إلى مدرسة السلف والمنهج السلفي إلا من رحم الله.

واستفحل هذا الأمرُ، واشتد، ورافقَه غلو وتقديسٌ للأشخاص مهما غلظت بدعهم وعظمت أخطاؤهم، مما ينذر بشر خطيرٍ، وينذر بعودة الأمة إلى الدوامة التي تطلعت وتحفزت للخروج منها.

فرأيت أن لهؤلاء الشباب الذين لا يشك عاقل أنهم يريدون للإسلام وللأمة الخير والعزةَ والكرامة، حقًّا عظيمًا، وواجبًا كبيرًا على حملة العلم أن يبينوا لهم الحق، ويفصلوا لهم بين الهُدى والضلال والحق والباطل، ويميزوا لهم بين دعاة الحق والهدى وبين غيرهم ممن حذر منهم رسولُ الله ﷺ، حتى ينزلوا الناسَ منازلهم.

فتصديت نصحًا للأمة وللشباب خاصة لبيان بعض ما وقفت عليه في كتب سيد قطب من مخالفات خطيرة لما جاء به رسولُ الله ﷺ وما كان عليه أصحابه وخيار الأمة في العقائد وغيرها، وتفنيد ذلك بالحجة والبرهان ما استطعت إلى ذلك

سبيلًا ؛ كل ذلك نصحًا للأمة.

وإني لأرجو الله أن يوفق كل عالم مخلص يشعر بثقل الأمانة التي حملها، ويشعر بعظم المسئولية أمام الله أن ينهضوا بواجب النصح والبيان لهؤلاء الشباب وغيرهم حتى يقيموهم على المحجة البيضاء التي تركهم عليها رسولُ الله ﷺ، والتي لا يزيغُ عنها إلا هالك.

وأرجو الله أن يوفقهم ليسلكوا مسلك أئمة الإسلام في بيان الحق والتحذير من الشرك والبدع وأهلِها كالإمام الشافعي، والإمام أحمد، والإمام البخاري، وعبد الله بن أحمد، وابن خزيمة، والآجُري، واللالكائي، وابن بَطة، وابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الوهاب، وأمثالهم ممن صدعَ بالحق ولم تأخذهم في الله لومةُ لائم.

الأسباب الموجبة للكتابة في هذا الموضوع:

إن على المسلم -وخاصة حملة العلم الشرعي- لَواجباتٌ عظيمة نحو الأمة الإسلامية والشباب، يرجع معظمُها:

أولًا: إلى بيان الحق، والفصْل بينَه وبين الباطل وبين الهدى والضلال؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وحيث إن سيد قطب قد فسر كتاب الله وتعرض للعقائد والقضايا التي بينَها القرآن للناس ليهتدوا بها فيسعَدوا في الدنيا والآخرة، وآمن بها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وتابعهم عليها أئمة الهدى من مفسرين ومحدثين، وفقهاء، وخالفهم

فيها أهل البدع والضلال، وكانت مواقف سيد قطب على سنن هؤلاء المخالفين رأيتُ أنه يتحتمُ علي -وقد علمتُ ذلك- أن أقومَ بواجب البيان الذي حتمه الله عليَّ.

ثانيًا: وقد يلتقي مع الأول أن الله فرض علينا النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن مخالفة ما بينه الله في كتابه من أمر العقائد، وبينه رسول الله ﷺ في سننه وهدْيه من أعظم المنكرات، وإغفالها والسكوت عن بيانها بعد العلم بها من أعظم الغش والخيانة للإسلام والمسلمين، لاسيما إذا رافق هذا الكتمان والسكوت تلبيس وتمويه وإشعار بأن كتابات هذا الرجل كلها نور وهدى وكأنها كتبت من الجنة، وقد قيل ذلك مع الأسف!!

ثالثًا: الغلو الشديد في سيد قطب، وإطراؤه، ونسج الهالات الكبيرة حول شخصيته ومؤلفاته مما بهر الناسَ به وبكتبه، فجعلهم في وضعٍ لا يفكرون فيه، ولا يتصورون سيد قطب على حقيقته، ولا يتصورون كتبهُ على حقيقتها، ولا يُدركون ما حوته من أخطاءٍ كبيرة إذا اكتشفها المؤمن ضاقت عليه الأرضُ بما رحُبت، وأدرك أن دينَه يحتم عليه واجب البيان لما انطوت عليه هذه الكتب من باطل وضلال قد أخفته تلك الدعايات.

رابعًا: إصرار المشرفين على تراثه -وعلى رأسهم محمد قطب- على طبع كتبه، والإلحاح على ذلك؛ بحيث يطبع كل كتاب من كتبه المرات العديدة.

فهذا «الظلال» الذي جمع فأوعى من ألوان البدع الشيء الكثير قد طُبع سبع عشرة مرة[1].

وهذا كتابه «معالم في الطريق» قد طبع خمس عشرة مرة.

وهذا كتاب «العدالة الاجتماعية» قد طبع اثنتي عشرة طبعة.

وهناك طبعات أخرى غير شرعية لهذا الكتاب.

---

(١) وقد بلغت هذا العام ١٤٢١هـ فوق ثلاثين طبعة، وهذا غاية التمادي في الباطل، وذلك ناشئ عن عدم الخوف من الله ومراقبته.

وهكذا سائر كتبه مع ما حوته من باطل وبدع عظيمة حظيت بما لم تحظ به مؤلفات أئمة الإسلام الكبار كالإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والدارقطني، وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن عبد الوهاب وغيرهم من أئمة الإسلام.

وما ذلك إلا نتيجة التدليس على الأمة والدعايات الضخمة لترويج هذه الكتب وأمثالها وترويج ما فيها من عقائد وأفكار.

خامسًا: أقدم نموذجًا لإصرار سيد على ما ضمنه كتبه من أفكار ومبادئ: كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» هذا الكتاب من أقدم مؤلفاته، وفيه من الضلال ما يرفضه ويستنكره أشد الناس جهلًا في العالم المنتسب إلى السنة، وأشدهم إغراقًا في التصوف ألا وهو الطعنُ في أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

لقد أصر سيد قطب وأخوه محمد بل الإخوان المسلمون على بقاء هذا الطعن واستمراره أكثرَ من أربعين سنة، على الرغم من تنبيه العقلاء على فظاعة هذا العمل وبشاعته.

قال الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي -أحد المعجبين بسيد قطب ومنهجه ومبادئه- فِي كتابه «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» خلال حديثِهِ عن كتاب «العدالة الاجتماعية»:

«وقد أشرنا إلى أثر الكتاب في مختلف الأوساط الحكومية الشيوعية والإخوانية، وأن سيدًا اقترب بكتابه هذا كثيرًا من الإخوان المسلمين إلى أن ربط مصيره بمصيرهم بعد ذلك.

وقد اتهم محمود شاكر سيد قطب في «العدالة» بإساءته القول في حق الصحابة، وانتقاده للخليفة الراشد عثمان بن عفان.

وقد طُبع الكتاب عدة طبعات في حياة سيد، كانت آخرَها الطبعة السادسة التي أصدرتها (دار إحياء الكتب العربية) عام ١٩٦٤م. وهي طبعة منقحة؛ حيث حذف منها العبارات التي أخذها عليه محمود شاكر وغيره، والمتعلقة بعثمان ومعاوية رضي الله عنهما، وأضاف لها فصل: (التصور الإسلامي والثقافة) أحد فصول «معالم في الطريق».

أي أن سيدًا أضاف لكتاب «العدالة الاجتماعية» عام ١٩٦٤م أفكاره الحركية الإسلامية، ودعوته إلى بعث طليعي، واستئناف الحياة الإسلامية على أساس مبادئ الإسلام.

وبهذا نعرف أن سيدًا لم يتخل عن كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، بل بقيَ يقول بما فيه من مبادئ وأسس وأفكار حتى محنته عام ١٩٦٥م»[١].

بل هذا سيد قطب نفسه لا يزال يصر على كتاب «العدالة»، ويعترف بأنه كان بداية الصلة بينه وبين الإخوان المسلمين.

قال في كتاب «لماذا أعدموني؟» (ص١١- ١٢): «صدر لي كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» سنة ١٩٤٩م مصدرًا بإهداء هذه الجملة: «إلى الفتية الذين ألمحهم في خيالي قادمين يردون هذا الدين جديدًا كما بدأ، يجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم...» إلخ.

ففهم الإخوان في مصر أنني أعنيهم بهذا الإهداء، ولم يكن الأمر كذلك، ولكنهم من جانبهم تبنوا الكتاب واعتبروا صاحبه صديقًا، وبدءوا يهتمون بأمرِه؛ فلما عدت في نهاية عام ١٩٥٠م بدأ بعض شبابهم يزورني ويتحدث معي عن الكتاب، ولكن لم تكن لهم دار؛ لأن الجماعة كانت لا تزال مصادَرة.

واستغرقت أنا عام ١٩٥١م في صراعٍ شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملَكية القائمة، والإقطاعِ، والرأسمالية، وأصدرت كتابين في الموضوع، غير مئات المقالات في صحف الحزب الوطني الجديد، والحزب الاشتراكي، ومجلة الدعوة التي أصدرها الأستاذ صالح عشماوي، ومجلة الرسالة».

فهذا يبين إصرار سيد قطب على الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ، وإصراره على الاشتراكية الغالية التي قررها في هذا الكتاب، وعلى إصرارِه على رمي المجتمعات الإسلامية كلها بأنها مجتمعات جاهلية -أي: كافرة-.

---

(١) (ص٥٤٠).

ويشاركه في المسئولية عن هذه الأمور المروجون لفكره ومذاهبه، بل يتحملون المسئولية أكثرَ منه.

سادسًا: احتجاج أهل البدع والضلال بطعن سيد قطب وأمثاله ممن طعن في عثمان ﷺ وفي أصحاب رسول الله ﷺ؛ إذ يرى هؤلاء المبتدعون أن في طعن سيد قطب وأمثاله من أهل الأهواء المنتسبين إلى أهل السنة حجة لهم على جواز الطعن والنيل من أصحاب رسول الله ﷺ.

فهذا الإباضي الخارجي المحترق أحمد حمد الخليلي مفتي عُمان الحاقد على أصحاب رسول الله ﷺ يقول في مقابلة أجراها معه لفيفٌ من (اللجنة الثقافية) حينما زار النادي الثقافي في سلطنة عمان في يوم الإثنين ٢٩ رجب سنة ١٤٠٤هـ، ونشرتها مجلة (جبرين) التي يصدرها الطلبة العمانيون في الأردن.

حيث يقول الخليلي الإباضي المذكور من كلامٍ طويل في هذه المقابلة: «ولست هنا بصدد الحكم في تلك الفتنة العمياء، ولا على أحدٍ ممن خاض في تلك الفتنة، أو من أصيب بشيء من شررها، وإنما كل ما أريده الآن هو: دفع الاتهامات التي توجه إلى الإباضية؛ لأنهم يعادون أصحاب رسول الله ﷺ وينالون من كرامتهم.

والذي أريد أن أقوله: إن الإباضية ليسوا وحدَهم في هذا الميدان؛ فكثيرٌ من الناس تحدثوا عن تلك الفتنة»[1].

ونقل كلامًا عن «العقد الفريد»، وعن «البيان والتبيين»، وعن «الإمامة والسياسة» المنسوب زورًا إلى ابن قتيبة تتضمن الطعنَ على عثمان ﷺ.

---

(١) انظر كيف يتظاهر هذا المسكين بالورع عن الحكم في تلك الفتنة العمياء، ثم غلبه طبعُه وهواه وحقدُه فساقَ هذا الدفاع عن الإباضية الذي يتضمن الاعتراف بأنهم ممن يعادي أصحاب رسول الله ﷺ وينالون من كرامتهم، لكنهم ليسوا وحدَهم في هذا الميدان، بل يشاركهم فيه وحوشٌ بشرية تنهش في أعراض أصحاب رسول الله ﷺ خير أمة أخرجت للناس.

ولقد رأينا العجائب في كتب الخوارج الإباضية، رأيناهم يشاركون الروافض إلى حد بعيد في الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ، فهل يظن الإباضي الخليلي أن مغالطاته تنطلي على العقلاء!!

ثم قال: «وإذا جئنا إلى أعلام الفكر الإسلامي لعصرنا الحاضر نجد كثير[1] منهم تناول هذه الفتنة، وتحدثوا عما جرى فيها بكل جرأة؛ ومن هؤلاء: شهيد الإسلام سيد قطب في كتابه «العدالة الاجتماعية»، فلنسمع معًا بعض ما قاله الأستاذ سيد قطب في صفحة (٢١٠) من كتابه المذكور:

«وهذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئًا ما دون شك على عهد عثمان وهو شيخ كبير، ومن وراءه[2] مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أن طبيعة عثمان الرخية وحدبه الشديد على أهلِه قد ساهم كلاهما في صدور تصرفاتٍ أنكرها الكثيرين[3] من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثارها الفتنة التي عانى منها الإسلام كثيرًا.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم، فلما أصبح الصباح جاء زيد بن أرقم خازن بيت مال المسلمين وقد بدا في وجهه الحزن واغرورقت في عينيه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين قال مستغربًا: أتبكي يا بن أرقم أن وصلت رحمي؛ فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: لا يا أمير المؤمنين، ولكن لأني أظن أنك أخذت هذا المال عوضًا عما كنت تنفقه في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ، والله لو أعطيته مائة درهم لكان كثيرًا؛ فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له: ألق بالمفاتيح يا بن أرقم؛ فإنا سنجد غيرك».

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات؛ فقد منح الزبير ذات يوم ٩٠٠ ألف، ومنح طلحة ٢٠٠ ألف، ونفل مروان بن الحكم ثلث خراج إفريقية، ولقد عاتبه في ذلك ناسٌ من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب، فأجاب: إن لي قرابة ورحمًا، فأنكروا عليه وسألوه: ألم يكن لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟

---

(١) كذا بالأصل، وصوابه: كثيرًا.

(٢) كذا بالأصل، وصوابه: (ورائه).

(٣) كذا بالأصل، وصوابه: (الكثيرون).

فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي؛ فقاموا عنه غاضبين يقولون: فهديهما والله أحب إلينا من هديك.

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان، ومنهم: معاوية الذي وسع عليه في الملك، فضم إليه فلسطين، وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهد له بعد ذلك أن يأخذ الملك في خلافة علي، وقد جمع المال والأجناد.

ومنهم: الحكم بن العاص طريد رسول الله ﷺ الذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان وزيره المتصرف.

ومنهم: عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخوه من الرضاعة.

ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات خطيرة العواقب فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام ولإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان.

ولقد اجتمع الناسُ فكلفوا علي بن أبي طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه؛ فدخل إليه فقال: الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئًا تجهلُه، ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه؛ إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغك، ولا خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلتَ صهره.

وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، وما ابن الخطاب أولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول الله رحمًا، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شيء؛ فالله الله في نفسك؛ فإنك والله لا تبصر من عمى، ولا تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين قائمة.

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل هُدي وهدى؛ فأقام سنة معلومة وأمات بدعة... فوالله إن كلًّا لبين، وإن السنن لقائمة ولها أعلام؛ وإن

شر الناس عند اللَّه إمام جائر ضَل وضُل به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة؛ وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم».

فقال عثمان: قد واللَّه علمت ليقولن الذي قلت، أما واللَّه لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك، وما جئت منكرًا أن وصلت رحمًا، وسددت خلة، وآويت ضائعًا، ووليت شبيهًا بما كان عمر يولي. أنشدك اللَّه يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟

قال: نعم.

قال: أتعلم أن عمر ولاه؟

قال: نعم.

قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟

قال علي: سأخبرك؛ إن عمر كان كل من ولي كان إنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل؛ ضعفت ورفقت على أقاربك.

قال عثمان: وأقاربك أيضًا.

قال علي: لعمري أن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته؟

قال علي: أنشدك الله؛ هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟

قال: نعم.

قال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت لا تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية.

ثم يقول الأستاذ شهيد الإسلام بعد ذلك: «ثم ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحق بالباطل والخير بالشر، لكن لابد لمن ينظر في الأمور بعين

الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت ثورة من روح الإسلام، وذلك دون إغفال ما كان لليهودي عبد الله بن سبأ -عليه لعنة الله-»[1].

اقرأ كتاب «العدالة» من (ص٢١٠ إلى ص٢١٢)[2].

قال الإباضي: «وكثير من الكاتبين تناول هذا الموضوع بالنقد والتحليل، ومن بينهم العلامة المودودي في كتابه «الخلافة والملك»، وكذلك في كتابه «التجديد لهذا الدين».

وقد علل ما حدث في كتابه «التجديد لهذا الدين» بأن الخليفة الثالث جاءته الخلافة وقد بلغ من الكبر عتيًا، وكان لم يمنح من المواهب التي منح العظيمان اللذان تقدماه.

فهل الإباضية وحدَهم الذين يتحدثون عن مثل هذه الأشياء أو يكتبون عنها؟».

أقول: فهل هذا الطعن في عثمان ﷺ مما يشرف سيد قطب والمودودي وسائر الكاتبين الذين يحتج بهم هذا الخارجي على صحة وسلامة موقف من يطعن في الخليفة الراشد وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ ؟!!

ونقول ثانية لهذا المفتي: أمثل هذا الاحتجاج البارد مما يقبله العقلاء والعلماء... والقضاة... وأهل الفتوى؟!!

إذا سئلت أيها المفتي عن عصابة تقتل وتسرق وتقطع الطرق، حتى إذا ألقي عليها القبض وقدمت للعدالة لمحاسبتها وتطبيق شريعة الله وحكمه عليها فقامت تدافع عن نفسها وتقول: إن هناك عصابات تشاركها في هذه الجرائم؛ فهل تدافع عنها أيها المفتي وتعطيها صك براءة بحجة أنها ليست وحدَها التي تمارس تلك الفعلات الشنعاء، بل معها عصابات تشاركُها في تلك الجرائم؟

---

(١) انظر كيف يمدح الثورة على عثمان ﷺ مع علمه أنها من كيد ابن سبأ اليهودي؟ وسوف تأتي مناقشته المستفيضة لهذا الكلام إن شاء الله في (ص٣٤٥) إلى (ص٣٤٧).

(٢) وفي الطبعة الثانية عشرة ص (١٥٩)، وفي الطبعة الخامسة ص (١٨٦) من «العدالة».

وهكذا نرى التعصب الأعمى يقتل العقول والمواهب فتأتي بالمخجلات من الشوارد والغرائب.

أيا من يحترم دينه وعقله ويحترم رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، كيف ترضى لنفسك أن تكون من مدرسة سيد قطب والمودودي وأمثالهما ممن يطعن في أصحاب رسول الله ﷺ، وممن انحازوا إلى أهل البدع الكبرى، وفي كثير من المبادئ والأصول والعقائد وصاروا إلبًا على السنة والحق وأهلهما؟

فورب السماء والأرض أنه ما نصح لك ولا أراد بك خيرًا مَن يستهويك إلى تولي واتباع الدعاة إلى البدع الكبرى والضلالات العمياء.

وفي خلال كلامه ذكر خطته في «العقد الفريد» لأحمد بن محمد بن عبد ربه المتشيع الحاقد على عثمان وبني أمية عن أحد الحاقدين من الروافض أو الخوارج يطعن في عهد عثمان وبني أمية، ثم عقب عليها بقوله:

«وكان كلامه -يعني: الحاقد السالف الذكر- يعني انتقاد الأوضاع بعد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكذلك جاء في كثير من الكتب ذكر بعض الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة الثالث بعدما بلغ من الكبر عتيًا».

وهذه طعنة من الإباضي الخارجي الحاقد في الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، وذكر الإباضي أن الخطبة السالفة الذكر موجودة في «البيان والتبيين» للجاحظ المعتزلي الماجن الحاقد.

وذكر خلال عرضه كلامًا عن المسمى زورًا بابن قتيبة فقال: «ولنستمع إلى ما يقوله ابن قتيبة صاحب «الإمامة والسياسة»[1]، يقول في الصفحة (٣٥) من الجزء الأول من كتابه: ما أنكر الناس على عثمان وذكروا أنه اجتمع أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ، فكتبوا كتابًا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ﷺ وسنة صاحبيه، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم

---

(١) قد طعن غير واحد من الباحثين في نسبة هذا الكتاب إلى ابن قتيبة الإمام، وأقاموا العديدَ من الأدلة على بطلان هذه النسبة. منهم: محب الدين الخطيب في تحقيق «العواصم» (ص٢٤٨)، ومنهم السيد أحمد صقر في مقدمة «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص٣٢)، وانظر مقدمة «عيون الأخبار» (ص٤٠).

ذوي القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبعة دور بناها في المدينة. . . وذكر مثالب ومطاعن أخرى في عثمان ﷺ».

ثم قال: «كل هذا موجود في كتاب «الإمامة والسياسة» في الصفحتين (٣٥ - ٣٦)».

وهكذا ينقل هذا الخارجي الحاقد على عثمان وبني أمية عن ابن قتيبة المجهول موهمًا أنه ابن قتيبة خطيب وأديب أهل السنة، وموهمًا للبلهاء أنه اعتمد على أقوى حجة، وهي في واقعها أوهى من بيت العنكبوت، ويريد بذلك تبرئة نفسه والخوارج من الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ؛ فأضاف طعنًا إلى طعن، وحقدًا إلى حقد، وعداء إلى عداء؛ ولن يضر بذلك إلا نفسه، وسيأتي دحض هذه المطاعن الكاذبة -إن شاء الله تعالى-.

هذه الأسباب وغيرها دفعتني إلى أن أقومَ ببعض الواجب الذي يطمعني في أحسن الجزاء والمثوبة من الله الكريم العظيم، ويطمعني في أن يستجيب لصوت الحق أناس مخدوعون ببريق الباطل وجعجعته وضجيجه؛ فأدخل باستجابتهم في قول الرسول ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة».

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

عضو هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية

الفصل الأول:
لمحة عن حياة سيد قطب

لا أريد أن أترجم لسيد قطب؛ فقد كتب عنه الكثير والكثير، وشحنت الكتابات عنه بالمبالغات والمغالاة، وإذا ذُكِرت بعض أخطائه؛ نُسِجَتْ حوله الهالات؛ لتسمو به إلى أعلى الدرجات، وأقلها أنه مجتهد من مجتهدي الأمة... فتكفيره للأمة، وطعنه في أصحاب رسول الله ﷺ، وتعطيله لصفات الله ﷻ، وقوله بخلق القرآن، وأن الله لا يتكلم وإنما قوله مجرَّد إرادة، وقوله بالحلول، ووحدة الوجود، والجبر، وقوله: إن الروح أزلية، وقوله بالاشتراكية الغالية، وبموادَّة أعداء الله، وقوله عن مساجد المسلمين: إنها معابد جاهلية، وتهوينه من معجزات الرسول ﷺ، ورده لأخبار الآحاد، بل للمتواترات من أحاديث رسول الله ﷺ، وغير هذا من الضلالات...

كل ذلك لا يحط من قدر سيد قطب شيئًا، ولا يهز مكانته!

لماذا؟!

وما سر هذه الخصوصية؟!

أنزل من عند الله وحي بهذه الخصوصية يُستثنى به هذا الرجل من بين أهل البدع ويقدسه وينزهه عن مساواة أمثاله من البشر؟!

فإذا قال غيره مثلًا بأن القرآن مخلوق؛ خرج من دائرة أهل السنة، وأسلك في عداد المبتدعة والمعتزلة، كائنًا من كان، وفي أي عصر كان، ولو في القرون المفضلة، وإذا قال سيد بخلق القرآن، وأنكر أن الله يتكلم، وكفَّر المجتمعات الإسلامية، وأضاف إلى ذلك بدعًا أكبر وأغلظ؛ فمن أعظم المستحيلات أن يُقال: إنه مبتدع!!

لماذا؟!

لأن سيوف الإرهاب الفكري تحميه، وأسنة الباطل والاتهامات تشرع في

نحور وصدور من يفكر في القول بذلك، ولو رغم أنف الحق، ولو ألحق ذلك بالإسلام ونصوصه وقواعده ومنهجه أشد الأضرار، وأنزل بها أشد الأخطار؛ فإن كل ذلك يهون إلى جانب سيد قطب.

وسوف أنقل من ترجمته ما يتناسب مع المآخذ التي أخذتها عليه، ويبيِّن منشأها وأسبابها.

قال صلاح عبد الفتاح الخالدي، وهو أحد المعجبين بسيد قطب والمغالين فيه: «الفترة الزمنية لضياعه:

متى كان ضياع سيد قطب؟

لقد أخبر سيد أبا الحسن الندوي لما قابله الأخير عام ١٩٥١م -بعدما انتهت رحلةُ ضياعه- أنه نشأ على تقاليد الإسلام في طفولته في القرية، ولمَّا سافر للقاهرة؛ أقبل على الأدب والنقد والدراسة والثقافة والمعرفة، وصار يتلقى من الثقافة الغربية المادية، وهذا جعله يمرُّ بمرحلةٍ من الشك والارتياب في الحقائق الدينية إلى أقصى حد (على حسب قوله بالحرف)!

وفي هذه المرحلة (أي: أثناء ضياعه) أقبل على القرآن يدرُسُه لدَواعٍ أدبية، ثم نقله القرآن نقلةً بعيدة إلى عالم الإيمان واليقين!

لقد استمرت رحلة ضاعه حوالي خمسة عشر عامًا، ولم يكن ضياعه فيها كلها على درجة واحدة وعلى مستوى واحد، بل كانت الدرجة متفاوتة ومتذبذبة.

تسلَّلت إليه الوساوس والشكوك والأوهام بالتدريج، ووصلت إلى نفسه وتصوره بالتدريج، وظهر أثرُها عليه بالتدريج، ولما تمكنت منه؛ ظهرت آثارُها عليه بصورةٍ واضحة صارخة، وانعكست على ملامحه، بحيث بدَتْ فيها تلك الملامح بارزةً شاخصة، ثم صار أثرها يضعف ويقلُّ بالتدريج، وهو يحاول جاهدًا أن يتخلص منه بمشقةٍ ومجاهدة، وكانت تبدو أحيانًا في بعض نتاجه الشعري، وتخفت وتختفي في غيره!

وما أن تعامل سيد مع حقائق الإسلام ومقررات الإيمان؛ حتى زالت آثارُ وملامحُ الضياع عنه، وتلاشتْ عن نتاجه!

إن رحلة ضياعه استمرت حوالي خمسة عشر عامًا، ما بين ١٩٢٥-١٩٤٠م، أي أنها بدأت معه وهو في الدراسة الثانوية، وتفاعلت معه وهو في الدراسة الجامعية في كلية دار العلوم، وبلغت أوجَها في آخر سنتين من دراسته الجامعية؛ أي: عامي ١٩٣٢-١٩٣٣م.

واستمرت في أعلى درجاتها في السنوات الأولى من حياته الوظيفية، وبخاصة في السنتين الأوليين منها: ١٩٣٤-١٩٣٥م، ثم صارت تضعف تدريجيًا إلى أن أوشكت على الزوال والتلاشي عام ١٩٤٠م، لا نكاد نرى لها آثارًا عليه في المرحلة الأولى -غير الواضحة- من حياته الإسلامية، ما بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٥م، وهي المرحلة التي درس فيها القرآن لدواعٍ أدبية»[1].

أقول: إن سيد قطب لم يخرج من دوامة الحيرة والبلبلة والاضطراب، وإن آثارها لواضحة على كثير من كتاباته، ولاسيما في العقائد والغيبيات، فلا تجوز المكابرة والمغالطات.

* * *

---

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (ص٢١٤-٢١٥).

الفصل الثاني: مكانة أصحاب رسول الله ﷺ عند الله ورسوله والمؤمنين

إن لأصحاب رسول الله ﷺ لمنزلة رفيعة عند الله وعند رسوله والمؤمنين، وقد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، وأخبر عن رضاه عنهم ورضاهم عنه؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الخطيب البغدادي: «وهذا اللفظ وإن كان عامًّا فالمراد به الخاص، وقيل: هو وارد في الصحابة دون غيرهم».

وقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩].

والآيات في بيان فضلهم ومنزلتهم كثيرة.

وأثنى عليهم رسولُ الله ﷺ، وبين فضلهم في أحاديث كثيرة.

فمن ذلك:

قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما أدرك مُد أحدهم ولا نَصِيفَه»(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ؛ فلمقام أحدهم ساعة - يعني: مع النبي ﷺ- خيرٌ من عبادة أحدِكم عمرَه»(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن اللَّه نظر في قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه؛ فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللَّه حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند اللَّه سيئ»(٤).

وقال الإمام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ولا نفرطُ في حب أحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير؛ وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»(٥).

وقال الخطيب البغدادي -رحمه اللَّه تعالى- بعد أن استشهد بآيات كريمة وأحاديث شريفة على مكانتهم وفضلهم: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢/ فضائل الصحابة، ٣٦٥٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ومسلم (٤٤/ فضائل الصحابة، حديث ٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود، ومن حديث عمران وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢/ فضائل الصحابة، ح: ٣٦٧٣)، ومسلم -واللفظُ له-: (فضائل الصحابة، ح: ٢٥٤٠).

(٣) «شرح الطحاوية» (ص٥٣٢)، قال الألباني: «صحيح».

(٤) «شرح الطحاوية» (ص٥٣٢). قال الألباني: «حسن موقوفًا؛ أخرجه الطيالسي، وأحمد، وغيرهما بسند حسن؛ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي».

(٥) «شرح الطحاوية» (ص٥٢٨).

مطابقة لما ورد في نص القرآن؛ وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم؛ فلا يحتاج أحدٌ منهم مع تعديل اللَّه تعالى لهم المطلِع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلْق له؛ فهم على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية؛ فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم اللَّه من ذلك، ورفعَ أقدارَهم عندَه.

على أنه لو لم يَرِد من اللَّه ﷻ ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه؛ لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد، والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين المزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

هذا مذهب كافة العلماء، ومَن يُعتد بقوله من الفقهاء»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللَّه تعالى-: «ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول اللَّه ﷺ كما وصفهم اللَّه به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وطاعة رسول اللَّه ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه».

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم...

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقولٍ أو عمل.

ويُمسكون عما جرى بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب، ومنها ما قد زيدَ فيه ونقص وغُير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

---

(١) «الكفاية» (ص٩٦).

ومَن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل: علم يقينًا أنهم خيرُ الخلْق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكونُ مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»[1].

* * *

(١) «الواسطية» (ص١٤٢ - ١٥١).

الفصل الثالث: نبذة عن الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه

نسبه:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، أمير المؤمنين، أبو عمرو، الأموي، ذو النورين، ومَن تستحي منه الملائكة، ومَن جمع الأمة على مصحفٍ واحد بعد الاختلاف، ومَن افتتح نوابه إقليم خراسان وإقليم المغرب؛ وكان من السابقين الصادقين القائمين الصائمين المنفقين في سبيل اللَّه.

وممن شهد له رسول اللَّه ﷺ بالجنة، وزوجه بابنتيه رقية وأم كلثوم -رضي اللَّه عنهم أجمعين-.

مَن نظر في تحريه وقت أمره بجمع القرآن علم مرتبته وجلالته. . . ، عداده في السابقين الأولين، وفي العشرة المشهود لهم بالجنة، وفي الخلفاء الراشدين؛ وهو أفضلُ مَن قرأ القرآن على النبي ﷺ، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وروى جملةً كثيرة من العلم. . . .

قتله سودان بن حمران يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة، وعاش بضعًا وثمانين سنة. . .

وكان ممن جمع العلم والعمل، والصيام، والتهجد، والإتقان، والجهاد في سبيل اللَّه، وصلة الرحم؛ فقبح اللَّه الرافضة[1].

---

(١) انظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٨)، «الإصابة» (٢/ ترجمة ٥٤٥٠)، «تهذيب الكمال» (١٩/ ٤٤٥، ترجمة رقم ٣٨٤٧)، «أسد الغابة» (٣/ ٥٨٤، ترجمة رقم ٣٥٨٣)، «طبقات ابن سعد» (٣/ ٥٣)، «حلية الأولياء» (١/ ٥٥)، «المنتظم» (٤/ ٣٣٤)، (٥/ ٤٩)، «صفة الصفوة» (١/ ٢٩٤)، «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص١٤٧).

الفصل الرابع: من فضائل عثمان رضي الله عنه الثابتة عن رسول الله ﷺ

قال البخاري -رحمه الله تعالى-: «وقال عبدان: أخبرني أبي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الرحمن أن عثمان رضي الله عنه حيث حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله -ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ-: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**من حفر رومة فله الجنة**» فحفرتُها؟ ألستم تعلمون أنه قال: «**مَن جهز جيش العُسرة فله الجنة**» فجهزتُه؟ قال: فصدقوه بما قال»[١].

وقال البخاري -أيضًا-: «حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي عثمان، عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل حائطًا وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجلٌ يستأذن فقال: «ائذن له، وبشره بالجنة» فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن فقال: «ائذن له، وبشره بالجنة» فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: «ائذن له، وبشره بالجنة على بلوى ستصيبُه» فإذا عثمان بن عفان.

قال حماد: وحدثنا عاصم الأحول وعلي بن الحكم سمعا أبا عثمان يحدث عن أبي موسى (بنحوه). وزاد فيه عاصم: أن النبي ﷺ كان قاعدًا في مكان فيه ماء قد كشف عن ركبتيه -أو ركبته- فلما دخل عثمان غطاها»[٢].

وقال البخاري: «حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سعيد، عن قتادة أن أنسًا رضي الله عنه حدثهم قال: صعد النبي ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف، فقال: «اسكن أُحد» أظنه ضربه برجله «فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان»[٣].

وقال البخاري: «حدثنا محمد بن حاتم بن بزيع، حدثنا شاذان، حدثنا عبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

---

(١) البخاري (كتاب الوصايا: ٥٥، ح: ٢٧٧٨).

(٢) البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان رضي الله عنه، ح: ٣٦٩٥).

(٣) البخاري (كتاب فضائل الصحابة ٦٢، باب مناقب عثمان، ح: ٣٦٩٩).

كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ، لا نفاضل بينَهم.

تابعه عبد الله بن صالح عن عبد العزيز»[1].

وعن عطاء وسليمان ابني يسار وأبي سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه -أو ساقيه-، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابَه. قال محمد: ولا أقول لك في يوم واحد، فدخل فتحدث.

فلما خرج قالت عائشة ﵂: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلستَ وسويت ثيابك؟ قال: «ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة»[2].

وقال أحمد بن جعفر القطيعي: حدثنا الهيثم قال: نا الخليل بن عمرو البغوي، قال: نا محمد بن سلمة الحراني أبو عبد الله، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد، عن أبي أنيسة، عن محمد بن عبد الله، عن المطلب، عن أبي هريرة قال: دخلت على رقية ابنة رسول الله ﷺ امرأة عثمان بن عفان وفي يدها مشط، فقالت: خرج من عندي رسول الله ﷺ آنفًا رجلت رأسَه فقال: «كيف تجدين أبا عبد الله»؟ قلت: كخير الرجال، قال: «أكرميه؛ فإنه من أشبه أصحابي بي خلقًا»[3].

وعن يحيى بن سعيد بن العاص: أن سعيد بن العاص أخبرَه أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته، ثم

---

(١) البخاري (كتاب فضائل الصحابة ٦٢، باب مناقب عثمان، ح: ٣٦٩٧).

(٢) مسلم (كتاب فضائل الصحابة ٤٤، باب من فضائل عثمان، ح: ٢٤٠١)، و«المسند» (٦/ ٦٢، رقم ٢٤٣٧٥، ٢٨٨، رقم ٢٦٥١٠).

(٣) «كتاب فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٥١٠، رقم ٨٣٤)، وفي هذا إشكال؛ فإن أبا هريرة لم يسلم إلا عام خيبر سنة سبع من الهجرة، ورقية كانت توفيت في السنة الثالثة من الهجرة؟

انصرف؛ قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك»، فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: **«إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنتُ له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته»**[1].

وعن ابن شهاب: أخبرني عروة أن عبيد الله بن عدي بن الخيار أخبره أن المسور ابن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا: ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد؛ فقد أكثر الناس فيه؟

فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة، قلت: إن لي إليك حاجة، وهي نصيحة لك.

قال: يا أيها المرء منك، قال معمر: أراه قال: أعوذ بالله منك؛ فانصرفت فرجعت إليهما إذ جاء رسول عثمان فأتيته، فقال: ما نصيحتك؟

فقلت: إن الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ فهاجرت الهجرتين، وصحبت رسول الله ﷺ، ورأيتُ هدْيَه؛ وقد أكثر الناسُ في شأن الوليد.

قال: أدركت رسول الله ﷺ؟

قلت: لا، ولكن خلص إلي من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها.

قال: أما بعد: فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، فكنتُ ممن استجاب لله ولرسوله، وآمنتُ بما بعث به وهاجرت الهجرتين -كما قلتَ-، وصحبتُ رسولَ الله ﷺ بايعته؛ فوالله ما عصيتُه، ولا غششته حتى توفاه الله، ثم أبو بكر مثله، ثم عمر مثله، ثم استخلفت، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم؟

قلت: بلى.

قال: فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم ؟ أما ما ذكرتَ من شأن الوليد

---

(١) مسلم (كتاب فضائل الصحابة ٤٤، باب من فضائل عثمان، ح: ٢٤٠٢)، و«المسند» (١/ ٧١، ح: ٥١٤، ٦/ ١٥٥، رقم ٢٥٢٥٧).

فسنأخذ فيه بالحق إن شاء اللَّه، ثم دعا عليًا فأمره أن يجلد، فجلده ثمانين»[1].

وقال الإمام أحمد: «ثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: ثنا الجريري، عن عبد اللَّه بن شقيق، عن ابن حوالة قال: أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو جالسٌ في ظل دومة وعنده كاتب له يُملي عليه، فقال: ألا أكتبك يا بن حوالة؟ قلت: لا أدري ما خار اللَّه لي ورسوله ﷺ، فأعرض عني.

وقال إسماعيل مرة في الأولى: نكتبك يا بن حوالة؟ قلت: لا أدري فيم يا رسول اللَّه، فأعرض عني.

فأكب على كاتبه يملي عليه، ثم قال: أنكتبك يا بن حوالة؟ قلت: لا أدري ما خار اللَّه لي ورسوله فأعرض عني، فأكب على كاتبه يملي عليه.

قال: فنظرت فإذا في الكتاب عمر، فقلت: إن عمر لا يكتب إلا في خير، ثم قال: أنكتبك يا ابن حوالة؟ قلت: نعم، فقال: يا بن حوالة كيف تفعل في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صياصي بقر؟ قلت: لا أدري ما خار اللَّه لي ورسوله؟

قال: وكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها كأن الأولى فيها انتفاخة أرنب، قلت: لا أدري ما خار اللَّه لي ورسوله.

قال: اتبعوا هذا، قال: ورجل مقفى حينئذٍ، قال: فانطلقت فسعيت وأخذت بمنكبيه فأقبلت بوجهه إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلت: هذا، قال: نعم، قال: وإذا هو عثمان بن عفان -رضي اللَّه تعالى عنه-»[2].

وقال الإمام أحمد: «حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، ثنا أيوب، عن أبي قلابة قال: لما قتل عثمان رضي الله عنه قام خطباء بإيلياء فقام من آخرهم رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له مرة بن كعب فقال: لولا حديثٌ سمعتُه من رسول اللَّه ﷺ ما قمت؛ إن رسول اللَّه ﷺ ذكر فتنة وأحسبه قال: فقربها -شك إسماعيل-؛ فمر رجل متقنع

---

(١) البخاري (كتاب فضائل الصحابة ٦٢، باب مناقب عثمان، ح: ٣٦٩٦).

(٢) «المسند» (٤/ ١٠٩ - ١١٠، رقم ١٧٠٤٥)، و«فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٤٤٨)، والطيالسي في «المسند» (١٧٦، رقم ١٢٤٩).

فقال: «هذا وأصحابه يومئذٍ على الحق»، فانطلقت فأخذت بمنكبه وأقبلت بوجهه إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: «نعم»، قال: فإذا هو عثمان -رضي اللَّه تعالى عنه-»[1].

وقال الإمام أحمد -أيضًا-: «ثنا بهز وعبد الصمد قالا: ثنا أبو هلال، عن قتادة، عن عبد اللَّه بن شقيق، عن مرة البهزي قال: كنت عند رسول اللَّه ﷺ، وقال بهز في حديثه: قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تهيج فتنة كالصياصي؛ فهذا ومن معه على الحق»، قال: فذهبت أخذت بمجامع ثوبه فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه»[2].

وقال الإمام أحمد: «ثنا عفان، ثنا وهيب، ثنا موسى بن عقبة قال: حدثني جدي أبو أمي أبو حبيبة: أنه دخل الدار وعثمان محصور فيها وأنه سمع أبا هريرة يستأذن عثمان في الكلام فأذن له، فقام فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافًا -أو قال: اختلافًا وفتنة-» فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه» وهو يشيرُ إلى عثمان بذلك»[3].

وقال الإمام أحمد: «ثنا أبو المغيرة قال: ثنا الوليد بن سليمان قال: حدثني ربيعة بن زيد، عن عبد اللَّه بن عامر، عن النعمان بن بشير، عن عائشة قالت: أرسل رسول اللَّه ﷺ إلى عثمان بن عفان فأقبل عليه رسول اللَّه ﷺ، فلما رأينا رسول اللَّه ﷺ أقبلت إحدانا على الأخرى فكان من آخر كلام كلمه أن ضرب منكبه، وقال: «يا عثمان، إن اللَّه عز وجل عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني، يا عثمان إن اللَّه عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٣٥، برقم ١٨٠٨٩)، والترمذي: (٥/ ٦٢٨، برقم ٣٧٠٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن أبي عاصم: (٢/ ٥٩٠، برقم ١٢٩٣)، «فضائل الصحابة» للإمام أحمد: (١/ ٥٠٧-٥٠٨، برقم ٨٢٨).

(٢) «المسند» (٥/ ٣٣، رقم ٢٠٣٦٧)، (٤/ ٢٣٥، ح: ١٨٠٨٩)، والترمذي (٥/ ٦٢٨، ح: ٣٧٠٤)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وزوائد ابن حبان للهيثمي (ص٥٣٩، رقم ٢١٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٩٠، ح: ١٢٩٣-١٢٩٤).

(٣) «المسند» (٢/ ٣٤٤ - ٣٤٥، ح: ٨٥٢٢)، «فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٥١٢، رقم ٨٣٦).

المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني -ثلاثًا- . . . » .

فقلت لها : يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت : أُنسيتُه والله فما ذكرتُه ، قال : فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرضَ بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به ، فكتبت إليه به كتابًا»[1] .

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا ، ونستحسن أن نضيف إلى هذه الأحاديث المشرقة في فضائل عثمان كلماتٍ نيرة لأخيه الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﷺ ، وكلمات حق صدع بها لإبراز مكانة أخيه ولقطع ألسنة الطاعنين فيه والمغرضين .

فمما ثبت عن علي ﷺ :

قال أبو بكر القطيعي في «زوائد فضائل الصحابة» : «حدثنا أحمد ، قال : ثنا الترجماني قال : حدثتني أم عمرو ابنة حسان بن زيد أبي الغصن قالت : سمعت أبا الغصن يقول : دخلت المسجد الأكبر مسجد الكوفة وعلي بن أبي طالب يخاطب الناس قائمًا على المنبر ، فنادى ثلاث مرار بأعلى صوته : يا أيها الناس ، نُبئت أنكم تكثرون في وفي عثمان بن عفان ، وإن مثلي ومثله كما قال الله ﷻ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ، وقالت : سمعت أبي يقول : إن عثمان جهز جيش العسرة مرتين»[2] .

وقال الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» : «ثنا محمد بن جعفر ، نا شعبة ، عن أبي عون قال : سمعت محمد بن حاطب قال : سألت عليًا عن عثمان فقال : هو من الذين آمنوا ثم اتقوا ثم آمنوا ثم اتقوا[3] ، ولم يختم الآية» .

وقال الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» : «نا يحيى بن سعيد ، عن شعبة قال :

---

(١) «المسند» (٦/ ٨٦ - ٨٧ ، رقم ٢٤٦١٠) ، (٦/ ١٤٩ ، رقم ٢٥٢٠٣) ، وابن ماجه في «سننه» (١/ ٤١ ، رقم ١١٢) ، زوائد ابن حبان للهيثمي (ص٥٣٩ ، رقم ٢١٩٦) ، و«فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٥٠٠ ، ح : ٨١٦ ، ص٤٥٣ ، رقم ٧٢٨) مرسلًا ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٥٨-٥٥٩ ، رقم ١١٧٢) ، وصححه الألباني.

(٢) (١/ ٥١٧ ، برقم ٥٨١).

(٣) (١/ ٤٧٤ ، برقم ٧٧٠).

حدثني أبو بشر، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: سمعت عليًّا يقول: يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ منهم عثمان»[1].

رضي الله عن عثمان بن عفان الخليفة الراشد وأرضاه؛ فإن فضائلَه ومزاياه كثيرة لا يتسعُ المقامُ لاستيفائها، والمسلمون الصادقون يعرفون قدْرَه ومكانته، وعلى رأسهم صحابة رسول الله ﷺ، ولا يعرف الفضل إلا ذووه، ولا عبرة بالروافض والرعاع وأمثالهم مِن سقطِ المتاع.

* * *

(١) (١/ ٤٧٤ - ٤٧٥، برقم ٧٧١).

الفصل الخامس: تمهيد طويل من سيد قطب ليتوصل به إلى الطعن في عثمان رضي الله عنه ومن في عهده من الصحابة وغيرهم

قال سيد قطب: «هناك ما يصح أن نُطلق عليه باطمئنان روح الإسلام؛ هذا الروح يستشعره من يتتبع طبيعة هذا الدين وتاريخه على السواء، ويحسه كامنًا وراء تشريعاته وتوجيهاته.

هذا الروح هو الذي يرسم الأفق الأعلى الذي يتطلب من معتنقيه أن يتطلعوا إليه، وأن يحاولوا بلوغه لا بتنفيذ الفرائض والتكاليف فحسب، ولكن بالتطوع الذاتي لما هو فوق الفرائض والتكاليف؛ وهذا الأفق عسير المرتقى[1]، وأعسر من ارتقائه الثبات عليه؛ لأن نوازع الحياة البشرية وضغط الضرورات الإنسانية لا يطوعان للأكثرين من الناس أن يرقوا إلى هذا الأفق العالي، ولا أن يصبروا عليه طويلًا، إن ارتقوا إليه في فورة من فورات الشوق والتطلع؛ فلهذا الأفق تكاليفه العسرة، وهي تكاليف في النفس والمال وفي الشعور والسلوك.

ولعل أشد هذه التكاليف مؤنةً هو تلك اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على ضمير الفرد، والحساسية المرهفة التي يثيرها في شعوره تجاه الحقوق والواجبات لذاته، وللجماعة التي يعيشُ فيها، وللإنسانية التي ينتسب إليها، وللخالق الذي يراقبُه في الصغيرة والكبيرة ويعلم سره ونجواه.

ولقد كان لذلك الروح الذي أشرنا إليه أثر في واقع الإسلام التاريخي، فاستحال الإسلام وهو عقيدة وتصور إلى شخصيات ووقائع، ولم يعد نظريات

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٤٤ - ١٤٥، ط: خامسة)، و(ص١٢٦ - ١٢٧، ط: الثانية عشرة).

أقول: لقد بين الرسول الكريم ﷺ مراتب الدين بأنها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وقال في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»؛ فإذا عبدَ اللهَ الإنسان بإخلاص متمسكًا بهديه فإنه يكون قد وصل إلى هذا المرتقى، ولا داعي لهذا التعقيد والتكلف الذي يسلكه سيد قطب.

مجردة، ولا مجموعة إرشادات ومواعظ، ولا مُثُلًا وأخيلة، إنما عاد نماذج إنسانية تعيش، ووقائع عملية تتحقق.

ولن نكون مخطئين حين نرد انبعاث هذه العبقريات كلها وبروز تلك البطولات جميعها إلى فعل ذلك الروح القوي؛ فهو حركة كونية شاملة تتوافى مع هذه الطاقات الفردية في الظاهر، الكونية في الحقيقة، ومقياس عظمة كل عبقرية منفردة هو استعدادها لتلقي ذلك الفيض الكوني».

ثم ضرب أمثلة[١]:

١- بالنبي ﷺ.

٢- ثم بلال.

٣- ماعز.

٤- الغامدية.

٥- خالد بن الوليد وقصة عزله.

٦- أبو عبيدة.

٧- أبو حنيفة.

٨- يونس بن عبيد.

ولكل من هؤلاء قصة.

ثم تعرض للمساواة المطلقة[٢] بين بني الإنسان في الإسلام، والتحرر الوجداني المطلق من جميع القيم وجميع الاعتبارات التي تخدش هذه المساواة، وذكر أثر هذه الروح في شخصيات، منها:

عمر بن الخطاب.

ثم سفيان الثوري في مواجهة المنصور.

---

(١) انظر: «العدالة» (ص١٣٠ - ١٣٧، ط: الثانية عشرة).

(٢) في هذا نظر يخالف قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ وغيرها من توجيهات الإسلام التي تفرق بين المسلم والكافر.

وأحد المتكلمين[١] في مواجهة الخليفة الواثق.

وبكار القاضي في مواجهة أحمد بن طولون.

وابن عبد السلام في مواجهة الملك إسماعيل الأيوبي.

والنووي في مواجهة الظاهر بيبرس.

وحسن الطويل في مواجهة الخديوي توفيق.

ثم تحدث عن منهج الإسلام في البر والتكافل الاجتماعي الشامل بين القادرين والعاجزين، وبين الأغنياء والفقراء، وضرب أمثلةً من أبي بكر، وعمر، وعثمان قبل الخلافة، ومن قبيلة الطوارق[٢].

ثم قال -وهو يتحدث عن سياسة الحكم والمال-: «فأما سياسة الحكم والمال من الوجهة الرسمية في الدولة؛ فقد شهد الواقع التاريخي عنها فترة فريدة في حياة الإسلام لم تعمر طويلًا مع الأسف الشديد....».

ثم تحدث عن استخلاف أبي بكر وعمر وعثمان بكلامٍ عليه فيه مآخذ، ثم قال: «فلما جاء الأمويون وصارت الخلافة الإسلامية مُلْكًا عَضوضًا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي»[٣].

ثم تكلم عن معاوية ويزيد بكلامٍ فيه إساءة كبيرة إلى معاوية، ونسب إلى يزيد أشياءَ يصعُب ذكرُها، وهي -لا شك- تُرضي الروافض.

ثم قال: «وفي سبيل تبرئة الإسلام روحه ومبادئه من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعًا في الإسلام نقررُ هذه الحقائق، لتكون واضحةً في تصور الحكم الإسلامي على حقيقتِه؛ ومما ضاعف الكارثة: أن هذا الانحراف باكر الإسلام، ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة، فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار،

---

(١) الصواب أنه أحدُ أهل السنة.

(٢) «العدالة» (ص١٥٠ - ١٥١).

(٣) «العدالة» (ص١٥٤)، وط. خامسة: (ص ١٧٨-١٨٠).

وتكوين التقاليد العميقة والأوضاع النظامية التي يصعب فيما بعد الخروج عليها؛ وهو سوء حظ لا شك فيه.

ولكنه في الواقع ليس المصادفة السيئة الأولى؛ فلقد كانت أسوأ مصادفة هي تأخير علي وتقديم عثمان وهو شيخٌ ضعيف، وتسلم مروان بن الحَكم الأموي مقاليد السلطان، فلو شاء حسن الطالع أن يتقدم علي بعد الشيخين لاستمرت تقاليد الإسلام فترة أخرى، ولاستطردت موجته عهدًا ثالثًا، ولكان غير ما كان من طمس روح الإسلام؛ فإن استقرار التقاليد الإسلامية فترة أخرى وقيام أوضاع نظامية محددة من شأنه أن يجعل النكسة أصعب على من يحاولها[1].

ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم والمال[2] في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر، وعمر، وعلى أيدي عثمان، ومروان، وعلى يدي علي الإمام[3]، ثم على أيدي الملوك من بني أمية، ومن بعدهم من بني العباس بعد أن خنقت روح الإسلام»[4].

ثم قال: «حينما ندب المسلمون أبا بكر ليكون خليفة رسول الله، لم تزد وظيفتُه في نظره على أن يكون قائمًا بتنفيذ دين الله وشريعته بين المسلمين، فلم يخطر له أن هذه الوظيفة تُبيحُ له شيئًا لم يكن مباحًا له، وهو فردٌ من الرعية، أو تمنحُه حقًّا جديدًا لم يكن له، أو تسقط عنه تكليفًا واحدًا مما كان يكلفه سواء لنفسه أو لعشيرته أو لإلهه!».

ثم ذكر خطبة أبي بكر الشهيرة، وذكر مِن سيرتِه، وزهده، وتعففه ما هو لائقٌ بمكانته.

---

(١) هذا المقطعُ تضمن بالإضافة إلى سوء معتقد سيد قطب: طعناتٍ في خلافة عثمان، منها: الانحراف الذي باكر الإسلام، ومنها: طمس روح الإسلام، ومنها: طعنُه في استخلاف عثمان نفسه؛ فلا حولَ ولا قوة إلا بالله.

(٢) كلمة «المال» من الطبعة الثانية عشرة.

(٣) تخصيص علي بالإمامة في سياقٍ فيه أبو بكر وعمر وعثمان له دلالة لا شك فيها لمن ينظر بعمق، خصوصًا وهو في سياق تبرئة الإسلام من سياسة عثمان وبني أمية.

(٤) «العدالة» ط خامسة، (ص١٨٢)، وط ثانية عشرة (ص١٥٦)، وفيها: «بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام».

ولكنك إذا قرأت ما كتبه في عثمان تُدرك أنه يعرضُ بعثمان، وأنه على نقيض هذه الخصال الكريمة التي كان يتسمُ بها أبو بكر.

ثم قال: «هذه لمحةٌ مِن تصور أبي بكرٍ للحكم، فلما أن خلفه عمر لم يختلف هذا التصور، ولم يفهم عمر أن منصبَه الجديد يرتبُ له حقوقًا جديدة من أي نوع غير أن يزيدَ في تبعاتِه في القيام بتنفيذ شرع الله»[1].

وذكر له ولعمر خطبًا وأقوالًا ومواقف كُلها تليقُ بهذين الخليفتين الراشدين، ولكن هدف (سيد) منها أن يبين أن عثمان على النقيض من ذلك، وأن هناك تفاوُتًا عظيمًا بين الخليفتين أبي بكر وعمر وبين عثمان، دفع سيدًا إلى إسقاط خلافة عثمان، واعتبارها فجوةً بين خلافتيهما وخلافة علي -رضي اللَّه عنهم جميعًا-.

لقد ذكر شخصيات تأثرت بروح الإسلام، وارتقت إلى الآفاق العليا التي رسمها الإسلام؛ ومن تلك الشخصيات: ماعز، والغامدية، ويونس بن عبيد، وأبو حنيفة، والعز بن عبد السلام، والنووي، وحسن الطويل.

ولكنه بعد ذلك تحدث عن عثمان وعهده، وعن عددٍ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ بما يُشعر القارئ بأنهم لم يرتقوا إلى هذا الأفق الذي ارتقت إليه تلك الشخصيات التي اختارها نماذج تسنمت ذلك الأفق العالي؛ فلا حولَ ولا قوة إلا باللَّه، وسيأتيك هذا النبأ المفزع.

ثم تحدث عن سياسة عمر فقال: «لقد كان يرى أن يحرم نفسه حرمان رعيته ليحس بما يمسها كما قال، ولأنه في أعماق نفسه ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقًا وامتيازات ليست لسائر الناس، وأنه إن لا يعدل في هذا فما هو بمستحق طاعة الرعية؛ وقصة البرود اليمانية وإقراره بسقوط طاعته حتى يثبت عدله قد سبق أن ذكرناها، وهي تقرر مبدأ من مبادئ الحكم في الإسلام: أن لا طاعة لإمامٍ غير عادل، (ولو كان يقر أن الحاكمية لله وحدَه ويحكم بشريعة اللَّه، ولكنه لا يعدِل في الأحكام)»[2].

---

(١) «العدالة» ط خامسة (ص١٨٣)، وط ثانية عشرة (ص١٥٧).

(٢) «العدالة» (ص١٥٨) ط ثانية عشرة، و(ص ١٨٥) ط خامسة، وما بين القوسين من الطبعة الثانية عشرة.

الفصل السادس: عثمان بن عفان ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقًا وامتيازات

أقول: رضي الله عن عمر، وما هذا بمستغرَب منه إن ثبت عنه، وقد روي عنه أنه كان يحرم نفسه من بعض الأدم في عام الرمادة الذي حصلت فيه مجاعة، وهو أمرٌ لا يلزمه به الإسلام، ولو حصل عام مثله في عهد عثمان لأشفق على الأمة وأهمه أمرها كما أهم أخاه عمر رضي الله عنهما؛ لأنهما من مدرسة محمد رسول الله ﷺ.

ولعثمان من البذل والتضحيات الشيء الكثير في حياة رسول الله ﷺ، وفي خلافته، وخلافة أبي بكر وعمر.

وقد بذل الكثير والكثير في أحوال الشدة والأزمات التي كانت تواجه المسلمين، ولا يُنسى ما بذله في غزوة تبوك عام العسرة، وغيرها.

أما أن عمر في أعماق نفسه ما كان يرى أن قيامه بالحكم يجعل له حقوقًا وامتيازات ليست لسائر الناس؛ فإن أخاه عثمان كان كذلك؛ ولا يقول فيه غير هذا إلا ظالمٌ معتد طعان في عدالة عثمان الخليفة العادل الراشد.

وقول سيد: «وأنه إن لا يعدل فما هو بمستحق طاعة الرعية»، وقوله عن عمر: «وإقراره بسقوط طاعته حتى يثبت عدله».

* * *

الفصل السابع: سيد قطب يقرر مذاهب الفرق الضالة ويوهم أنها مذهب عمر بن الخطاب

فإن «سيدًا» إنما يقرِّر هنا مذاهب الفرق الضالة من الخوارج والمعتزلة الرافضة، ولا يلتفت إلى ما قرره الرسول ﷺ، وقرره أهلُ السنة والجماعة بناء على توجيهات رسول اللَّه ﷺ، التي منها ما أخرجه مسلم وغيرُه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عليك السَّمع والطاعة في عسرك، ويُسرك، ومنشطك، ومكرهك، وأثرة عليك»**[1].

وما أخرجه مسلم وغيرُه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: «بايعنا رسولَ اللَّه ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألَّا ننازعَ الأمرَ أهلَه، وعلى أن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في اللَّه لومة لائم».

وزاد مسلم بعد قوله: «وألَّا ننازعَ الأمرَ أهلَه». قال: **«إلَّا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من اللَّه برهان»**[2].

وما رواه مسلم وغيرُه عن سلمة بن يزيد الجعفي: أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: **«اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم»**[3].

ومن حديث حذيفة: **«يكون بعدي أئمَّة لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال؛ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت:**

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية اللَّه، وتحريمها في المعصية، (٣٥، ح: ١٨٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب: كيف يبايع الإمام الناس، (ح: ٧١٩٩)، ومسلم في الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، (٤١-٤٢)، (ح: ١٧٠٩) مع زيادة: «إلَّا أن تروا كفرًا ...».

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق، (٤٩، ح: ١٨٤٦).

كيف أصنعُ يا رسول اللَّه، إن أدركتُ ذلك؟ قال: **تسمع وتطيع، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك؛ فاسمع وأطع**»[١].

وحديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «ستكون أثرة وأمورٌ تنكرونَها. قالوا: يا رسول اللَّه، فما تأمرنا؟ قال: **تؤدُّون الحق الذي عليكم، وتسألون اللَّه الذي لكم**»[٢].

ففي هذه الأحاديث: وجوب طاعة الإمام على الأمة مهما ظلم الإمام وخالف هَدْي الإسلام؛ حتى ترى الأمة في هذا الإمام الكفرَ البواح المخرج عن دائرة الإسلام.

لم يستضئ «سيد» بهذه التوجيهات النبوية، ولم يلتفت إلى مذهب أهل السنَّة والجماعة، وذهب يقرِّرُ ما هو أشدُّ من مذهب الخوارج والفرق الضالة الأخرى، ثم ينسب ذلك إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ أنه يرى هذا المذهب الرديء: «أنه لا يستحق طاعة الرعية إلَّا إذا كان في غاية العدل»، ولقد أشار إلى قصة البرود اليمانية.

وهي كما قصَّها سيد في (ص١٤١) من «العدالة»:

«وغنم المسلمون أبرادًا يمانية، فخصه برد، وخصَّ ابنه عبد اللَّه برد كأيِّ رجل من المسلمين، ولما كان الخليفة في حاجة إلى ثوب فقد تبرع له عبد اللَّه ببرده؛ ليضمَّه إلى برده فيصنع منها ثوبًا، ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب، فقال: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا. فوقف سلمان فقال: لا سمع ولا طاعة. قال عمر: ولم؟ قال سلمان: من أين لك هذا الثوب، وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال؟ قال: لا تعجل، ونادى: يا عبد اللَّه، فلم يجبه أحد -فكلُّهم عبد الله-، قال: يا عبد اللَّه بن عمر. قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: ناشدتك الله! البرد الذي اتزرتُ به أهو بردك؟ قال: اللهم نعم. قال سلمان: الآنَ مُر؛ نسمع ونطع».

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، (٥٢، ح: ١٨٤٧).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، (ح: ٣٦٠٣).

فهذه القصة تحمل في طيَّاتها الكذب، وتنطوي على رفض ذلك المنهج الذي قرره رسول اللَّه، وتلقاه أصحابه، ففقهوه وعلموه الأمة.

إن هذه القصة المزيفة تصور الصحابة في صورة لا يقوم عليها دين ولا دولة!!

أبمجرد أن يرى أحدٌ من الصحابة على أمير المؤمنين ثوبًا يحتاجه؛ يقول: لا سمعَ لك علينا ولا طاعة!! ويقع الخليفة في قفص الاتِّهام، لا يُخرجُه منه إلَّا شاهد عدل أنه قد تبرَّع بهذا الثوب، فكيف ستكون النتيجة لو كان عبد اللَّه بن عمر غائبًا في غزوة أو غيرها؟!!

ثم ألا يرى «سيد» أن هذه القصة تخالف مذاهب عمر وأصحاب رسول اللَّه ﷺ في التفضيل في العطاء، فيعطي بعضهم خمسة آلاف، وبعضهم أربعة، وبعضهم اثني عشر ألفًا، وبعضهم خمسمائة وثلثمائة على أساس: الرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام.

فبلاء عمر في الإسلام وقدمه فيه، وحاجته ومكانته كلُّ ذلك لم يشفع لعمر في ثوبٍ يحتاجُه، لا عند سلمان، ولا عند غيره من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ونسوا كلُّهم الأحاديث الآمرة بالطاعة للأمير ما دام في دائرة الإسلام، ونسوا ما اتَّفَقُوا عليه من جواز التفضيل؛ مراعاة لمنازل الرجال؟!!

كيف يتبنَّى «سيد» هذا المبدأ الثوري الخطير الذي لا تعيش عليه أمة، ولا يقومُ عليه دين؛ على هذه القصة الباطلة!! لعلها من صياغة أعداء الإسلام؛ لتدمير الإسلام والمسلمين.

* * *

الفصل الثامن: كان شعور عثمان الإسلامي بالعدل عميقًا في نفسه

قال «سيد قطب»:

«ولقد كان هذا الشعور الإسلامي عميقًا في نفسه، مصاحبًا له في كل ملابسة؛ فقد ساوم رجلًا على فرس، ثم ركبَه ليجرِّبَه فعطب، فأراد أن يَردَّه إلى صاحبه، فأبى، فتحاكما إلى شريح القاضي، فسمع حُجَّة كل منهما، ثم قال: يا أمير المؤمنين، خذ ما ابتعت، أو ردَّ كما أخذت. فقال عمر: وهل القضاء إلَّا هكذا؟! ثم أقام شريحًا على قضاء الكوفة؛ جزاء ما قضى بالحق والعدل»[1].

أقول: بحثتُ كثيرًا عن هذه القصة فلم أجدها.

وسواء صحَّت أو لم تصح؛ فإن عمر بن الخطاب الخليفة الراشد فوق هذا المستوى، وكان وقافًا عند كتاب اللَّه، كما شهد له ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ملأ هذا الخليفة العادل العبقري الدنيا عدلًا؛ فهذا قليلٌ في حقِّه رضي الله عنه.

ولأخيه الخليفة الراشد عثمان من الكمال والصفات الحميدة والعدل والإنصاف ما يجعله رديف أخيه عمر في العدل والإنصاف وسائر الخلال الحميدة؛ وبهذه الخلال اختارته الأمة عن رضا وحبٍّ واغتباط.

وله قصة طريفة في باب العدل والإنصاف لا تقلُّ طرافةً عن قصة عمر هذه:

روى ابن شبَّة بإسناده قال:

«دخل عثمان بن عفان على غلام له يعلف ناقة، فرأى في علفها ما كره، فأخذ بأذن غلامه فعركها، ثم ندم، فقال لغلامه: اقتص. فأبى الغلام، فلم يدعه حتى أخذ بإذنه، فجعل يعركها، فقال له عثمان: شد. حتى ظنَّ أنه قد بلغ منه مثل ما بلغ منه، ثم قال عثمان رضي الله عنه: واهًا لقصاص قبل قصاص الآخرة». وفي إسناد القصة

---

(١) «العدالة» (١٥٨).

انقطاع[1]، ولكنها لا تستكثر على عثمان، ولا تستبعد لعدله وإنصافه وتواضعه ﷺ، كما لا تستبعد تلك القصة ولا تستكثر على أخيه عمر بن الخطاب.

أمَّا الفضل والعفو والحلم والصفح عمن يعتدي عليه؛ فقد برز فيه ﷺ، وقد رويت قصص عنه تنبئ عن نفسٍ كريمة بلغت غاية السماحة:

منها: ما رواه ابن شبَّة: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا سلام بن مسكين، عن عمران بن عبد اللَّه بن طلحة: «أن عثمان ﷺ خرج لصلاة الغداة، فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمه الباب، فقال: انظروا. فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان ﷺ: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك. قال: سبحان الله!! ويحك علامَ تقتلني؟! قال: ظلمني عمَّالك باليمن.

قال: أفلا رفعتَ ظلامتك إليَّ، فإن لم أنصفك وأعديك على عاملي؛ أردتَ ذلك مني. فقال لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدوٌّ أمكنك اللَّه منه. فقال: عبدٌ هَمَّ بذنبٍ فكفَّه اللَّه عني، ائتني بمن يكفل بك لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به، فخلَّى عنه.

قال عمران: فواللَّه ما ضربه سوطًا، ولا حبسه يومًا»[2] وفي إسناده انقطاع، ويتقوّى بروايات قبله، فيرتقي إلى درجة الحسن أو الصحة؛ وقد أشار إلى ذلك المحقق -رحمه اللَّه تعالى-.

فلماذا تُغفل مكرمات عثمان ﷺ، ويُركَّزُ على الحطِّ منه؛ اعتمادًا على إفك الروافض والحاقدين والمغرضين؟!!

وهل يجوز أن تُذكر محاسنُ عمر ﷺ؛ ليُتوصَّل منها إلى الحطِّ من أخيه عثمان؟!! ولماذا لا يقال في عثمان ﷺ ما قيل في عمر؟!!

لقد كان هذا الشعور الإسلامي عميقًا في نفسه، مصاحبًا له في كلِّ ملابسة، وتذكر تطبيقات ذلك في حياته كما ذكرت في حياة أخيه عمر.

---

(١) «أخبار المدينة»: (٣/ ٢٣٦).

(٢) «أخبار المدينة»: (٣/ ٢٤٦).

رضي الله عن كل أصحاب رسول الله؛ ولاسيما الخلفاء الراشدين المهديين، والعشرة المبشرين بالجنة؛ فقد كانت حياتهم كلها تطبيقًا صحيحًا للإسلام رغم أنوف الحاقدين.

* * *

الفصل التاسع: كان عثمان يقيم العدل على نفسه وبين رعيته

قال «سيد»:

«فإذا فهم عمر الحكم على أساس هذا التصوُّر؛ فلا مجال لأن يكون لقرابة الحاكم امتيازات ما على سائر أفراد الرعية، فإذا تناول ابنُه عبد الرحمن الخمر؛ فلابدَّ من الحد، وقصته في ذلك معروفة، وإذا عدا ابن عمرو بن العاص على المصري؛ فلابد من القصاص.

فأما في المال: فعماله مسئولون عن كل ما زاد في أموالهم بعد الولاية؛ خشية أن يكون نموها على حساب مال المسلمين، أو بسبب من جاه الولاية، و (من أين لك هذا؟)، كان قانونه الذي عامل به عماله واحدًا واحدًا، كلما وجد مبررًا لأن يعاملهم به؛ فقد قاسم عمرو بن العاص واليه في مصر وسعد بن أبي وقاص واليه في الكوفة، كما ضم مال أبي هريرة واليه في البحرين»[(١)].

أقول: في هذا الكلام نظرات:

الأولى: أن عثمان رضي الله عنه فهم الحكم على أساس هذا التصور، كما فهم أخواه عمر وأبو بكر رضي الله عنهما.

وإذا كان عثمان قد ولى أحدًا من قرابته؛ فلكفاءتهم التي قلَّ أن تتوفر في غيرهم أولًا.

وثانيًا: فلا يعرف بطن من بطون قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس؛ لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد[(٢)].

وكذلك استعمل منهم أبو بكر، وعمر، وسيأتي استكمال هذا في موضعه.

---

(١) «العدالة» (ص١٥٨)، ط. الثانية عشرة.

(٢) «العواصم من القواصم» (ص٨٨ - حاشية).

الثانية: إذا كان عمر قد أقام الحدَّ على ولده بل وصهره؛ فإنَّ الشيءَ من معدنه لا يُستغرب، فكذلك أخوه عثمان أقاد من نفسه -كما تقدم-، وأقام الحدَّ على أخيه لأمه وابن عمه الوليد بن عقبة[١] الأمير المجاهد الشجاع السخي.

والثالثة: في مقاسمة عمر لعماله في أموالهم؛ فإنَّ هذه دعوى عريضة لا أساس لها، ولم يفعل ذلك رسول الله، ولا أبو بكر، ولم يول عمر ومَنْ قبله إلَّا الأكفاء الأمناء رضي الله عنهم.

وقد ذكر ابن سعد في «طبقاته»[٢]: أن عمر قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله، منهم: سعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة.

ولم يذكر أي إسناد ولن يجد، وهذان أورع وأشرف وأنبل من أن يرتعوا في أموال المسلمين.

* **أما سعد بن أبي وقاص:**

فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، «وأحد الستة أهل الشورى، وكان مجاب الدعوة، مشهورًا بذلك، وهو أحد الفرسان الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ في مغازيه، وهو الذي كوَّف الكوفة، وتولى قتال فارس، وفتح الله على يديه القادسية، وكان أميرًا على الكوفة لعمر، ثم عزله، ثم أعاده، ثم عزله، وقال في مرضه: إن وليها سعد فذاك، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن عجز، ولا خيانة. ومناقبُه كثيرة جدًّا»[٣].

وقصته في «الصحيحين»: عن جابر بن سمرة قال: «شكا أهلُ الكوفة سعدًا إلى عمر رضي الله عنه، فعزله، واستعمل عليهم عمَّارًا، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلِّي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي!! قال أبو إسحاق: أما أنا -والله- فإني كنتُ أصلِّي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ ما أخرم عنها: أصلِّي صلاة العشاء فأركد في الأولين، وأحذف في الأخريين. قال: ذاك

---

(١) روى مسلم أن عثمان أقام الحد على الوليد، رقم: (١٧٠٧)، في الحدود.

(٢) (٤/ ٢٨٢).

(٣) انظر: «تهذيب التهذيب»: (٣/ ٢٨٤).

الظنُّ بك يا أبا إسحاق.

فأرسل معه رجلًا -أو رجالًا- إلى الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجدًا إلَّا سأل عنه، ويثنون معروفًا حتى دخل مسجدًا لبني عبس، فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة، يكنى: أبا سعدة، فقال: أما إذا نشدتنا؛ فإنَّ سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية.

قال سعد: أما -والله- لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياءً وسمعة؛ فأطل عمره، وأطل فقره، وعرِّضه بالفتن. فكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد»[1].

فهل مثل هذا الصحابي الجليل يتهمه عمر بأخذ ما ليسَ له من أموال المسلمين، أو التحايل في الوصول إلى الإثراء على حساب أموال المسلمين؟!! كلا، ثم كلا.

*** وأما أبو هريرة ﷺ:**

فهو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ، سيد الحفَّاظ الأثبات ﷺ.

قال الذهبي في «السير»[2]:

معمر، عن أيوب، عن محمد: «أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين، فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟! فقال أبو هريرة: فقلت: لستُ بعدو الله وعدو كتابه، ولكني عدو مَن عاداهما. قال: فمن أين هي لك؟! قلت: خيل نتجت، وغلة رقيق لي، وأعطية تتابعت. فنظروا فوجدوه كما قال، فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل، وقد طلب العملَ مَن كان خيرًا منك: يوسف ﷺ؟! فقال: يوسف نبي ابن

---

(١) أخرجه البخاري: (١٠)، كتاب الأذان: (٩٥)، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، حديث: (٧٥٥)، وأخرج مسلم نحوه في (٤)، كتاب الصلاة، حديث: (٤٥٣).

(٢) (٢/ ٦١٢).

نبي ابن نبي، وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثلاثًا واثنتين. قال: فهلَّا قلت: خمسًا؟ قال: أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم، وأن يضرب ظهري، وينتزع مالي، ويشتم عرضي».

قال الذهبي: «رواه سعد بن الصلت، عن يحيى بن العلاء، عن أيوب متصلًا بأبي هريرة.

وروى نحو هذه القصة ابن سعد[1]، وفيها: «فقبضها منه». وليس -والله- أبو هريرة بالخائن، ولا عمر بالظالم، ولكنه اجتهاد من عمر ﷺ يردع به العمال.

ولو كان أبو هريرة متَّهمًا عند عمر؛ لما رغب في توليته مرَّة أخرى، وقد روى نحو هذه القصة البلاذري، وفيها: «فكان يأخذ منهم ويعطيهم أفضل من ذلك»[2].

وذلك الظنُّ بهذا الخليفة العادل -رضي الله عنه وعن إخوانه الطيبين-.

*** وأما عمرو بن العاص:**

فهو الصحابي المجاهد، فاتح مصر وطرابلس، وأمير فلسطين والأردن في عهد عمر، ثم وجهه إلى مصر ففتحها، وبقي أميرًا عليها أيام عمر وسنين من عهد عثمان.

فلم يعزله عمر ﷺ لكفاءته العالية، ولم أرَ في أيِّ مصدر أنَّ عمر قاسمه ماله، وإنما تابعت هذه الدعوى؛ إبعادًا لأصحاب رسول الله ﷺ عن التهم؛ وحمايةً لأعراضهم؛ وصيانةً لها من أن يرتع فيها مَن في قلبه مرض وغل من أهل الأهواء والجهل.

*** أما أبو هريرة:**

فقد ذكر ابن الجوزي أنه قدم على عمر من البحرين بمال، قال: «فقدمت عليه، فصليت العشاء معه، فلما رآني سَلَّمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: قدمتُ بخمسمائة ألف. قال: أتدري ما تقول؟ قلت: مائة ألف، ومائة ألف، ومائة

---

(١) «الطبقات»: (٤/ ٣٣٥).

(٢) «فتوح البلدان» (ص٩٣).

ألف، ومائة ألف حتى عددت له خمسًا . قال: إنك ناعس، ارجع إلى بيتك فنم، ثم اغد عليَّ. قال: فغدوتُ عليه، فقال: ما جئتَ؟ قلت: خمسمائة ألف. وقال: أطيب؟ قلت: نعم، لا أعلم إلَّا ذلك. فقال للناس: إنه قدم عليَّ مال كثير، فإن شئتم إن نعد لكم عدًّا، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلًا. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيتُ هؤلاء الأعاجم يدوِّنون ديوانًا؛ يعطون الناس عليه. فدوَّن الديوان؛ ففرض للمهاجرين في خمسة آلاف وللأنصار في أربعة آلاف، وفرض لأزواج النبي ﷺ في اثني عشر ألفًا»[1].

وأورد ابن الجوزي في كتابه «تاريخ عمر»[2]: عن أبي هريرة ﷺ يقول: «قدمتُ على عمر بن الخطاب من عند أبي موسى الأشعري بثمانمائة ألف درهم، فقال لي: بماذا قدمت؟ قلت: إنما قدمت بثمانمائة ألف درهم. قال: إنما قدمت بثمانين ألف درهم. قال: قلت: إنما قدمتُ بثمانمائة ألف درهم. قال: ألم أقل لك إنك يماني أحمق، إنما قدمت بثمانين ألف درهم. فعددت مائة ألف، ومائة ألف حتى عددت له ثمانمائة ألف، فقال: أطيِّبٌ ويلك؟!! قلت: نعم. فبات عمر ليلته أرقًا حتى نودي لصلاة الصبح . . ». وذكر تمام القصة.

وأنت ترى أنه ليس للقصتين إسناد؛ فإن كان المرءُ لا بدَّ متحدِّثًا بروايات بدون أسانيد عن أصحاب رسول الله ﷺ الكرام؛ فلا يذكر منها ما فيه ثلبهم وانتقاصهم، والأولى به إن كان متحدِّثًا عنهم؛ فليذكر ما فيه محاسنُهم، وما يليقُ بمكانتهم وينسجم مع أخلاقهم وواقعهم الوضَّاء المشرق ﷺ، مثل هاتين القصتين وما يشابهما -فرضي الله عنهم وأرضاهم، وحشرنا في زمرتهم-.

قال سيد:

«ولقد كان قوام تصوُّر الحكم في نفس عمر باختصار هو: الطاعة، والنصح في حدود الدين من الرعية، والعدل والحسنى كذلك من الراعي.

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٤/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) أورده ابن الجوزي في «تاريخ عمر بن الخطاب» (ص١٢٢).

ولقد قبل من رجل من رعيته أن يقول له: لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا. فأقرَّ بذلك مبدأ حق الرعية في تقويم الراعي.

كما خطب الناس يومًا فقال: إني لم أستعمل عليكم عمَّالي ليضربوا أبشاركم، وليشتموا أعراضكم، وليأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامل بمظلمة؛ فلا إذن له عليَّ؛ ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه. فأقرَّ بذلك حدود الحاكم على الناس لا يتعداها»[1].

* **أقول:**

١- ما كان عند عمر من تصوُّر للحكم فإنه عند أخيه عثمان رضي الله عنهما: الطاعة والنصح من الرعية في حدود الدين، والعدل والحسنى كذلك من الراعي؛ فما كان عثمان غافلًا عن هذا التصور، وما ظلم أحدًا من رعيَّته في دينٍ، ولا عرض، ولا مال.

فقد كان رضي الله عنه بارًا، عادلًا، خليفة راشدًا كأخيه عمر رضي الله عنه؛ عمر بعدله وقوَّته وهيبته، وعثمان بلينه ولطفه وعدله.

٢- قول سيد: «ولقد قبل من رجل من رعيته أن يقول له: لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بسيوفنا».

فلا أدري كيف يقبل مسلم عاقل مثل هذا الكلام الثوري الذي يؤدِّي إلى الفوضى، وسفك الدماء، وضياع الإسلام دينًا ودولة؛ إن أصحاب رسول الله ﷺ أعقلُ وأسمى أخلاقًا، وأشد وعيًا لتوجيهات رسول الله ﷺ التي تحضهم على طاعة أولي الأمر، والصبر عليهم ولو جاروا ممن هو دون عمر رضي الله عنه؛ فكيف بمثل عمر رضي الله عنه.

معقول! أن يضع عمر نصب عينيه قول رسول الله ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف».

وقوله: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره، إلَّا أن يؤمر

---

(١) «العدالة» (ص١٥٨).

بمعصية، فإن أُمر بمعصية؛ فلا سمعَ ولا طاعة».

فيقول لهم: «أطيعوني إن أطعتُ اللهَ، فإن عصيتُه؛ فلا طاعةَ لي عليكم». أي: في المعصية، وتبقى طاعته وطاعة الأمراء فيما يأمرون به من طاعة اللَّه، لا كما يفهم الخوارج أنه بمجرَّد أن يقع في معصية أي معصية؛ فقد سقط عنهم حق طاعته، فوجب إسقاطه.

على كل حال: هذا الكلام لم يثبت، ولم أقف له على إسناد، وفي الوقت نفسه معناه غيرُ لائق بأدب الصَّحَابة، وفقههم، وتوقيرهم لعمر رضي الله عنه؛ وعمر رضي الله عنه في غاية العدل والاستقامة، لا خوفًا من السيوف والرماح، وإنما ذلك منه خوفًا من اللَّه ومراقبة لله، ولو كان ذلك العدلُ منه خوفًا من الناس؛ لما كان له ولا لعدله كبير قيمة ولا منزلة عند اللَّه، ولا عند الناس.

وإذا كان قد ورد عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ما استمدَّاه من قول رسول اللَّه ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»، و: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

فإن لعثمان رضي الله عنه من الأقوال والمواقف ما ينظمه معهما في سلسلة الخلفاء الراشدين المهديين:

فقد روى عبد اللَّه بن أحمد في «زوائد المسند»: عن سويد: ثنا إبراهيم بن سعد: حدثني أبي: عن أبيه قال: قال عثمان رضي الله عنه: «إن وجدتم في كتاب اللَّه عز وجل أن تضعوا رجلي في القيد فضعوها»[1].

قال سيد:

«ولشعوره العميق بتبعات الحكم لم يشأ أن يحملها اثنان من أسرة الخطاب؛ فمنع أن يكون ابنه مرشحًا لها، وإن جعله من أهل الشورى، وقال قولته المشهورة التي تنطق بحقيقة تصوُّره للخلافة: لا أربَ لنا في أموركم، وما حمدتها؛ فأرغب

---

(۱) «مسند أحمد» (۱/ ۷۲)، حديث (٥٢٣)، وصَحَّحَه أحمد شاكر.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (۷/ ۲۲۷)، قال: رجاله رجال الصحيح.

أقول: في إسناده سويد بن سعيد، صدوق تغيَّر.

فيها لأحدٍ من أهل بيتي؛ إن كان خيرًا؛ فقد أصبنا منه، وإن كان شرًّا؛ فحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجلٌ واحد»[١].

* **أقول:**

وكذلك عثمان رضي الله عنه يشعر بتبعات الحاكم، فلم يرشح للخلافة أحدًا من أبنائه، ولا من أقاربه، ولا عقد العهد لأحد منهم.

ولم يقل «سيد» هذا الكلام مدحًا لعمر، ولكنه تعريض بعثمان؛ إذ يرى أنه مكَّن لبني أميَّة، ومهَّد لقيام ملكهم، فهو يقول: «كانت الولايات تُغْدَقُ على الولاة من قرابة عثمان، ومنهم معاوية الذي وسع عليه في الملك، فضَمَّ إليه فلسطين وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومَهَّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة علي»[٢].

* * *

---

(١) «العدالة» (ص١٥٩)، و (ص١٨٦)، ط. الخامسة.

(٢) «العدالة» (ص١٥٩)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٨٧)، ط. الخامسة.

الفصل العاشر: اتهام سيد لعثمان بأنه باكر الإسلام الناشئ بالتمكين للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام

ويقول:

«ولقد كان من جرَّاء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث . . .»[١] إلخ.

ويقول:

«مضى عثمان إلى رحمة ربِّه وقد خلَّفَ الدولة الأموية قائمة بالفعل؛ بفضل ما مكَّن لها في الأرض وبخَاصَّة في الشام، وبفضل ما مَكَّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام من إقامة الملك الوراثي، والاستئثار بالمغانم والأموال»[٢].

* أقول:

لو جهد الخميني وغلاة الروافض في الطعن على عثمان لما استطاعوا أن يقولوا أشدَّ من هذه المطاعن في الخليفة الراشد المظلوم.

وما أظنُّ «سيدًا» يقلُّ حقدًا وبغضًا لبني أمية عن أشدِّ الغلاة؛ فترى عبارته تنضح بذلك، ونعوذ بالله من هذا الداء!! ألم يقل رسول الله ﷺ عنهم: «لا يزال الإسلام عزيزًا ما ولي أمرُ هذه الأمة اثنا عشر خليفة»؟!!

قال ابن كثير: «وفيها -أي: في سنة ثلاث وتسعين- افتتح محمد بن القاسم -وهو ابن عم الحجاج بن يوسف- مدينة الدبيل وغيرها من بلاد الهند، وكان قد ولَّاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة، فسار في الجيوش، فلقوا الملك داهر -وهو ملك الهند- في جمع عظيم ومعه سبعة وعشرون فيلًا منتخبة،

---

(١) «العدالة» (ص١٦١)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٨٧)، ط. الخامسة.

(٢) «العدالة» (ص١٦٠).

فاقتتلوا فهزمهم اللَّه، وهرب الملك داهر، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خَلْق كثير جدًّا، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل الملك داهر وغالب من معه، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه.

ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكبرج وبرها، ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثرة من الجواهر والذهب وغير ذلك.

فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلَّا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها؛ وقد أذلوا الكفرَ وأهلَه، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لا يتوجَّه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلَّا أخذوه؛ وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر اللَّه بهم دينَه.

ف: «قتيبة بن مسلم» يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفًا وأموالًا كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده»[(١)].

قارن بين هذا الكلام المنصف الذي يوضِّحُ عزة الإسلام ومكانة بني أمية الذين أعزَّ اللَّه بهم الإسلام، قارن بينه وبين كلام سيد قطب الآتي:

«لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح؟! ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية؛ لكانت أيام أميَّة كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير»[(٢)].

وسوف يتبدَّد هذا الخرص والخبط الذي يدور في دوامته «سيد قطب»، ستتبدد هذه الأوهام والمزاعم التي لا يسندها عقل ولا نقل حين يعلم القارئ أن عثمان والأمة وبني مروان أنفسهم ما كان يدور في خلدهم شيء من هذا الأوهام التي ملأت دماغ «سيد قطب» حول عثمان وبني أمية.

---

(١) «البداية والنهاية» (ج ٩، ص٨٧)، ط. السعادة.

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٤)، ط. الخامسة.

فقد روى البخاري من طريق: هشام بن عروة، عن أبيه قال: أخبرني مروان ابن الحكم قال: «أصاب عثمان بن عفان ﷺ رعاف شديد سنة الرعاف، حتى حبسه عن الحج وأوصى، فدخل عليه رجلٌ من قريش قال: استخلف. قال: وقالوه؟! قال: نعم. قال: ومَن؟! فسكت، فدخل عليه رجلٌ آخر -أحسبه: الحارث-، فقال: استخلف. فقال عثمان: وقالوا؟! فقال: نعم. قال: ومن هو؟! فسكت، قال: فلعلهم قالوا: إنه الزبير؟ قال: نعم. قال: أما -والذي نفسي بيده- إنه لخيرُهم ما علمت، وإن كان لأحبهم إلى رسول الله ﷺ».

وروى من طريق أبي أسامة، عن هشام، أخبرني أبي: سمعت مروان بن الحكم: «كنت عند عثمان أتاه رجل، فقال: استخلف. قال: نعم، الزبير. قال: أما -والله- إنكم لتعلمون أنه خيركم ثلاثًا»[1].

خليفة طاهر مؤمن، ومجتمع طاهر مؤمن لا يدور في خلدهم حول الاستخلاف وغيره إلَّا ما كان يدور في عهد عمر ﷺ من أهمية الاستخلاف، بل تجاوز الأمر ذلك إلى ترشيح رجل معين هو في نظرهم أفضل الصحابة الموجودين.

فطابق ذلك ما في نفس الخليفة عثمان ﷺ، فيدلي بشهادته مؤكِّدًا صواب اختيارهم وترشيحهم.

ومن يحثه على الاستخلاف وتنفيذ رغبة الأمة؟!! إنه مروان بن الحكم وأخوه.

فأين التمكين لبني أمية؟!! وأين هي الدولة الأمويَّة القائمة بالفعل؟!!

ولما ثار أهل الفتنة على عثمان كان أشد المحرِّضين والمتآمرين وأقواهم هو محمد بن أبي حذيفة الأموي، ولما استشهد عثمان تمت البيعة في العالم الإسلامي إلَّا الشام لعلي بن أبي طالب الهاشمي لا الأموي.

وقد عرضت على غيره كطلحة بن عبيد الله التيمي، والزبير بن العوام

---

(١) كتاب «المناقب» حديث: (٣٧١٧-٣٧١٨).

الأسدي، ولم تعرض على أحد من بني أمية؛ فأين التمكين لبني أمية؟!!

وهناك خبرٌ مضمونُه: أن عثمان كتب العهد لعبد الرحمن بن عوف:

قال ابن شبة[١]: حدثنا إبراهيم بن المنذر قال: حدثنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني ابن لهيعة، عن يحيى بن سعيد، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أزهر، عن أبيه، عن جدِّه: «أن عثمان ﷺ اشتكى رعافًا، فدعا حمران، فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدي. فكتب له.

فانطلق حمران، فقال: لي البشرى؟ قال: لك البشرى، وذاك ماذا؟ قال: إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده. فأقبل عبد الرحمن إلى عثمان، فقال: أكان يصلح لك أن تكتب لي العهد من بعدك؛ والله يعلم أني أخشى أن يحاسبني في أهلي ألَّا أكون أعدل بينهم، فكيف بأمة محمد؟!!

فقال عثمان ﷺ: عزمتُ عليك أحُمران أخبرك؟! قال: نعم. قال: يا حمران، فأعاهد الله ألا تساكنني أبدًا، فأخرجه، وأما أنتَ يا أبا محمد، فهل وليتني هذا الأمر يوم وليته وأنت تقدر على أن تصرف ذلك إلى نفسك، أو توليه مَنْ بدا لك، وفي القوم من هو أمس بك يومئذ رحمًا مني إلَّا رجاء الصلة والإحسان فيما بيني وبينك؟!!

فقال عبد الرحمن: وليتك ما وليتك، والله يعلم أني قد اجتهدت، ولم آلُ أن أجد خير عباده، أما أنا فكان يعلم الله موضعي ما لم أكن لأليها، وأما أنا فاجتهدت لأمة محمد، فوليت أمرهم خيرهم، فإذا سألني؛ قلتُ: يا رب، وليت أمرهم خيرهم (فيما) أعلم.

قال عثمان: فاجتهدت أنت لنفسك، وحرصت وأنا -والله- ما آلو أن أجتهد وأحرص في أفضل من أعلم، والله لا أفتك هذا من رقبتك أبدًا.

فلما رأى ذلك عبد الرحمن انصرف، فقام بين المنبر والقبر فدعا، فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إيَّاي ما ولاني فأمتني قبل عثمان، فلم يمكث إلَّا ستة

---

(١) «أخبار المدينة»: (٣/ ٢٤٧-٢٤٨).

أشهر حتى قبضه الله»[1].

هذا إن ثبت فيحتمل أن عثمان ﷺ عرض الأمرَ على الزبير، فرفض أن يكون خليفة؛ لأنه كان يرفض الولايات من أيام عُمر، ثم ترجَّح له أن يكتب لعبد الرحمن، ويكتم ذلك عنه.

وفي هذا الخبر: ثناء عبد الرحمن على عثمان في آخر حياته، وأنه خيرُ أصحاب محمد بعد أبي بكر وعمر، وفيه ثناء عثمان على عبد الرحمن، واعتقاده أنه أفضل من يعلم.

وهذه النصوص من أعظم الشواهد: أن الأمة في عهد عثمان لم تبعد عما كانت عليه في عهد عمر، وأنهم خير القرون كما شهد لهم رسول الله ﷺ، وأنَّ تصوُّر حقيقة الحكم لا يزال كما هو في عهد عمر لم يتغيَّر، لا في أذهان الأمة، ولا في ذهن عثمان، ولا في ذهن أحد من بني أمية، ولا يقول بخلاف ذلك إلَّا أهل الأغراض والأحقاد من الروافض، ومَن سار على دربهم من أهل الفتن.

* * *

(١) «أخبار المدينة»: (٣/ ٢٤٧-٢٤٨).

الفصل الحادي عشر: اتهام عثمان بأن تصوره لحقيقة الحكم قد تغير وأنه يحمل قرابته على رقاب الناس

قال سيد قطب:

«هذا التصوُّر لحقيقة الحكم قد تغيَّر شيئًا ما بدون شك على عهد عثمان، ولقد كان من سوء الطالع: أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخٌ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام، وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان، وكيد أمية من ورائه.

فهم عثمان -يرحمه الله- أنَّ كونه إمامًا يمنحه حريَّة التصرُّف في مال المسلمين بالهبة والعطية؛ فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة: (وإلَّا، ففيم كنت إمامًا؟!). كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية -من قرابته- على رقاب الناس، وفيهم الحكم طريد رسول الله لمجرَّد أنَّ من حقِّه أن يكرم أهله، ويبرهم، ويرعاهم»[1].

*** أقول:**

هذا أسلوب إنسان أسلمَ نفسه للروايات الباطلة التي افتعلها الروافض وأعداء هذا الخليفة الراشد والشهيد المظلوم، ولو زمَّ «سيد قطب» نفسه بزمام تقوى الله ومراقبته، وبزمام العدل والإنصاف، وبزمام منهج أهل السنة والحق؛ لما استطال هذه الاستطالة على هذا الخليفة المؤمن الراشد، والشهيد المظلوم.

---

(١) (ص١٨٦) «العدالة الاجتماعية»، الطبعة الخامسة.

وقال في ط. الثانية عشرة (ص١٥٩) ما يلي:

«هذا التصوُّر لحقيقة الحكم قد تغيَّر شيئًا ما دون شكٌ على عهد عثمان، وإن بقيَ في سياج الإسلام، لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخٌ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أن طبيعة عثمان الرخيَّة، وحدبه الشديد على أهله قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصَّحَابة من حوله، وكان لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيرًا».

أهكذا يكون الإنصاف والأدب والاحترام مع ذي النورين، ومن يستحيي منه محمد رسول اللَّه، وملائكة الرحمن؟!!

أيسكت «سيد قطب» على كفر غلاة الروافض والباطنية، ولا تكفيه هذه المداهنات والمجاملات مع أعداء اللَّه، ولا يتَّسعُ صدرُه لأصحاب رسول اللَّه ﷺ، فيسكت كما رأى أهل السنة من السكوت عما شَجَرَ بين أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وحمل تصَرُّفات من أخطأ منهم على الاجتهاد.

هذا هو موقف أهل الحق فيمن هو دون عثمان الإمام البار الراشد، وكل أصحاب رسول اللَّه بار راشد.

يقول سيد:

«هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغيَّر شيئًا ما دون شك على عهد عثمان، وإن بقي في سياج الإسلام».

*** ثم يبين أسباب هذا التغيُّر بقوله:**

١- «لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخٌ كبير».

أي: أنه كان خرفًا، وهذا الخرف يسهل انقياده للمتلاعبين به وبأمور الدولة والمسلمين، فلا ندري كيف رضيت الأمة كلها وأجمعت على اختيار هذا الشيخ الكبير، ثم أسلمته إلى مروان، فتغلب مروان هذا على الأمة كلها، ومنهم علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف .... وسائر الأبطال الذين فتحوا الدنيا، وأطاحوا بعروش القياصرة والأكاسرة في هذه الأمة التي يسيرها وخليفتها ويصرف شئونها مروان، وينحرف بها؟!!!

٢- «وبأن من ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف».

ومعنى هذا: أن التصور لحقيقة الحكم عند عثمان لم يتغيَّر شيئًا ما، وإنما تغيَّر تغيرًا كبيرًا تبعًا لتصرف مروان الكثير الانحراف.

٣- «وبأن طبيعة عثمان كانت رخية، فيسهل انقياده لمروان وغيره من المتلاعبين به».

٤- «وبأن حدبه كان شديدًا على أهله».

أي: أنه رجلٌ عاطفي تقودُه العواطف العمياء إلى تحقيق مآربهم وطموحاتهم إلى الأموال والمناصب التي لا يستحقونها.

وليس عند سيد شك في أن تصوُّر عثمان لحقيقة الحكم قد تغيَّر؛ فهو على يقين كامل بأن ذلك قد وقع..

فما هي البراهين القاطعة لديه؟!! إنها روايات الروافض.

أما مروان عنده فكأن الأمة قد سلَّمت بأنه مجرم أثيم، فلا خلق له ولا دين؛ فلذا يجعل منه سُلَّمًا للطعن في الخليفة الراشد عثمان، وكأنَّ كل الناس سيغمضون أعينهم، ويقولون له: صدقتَ وبررت.

إنَّ مروان هذا الذي يطعن فيه «سيد» لهذه الأهداف لا يحمل له المسلمون المنصفون هذه الصورة الشوهاء، بل هو مسلم عدل، يروي له أئمَّة الإسلام، ويعتمدون أقواله في الفقه؛ وقد روى عنه عددٌ من الصحابة وخيار التابعين، وروى له من الأئمة: البخاري، والباقون سوى مسلم، واعتمد الإمام مالك على حديثه ورأيه[1].

وأما ما يتعلَّق بالحكم؟

فالجواب: ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرُه في دحض الأباطيل حوله:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في جوابه على الرافضي في زعمه أن عثمان آوى عمه الحكم بن أبي العاص:

«كان من مسلمة الفتح، وكانوا ألفي رجل.. إلى قوله: ولم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة في حياة النبي ﷺ، فإن كان قد طرده؛ فإنما طرده من مكة لا من المدينة، ولو طرده من المدينة؛ لكان يرسله إلى مكة؛ وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه، قالوا: هو ذهب باختياره، وقصة نفي الحكم ليست في الصحاح، ولا لها إسناد يعرف به أمرها»[2].

---

(١) انظر: «هدي الساري» (٢/ ٩٢).

(٢) «المنهاج» (٦/ ٥٦٢).

وقال أيضًا بعدما سبق :

«وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه كما تقدَّم، وقالوا : هو ذهب باختياره، والطرد هو النفي . . .

إلى أن قال : وإذا كان النبي ﷺ قد عزَّرَ رجلًا بالنفي ؛ لم يلزم أن يبقى منفيًّا طول الزمان ؛ فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيًّا دائمًا، بل غاية النفي المقدر سنة، وهو نفي الزاني والمخنَّث حتى يتوب من التخنيث ؛ فإن كان تعزير الحاكم لذنب حتى يتوب منه، فإذا تاب ؛ سقطت العقوبة عنه، وإن كانت على ذنب ماضٍ ؛ فهو أمر اجتهادي، لم يقدر فيه قدر، ولم يوقَّت فيه وقت»[1] .

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا :

«وقد رَوَوا أن عثمان سأل النبي ﷺ أن يرده، فأذن له في ذلك، ونحن نعلم أن ذنبه دون ذنب عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقصة عبد الله ثابتة معروفة بالإسناد الثابت، وأما قصة الحكم فعامَّة من ذكرها إنما ذكرها مرسَلة، وقد ذكرها المؤرِّخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه، وقلَّ أن يسلم لهم نقلهم من الزيادة والنقصان، فلم يكن هنا نقل ثابت يوجب القدح فيمن هو دون عثمان»[2] .

وقال -أيضًا- :

«والمعلوم من فضائل عثمان، ومحبة النبي ﷺ له، وثنائه عليه . . .

إلى أن قال : وأمثال ذلك مما يوجب العلم القطعي بأنه من كبار أولياء الله المتقين -رضي الله عنهم ورضوا عنه-، فلا يدفع هذا بنقل لا يثبت إسنادُه، ولا يعرف كيف وقع ! ! ويجعل لعثمان ذنب بأمر لا يعرف حقيقته، بل مثل هذا مثل الذين يعارضون المحكم بالمتشابه ؛ وهذا من فعل الذين في قلوبهم زيغ، الذين يبتغون الفتنة، ولا ريب أن الرافضة من شرار الزائغين الذين يبتغون الفتنة، الذين

---

(١) «المنهاج» (٦/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٢) «المنهاج» (٦/ ٢٦٦-٢٦٧).

ذمَّهُم اللَّه ورسوله.

وبالجملة: فنحن نعلم قطعًا أن النبي ﷺ لم يكن يأمر بنفي أحد دائمًا، ثم يرده عثمان معصيةً لله ورسوله، ولا ينكر ذلك عليه المسلمون»[١].

بل قد روى ابن جرير -رحمه الله- في نقله دحض عثمان لشبه أهل الفتن:

«... وقالوا: إني رددت الحكَم وقد سيره رسول اللَّه ﷺ، والحكم مكي، سيره رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم رده رسول اللَّه ﷺ، فرسول اللَّه ﷺ سيره، ورسول اللَّه ﷺ ردَّه، أكذلك؟!! قالوا: اللهمَّ نعم»[٢].

* * *

---

(١) «المنهاج» (٦/ ٢٦٨).

(٢) «التاريخ» (٤/ ٣٤٧).

الفصل الثاني عشر: إظهار عثمان في صورة ظالم متجبر

قال «سيد» :

«منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم، فلما أصبح الصباح؛ جاءه زيد بن أرقم خازن مال المسلمين وقد بدا في وجهه الحزن، وترقرقت في عينيه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولما علم منه السبب، وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين؛ قال مستغربًا: أتبكي يا بن أرقم أن وصلتُ رحمي؟!!

فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: لا يا أمير المؤمنين، ولكن أبكي؛ لأني أظنك أخذت هذا المال عوضًا عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ، والله لو أعطيته مائة درهم لكان كثيرًا.

فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيقُ ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: ألق بالمفاتيح يا بن أرقم، فإنَّا سنجد غيرك»[1].

انظر إلى هذا الرجل الذي يتقبل بكل لهف هذه المطاعن الفاجرة في رجلٍ من أعظم رجال الإسلام، ومن أعظم أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أمسِّ الناس به رحمًا، وممن بذل الكثيرَ والكثير لإعلاء كلمة الله ونصرة الله ورسوله، ونصرة الإسلام؛ فلم يبق لهذا الرجل العظيم الخليفة الراشد في نفس «سيد قطب» ومشاعره أي رصيد من الاحترام وحسن الظن يكذب به هذه المطاعن الفاجرة، ويدفعها عن عرضه الكريم.

أين مصدر هذا الإفك؟!!

---

(١) (ص١٥٩) «العدالة»، (ص١٨١-١٨٧)، ط. الخامسة.

لماذا لا يذكره «سيِّد»؛ ليعرف المسلمون من أين يستقيه؟!!

أين أسانيدها؟!!

وأين التحرِّي لأجل حماية عرض من أشرف الأعراض، وأحقها بالتحرِّي والحماية والاستماتة في الذبِّ والدفع عنه؟!!

صدَّق «سيد قطب» هذا الإفك، واستروح إليه بدل أن يدفعه، أو يعتذر، أو يتأول له إن كان قد خدع بهذا الكذب، لم يتحركْ ضمير عثمان لحزن زيد بن أرقم، ولم يهيج مشاعره الإسلامية بكاؤه، فيتذكَّر ويعتبر، ويرجع إلى اللَّه في نظر «سيد قطب».

بل بلغ في قسوة القلب وبرودة المشاعر أن يستغرب هذا البكاء، ويقول مغالطًا: «أتبكي يا بن أرقم أن وصلت رحمي؟!!».

قال «سيد» متفاعلًا مع هذا المشهد الذي تتفطَّر له الأفئدة، وقد بلغ منه كل مبلغ: «فرَدَّ الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف». أي: أن عثمان قد فقد روح الإسلام المرهف!!

«ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضًا عما كنت أنفقته في سبيل اللَّه في حياة رسول اللَّه، واللَّه لو أعطيته مائة درهم لكان كثيرًا».

فلم يُجد الحزن ولا البكاء، ولا هذه الموعظة العظيمة التي تلين لها الصخور؛ لأن عثمان لم يبق في نفسه شيء يؤثر فيه، ويذكره باللَّه، أو يخاف به على عمله العظيم أن يحبط؛ لأنه فقد روح الإسلام المرهف في نظر «سيد»!!

بل بدل أن يتعظ ويتذكر أخذته العزَّة بالإثم، فغضب على الرجل الذي لا يطيقُ ضميرُه هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: «ألق بالمفاتيح يا بن أرقم، فإنَّا سنجد غيرك»!!

كأن «سيدًا» يقول: يا للجبروت!! ويا للقسوة!! ويا للجرأة في عثمان!! هكذا يصدر هذا التصرف من هذا الشيخ الكبير الذي فقد روح الإسلام المرهف، ونسي طبيعته الرخية، فوصل إلى هذا الحد المرعب، وسيبحث عن خازن جامد المشاعر؛ فلا يستشعر روح الإسلام المرهف، ويطيق ضميره الخرب هذه

التوسعات في أموال المسلمين لأقارب عثمان!!

انظر إلى القصة تقول: «إن عثمان لو كانت عطيته مائة درهم لكان كثيرًا».

حاشى زيد بن أرقم أن يصل إلى هذه الدرجة من الشغب، وهو يعلم أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يعطي بسخاء مما أثار بعض شباب الأنصار تارة، وذا الخويصرة تارة أخرى، وقد أعطى أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بسخاء، ولا شك أن ذلك كان يغيظ أمثال ذي الخويصرة.

واللَّه لو أعطى عثمان بسخاء؛ لكان بارًّا راشدًا، وما أظن زيد بن أرقم الصحابي الجليل يستنكر ذلك ولا غيره من الصحابة الأجلاء، غير أن تلاميذ ذي الخويصرة والروافض لا يزالون يحترقون إلى اليوم من خلافة عثمان نفسها؛ فضلًا عن عطائه للمستحقين من الصحابة وغيرهم.

وهناك قصة تبيِّن أن هذه القصة التي تعلق بها «سيد قطب» قصة باطلة، وهي ما رواه ابن شبة في «أخبار المدينة»[1]: حدثنا محمد بن سلام[2]، عن أبيه[3] قال: قال عبد اللَّه بن خالد لعبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما: «كلِّم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه؛ فإن لي عيالًا، وعليَّ دَينًا. فقال: كلِّمْهُ؛ فإنك تجده برًّا وصولًا. فكلمه فزوجه ابنته، وأعطاه مائة ألف، فولدت له عثمان بن عبد اللَّه، فكان لا يكلم إخوته كِبرًا بعثمان».

وروى الفاسي في «العقد الثمين»[4] هذه القصة من طريق الزبير بهذا الإسناد، وفيها: «كلم لي أمير المؤمنين؛ فإنَّ لي عيالًا ودَينًا. قال: كلمه، فإنك ستجده برًّا واصلًا...» إلى آخر القصة.

* وفي هذه القصة ما يبيِّن زيف تلك القصة من جهات:

الأولى: أن في هذه القصة أنَّ العطاء كان مائة ألف، وفي تلك مائتي ألف.

---

(١) (٣/ ٢٤٠).

(٢) محمد بن سلام، قال فيه صالح بن محمد جزرة الحافظ: «صدوق». وقال أبو الفضل الرقاشي: «أحاديث محمد بن سلام عندنا مثل حديث أيوب عن محمد، عن أبي هريرة». تاريخ بغداد (٥/ ٨٢٣)؛ وردَّ أبو خيثمة حديثَه؛ لأنه يُرمى عنده بالقدَر. «تاريخ بغداد» الموضع المشار إليه.

(٣) أما أبوه فلم أقف له على ترجمة، لكن القصة أقرب إلى أخلاق الصَّحَابة وسيرتهم.

(٤) (٥/ ١٣٥).

والثانية: أن في تلك أن العطاء كان من عثمان لزوج ابنته الحارث بن الحكم- أي: شقيق مروان-، وهذا الحارث لم أجد له ذكرًا في كتب التراجم بعد بحثٍ في مصادر كثيرة، وله ذكرٌ في بعض متون البخاري.

والغرض من القصة بيان سيطرة بيت الحكَم على عثمان، واندفاع عثمان في تحقيق مآربهم إلى أبعد الحدود التي لا ترضي الله ولا المسلمين.

والثالثة: أنَّ في القصة الثانية أن عبد الله بن خالد على قرابته من عثمان كان يشكو دَيْنًا وعيالًا، ومع ذلك ما كان يجرؤ أن يشكو لعثمان هذه الأعباء التي أثقلت كاهله؛ فذهب يبحث عن واسطة يكلِّم له عثمان ﷺ، فشَجَّعَه هذا الواسطة -وهو عبد الله بن عمر- وكان أعرفَ بسجايا هذا الخليفة البار الراشد، فقال لابن خالد: «كلِّمْهُ؛ فإنك ستجده برًّا واصلًا». ولقد كَلَّمَهُ، فوجده كذلك.

الرابعة: أن تلك القصة تقول في أسلوب مثير: «منح زوج ابنته». أي: أنه أجزل له العطاء لأمرين: لأنه ابن الحكم أخو مروان، ولأنه زوج ابنته.

وهذه القصة أن عبد الله بن خالد لما كلم عثمان؛ تجاوب معه، وقام ببره على أحسن الوجوه التي يحمد عليها، وتذكر في محاسنه ﷺ: فزوجه ابنته، ووصله بما يعينه على زواجه، وعلى تسديد دَينه، وعلى نفقة عياله، وذلك مائة ألف، ولقد كان هذا القدْر قليلًا؛ لأن المال كان قد فاض في عهد عثمان إلى درجة عظيمة.

الخامسة: أن ابن عمر كان يرى عثمان في تصرفاته بارًّا واصلًا، وهو الذي لا يجامل ولا يحابي، ولم تمل به الدنيا، ولم يمل بها.

وقد كان صديقًا لعبد الله بن خالد هذا دهرًا طويلًا حتى مات في داره، ولو كان ممن يستحل أموال المسلمين؛ لما صادقه طوال حياته[1].

السادسة: في القصة الواهية من التزيد، ونسبة الشغب إلى زيد بن أرقم، وحاشاه ما قد عرفت.

وفيها: عدم مبالاة عثمان بالتذكير، وتصرفات لا تصدر إلَّا من شخص قد

---

(١) انظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٣/ ٨٩، ٢٧٨).

ضعف، أو زال إيمانه: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات:١٣]. وأعاذ الله عثمان المؤمن الشهيد من ذلك!!

السابعة: أن القصة الثانية تفيد أنه أعطاه مائة ألف، ولم تقل من بيت المال، ودون إثبات أنها من بيت المال خرط القتاد، لاسيما وعثمان كان جوادًا سخيًّا، معطاءً بارًّا وصولًا، فلا يتكامل بره ووصله إلَّا إذا كان عطاؤه من صلب ماله، ولا يَستكثرُ عليه ذلك إلَّا حَاقدٌ مغرِض.

* * *

الفصل الثالث عشر: اتهام عثمان بأنه قد توسع في المنح والعطايا

قال «سيد قطب»[١] :

«والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات؛ فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفل مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية، ولقد عاتبه في ذلك ناسٌ من الصحابة -على رأسهم علي بن أبي طالب-.

فأجاب: إن لي قرابةً ورحمًا.

فأنكروا عليه وسألوه: فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟!!

فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتها، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي.

فقاموا عنه غاضبين يقولون: فهديُهما -والله- أحبُّ إلينا من هديك.

نعم (وأحب إلى الإسلام، وأقرب إلى حقيقة الإسلام)[٢].

وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان، وفيهم معاوية الذي وسع عليه في الملك، فضم إليه فلسطين وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهَّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليٍّ، وقد جمع المال والأجناد.

وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله (الذي آواه عثمان، وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرِّف)[٣].

وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخوه من الرضاع ...» إلخ.

---

(١) «العدالة» (ص: ١٥٩)، ط. الثانية عشرة، و (١٨٧)، ط. الخامسة.

(٢) ما بين القوسين من «العدالة» (ص١٨٧)، ط. الخامسة.

(٣) ما بين القوسين في «العدالة» (ص١٥٩)، ط. الثانية عشرة.

* مناقشة هذا المقطع :

أولًا : لا أدري على أيٍّ منهج ارتكزت مناقشات «سيد قطب» للخليفة الراشد عثمان ﷺ؟!

ولا أدري هل خطر بباله قول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فإذا كان لابدَّ له من التشهير بهذا الخليفة الراشد، ولابدَّ له من الإعراض عن منهج أهل السنة والجماعة في السكوت عما جرى بين أصحاب رسول الله ﷺ، واعتبارهم مجتهدين فيما حدَث بينهم حتى من القتال، وإذا كان يرى أن لابدَّ له من الخوض في هذا الميدان على ما فيه من خطر وضلال؛ فلقد كان يجب عليه أن يتحلَّى بشيء من العدل والإنصاف؛ بناءً على قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]. وكان لابدَّ له إن كان مدفوعًا إلى هذه الحملات بسبب ضغط نفسي أو خارجي؛ أن يتبع المنهج العلمي في نقده[1] وبحثه ودراسته؛ خصوصًا وقد شاع في وقته احترام المنهج العلمي في البحث والدراسة؛ خصوصًا في مثل هذا الميدان الذي خاضه.

ثانيًا: نسأله -بناءً على ما أسلفناه- فنقول :

أين أدلتك وبراهينك على هذه الأمثلة الكثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسّعات؟!!

وهل تستطيع أنت أو أشد خصوم عثمان وإخوانه أن تثبتوا في ضوء المنهج العلمي شيئًا من هذه الاتهامات والادعاءات الظالمة؟!!

ثالثًا: زعمتَ أن عثمان منح الزبير ستمائة ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفل مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية.

١- فهل تستطيع إثبات هذه الدعاوي؟!!

---

(١) معلوم أنَّ لسيد قطب كتابًا في النقد الأدبي.

٢- ألا ترى أنَّ في دعواك هذه طعنًا في عثمان والزبير وطلحة إذا كان في عطائه لهما ابتزاز لأموال المسلمين؟!!

فإذا كانت حرامًا وظلمًا؛ فإنه لا يجوزُ لهما أن يقبلا هذا العطاء، فإنَّ فيه تعاونًا على الإثم والعدوان، وتعاونًا على ابتزاز أموال المسلمين ونهبها؛ وفتحًا لأبواب الفتن، وللطعن في الإسلام نفسه.

لقد دافع «سيد» عن أبي بكر وعمر فيما حصل بين أبي بكر وعمر من خلاف في خالد بن الوليد في شأن مالك بن نويرة، وتزوُّج خالد لزوجة مالك بعد قتله، وفي عزل عمر لخالد بعد ذلك.

ففسَّر «هيكل» وجهات نظر أبي بكر وعمر تفسيرًا سياسيًّا يناسب سياسة هذا العصر!!

فاستنكر «سيد» هذا التفسير من هيكل، فقال[1]:

«هذا هو التصوير الصحيح للأمر في نظر الدكتور هيكل!! وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه في جوِّ هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، وفي ظل هذه الضمائر المرهفة الحساسة الشديدة الحساسية من رجاله، ثم لا يرتفع ضميره هو وشعوره بتفسير الحوادث على هذا المستوى المستمد مباشرة من ملابسات السياسة في عصرنا المادي الحاضر، لا من روح الإسلام وتاريخه في تلك الفترة، إنما هذه سياسة أيامنا الحاضرة؛ تبرر الوسيلة بالغاية، وتهبط بالضمير الإنساني إلى مستوى الضرورات الوقتية، وتحسب هذا براعة في السياسة، ولباقة في تصريف الأمور.

وما أصغر أبا بكر في هذا التصوير الذي يقول الدكتور هيكل: إنه هو التصوير الصحيح. لولا أنَّ أبا بكر كان أكبر وأبعد من مدى المجهر الذي ينظر به رجل يعيشُ في عصرٍ هابط، فلا يستطيع إطلاقًا أن يرتفع إلى ذلك الأفق السامق البعيد، فضلًا عن الجهل الفاضح بأوليَّات الشريعة الإسلامية».

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٣٤)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٥٤)، ط. الخامسة.

ثمَّ ناقش «سيد قطب» هيكلًا مرة أخرى في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووبَّخه بمثل ما وبَّخه في حقِّ أبي بكر.

وهو كلامُ حقٍّ وصدْق، وأنا أؤيده فيه، ويؤيدُه كلُّ مسلم، ولكن ألا يرى «سيد» أنه قد نال من عثمان وإخوانه: طلحة، والزبير، ومعاوية، وغيرهم أشد وأنكى مما نال هيكل من أبي بكر وعمر.

*** ألا يحق لنا أن نقول لسيد كما قال لهيكل:**

«وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه في جوِّ هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، وفي ظل هذه الضمائر المرهفة الحساسة من رجاله، ثم لا يرتفع بضميره هو وشعوره بتفسير الحوادث عن هذا المستوى المستمد مباشرة (من أحقاد الروافض والاشتراكيين الثوريين، والمؤيد للثورة الفاجرة التي قادها اليهودي اللعين ابن سبأ)».

*** ويحقُّ لنا مرة أخرى أن نقول:**

«ما أصغر عثمان وإخوانه العظماء الكبار النبلاء في هذا التصوير الذي صورهم به «سيد قطب»؛ لولا أنهم كانوا أكبر وأبعد من مدى المجهر الذي ينظر به رجل يعيش في عصر هابط؛ فلا يستطيع إطلاقًا أن يرتفع إلى ذلك الأفق السامق البعيد، فضلًا عن الجهل الفاضح بمكانة أصحاب رسول الله ﷺ، وحقوقهم التي اعتبرها المسلمون من الأساسيات في عقائدهم، وفي ولائهم وبرائهم، وحبهم وبغضهم، واحتقار وتبديع وتضليل من ينال من أحد منهم، لاسيما الكبراء الذين أساءَ إليهم سيد قطب، وصَوَّرَهم ذلك التصوير القبيح المشوَّه».

وقال سيد بعد دفاعه الجيِّد عن أبي بكر وعمر:

«وبعد؛ فقد أسهبتُ في عرض هذا اللون من التفكير وتفنيده؛ لأصحح الخطأ العميق الذي يقع فيه مَن يريدون تصوير طرائق التفكير والشعور في عصر ارتفاع الروح الإسلامي على ضوء التفكير والشعور في عصرنا المادِّي البعيد عن ذلك الروح المرهف، وما يجرُّه هذا الخطأ من سوء الفهم لحقائق الضمير البشري وطاقته في السمو والحساسية.

وما أريد أن ألبس أولئك الرجال ثوبًا فضفاضًا، ولا أن أصورهم معصومين من كل ضعف بشري، ولكنما أريد أن أرد الثقة بالضمير البشري إلى نفوس الناس، كما أريد أن أصور هذه الفترة من حياة المسلمين في صورتها الصحيحة التي يستشعرها بقوة كل ضمير فيه استعداد للتطلع إلى هذا الأفق البعيد»[1].

*** أقول:**

ثم ماذا فعل «سيد» بعد ذلك؟ هل مضى في هذا التصحيح لهذا الخطأ العميق؟! أم أوقعَه التفكير والشعور في عصرنا المادي البعيد عن ذلك الروح المرهف في هوَّة أعمق وأبعدَ مما وصل إليه هيكل وأمثالُه في حقِّ الصدِّيق وعمر رضي الله عنهما؟!!

فهل من يهبط بعثمان وإخوانه الكرام إلى المستوى الهابط الذي صَوَّرَه سيد قطب يرى أنهم شاركوا الصدِّيق وعمر الفاروق في ارتفاع الروح الإسلام في ذلك العصر؟!!

أفمن يُصوِّرهم في تلك الصور المزرية يكون قد صَحَّح ذلك الخطأ وسوء الفهم عن ذلك الروح المرهف؟!!

أمن يصورهم في تلك الصورة الشوهاء يرد الثقة بالضمير البشري إلى نفوس الناس أم يقضي عليها ويصيب الأمة بالإحباط ؟!!

أمن يصور عهد عثمان وإخوانه وعماله الشرفاء في الصورة المظلمة التي صورها هذا الرجل يكون قد صَوَّر تلك الفترة من حياة المسلمين في صورتها الصحيحة التي يستشعرها بقوة كل ضمير فيه استعداد للتطلع إلى ذلك الأفق البعيد؟!!

٣- ألا يرى أنَّ هذا الزعم بأن عثمان أعطى مروان خُمس خراج إفريقية طعنًا في عثمان والصحابة الذين يقرُّونه من الأباطيل التي يتعلَّق بها أهلُ الأهواء في الطعن على أصحاب رسول الله ﷺ، ثمَّ أين إسنادها الذي يعتمد عليه الهائجون

---

(١) «العدالة» (ص١٣٥)، ط. الثانية عشرة، و «العدالة» (ص١٥٦-١٥٧)، ط. الخامسة.

على عثمان ﷺ؟!!

وقد ذكر ابن جرير[1] بإسناد فيه سيف بن عمر -وهو ضعيف-: «أن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح لما فتح إفريقية؛ قسم عبد الله ما أفاء الله عليهم على الجند، وأخذ خُمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان . . ووفد وفدًا فشكوا عبد الله فيما أخذ، فقال لهم: أنا نفلتُه، وكذلك كان يصنع، وقد أمرت له بذلك، وذاك إليكم الآن، فإن رضيتم فقد جاز، وإن سخطتم فهو رد.

وكتب إلى عبد الله بردِّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزله عنا؛ فإنَّا لا نريد أن يتأمَّر علينا، وقد وقع ما وقع، فكتب إليه أن استخلف على إفريقية رجلًا ممن ترضى ويرضون، واقسم الخمس الذي كنت نفلتك في سبيل الله، فإنهم قد سخطوا النفل، ففعل.

ورجع عبد الله بن سعد إلى مصر وقد فتح إفريقية، وقتل الأجل؛ فما زالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك أحسن أمة سلامًا وطاعة، حتى دبَّ إليهم أهل العراق، فلما دبَّ إليهم دعاة أهل العراق واستثاروهم؛ شقوا عصاهم، وفرَّقوا بينهم إلى اليوم».

وذكر لهم قصة مع أهل الأهواء، ثم مع هشام.

فالذي يعامل فاتح إفريقية هذه المعاملة؛ كيف يصدُق فيه ذلك الإفك بأنه أعطى مروان وهو نائمٌ في المدينة خمس خراج إفريقية؟!!

فهذه الحادثة إن صَحَّت؛ فإنها هي وأمثالها مما ينسجم مع سجايا عثمان وحسن أخلاقه وكريم شيمه، وتنسجم مع أخلاق وتصرفات أخويه أبي بكر وعمر -رضي الله عنهم أجمعين-؛ ومثلها يمكن التسامح في نقله بخلاف تلك المطاعن والمثالب الظالمة التي استروح إليها سيد وأكثرَ مِن تردادها.

وذكر ابن أعثم[2]: «أن عثمان ﷺ نشط لغزو إفريقية فاستشار الصحابة،

---

(١) «التاريخ»: (٤/ ٢٥٤).

(٢) «الفتوح» لابن أعثم (١/ ٣٥٧-٣٦١).

فشَجَّعُوه، فجَهَّز جيشًا من المدينة ومصر بقيادة عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح، فدارت معارك انتهت بالصلح بين الملك جرجين وبين عبد اللَّه على أن يدفع جرجين ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، على أنَّ عبد اللَّه يكف عنه، ويخرج عن بلده؛ فأخذ عبد اللَّه بن سعد منه هذا المال، فأخرج منه الخمس ليوجه به إلى عثمان، وقسَّم باقي ذلك في المسلمين».

قال: «ورجع عبد اللَّه بن سعد بالمسلمين إلى أرض مصر، وكتب إلى عثمان يخبره بفتح إفريقية وسلامة المسلمين، ووجه إليه بالخمس من أموال إفريقية، فقسَّمه عثمان في أهل المدينة، وحمد اللَّه ﷻ على ذلك؛ فله الحمد على ذلك دائمًا والشكر، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

هذا ما نقله هذا المؤرِّخ الشيعي، فلم يتجنَّ على عثمان، ولم يذكر أنه نفل عبد اللَّه بن سعد خمس الخمس.

وذكر الذهبي[1] مصالحة ابن سعد على المال، ولم يذكر تنفيل ابن سعد؛ وما ذكره أمثلُ وأشدُّ قربًا إلى واقع عثمان وشمائله الطيبة، وأبعد عن التهويش على أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

وأمَّا ما تزعمه القصة من أن عثمان أعطى طلحة مائتي ألف؛ فقد روى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال: «كان لعثمان على طلحة خمسون ألفًا، فخرج عثمان يومًا إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه. فقال: هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك»[2].

وروى بإسناده إلى الحسن: «أن طلحة بن عبيد اللَّه باعَ أرضًا له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إن رجلًا تتسق هذه عنده وفي بيته لا يدري ما يطرقه من أمر اللَّه ﷻ لغرير باللَّه سبحانه، فبات ورسوله يختلف بها في سكك المدينة يقسمها حتى أصبح، فأصبح وما عنده درهم».

(١) «عهد الخلفاء» (ص٣٢١)، ومثله البلاذري (ص٢٢٩).
(٢) «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٤٠٥).

فلا يبعد أن يكون راوي القصة قد سمع مثل هاتين الروايتين المشرفتين التي تدل كل واحدة منهما على كرم أصحاب رسول اللَّه، وبذلهم الأموال في ذات اللَّه، وتدل على شرفهم وكمال مروءتهم؛ فيخترع نقيضها للطعن فيهم، والحط من مكانتهم.

ألا ترى أنَّ الرواية الأولى تنص على أن عثمان تنازل عن ماله لطلحة الجواد الكريم، صاحب المروءة والبذل السخي؛ معونةً له على مروءته؟!!

والثانية: تنص على أن هذا المبلغ الكبير كان ثمنًا لأرض دفعه عثمان إلى طلحة، لا اختلاسًا من بيت مال المسلمين، أو نهبًا واغتصابًا؛ فما كان لطلحة أن يطيقها فتبيت عنده، فبادر إلى إنفاقها في سبيل اللَّه.

لماذا لا يبحث سيد عن هذه الصور المشرقة لأصحاب رسول اللَّه، فيسوقها للأجيال التي عاصرها لتعتز بها، وتتخذ منها أسوة؛ وليعيد الثقة إلى أبناء المسلمين بدينهم؛ لأنه أخرجَ هذه النماذج العليا من البشر؟!!

وأمَّا ما تزعمه القصة بأن عثمان أعطى الزبير ستمائة ألف؛ فهذا من الأكاذيب التي يسارعُ إلى تصديقها أعداء أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

ومما يؤكد كذبها: أن الزبير كان قد أخرج نفسه من الديوان استغناء وتعففًا؛ فكيف يخرج نفسه من الديوان، ثم يقبل مثل هذا العطاء المزعوم؟!!

* * *

الفصل الرابع عشر: رمي عثمان بالانحراف عن روح الإسلام

قال سيد قطب -كافأه الله بما يستحق-:

«ولقد كان الصحابة يَرَون هذا الانحراف عن روح الإسلام، فيتداعون إلى المدينة؛ لإنقاذ الإسلام؛ وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيَه من الخطأ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في ولايته الخلافة وهو شيخٌ موهون، تحيطُ به حاشية سوء من أمية»[1].

لقد رمى «سيد» عثمان بالانحراف عن روح الإسلام، ثم أدرك أن المسلمين سيصدمون بهذا الرمي الجريء، والطعن القادح في هذا الصحابي الجليل والخليفة الراشد، الذي يكنُّ له المسلمون كل احترام وإكبار؛ فاضطر إلى المخادعة والمصانعة وتهدئة المشاعر التي تصور أنها ستثور غضبًا لعثمان رضي الله عنه، فقال: «وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان».

ثم أصر على معاقبته ومحاسبته على الانحراف عن روح الإسلام، فجهر بإدانته، فقال: «ولكن من الصعب كذلك أن نعفيَه من الخطأ . . .» إلخ.

ما هذا؟!! وأي عاقل ينطلي عليه هذا التلاعب؟!!

---

(١) «العدالة» (ص١٨٧)، ط. الخامسة، و (ص١٥٩-١٦٠)، ط. الثانية عشرة.

ولقد تحايل سيد أو غيره فحذف هذه التهم الأولى، وأبقى معناها ومضمونها، وقد غير بعض الألفاظ من هذا النص في: ط. الثانية عشرة (ص١٥٩-١٦٠) محافظًا على معناه فقال:

«ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة؛ لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيَه من الخطأ الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان».

تدمغ عثمان بالانحراف عن روح الإسلام، ثم تقول: «وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان».

أي صعوبة وأي عقبة واجهتها وأنت قد صدعت بهذه التهم الأثيمة، وصَرَّحتَ بها، وتلوح بها وتدندن حولها عشرات المرَّات.

قال سيد قطب:

«ولقد اجتمع الناس، فكلَّفوا عليَّ بن أبي طالب أن يدخل إلى عثمان فيكلمه، فدخل إليه فقال: الناسُ ورائي وقد كلَّموني فيك، واللَّه ما أدري ما أقولُ لك، وما أعرف شيئًا تجهله، ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيتَ وسمعتَ وصحبتَ رسولَ اللَّه ﷺ، ونلتَ صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحقِّ منك، ولا ابن الخطّاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب إلى رسول اللَّه ﷺ رحمًا، ولقد نلتَ من صهر رسول اللَّه ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى شيء؛ فاللَّه الله!! في نفسك، فإنك واللَّه ما تُبصَّر من عمى، ولا تُعلَّم من جهل، وإن الطريقَ لواضح بيِّن، وإن أعلامَ الدين لقائمة.

تعلم يا عثمان؛ أنَّ أفضل عباد اللَّه عند اللَّه إمام عادل هُدي وهَدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة؛ فواللَّه، إنَّ كلًّا لبيِّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام.

وإن شر الناس عند اللَّه إمامٌ جائر ضَل وضُل به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «يُؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر؛ فيُلقى في جهنم».

فقال عثمان: قد -والله- علمت ليقولن الذي قلت؛ أما واللَّه لو كنتَ مكاني ما عنفتك، ولا أسلمتك، ولا عبت عليك، وما جئتُ مُنكَرًا أن وصلتُ رحمًا، وسددت خلَّة، وآويت ضائعًا، ووليت شبيهًا بمن كان عمر يولي.

أنشدك اللَّه يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟! قال: نعم. قال: أتعلم أن عمر ولَّاه؟ قال: نعم. قال: فلمَ تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟!

قال علي: سأخبرك: إن عمر كان كل من ولى؛ فإنما يطأ على صماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل؛ ضعفت ورفقت على أقربائك.

قال عثمان: وأقرباؤك أيضًا. قال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته. فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أنَّ معاوية كان أخوفَ من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم. قال علي: فإن معاوية يقطع الأمور دونك، وأنت لا تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية»[1].

*** وعلى هذا النص ملاحظات؛ إذ فيه علل في إسناده ومتنه:**

الأولى: أن في إسناده «محمد بن عمر الواقدي»، قال فيه أحمد بن حنبل: هو كذَّاب. وكذبه أبو حاتم والنسائي فقالا: يضع الحديث. وقال ابن راهويه: هو عندي ممن يضع الحديث. وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال مرة: لا يُكتب حديثُه. وقال البخاري وأبو حاتم أيضًا: متروك[2].

وقال ابن المديني: لا أرضاه في الحديث، ولا في الأنساب، ولا في شيء. وهؤلاء هم الرجال.

ووثقه من لا يلتفت إلى قوله؛ إما أنه خَفي عليه كذبه، وإما أنه من الضعفاء، وليس من أهل الجرح والتعديل.

ولذا قال الذهبي: «استقرَّ الإجماعُ على وهن الواقدي»[3].

الثانية: جهالة شيخ الواقدي.

الثالثة: في إسناده عبد الله بن محمد، عن أبيه.. لم أقف لهما على ترجمة،

---

(١) «العدالة» (ص١٦٠).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٦٦٢-٦٦٦).

(٣) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٦٦٢-٦٦٦).

ولم يذكرهما أحدٌ في ترجمة الواقدي حسب اطلاعي .

الرابعة: إن في إسناد القصة فيما يبدو انقطاعًا، فإن ابن جرير قال: «وأما الواقدي فإنه زعم أنَّ عبد اللَّه بن محمد حدثه عن أبيه، قال: «لما كان سنة أربع وثلاثين كتب أصحاب رسول اللَّه بعضهم إلى بعض إن كنتم تريدون الجهاد؛ فعندنا الجهاد، وكثر الناس على عثمان، ونالوا منه ما لم ينل من أحد وأصحاب رسول اللَّه يرون ويسمعون، وليس فيهم أحد ينهى ويذب إلا نفير، منهم: زيد بن ثابت، وأبو أسيد، وكعب بن مالك، وحسَّان بن ثابت؛ فاجتمع الناسُ، وكلموا علي بن أبي طالب، فدخل عليٌّ على عثمان . . » إلى آخر الكلام الذي ذكره «سيد».

الخامسة: في المتن علة، وهي: أن هذا الكلام بعيد أن يصدر من علي ﷺ؛ فليس -والحمد لله- هناك إمامٌ جائر ضال، وليس في ذلك العهد الزاهر سنن معلومة أميتت، ولا بدعٌ أحييت؛ فإنَّ البدع لم تظهر في عهد عثمان ﷺ، وإنما ظهرت بدعة الخوارج بعده في عهد عليٍّ على أيدي الثوَّار الذين خرجوا على عثمان من تلاميذ ابن سبأ اليهودي، كبدعة الخوارج والروافض، وهذا أمرٌ لا يمتري فيه أحدٌ.

السادسة: أنَّ في تولية عثمان مَنْ ولَّاه عمر حجَّة مقنعة، وما كان علي ﷺ لينكر عليه أن يولي من ولَّاه عمر، فإذا لم يقبل الناس من عثمان مثل هذه الحجَّة؛ فسوف لا يقبل منه أي حجَّة إذا ولى غير من ولَّاه عمر، فماذا يفعل عثمان بعد ذلك؟!!

السابعة: هذا الكلامُ المنسوب إلى علي ﷺ، وهو: «أن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية».

لا يسعنا إلَّا أن نقول كما علمنا الله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦].

وذلك أن هذه الأمور التي يقطعها معاوية دون عثمان إن كانت ظلمًا وعدوانًا على أعراض الناس ودمائهم وأموالهم، وكذبًا وزورًا على عثمان؛ فإنَّا -والله-

ننزه عنها عثمان ومعاوية رضي الله عنهما.

وإن كانت حقًّا وعدلًا وإنصافًا؛ فإنَّ معاوية يكون صادقًا على عثمان، ومنصفًا وعادلًا في البتِّ فيها، وعثمان على حقٍّ في إقرار معاوية.

وننزه عليًا أن يشارك تلاميذ ابن سبأ في التجنّي على عثمان وولاته -ومنهم معاوية-، وننزهه عن هذا الشغب المنسوب إليه.

ومن أجل كل ذلك قال ابن جرير: «وأما الواقدي فإنه زعمَ أنَّ عبد اللَّه بن محمد حدثه»؛ لأنه يعرف من هو الواقدي، ويعرف قدر هذا الزعم وقيمته.

وقد كان معاوية يكتب إلى عثمان فيمن يقع بينه وبينهم خلاف، فكتب إليه في شأن أبي ذر، وكتب إليه فيمن استطال عليه من أهل الشغب، مثل مالك بن الأشتر وأصحابه؛ وهذه من الأدلة على حسن سيرته، وانتظاره لأوامر عثمان رضي الله عنه، وتنفيذها برفق وحكمة وحلم.

وكان في هذا النص الذي رواه الواقدي جواب لعثمان وفيه بسط عذر عثمان رضي الله عنه، فإن كان سيد قد قبلت نفسه هذا الكلام الذي يشوّه صورة عثمان، فلماذا لم ينقل الكلام الذي يحسِّن صورته!!

* وإليك الكلام المحذوف وهو:

«ثم خرج عليٌّ من عنده، وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر، فقال: أما بعد؛ فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإنَّ آفة هذه الأمة وعاهتهم هذه النعمة، عيابون طعَّانون، يرونكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون، يقولون لكم، وتقولون أمثال النعام، أتباع كل ناعق، أحب مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلّا نغصًا، ولا يردون إلا عكرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذرت عليهم المكاسب.

ألا فقد -والله- عبتم عليَّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه؛ فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنتُ لكم، وأوطأتُ لكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم؛ فاجترأتم عليَّ . . .

(ألا فما تفقدون من حقِّكم؟! والله ما قصَّرتُ في بلوغ ما كان يبلغ من كان

قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه فضل من مال؛ فما لي لا أضع في الفضل ما أريد، فلم كنت إمامًا)»[١].

ثم تكلم مروان بكلام خشن، فأسكته عثمان بأسلوب قوي رادع.

والعجيب من أمر «سيد قطب» أنه لا يكتفي بتتبع الروايات الساقطة التي تطعن في هذا الصحابي الجليل وإخوته حتى يضيف إلى ذلك إسقاط ما يتضمن منها براءتهم، وبُعدهم عن السقوط في المثالب التي تصفهم بها تلك الروايات الباطلة الساقطة.

* * *

---

(١) نقلتُ هذا المقطع لأجل هذا الكلام الذي لو نقله سيد؛ لهدم ما نقله؛ ولَغيَّر الصورة التي رسمها لعثمان، لاسيما ما بين القوسين من الكلام.

الفصل الخامس عشر: سيد قطب يرى أن الثورة التي قادها ابن سبأ اليهودي أقرب إلى روح الإسلام من عثمان بن عفان

قال سيد قطب:

«وأخيرًا ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحقُّ بالباطل، والخير بالشر، ولكن لابدَّ لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام؛ أن يقرِّر: أن تلك الثورة في عمومها كانت أقربَ إلى روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق: من موقف مروان ومِن ورائه بنو أمية»[1].

وهكذا يصدر هذا الحكم وهذا القرار على عثمان بأن الثورة الجاهلية الهمجية التي قادها ابن سبأ في عمومها أقرب إلى روح الإسلام واتجاهه؛ لأنه هو والسبئيين والروافض ينظرون إلى الأمر بعين الإسلام، ويستشعرون بروح الإسلام!!!

أمَّا الصحابة والتابعون لهم بإحسان من علماء الأمة -فقهاء ومحدِّثين وأئمة العقيدة- لم ينظروا إلى الأمور بعين الإسلام!! ولم يستشعروا بروح الإسلام!! ولذلك فهم يعتبرون أن عثمان ثالث الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، ويعتبرونه شهيدًا مظلومًا، ويعتبرون هذه الثورة من أخبث الثورات وأفجرها، وأنَّ أهلها خوارج آثمون ظالمون، قد تخللهم زنادقة، ومنهم ابن سبأ والغلاة الذين قتلهم علي حرقًا بالنار.

والأمة الإسلامية تمقتهم من ذلك العهد وإلى يوم التلاق، ولقد فتحوا على الأمة من الفتن والشرور ما لا يعلم مداه إلَّا اللَّه.

هذه نظرة الأمة الإسلامية إلى الروافض والخوارج الذين يرى «سيد» أنه

---

(١) «العدالة» (ص١٨٩)، ط. الخامسة، (ص١٦٠-١٦١)، ط. الثانية عشرة، وقد تغير هذا النص شيئًا من التغيير مع الإصرار على مضمونه، وصرَّح أن هذه الثورة من كيد ابن سبأ اليهودي.

وإياهم ينظرون بروح الإسلام!! ويستشعرون بروح الإسلام!! فاعتبروا يا أولي الأبصار!!!

ولا يغرنك قوله: «دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ -عليه لعنة الله-»[١]. فإنه لو كان ناقمًا على هذا الكيد وصاحبه؛ لصبَّ جام غضبه عليه وعلى أتباعه، ولكشف عوارهم، وتحمَّس لإبراز جريمتهم وفضحها، ولكانت هذه الحملة التي وجهها إلى عثمان وإخوانه موجَّهةً إليهم؛ فقولته إنما هي لذرِّ الرماد في العيون.

قال سيد:

«واعتذارنا لعثمان رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، واهن القوى، ضعيف الشيخوخة؛ فكان موقفه كما وصفه صاحبه علي بن أبي طالب: إني إن قعدت في بيتي؛ قال: تركتني وقرابتي وحقي، وإن تكلمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان؛ فصار سيقة له حيث شاء بعد كبر السن وصحبته لرسول اللَّه ﷺ»[٢].

وهكذا يكون الإيمان بالقدر، وهكذا يكون الاعتذار «عذر أقبح من فعل» على حد قول القائل: «فليتك لم تزني، ولم تتصدقي». وهكذا يكون احترام أصحاب رسول اللَّه ﷺ!!

وانظر إلى هذا الاعتذار لعثمان الذي يحق أن يقال فيه: إنه عذر أقبح من فعل، فما الذي فعله عثمان حتى توجه إليه هذه المطاعن الآثمة الظالمة؟!! ثم تعتذر له هذا العذر المريض؟!!

بل هو طعن جديد في شخصيَّة هذا الخليفة العادل النبيل، بل إنَّ هذا طعن فيه وفي عقول الصحابة ودينهم؛ حيث اختاروا للنهوض بأعباء الخلافة شخصًا يدلف إلى الثمانين، ثم أفسحوا المجال للعصبة الأموية تلعب به، وتبتز المناصب

---

(١) هذه العبارة من: ط. الثانية عشرة (ص١٦١).

(٢) «العدالة» (ص١٨٩)، ط. الخامسة.

والأموال، وتستأثر بها.

الصحابة الذي قالوا لعمر في قوته وبأسه: «لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوَّمناه بحدِّ سيوفنا» -كما يزعم سيد!!- فأين هم؟!! وأين حد سيوفهم؟!! وكيف يتركون عثمان سيقةً لمروان؟!!

ثم كيف يرضى عثمان لنفسه وعقله ودينه أن يكون سيقة ولعبة لمروان؟!!

والله لا يقبل مثل هذه الأقوال والطعون الرافضية في أصحاب رسول الله ﷺ إلَّا لعبة وسيقة للروافض والاشتراكيين.

* * *

الفصل السادس عشر: تضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان

قال «سيد قطب» مواصلًا طعونه وحملاته:

«ولقد كان من جرَّاء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كبرته: أنَّ تقاليده العملية لم تتأصل على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول، وقد نشأ عن عهد عثمان الطويل في الخلافة أن تنمو السلطة الأموية، ويستفحل أمرها في الشام وفي غير الشام، وأن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان -كما سيجيء-، وأن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية في وقت مبكر»[1].

*** أقول:**

واضحٌ أن «سيدًا» ينطلق في تجنيه ونفث سمومه من منطلقين:

- **الأول:** منطلق اشتراكي قد تشبَّع به، غرس في نفسه الحقد الدفين على من يظن أنهم من طبقة الإقطاعيين والرأسماليين من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن بني أمية.

---

(١) «العدالة» (ص١٦١)، وفي الطبعة الخامسة (ص١٨٩-١٩٠) ما يلي:

قال سيد قطب: «ألا إنه لسوء الحظ فلقد كان من جرَّاء مباكرة الدين الناشئ بالتمكين منه للعصبة الأموية على يدي الخليفة الثالث في كبرته: أن تقاليده العملية لم تتأصل في البيئة العربية على أسس من تعاليمه النظرية لفترة أطول، ولو تقدم الزمن بعثمان؛ لكان الخير، حيث لم تضعف قوته بعد، ولو تأخر به فوليها عليٌّ بعد الشيخين قبل أن تنمو البذرة الأموية، ويستفحل أمرُها في الشام وفي غير الشام، وقبل أن تتضخم الثروات نتيجة لسياسة عثمان -كما سيجيء-، وقبل أن تخلخل الثورة على عثمان بناء الأمة الإسلامية وارتباطها بروح الدين .. لو كان هذا؛ لتغير وجه التاريخ الإسلامي، ولسار في طريق غير الذي سار فيه. وليس في هذا القول مبالغة، ولا تضخيم لدور الفرد في الأحداث العامة؛ فمن الواضح أن اتجاه الخليفة الثالث في توزيع الأموال، واتجاه مستشاره مروان، وتوليته معظم المناصب لبني أمية؛ هذا كله أنشأ أوضاعًا وأحوالًا عامَّة كان لها أثرها في خط سير التاريخ؛ فلم تعد دور فرد، إنما انتهت إلى أن تكون أوضاعًا لها ثقل ولها دفع، وهذا هو المعنى الذي قصدت إلى تقريره في هذا المجال».

- **والثاني**: تشبعه بروح التشيُّع وأحقاده على أصحاب رسول الله ﷺ؛ فلم تكن مواقفه هذه التي تقطر حقدًا على خيرة الناس من أصحاب رسول الله من رجلٍ سليم الفطرة حسن النية، ولكنها وليدة دراسة، وقائمة على منهج راسخ متأصِّل في أعماق «سيد قطب»، قد تشربتها روحه، ورسخت في أعماقه؛ فصبَّ ذلك سمومًا قاتلة في هذه الصفحات السوداء.

وفي هذا النص يرى «سيد» أن الإسلام قد أصيب في مقاتله؛ فهو دين ناشئ، باكره عثمان بالتمكين للعصبة الأموية، فلم تتأصل تقاليده العملية على أسس من تعاليمه النظريَّة.

إذ السياسة في الإسلام -في نظر سيد- تقوم على المساواة المطلقة، وعلى الحريَّة المطلقة، أي: أنها تفوق الديمقراطية في هذا المجال.

وتقوم في الاقتصاد على أن المال للجماعة، وأن أصحاب المال لا يعدون أن يكونوا وكلاء وموظفين.

والإسلام يوجب التوازن في المال، ويقضي على الفوارق بين طبقات المجتمع.

فالإسلام إذن يفوق الاشتراكية في هذا المجال، لكن عثمان باكر هذا الدين في طور النشوء، فضربه في مقتله بالتمكين للعصبة الأموية قبل أن تتأصل تقاليده الديمقراطية الاشتراكية!!

كأن بني أمية عصبة يهودية أحكمت التدابير والمؤامرات لضرب الإسلام في طور النشوء!!

لقد استغلت هذه العصبة عهد عثمان الطويل؛ فنمت سلطتها، واستفحل أمرُها، وتضخمت ثرواتها، فأصبحوا من أعظم الطبقات الإقطاعية والرأسمالية، بالإضافة إلى استيلائها على المناصب في الدولة نتيجة لسياسة عثمان، فتحولت الخلافة إلى ملك وراثي، وتحوَّل الاقتصاد إلى رأسمالية وإقطاعية!!

أين الأدلة والبراهين لإثبات هذه الدعاوى؟!

الجواب: أغمض عينيك وردد:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أو قل رغم أنفك:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القولَ ما قالت حذام

ولو كان طعنًا في أصحاب رسول الله ﷺ يشفي غيظ قلوب الروافض، ويُدمي قلوب المؤمنين.

* * *

الفصل السابع عشر: نقلة بعيدة جدًّا في التصور للحياة والحكم وحقوق الأمراء

قال «سيد»:

«ومع كل ما يحمله تأريخ هذه الفترة وأحداثها من أمجاد لهذا الدين، وتكشف عن نقلة بعيدة جدًّا في تصوُّر الناس للحياة والحكم وحقوق الأمراء وحقوق الرعية؛ إلَّا أن الفتنة التي وقعت لا يمكن التقليل من خطرها وآثارها البعيدة المدى»[1].

الظاهر أن «سيد قطب» يريد بهذه الفترة ذات الأمجاد .. إلخ: عهد الرسول ﷺ، وأبي بكر، وعمر.

أما فترة عثمان فليس لها شيءٌ من الأمجاد، بل هي مرحلة فتنة ومحنة على الأمة، باكر بها هذا الدين الناشئ، فأهدرت فيه حقوق الرعيَّة.

ولم يحتج أمراء العصبة الأموية إلى من يعرف ويعترف بحقوقهم، وإنما لسان حالهم: «من عزَّ بزَّ، ومن غلب استلب»، «وإنما تؤخذ الدنيا غلابًا».

وكلُّ هذا على رأي «سيد»، والدليل على هذا التفسير سياق الكلام وسباقه.

* * *

(١) «العدالة» (ص١٦١)، ولا يوجد في ط. الخامسة.

الفصل الثامن عشر: تمكين عثمان للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام

وقال «سيد قطب»:

«مضى عثمان إلى رحمة ربه وقد خلَّف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكَّن لها في الأرض -وبخاصَّة في الشام-، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام: من إقامة الملك الوراثي، والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع؛ مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام.

وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية -إن حقًّا وإن باطلًا- أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله؛ ليولي أعداء رسول الله، وليبعد مثل أبي ذر؛ لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول ﷺ من الإنفاق والبر والتعفف . . .

فإن النتيجة الطبيعيَّة لشيوع مثل هذه الأفكار -إن حقًّا وإن باطلًا- أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس: تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين إنكارًا وتأثمًا، وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيَّار، وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان»(1).

*** أقول:**

تصوَّر شابًّا يثق بـ: «سيد قطب»، ويعتبره من الأئمَّة المجدِّدين -كما صوَّره دعاة الفتن والشغب- بأي منظار سينظر إلى عثمان الذي جنى على هذه الأمة في دينها ودنياها حسب تصوُّر «سيد»!!!

---

(1) «العدالة» (ص١٦١)، و (ص١٩٠)، ط. الخامسة.

المترف: الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة: أي: أطغته.

كم من الشباب المسلمين قرأ هذا النص وأمثاله؟!!

كم من الشباب الذين ربوا على تقديس «سيد قطب» وتقديس كتاباته؟!!

كم منهم سيقع في حبائل الرفض والحقد على أصحاب رسول اللَّه ﷺ، واحتقارهم والإزراء بهم؟!!

لو كان «سيد قطب» من أهل الحق والسنَّة؛ لوجَّه هذه الحملات على الروافض، على الحكومات العبيدية الباطنية في مصر والمغرب، وما فعلت بالإسلام والمسلمين وبدمائهم وأموالهم، والمجازر التي نزلت بالمسلمين وخاصَّة العلماء، وعلى دولة البوهيين، وما فعلت بالمسلمين وبالخلافة الإسلامية، وعلى دولة القرامطة وما فعلت بالمسلمين في العراق والجزيرة العربية في مكة بالذات، وعلى الدولة الصفوية بالمسلمين في الشرق الإسلامي؛ حيث أجبرتهم على عقيدة الرفض بالحديد والنار.

وعلى الروافض وعلى رأسهم النصير الطوسي وابن العلقمي؛ حيث تآمروا مع التتار على الأمة الإسلامية وعلى خلافتها؛ فأسقطوها وارتكبوا من الفظائع والمذابح الوحشية ما لم يعرف مثله في تاريخ الإنسانية.

ولعل هذا كله مما يسر «سيد قطب» ولا يسوءه، وإلَّا فلماذا يغفله كله، ولا يشير إلى شيء منه، لا من قريب، ولا من بعيد؟!

ثم يقفز عبر القرون إلى العهد الذي أعزَّ اللَّه فيه الإسلام، وأظهره على الأديان كلها، عهد الفتوحات الواسعة العظيمة، وعهد الانتصارات الإسلامية على الأديان الباطلة في مشارق الأرض ومغاربها؛ حيث دخلت في الإسلام معظم شعوب الأرض وأممها بفضله تعالى ونصره، ثم بفضل جهاد عثمان -بعد رسول اللَّه ﷺ والخليفتين بعده-، ثم بفضل جهاد خلفاء بني أمية وقادتهم العظام -رحمهم اللَّه وأسكنهم فسيح جناته-.

يقول «سيد قطب»:

«إن عثمان مضى وقد خلف الدولة الأمويَّة قائمة بالفعل؛ بفضل ما مكَّن لها في الأرض وخَاصَّة في الشام؛ وبفضل ما مكَّن للمبادئ الأموية المجافية لروح

الإسلام من إقامة الملك الوراثي، والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، وعدم المبالاة بروح التآخي والإيثار والتكافل؛ مما أحدثَ خلخلة في الروح الدينية ذاتها لدى الأمة الإسلامية».

إن المسلم الحق لا يحتمل سماع هذا الظلم والافتراء؛ فضلًا عن أن يسجله وينشره بين الخافقين.

فهل قامت هذه المبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، وقامت الدولة الأموية بالفعل في عهد عثمان؟!!

وهل قامت هذه الدولة، وقامت مبادئها بفضل تمكين عثمان لها؟!!

فكيف استطاع الصحابة والأمة الإسلامية من ورائهم أن يعقدوا بيعة الخلافة لعليٍّ رضي الله عنه إذا كانت دولة بني أمية قد قامت بالفعل؟!!

لا يشك مسلم أن عثمان لو مات موتًا عاديًا، أو قُتل بغير تلك الثورة الجاهلية؛ لما حصل اختلاف بين المسلمين ولا انقسام، ولكن قدر الله غالب.

لقد كان قتل عثمان فتنة دفعت خيار الصحابة كـ: «طلحة، والزبير، وعائشة» وغيرهم إلى المطالبة بدمه.

ودفعت كذلك معاوية وأهل الشام إلى المطالبة بدمه، وتسليم قتلة عثمان لهذا الغرض؛ فأبى ذلك عليٌّ رضي الله عنه -وهو المصيب- إلَّا البيعة أولًا، ثم المطالبة بالقصاص ممن تقوم عليه الحجَّة أنه شارك في قتل عثمان.

ذلك كان مطلب معاوية وقبله طلحة والزبير وعائشة ومَن شاركهم من الصحابة.

فكيف يترك «سيد قطب» هذه الحقائق، ويركض وراء أقوال الروافض وأساطيرهم وترهاتهم؟!!

إن معاوية لم يطلب بالبيعة من المسلمين، ولم يدع الأمر لنفسه، بل كان مطلبه ومطلب من ذكر سابقًا القصاص ممن قتل عثمان، وقد كانوا في جيش عليٍّ رضي الله عنه، وكان ذلك قد أثار شبهًا وظنونًا حول عليٍّ رضي الله عنه وهو منها بريء.

إن عليًا رضي الله عنه لم يشارك في دمه، ولا أمر، ولا رضي؛ وقد روي عنه أنه قال: «والله ما قتلتُ، ولا رضيت».

وروي عنه أنه سمع أصحاب معاوية يلعنون قتلة عثمان فقال: «اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر، والسهل والجبل».

وروي أن أقوامًا شهدوا عليه بالزور عند أهل الشام أنه شارك في دم عثمان[١]، وكان هذا مما دعاهم إلى ترك مبايعته؛ لما اعتقدوا أنه ظالم، وأنه من قتلة عثمان، وأنه آوى قتلة عثمان لموافقته لهم على قتله.

وهذا -وأمثاله- مما يبين شبهة الذين قاتلوه، ووجه اجتهادهم في قتاله، لكن لا يدل على أنهم كانوا مصيبين في ترك مبايعته وقتاله، وكون قتلة عثمان من رعيته؛ لا يوجب أنه كان موافقًا»[٢].

ومذهب أهل السنة والجماعة: السكوت عما جرى بين الصحابة، واعتبارهم مجتهدين جميعًا، للمصيب منهم أجران، وللمخطئ أجر؛ وكان عليٌّ هو المصيب، ومعاوية هو المخطئ، وكان زمنهما زمن فتنة، فلم يتبين للناس المصيب من المخطئ إلَّا بعد انتهاء هذه الفتنة.

والأمر كما يقول ابن تيمية -رحمه الله-: «وذلك أن الفتن إنما يعرف ما فيها من الشر إذا أدبرت، فأما إذا أقبلت فإنها تُزين، ويُظن أن فيها خيرًا».

إن خلافة بني أمية كانت عزة ومنعة، وكانت فتوحًا في مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، وكانت راية التوحيد والسنَّة عالية رفيعة، وأهل البدعة شواذ مقموعون، فإذا ارتفعت رءوس بعضهم؛ قطعتها سيوف الحق.

روى مسلم في «صحيحه»[٣]: عن الشعبي، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: انطلقت إلى رسول الله ﷺ ومعي أبي، فسمعتُه يقول: «لا يزالُ هذا الدينُ عزيزًا

---

(١) لا يبعد أن يكون هؤلاء من تلاميذ ابن سبأ؛ وهذه من مكايدهم.

(٢) قول شيخ الإسلام ابن تيمية نقلًا عن كتاب «أمير المؤمنين معاوية» للأخ محمد مال الله (ص٤٨).

(٣) (٣٣)، كتاب الإمارة، حديث (١٨٢١)، (٥-١٠) الرقم الخاص.

منيعًا إلى اثني عشر خليفة. فقال كلمة صمَّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش».

وروى الإمام أحمد هذا الحديث في «مسنده»[1] من طريق الشعبي: عن جابر ابن سمرة بلفظ: «**لا يزال هذا الأمر عزيزًا منيعًا، ينصرون على من ناوأهم عليه إلى اثني عشر خليفة**. ثم قال كلمة أصمنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: **كلهم من قريش**».

وقد حمل أهل السنَّة هذا على عهد بني أمية؛ فعهد بني أمية كان عهد خلافة، وكان الإسلام في عهدهم عزيزًا منيعًا، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكما هو الواقع التاريخي.

ولو لم يكن عهدهم عهدَ خير وعزَّة للإسلام والمسلمين؛ لما مدح رسولُ اللَّه ﷺ ابن ابنته الحسن رضي الله عنه بالتنازل لمعاوية رضي الله عنه:

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «سمعتُ النبي ﷺ على المنبر، والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرَّة، وإليه مرة، ويقول: إن ابني هذا سيد، ولعل اللَّه أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين»[2].

ولم يتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عجزًا، لكنه آثر مصلحة المسلمين وحقْن دمائهم رضي الله عنهم، ولم يكن معاوية رضي الله عنه راغبًا في سفك دماء المسلمين، ولا في الفتنة، بل كان يكره ذلك ويقلق منه.

قال البخاري[3] -رحمه اللَّه تعالى-: حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا سفيان، عن أبي موسى قال: سمعت الحسنَ يقول: «استقبل -والله- الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانَها. فقال له معاوية -وكان واللَّه خيرَ الرجلين-: أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي

---

(١) (٥/ ٩٨-٩٩)، حديث (٢٠٩٦٤-٢٠٩٧٥).

(٢) البخاري، فضائل الصحابة، حديث (٣٧٤٦).

(٣) في «صحيحه» (٥٣)، كتاب الصلح، الحديث (٢٤٠٧).

بضيعتهم؟

فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز، فقال: اذهبا إلى هذا الرجل، فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه. فأتياه فدخلا عليه، فتكلما، وقالا له، وطلبا إليه.

فقال لهما الحسن بن علي: إنَّا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك، ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئًا إلَّا قالا: نحن لك به، فصالحه.

فقال الحسن: ولقد سمعتُ أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يُقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فهذا الحسن رضي الله عنه يتنازل في ضوء توجيه رسول الله ﷺ مع أنَّ جيشه كان أمثال الجبال، أفلو كان لبني أمية مبادئ وأصول تتنافى مع الإسلام، وتتجافى مع أصوله وروحه، أكان يستحلُّ الحسن -ومن وراءه من هؤلاء الرجال كالجبال- التنازل والتسليم لدولة ذلك واقعُها وحالها؟!!

كلا، ثم كلا، لقد تنازل لرجلٍ مسلم، وصحابي جليل، عرف القاصي والداني حسن إسلامه، وصدقه، واستقامته، وعدله.

وإن هذا النص ليعطيك أنَّ معاوية كان مشفقًا رءوفًا بهذه الأمة: «أرأيت إن قَتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟». ثم بعث رجلين أمينين مصلحين ناجحين، فالتزما بكل مطالب الحسن -ولا يطلب إلَّا حقًّا-؛ فكان بهذا التنازل لمعاوية سيدًا بشهادة رسول الله ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في «الفتح»:

«وفي هذه القصة من الفوائد: عَلم من أعلام النبوة، ومنقبةٌ للحسن بن علي؛ فإنه ترك الملك؛ لا لقلَّة، ولا لذلَّة، ولا لعلَّة، بل لرغبته فيما عند الله؛ لما رآه من حقن دماء المسلمين؛ فراعى أمرَ الدين ومصلحة الأمَّة.

وفيه : ردٌّ على الخوارج الذين كانوا يكفِّرون عليًّا ومن معه ، ومعاوية ومَن معه بشهادة النبي ﷺ للطائفتين بأنهم من المسلمين .

وفيه : فضيلة الإصلاح بين الناس ؛ ولا سيَّما في حقن دماء المسلمين .

ودلالة على رأفة معاوية بالرعية ، وشفقته على المسلمين ، وقوَّة نظره في تدبير الملك ، ونظره في العواقب .

وفيه : ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل ؛ لأن الحسن ومعاوية ولي كل منهما الخلافة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد في الحياة ، وهما بدريّان . قاله ابن التين »[1] .

فينبغي أن ينظر المسلم إلى عهد بني أمية من خلال هذه النصوص النيِّرة ، ومن خلال فهم علماء الإسلام لها ، فلو كان في ملك بني أمية ومبادئهم مجافاة لروح الإسلام ، وعلى الصورة الشوهاء التي يصوِّرها من أعمى بصائرهم الهوى ؛ أكان رسول اللَّه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى يقول في دولتهم وخلافتهم ما قال؟!!

وهل كان رسول اللَّه ﷺ يشجِّع الحسن والأمة على الصلح ، ويثني على الحسن ذلك الثناء العاطر ، أم كان يحثهم على الجهاد وإنقاذ مبادئ الإسلام من براثن بني أمية؟!! الذين وصف «سيد قطب» مبادئهم بأنها مجافية لروح الإسلام؟!

إن المسلمين حقًّا في ذلك العهد وإلى اليوم يعتبرون ذلك الصلح والتنازل عام خير وسعادة على الأمة الإسلامية ، حتى سمَّوه : «عام الجماعة» ، وإن خلافتهم كانت عزَّة وفتوحًا ، أدخل اللَّه بسببهم أممًا وشعوبًا في الإسلام ، كما أخبر بذلك رسولُ اللَّه ﷺ ، كما تشهد بذلك الأمة الإسلامية وتاريخها المشرق .

وروى البخاري[2] من طريق إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي طلحة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول : «كان رسول اللَّه ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان ، فتطعمه -وكانت تحت عبادة بن الصامت- ، فدخل يومًا

---

(١) انظر : «الفتح» (١٣/ ٦٦).

(٢) في «صحيحه» (٧٩) ، كتاب الاستئذان ، الحديث (٦٢٨٢-٦٢٨٣).

فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! فقال: ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة -أو قال: مثل الملوك على الأسرة. يشك إسحاق-. قالت: ادع الله أن يجعلني منهم. فدعا.

ثم وضع رأسه، فنام، ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: ناسٌ من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة -أو مثل الملوك على الأسرة-. فقلت: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت من الأولين. فركبت البحر زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت».

فهذه رؤيا نبويَّة صادقة من أعلام النبوة، وقع مصداقها في زمن عثمان بقيادة معاوية رضي الله عنه دالة على عزَّة الإسلام وعزَّة أهله في هذه الفترة، وأن حالتهم حالة الملوك في الهيئة والأبَّهة -لا كما يصورهم المغرضون من حالة البؤس والشقاء-، وأنَّ جهادهم في سبيل الله؛ ولإعلاء كلمة الله.

فمن خلال هذه النصوص الصحيحة المشرقة نتحدَّث ونحكم على عهد عثمان، وبني أمية، والأمة الإسلامية في تلك العهود الزاهرة، عهد عزَّة الإسلام والمسلمين، ومنعته ومنعتهم.

وإليك صورةً مشرقة عن عهد معاوية رضي الله عنه يتجلَّى فيها صدق إيمانهم وورعهم وكمال أخلاقهم، وأنهم من خير القرون بحقٍّ وجدارة:

قال أبو إسحاق الفزاري: عن صفوان بن عمرو قال: حدثنا حوشب بن سيف قال: «غزا الناس في زمان معاوية وعليهم عبد الرحمن بن خالد، فغلَّ رجلٌ من المسلمين مائة دينار رومية، فلما قفل الجيش ندم الرجل، فأتى عبد الرحمن بن خالد فأخبره خبره، وسأله أن يقبلها منه، فأبى وقال: قد تفرَّق الجيشُ، فلن أقبلها منك حتى تأتي بها يوم القيامة. فجعل يستقرئ أصحاب النبي ﷺ يسألهم، فيقولون مثل ذلك.

فلما قدم دمشق على معاوية، فذكر ذلك له، فقال له مثل ذلك؛ فخرج من عنده

وهو يبكي ويسترحم، فمرَّ بعبد اللَّه بن الشاعر السكسكي، فقال: ما يبكيك؟! فذكر له أمرَه، فقال: أمطيعي أنت يا عبد الله؟ قال: نعم. قال: فانطلق إلى معاوية، فقل: اقبل مني خمسك. فادفع إليه عشرين دينارًا، وانظر إلى الثمانين الباقية؛ فتصدَّق بها عن ذلك الجيش؛ فإنَّ اللَّه يقبل التوبة عن عباده، وهو أعلمُ بأسمائهم ومكانهم. ففعل الرجل، فقال معاوية: لأن أكون أفتيتُه بها أحب إليَّ من كل شيء أملكه، أحسن الرجل»[1].

ولا يجوزُ الحديث عنهم بتصوُّرات الاشتراكيين الثائرين على الإقطاعيين والرأسماليين، ولا نتحدَّث عنهم من خلال روايات الروافض الحاقدين.

وقول سيد: «وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية -إن حقًّا وإن باطلًا[2]-: أن الخليفة يؤثر أهله، ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله؛ ليولي أعداء رسول اللَّه ﷺ».

هذا يدل على رغبة «سيد قطب» الجامحة في الطعن في عثمان وبني أمية، وعلى الرغبة الجامحة في الإشادة وكَيل المديح لتلاميذ ابن سبأ، أصل كل بلاء

---

(١) كتاب «السير» لأبي إسحاق الفزاري (ص٢٤٩)، ورواه سعيد بن منصور، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢٤)، نقلًا عن محقق «السير»، وقد رجعتُ إلى «التمهيد» فوجدت فيه مغايرة في الإسناد والمتن لما هنا.

(٢) من أعجب العجائب: أن «سيد قطب» يشك في صحة الشائعات هذه ضد عثمان وأهله، ثم يقدم بجرأة وعنف على مهاجمتهم والطعن فيهم، وفي الوقت نفسه يمدح أهل الفتن الذين افتعلوا هذه الشائعات، ثم من هم أعداء رسول اللَّه الذين كان يوليهم عثمان؟!

والجواب: أنهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ مثل معاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري، وعبد اللَّه بن أبي سرح، والوليد بن عقبة، وعبد اللَّه بن عامر بن كريز العامري؛ وكلٌّ منهم له صحبة وسيرة حسنة في رعيته، ولهم فتوحات إسلامية عظيمة في الشرق والغرب، وقد ولاهم -قبل عثمان-: عمر بن الخطاب ﷺ.

ومن الطريف: أنَّ كلًّا من أبي بكر وعمر قد ولَّى الوليد بن عقبة، وهو من أشدِّ ما ينقم به المغرضون على عثمان.

فمن ينكر على عثمان ﷺ تولية هؤلاء؛ فلينكر على أبي بكر وعمر ﷺ.

ومن ينكر على عثمان أن يولي الأكفاء من بني أمية؛ فلينكر على رسول اللَّه ﷺ؛ فإنه قد ولى منهم الكثير على أعماله.

وفتنة نزلت بالأمة.

إن الطيور على أشكالها تقع، وإن الأرواح جنودٌ مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

وقد تقدَّم للقارئ ما يُزيِّف هذه الأكاذيب في إغداق عثمان الأموال على بني أمية، ولعله يأتي إيضاحات أخرى.

أما قوله: «ويعزل أصحاب رسول الله ليولي أعداءه».

فلا يسعُنا إلا أن نقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦]. وإن في هذا الكلام لطعنًا في دين عثمان وأمانته ما وراءه طعن.

ولا أدري أتلقَّف «سيد قطب» هذا من الروافض، أم هو من إنشائه تعاطفًا معهم وتودُّدًا إليهم، ولسان حاله يقول: نحن لا نقل عنكم حقدًا على عثمان وبني أمية!! بل على ذلك المجتمع الطاهر في عهد عثمان وبني أمية؛ فلذا نقذفهم بهذه القذائف دون أي احترام لذلك المجتمع، ودون احترام لمشاعر أهل السنة.

أيعزل عثمان أصحاب رسول الله ﷺ؛ ليولي أعداء رسول الله ؟!!!

أين براهينك على هذه الاتهامات الظالمة؟!

أهذه منزلة خير القرون عندك؟!

والذي يعرف مذهب «سيد» في التكفير؛ لا يتردَّد أنه يكفِّر ولاة عثمان.

وهكذا يتجرَّأ «سيد» هذه الجرأة العظيمة بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير.

هل هذا هو واقع عثمان وواقع ولاته؟!

وهل ينظر علماء الإسلام إلى عثمان وولاته بهذا المنظار الأسود الكريه؟!

أولًا: لم يكن عثمان يعزل ويولي تبعًا لهواه -حاشاه-، وإنما يراعي في ذلك مصلحة المسلمين، وتلبية لرغبتهم في عزل من كرهوه من الولاة ولو كان صالحًا.

قال ابن جرير: «وكتب إليَّ السري عن شعيب، عن سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا: لما ولي عثمان أقر عمرو بن العاص على عمله، وكان لا يعزل

أحدًا إلَّا عن شكاة، أو استعفاء من غير شكاة»[١].

فهذا هو الذي يتفق مع أخلاق عثمان، وشرفه، ومروءته، وإيمانه، وحيائه، وخوفه من اللَّه.

إننا نعتمد مثل هذه الرواية وإن كانت ضعيفة لأنّ لها ما يدعمها، ولأن الأصل براءة المسلم لا سيّما أصحاب رسول اللَّه كما قدّمنا ذلك غير مرّة؛ وهذا أخفّ ألف مرّة من الاعتماد على أكاذيب الروافض.

ثانيًا: قال عثمان في اعتذراه عن تجنِّي أهل الفتنة عليه: «قالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا مجتمعًا محتملًا مرضيًا؛ وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده؛ ولقد ولَّى مَن قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول اللَّه أشد مما قيل لي في استعماله أسامة، أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم»[٢].

وما أظن أنه خطر ببال أهل الفتن أنَّ عثمان يولي أعداء الله؛ فضلًا عن أن يتفوَّهوا بذلك.

ثالثًا: أن لعثمان أسوة في رسول اللَّه ﷺ؛ فقد كان بنو أمية أكثر القبائل عمالًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد كان في بني أمية قومٌ صالحون ماتوا قبل الفتنة، وكان بنو أمية أكثر القبائل عمالًا للنبي ﷺ؛ فإنه لما فتح مكة استعمل عليها عتاب بن أسيد بن أبي العيص[٣] بن أمية، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأخويه أبان بن سعيد، وسعيد بن سعيد على أعمال أخر، واستعمل أبا سفيان بن حرب بن أمية على نجران»[٤].

وقال في موضع آخر: «وكان كثير من أمراء النبي ﷺ على الأعمال من بني أمية؛ فإنه استعمل على مكة عتَّاب بن أسيد بن أبي العيص[٥] بن أمية، واستعمل

---

(١) «التاريخ» (٤/ ٢٥٣).
(٢) «تاريخ الطبري» (٤/ ٣٤٧).
(٣) في الأصل «العاص»، والصواب ما أثبت.
(٤) «منهاج السنة» (ص١٤٤-١٤٥)، (ج٤).
(٥) في الأصل «العاص»، والصواب ما أثبت.

خالد بن سعيد بن العاص بن أمية على صدقات مذحج وصنعاء اليمن، ولم يزل عليها حتى مات النبي ﷺ، واستعمل عَمْرًا[1] على تيماء وخيبر وقرى عرينة، وأبان ابن سعيد بن العاص استعمله أيضًا على البحرين -برِّها وبحرها- حين عزل العلاء ابن الحضرمي، فلم يزل عليها حتى مات النبي ﷺ».

وولاه عمر رضي الله عنه، ولا يُتَّهم في دينه، ولا في سياسته.

قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة»[2]: «وأخرج أبو العباس السرَّاج من طريق خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد: حدثني أبي: أنَّ أعمامه خالدًا، وأبانًا، وعمرو بن سعيد بن العاص لما بلغتهم وفاة النبي ﷺ؛ رجعوا عن أعمالهم، فقال لهم أبو بكر: ما أحد أحق بالعمل منكم. فخرجوا إلى الشام، فقتلوا بها جميعًا، وكان خالد على اليمن، وأبان على البحرين، وعمرو على سواد خيبر».

قال شيخ الإسلام: «وهذا النقل عن النبي ﷺ في استعمال هؤلاء ثابتٌ مشهور عنه، بل متواتر عند أهل العلم؛ فكان الاحتجاج على جواز استعمال بني أمية بالنص الثابت عن النبي ﷺ أظهر عند كل عاقل من دعوى كون الخلافة في واحد معيَّن من بني هاشم بالنص؛ لأن هذا كذب باتفاق أهل العلم بالنقل، وذاك صدق باتفاق أهل العلم بالنقل.

وأما بنو هاشم فلم يستعمل النبي منهم إلَّا عليًا على اليمن، وجعفرًا على غزوة مؤتة مع مولاه زيد وابن رواحة»[3].

وقد ثبت في «الصحيح»: عن النبي ﷺ أنه قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم». قالوا: ومعاوية كانت رعيته تحبُّه وهو يحبهم، ويصلون عليه وهو يصلي عليهم.

رابعًا: أن له أسوة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان

(١) هو: عمرو بن سعيد بن العاص. انظر: «الإصابة».
(٢) (٢/ ٥٣٢).
(٣) «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص٣٨٣).

في فتوح الشام، وأقره عمر، ثم ولى عمر بعده معاوية.

ونقل الحافظ ابن حجر في «الإصابة»[١] ما رواه البرقي في «تاريخه» عن أبي صالح كاتب الليث بن سعد: «أن الليث قال: كان ابن أبي سرح على الصعيد زمن عمر، ثم ضمَّ إليه عثمان مصر كلها، وكان محمودًا في ولايته»[٢].

وقال ابن عبد الحكم: «توفي عمر رضي الله عنه ومصر على أميرين: عمرو بن العاص بأسفل الأرض، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الصعيد»[٣].

وذكر ابن عبد الحكم أن عثمان لم يول عبد الله إلَّا بعد أن رفض عمرو بن العاص العودة إلى مصر إلَّا أن يوليه مصر كلها، فلم يستجب له عثمان، ثم ولَّى عبد الله بن سعد على مصر كلها.

قال ابن عبد الحكم: «فلبث عبد الله عليها أميرًا محمودًا، وغزا فيها ثلاث غزوات كلهنَّ لها شأن: إفريقية، والأساود، ويوم ذي الصواري؛ وله جهاد وفتوحات، منها: فتح إفريقية»[٤].

وأقر عمر رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص أن يؤمر الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ لقتال الروم، فتوجَّه لقتال الروم، فلما قدم على تغلب؛ نهض معه مسلمهم وكافرهم، ثم إنه تشدد على تغلب، فلم يقبل منهم إلا أن يسلموا حتى ثناه عن ذلك عمر»[٥].

خامسًا: لم يقصر عثمان الولايات على بني أمية ويغدقها عليهم، كما يقول خصومه، بل كان هناك أمراء كثر من شتَّى القبائل يلون أمور المسلمين في جهات كثيرة في زمن عثمان.

وقد ذكر ابن جرير في «تاريخه» عددًا من عمال عثمان الذين استعملهم

---

(١) «الإصابة» (٢/ ٣٠٩).

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) «فتوح مصر» (ص٤٧١).

(٤) «فتوح مصر» (ص١٧٣-١٧٤).

(٥) انظر: «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٥١، ٥٤، ٥٥).

على الأمصار.

* فمنهم:

١- الأشعث بن قيس: على أذربيجان.

٢- وسعيد بن قيس: على الري.

٣- وكان سعيد بن قيس: على همذان، فعزل، وجعل عليها النسير العجلي.

٤- وعلى أصبهان: السائب بن الأقرع.

٥- وعلى ماه: مالك بن حبيب اليربوعي.

٦- وعلى الموصل: حكيم بن سلامة الحزامي.

٧- وجرير بن عبد الله: على قرقيسيا.

٨- وسلمان بن ربيعة: على الباب.

٩- وعلى الحرب: القعقاع بن عمرو.

١٠- وعلى حلوان: عتيبة بن النهاس[١].

هؤلاء من وقفنا عليهم في جهة المشرق.

وكان عبد الرحمن بن خالد أميرًا على حمص.

ثم لماذا يتجاهلون أنَّ عليًا ﷺ قد ولى من هو دون من ولاهم عثمان، يتجاهلون أنه قد ولى أناسًا من أقاربه؟! والعجب أن «سيد قطب» قد نهج هذا المنهج!! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد زعم الحسن بن المطهر الحلي في كتابه «منهاج الكرامة» أن عثمان ولى أمور المسلمين من لا يصلح للولاية.

فأجابه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «منهاج السنة»[٢]، و «المنتقى»[٣] منه للذهبي:

---

(١) «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٤٢٢، ٢٦٤-٢٦٥).

(٢) (٣/ ١٧٣-١٧٦).

(٣) (ص٣٨٢-٣٨٣).

«أنَّ عليًا رضي الله عنه ولى زياد بن أبي سفيان، وولى الأشتر النخعي، وولى محمد ابن أبي بكر وأمثال هؤلاء، ولا يشك عاقل أن معاوية خير من هؤلاء كلهم . . ».

ثم قال: «ومن العجب: أن الشيعة ينكرون على عثمان أنه ولى أقاربه من بني أمية، ومعلوم أن عليًا ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه:

١- فولى عبيد الله بن عباس على: اليمن.

٢- وولى على مكة والطائف: قثم بن العباس.

٣- وأما المدينة فقيل: إنه ولى عليها سهل بن حنيف، وقيل: ثمامة بن العباس.

٤- وأما البصرة: فولى عليها عبد الله بن عباس.

٥- وولى على مصر: ربيبه محمد بن أبي بكر، الذي ربَّاه في حجره -لأنه تزوج أمه بعد وفاة أبي بكر، وكان محمد صغيرًا-.

ثم إن الإمامية تدَّعي أن عليًا نصَّ على أولاده في الخلافة، أو على ولده، وولده على ولده الآخر، وهلم جرًا.

ومن المعلوم إن كان تولية الأقربين منكرًا؛ فتولية الخلافة العظمى أعظم من إمارة بعض الأعمال؛ فكما لا يجوز الطعنُ على عليٍّ بما فعله اجتهادًا؛ كذلك لا يجوز الطعنُ على عثمان بما فعله اجتهادًا -رضي الله عنهما وأرضاهما-».

ولا يفرق بين العملين والرجلين: إلَّا أصحاب الأهواء والأغراض.

وإنما يذكر شيخ الإسلام هذا تقريعًا وتوبيخًا لأهل الأهواء، وبيان تناقضهم وفضح نواياهم.

سادسًا: لماذا يكثر الروافض -ومن سار على طريقهم- الطعن على عثمان بإيثار بني أمية بالمناصب في الدولة -على حدِّ زعمهم-، وينسون أنَّ له سلفًا وأسوة برسول الله ﷺ، وينسون أنَّ هذا اجتهاد مراعى فيه مصلحة الأمة، وينسبون كثرة بني أمية؛ إذ هم أكثر بطون قريش عددًا، وينسون كفاءتهم لهذه الأعمال، والفتوحات العظيمة التي فتحها الله على أيديهم، والعز العظيم الذي بلغه الإسلام

والمسلمون على أيديهم، وينسون الأخلاق العالية التي كان يتمتع بها هذا البطن من قريش من: الحلم، والأناة، والصبر، والجود.

ومَن أحبَّ أن يعرف هذا؛ فليقرأ في التاريخ سيرهم وتعاملهم مع الناس.

قال الشيخ محب الدين الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما الذي يرجع إلى الصحيح الممحص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين -رضوان الله عليه-، وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمة وسعادتها؛ فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الجهر بالإعجاب والفخر كلما أمعن في دراسة ذلك الدور من أدوار التاريخ الإسلامي»[١].

* **أقول:**

وأعجب لقول سيد قطب في عهد بني أمية: «لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال؛ وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح؟!!»[٢].

وقول سيد قطب: «ويبعد مثل أبي ذر؛ لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه رسول الله ﷺ من الإنفاق والبرِّ والتعفف».

يصف «سيد قطب» ذلك المجتمع من الصحابة وخيار التابعين تارةً بالترف، وتارة بالإقطاع، وتارة بالأرستقراطية، وكلها في غاية القبح.

«فالمترف: هو الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة: أي: أطغته». كما في لسان العرب[٣].

أما حكم المترف عند «سيد قطب» فهو كما يقول في هذا الكتاب:

---

(١) حاشية «المنتقى من منهاج الاعتدال» (ص٣٩٠).

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٩٤)، ط. الخامسة.

(٣) (٩/ ١٧)، مادة: «ترف».

«والآيات القرآنية والاحاديث النبوية في كراهة الترف وتحريمه متواترة كثيرة، بصفة بارزة تشعر بأنه من أكره الحرام إلى اللَّه ورسوله، والإسلام الذي يحض الناس على التمتع بطيبات الحياة، ويكره أن يحرموها على أنفسهم، وهي لهم حلال؛ يدعو إلى جعل الحياة بهيجة مقبولة، لا قاتمة، ولا منبوذة . . هذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة العنيفة.

فالقرآن يصف المترفين أحيانًا بسقوط الهمَّة، وضعف القوَّة، وهبوط الأريحية: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

وإذا عرفنا حرص الإسلام على الجهاد، وحثه عليه، وتعظيم من يتطوعون له؛ حتى ليقول الرسول الكريم ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من النفاق». أدركنا في الجانب الآخر كم يحتقر أولي الطول هؤلاء لتخلفهم وقعودهم عن صفوف المجاهدين.

ولا غرابة في هذا، فالمترف مترهل، ضعيف الإرادة، ناعم قليل الرجولة، لم يعتد الجهد فسقطت همته، وفترت أريحيته، والجهد في الجهاد يعطل عليه متاعه الشهواني الرخيص، ويحرمه لذاته الحيوانية فترة من الوقت، وهو لا يعرف قيمة في الحياة سوى هذه القيم الداعرة الشائنة»[1].

ثم يواصل الكلام على المترفين ويسوق الآيات فيهم . . ثم يقول معلقًا على بعض الآيات:

«ولا غرابة في هذا؛ فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة، حريصون على شهواتهم ولذائذهم، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم»[2] ثم يواصل الكلام في هذا الصدد.

وإذا كانت هذه هي نظرة «سيد» إلى المترفين -بل هى نظرة جميع المسلمين-؛

---

(١) «العدالة» (ص١٢٦)، ط. الخامسة.

(٢) «العدالة» (ص١٢٧)، ط. الخامسة.

فلماذا يصف ذلك المجتمع الطيب الخير بالتمرغ فيه، وكبار أغنيائه من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، والذين يحاربون الترف أكثر من «سيد» وأمثاله.

ولا شك أن المال قد فاض في عهد عثمان لاتساع الفتوح، وكثرة الغنائم والفيء، وتدفق الخير على الأمة، فتوسع بعض الناس لما وسَّع الله عليهم، فبالغ أبو ذر في الشدة والإنكار عليهم.

ولم يكن أبو ذر من دعاة الثورة والفتن والخروج؛ حاشاه!! بل كان يعلن السمع والطاعة، ويذكر الأحاديث النبوية في ذلك رضي الله عنه.

* * *

الفصل التاسع عشر: اتهامات خطيرة للصحابة والمجتمع المسلم في عهد عثمان بن عفان

وقول سيد:

«فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار -إن حقًّا وإن باطلًا- أن تثور نفوس، وأن تنحل نفوس: تثور نفوس الذين أشربت نفوسهم روح الدين؛ إنكارًا وتأثمًا، وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيَّار؛ وهذا كلُّه قد كان في أواخر عهد عثمان».

*** أقول:**

مَن هم هؤلاء الذين أُشربت نفوسهم روح الدين من المنكرين -على زعمه- غير أبي ذر؟!! فإنه لا شك قد أشربت نفسه روح الدين، ولكنه قد انفرد عن إخوانه من الصحابة الكرام الذين فيهم مَن هو أفضلُ منه، ومنهم: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم ممن هم أفضل من أبي ذر، وأشربت نفوسهم روح الدين، وخالطت بشاشته قلوبهم -رضي اللَّه عنهم أجمعين-.

لا يستطيع سيد أن يسمِّي أحدًا من الصَّحَابة، ولا من خيار التابعين، ثم إن أبا ذر لا علاقة له بالاشتراكية التي نسبها إليه وإلى الإسلام الاشتراكيون، ومنهم سيد قطب.

*** وأقول:**

إن هؤلاء الثائرين الذين وصفهم «سيد» بأن نفوسهم قد أُشربت روح الدين؛ إنما هم تلاميذ ابن سبأ من أهل الفتن والشغب والنفاق، ولا علاقة للصحابي الجليل أبي ذرٍّ بهم، ولا بمنهجهم، ولا بمطالبهم، ولا بشغبهم وفتنهم.

وهم على ظلمهم لا علاقة لهم بالمذهب الاشتراكي الذي يمدح «سيد» أهل الفتن من أجله.

والدليل قوله فيما سبق: «وأخيرًا: ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحقُّ بالباطل، والخير بالشر، ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعر الأمور بروح الإسلام: أن يقرِّر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام؛ وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ -عليه لعنة الله-»[1].

ولا شكَّ أنه يقصد بقوله: «وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء، ولم تخالط بشاشته قلوبهم ...». إلخ: أشملُ وأعمُّ من بني أمية، مما يدخل في عمومه جُل الصحابة الموجودين وأغلب خيار التابعين؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

ونعوذ بالله من هوًى يصل بأصحابه إلى هذا المصير، وإلى مثل هذا الإطراء للأشرار، والإزراء بالأبرار الأخيار.

وذلك لا يرضي إلَّا أعداء الله من: اليهود، والنصارى، والشيوعيين، والباطنيين، والحاقدين على ذلك المجتمع الخيِّر، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بأنهم خيرُ القرون.

إن غالبيتهم أصحاب مبادئ ودين وخلُق.

وأهل السنة لا ينظرون إليهم بمنظار «سيد قطب»، وإنما يقولون: إنهم مجتهدون، بعضهم يصوِّب اجتهادهم، وبعضهم يخطئوه.

ثم يرى «سيد» أن منهج عليٍّ الإصلاحي أو التغييري لردِّ الأمر إلى نصابه، وردِّ التصور الإسلامي إلى نفوس الناس والحكام هو بأكل الشعير الذي تطحنه امرأته.

---

(١) «العدالة» (ص١٦٠-١٦١)، ط. الثانية عشرة.

وفي: ط. الخامسة (ص١٨٩) يقول ما نصُّه: «إن تلك الثورة في عمومها كانت أقربَ إلى روح الإسلام واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أمية». ا

كان يجب على «سيد» أن يدرك أنه يعالج موضوعات وقضايا خطيرة تحتاجُ إلى نُقولٍ صحيحة، وإلى استرشاد بمنهج أهل العلم والسنة والحق، وإلى تأدبٍ جم مع عثمان والصحابة والتابعين في عهده.

كيف نسي «سيد» هذا الفقه العظيم؟!! ونسي هذا المقصد الأسمى الذي شرعه الإسلام للمسلمين؛ لتنطلق نفوسهم إلى ما فوق الضرورة من التفكير العالي، والإحساس الراقي، والتأمل في الكون والخلق، والنظر إلى الجمال والكمال!!

ثم كيف يجعل «سيد» هذا الشظف من فضائل علي رضي الله عنه وهو يقول في هذا الكتاب: «فإذا كان الإسلام يعطي الفقير فضلة من أموال الزكاة يوسع بها على نفسه، ويستمتع بما هو فوق ضروراته؛ فأولى أن ينفق الواجد، وأن يتمتع بالحياة متاعًا معقولًا، وألَّا يحرم نفسه من طيباتها وهي كثيرة؛ لتغدو الحياة بهيجة جميلة، ولتنطلق النفس إلى ما هو فوق الضرورة من التفكير العالي، والإحساس الراقي، والتأمل في الكون والخلق، والنظر إلى الجمال والكمال؛ والرسول الكريم يقول: «إذا آتاك اللَّه مالًا؛ فلير أثر نعمة اللَّه عليك وكرامته»[1].

فيعد الشظف والمتربة -مع القدرة- إنكارًا لنعمة اللَّه يكرهه الله[2].

كيف يرضى «سيد» لعلي رضي الله عنه أن يعيش دون هذا المستوى، ودون تحقيق هذه الأهداف؛ مخالفًا هذه المقاصد الإسلامية العليا والغايات النبيلة، ومخالفًا التوجيه النبوي الكريم؟!!

ولا شك أن عليًا رضي الله عنه كان من أكبر كبراء فقهاء الصحابة، وكان بعيدًا عن تلك الصورة التي صورته بها الروايات الرافضية أو الصوفية الغالية، فلقد كان علي رضي الله عنه يتمتع بالطيبات، ويلبس اللباس الجميل اللائق بمكانته رضي الله عنه.

---

(١) انظر: «أبا داود» في كتاب اللباس، حديث رقم (٤٠٦٣)، وانظر: «جامع أبي عيسى الترمذي»، حديث رقم (٢٨١٩)، بكتاب الأدب، وانظر: «صحيح النسائي»، برقم (٥٢٢٣)، وانظر: «صحيح أبي داود» رقم (٣٤٢٨)، «صحيح الترمذي» برقم (٢٢٦٠).

(٢) «العدالة» (ص١٢٥)، ط. الخامسة.

ولكن سيد استروح إلى تلك الروايات الباطلة، وتناسى فقهه في هذه القضية؛ ليظهر الفرق الكبير بين عثمان وعلي.

عثمان وسائر الصحابة يعيشون في غاية الترف، وعلي ﷺ يعيش في غاية الشظف، وإن كان في داخل نفسه يرى أن هذا الشظف إنكار لنعمة الله؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

قال سيد: «وربما باع سيفه[١] ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرًا عليه الخصاص[٢] التي يسكنها الفقراء؛ جاء ليعيش كما روى عنه النضر بن منصور[٣]، عن عقبة بن علقمة[٤] قال: «دخلتُ على عليٍّ عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته، وكسر يابسه، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟! فقال لي: يا أبا الجنوب! كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشنَ من هذا -وأشار إلى ثيابه-، فإن لم آخذ بما أخذ به؛ خفتُ ألا ألحقَ به».

أو كما روى عنه هارون بن عنترة، عن أبيه قال: «دخلتُ على عليٍّ بالخورنق[٥] وهو فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعل هذا بنفسك؟! فقال: والله

---

(١) يعني: عليًّا ﷺ.

(٢) بيتٌ من شجر أو قصب. «لسان العرب»: مادة (خصص).

(٣) والنضر بن منصور: قال البخاري: «منكر الحديث». قاله الذهبي في الميزان (٤/ ٢٦٤).

وعقبة بن علقمة: قال فيه أبو حاتم: «بيِّن الضعف، لا يُشتغلُ به». وضعَّفه الدارقطني، وابن حجر.

(٤) ولا يُعرف مصدر هذه الرواية، ولعلها من وضع الشيعة.

(٥) اسم نبت، واسم نهر، واسم قصر بالعراق، فارسي معرب، بناه النعمان الأكبر، والمجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب. «لسان العرب»: مادة: (خرق). والمناسب: الأخيران.

* وواضحٌ أن بين الروايتين تعارضًا:

- فالأولى: تفيدُ أنه رفض السكن في القصر الأبيض، وآثر الخصاص.

- والثانية: تفيدُ أنه دخل عليه بالخورنق.

وعلى المعنيين فإنَّ عليًّا كان يتمتع بنعمة الله عليه، ويشكره عليها، والروايات التي اعتمدها «سيد» واضحة البطلان، ويرفضها العقل، ويربأ بعلي عنها، وواقعه يخالفها أشد المخالفة.

ما أرزؤكم شيئًا، وما هي إلَّا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة»[1].

وهكذا ينقل «سيد» هذه النقول؛ ليبيِّن بها الفروق الهائلة بين تصور الحكم في نفس عليٍّ، وتصور الحكم في نفس عثمان.

والفروق الهائلة بين عليٍّ وقد سار في طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها النبي ﷺ والخليفتان بعده، وبين عهد عثمان الذي تحطَّمَت فيه الأسس التي جاء بها الإسلام ليقيمها بين الناس.

ولا يحتاج «سيد» إلى أن يذكر المصادر، ولا إلى دراسة الروايات للتأكد من صدقها أو كذبها، بل يكفي أن تلك قيلت في ذم عثمان وعهده، وهذه قيلت في مدح علي في نظره؛ لأن هذه الحياة لم يعشها رسول الله ﷺ ولا أصحابه الكرام.

ولو درس «سيد قطب» حياة الخلفاء الأربعة دراسة علمية منصفة، واعتمد على الأحاديث والروايات الصحيحة في فضلهم؛ لما فرَّق بينهم هذا التفريق المفزع، لكنه تصور الخلفاء الثلاثة: أبا بكر، وعمر، وعليًّا -بناء على الروايات الواهية-: أنَّ حياتهم كانت حياة قوم طبقوا النظام الاشتراكي تطبيقًا دقيقًا على أنفسهم وغيرهم، وإن كان عمر قد خالف الاثنين، لكنه ندم ورجع إلى مذهبهم في المساواة في العطاء.

ولو درسهم دراسة فاحصة؛ لربما هجم عليهم هجومًا لا هوادة فيه، كما هاجم أخاهم عثمان رضي الله عنه.

*** ولنضرب أمثلة من حال عليٍّ رضي الله عنه:**

قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا حجاج، حدثنا شريك، عن عاصم بن كليب، عن محمد بن كعب القرظي: أن عليًّا قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإني لأربطُ الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفًا»[2].

---

(١) «العدالة» (ص١٦٢)، ط. الثانية عشرة.

(٢) «المسند» (١/ ١٥٨)، وانظر: «تاريخ الإسلام»، «عهد الخلفاء» للذهبي (ص٦٣٦)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ٣٣٢)، و«الحلية»: (١/ ٨٥-٨٦)، و «مجمع الزوائد» (٩/ ١٢٣).

وقال ابن أبي يحيى: عن محمد بن كعب القرظي، عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما في حديث ساقه قال: «أقطع النبيُّ ﷺ عليًّا رضي الله عنه بذي العشيرة من ينبع، ثم أقطعه عُمر رضي الله عنه بعدما استخلف إليها قطيعة، واشترى عليٌّ رضي الله عنه إليها قطيعة، وحفر بها عينًا، ثم تصَدَّق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، القريب والبعيد، وفي الحياة والسِّلم والحرب، ثم قال: صدقة لا تُوهب، ولا تورث؛ حتى يرثها اللَّه الذي يرث الأرض ومَن عليها، وهو خير الوارثين»[1].

* **أموال علي رضي الله عنه:**

قال[2]: وكانت أموال علي رضي الله عنه عيونًا متفرِّقة بينبع، منها: عينٌ يقال لها: «عين البحير»، وعين يقال لها: «عين أبي نيزر»، وعين يقال لها: «عين نولا»؛ وهي اليوم تدعى «العدر»، وهي التي يقال لها: إن عليًّا رضي الله عنه عمل فيها بيده، وفيها مسجد النبي ﷺ متوجهة إلى ذي العشيرة يتلقى عير قريش، وفي هذه العيون أشراب بأيدي أقوام زعم بعض الناس أن ولاة الصدقة أعطوهم إياها.

وزعم الذين هي بأيدهم أنها ملك لهم، إلا «عين نولا» فإنها خالصة، إلَّا نخلات فيها بيد امرأة يقال لها: «بنت يعلى» مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعمل علي رضي الله عنه بينبع «البغيبغات»، وهي عيون منها: عين يقال لها: «خيف الأرك»، ومنها عين يقال لها: «خيف ليلى»، ومنها عين يقال لها: «خيف بسطاس» فيها خليج النخل مع العين.

وكانت «البغيبغات» مما عمل علي رضي الله عنه وتصدَّق به؛ فلم تزل في صدقاته حتى أعطاها حسين بن علي عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب يأكل ثمرتها، ويستعين بها على دينه ومئونته على ألَّا يزوِّج ابنته يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ فباع عبد اللَّه تلك العيون من معاوية رضي الله عنه.

ولعليٍّ رضي الله عنه عينٌ يقال لها: «عين الحدث» بينبع، ولعليٍّ رضي الله عنه في صدقاته «عين

---

(١) «أخبار المدينة» (١/ ٢١٣).

(٢) القائل هو: أبو غسَّان شيخ المؤلِّف، وهو محمد بن يحيى الكناني: ثقة.

ناقة» بوادي القرى، يقال لها: «عين حسن» بالبيرة من العلا.

وكان له صدقات بالمدينة: «الفقيرين» بالعالية، و«بئر الملك» بقناة، و«الأدبية» بالأضم؛ فسمعتُ أن حسنًا أو حسينًا باع ذلك كله.

وله بوادي القرى -أيضًا-: «عين موات»، ولعلي ﷺ أيضًا حق على «عين سكر»، وله -أيضًا- ساقي على عين بالبيرة، وهو في الصدقة.

وله بحرة الرجلاء من ناحية شعب زيد وادٍ يُدعى: «الأحمر»، شطرُه في الصدقة، وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي منحةً من علي، وكان كله بأيديهم حتى خاصمه فيها حمزة بن حسن؛ فأخذ منهم نصفه.

وله -أيضًا- بحرَّة الرجلاء وادٍ يقال له: «البيضاء»، فيه مزارع وعفا وهو في صدقته[1].

وقد ذكر ابن شبَّة بعد هذا أملاكًا لعلي ﷺ وصدقات وعبيدًا وعتقاء لا يتسع البحث لسردها.

قال ابنِ حزم في كتابه «الملل والنحل»[2]: «وأما علي ﷺ فتوسَّع في هذا الباب من حلِّه، ومات عن أربع زوجات، وتسع عشرة أم ولد سوى الخدم والعبيد، وتوفي عن أربعة وعشرين ولدًا من ذكر وأنثى، وترك لهم العقار والضياع ما كانوا به من أغنياء قومهم ومياسيرهم.

هذا أمرٌ مشهور، لا يقدر على إنكاره من له أقل علم بالأخبار والآثار؛ ومن جملة عقاره التي تصدَّق بها كانت تغل ألف وسق تمرًا سوى زرعها؛ فأين هذا من هذا؟!».

كيف يكون موقف «سيد قطب» من عليٍّ لو اطلع على هذه الأخبار التي تدل على أنَّ عليًّا كان يملك الأراضي والآبار والعيون والوديان، ولو تصدَّق بالكثير

---

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة: (١/ ٢١٣-٢٢٠).

(٢) (٤/ ١٤٢)، «المحلى» (٨/ ٤٤٤) نقلًا عن أحمد شاكر من حاشية «الخراج» ليحيى بن آدم (ص٩٠)، ولم أجده في الموضع المشار إليه من «المحلى» في الطبعة التي عندي، وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (ج ٧/ ٣٣٢-٣٣٤)، حيث ذكر زوجات عليٍّ، وبنيه، وبناته، وسراريه -رضي الله عنهم أجمعين-.

منها كغيره من الصَّحَابة.

أما نحن فنقول: إن هذا لا يضر عليًّا، ولا إخوانه من أغنياء الصحابة: كعثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف؛ فإنَّ اللَّه وسَّع عليهم، وأدرَّ عليهم رزقه وفضله؛ فكانوا فيه سمحاء أسخياء، أبرارًا متصدِّقين، ووصالين لأرحامهم؛ فقد -والله- فقهوا الإسلام؛ فاتخذوا الأموال نجائب ومطايا إلى الجنة.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في «المحلى»:

«الحرام حرام ولو أنه مقدار ذرة، وكثير الحلال حلال ولو أنه الدنيا وما فيها، وقال رسول اللَّه ﷺ: **«وإنَّ هذا المال خَضِرة حُلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين، واليتيم، وابن السبيل** -أو كما قال النبي ﷺ-، **وإنه من يأخذه بغير حقِّه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة»**[1].

وفي لفظ: **«وإن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقِّه؛ فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقِّه؛ كان كالذي يأكل ولا يشبع»**[2]. وهو من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: **«نعم المال الصالح للمرء الصالح»**[3].

إن «سيد قطب» يصر ويلح على أنَّ الحكم قد فسد في عهد عثمان!! وقد تشتدُّ عبارته أحيانًا، ويلطفها أحيانًا.

قال «سيد» في موضع آخر: «وفي سبيل تبرئة الإسلام -روحه ومبادئه- من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعًا في الإسلام نقرِّر هذه الحقائق؛ لتكون واضحة في تصوُّر الحكم الإسلامي على حقيقته؛ ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر، وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى يدي عليٍّ الإمام، ثم على أيدي الملوك

---

(١) البخاري، زكاة، حديث (١٤٦٥).

(٢) مسلم، زكاة، حديث (١٠٥٢).

(٣) «مسند أحمد» (٤/ ١٩٧).

من أميَّة، ومن بعدهم من بني العباس بعد هذه الهزَّة المبكرة في تاريخ الإسلام»[١].

وقال: «قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر على معاوية وأمية خاصَّة سياستهم التي تقر هذا الترف، وتستزيد منه، وتتمرَّغ فيه، وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف؛ فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية، والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف، وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئًا من هذا كله؛ فانطلق يخطب في الناس: لقد حدثت أعمال ما أعرفُها، واللَّه ما هي في كتاب اللَّه، ولا سنة نبيه، وإني لأرى حقًّا يطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذَّبًا، وأثرة بغير تقى»[٢].

فأنت ترى قناعة «سيد» بفساد الحكم في عهد عثمان، وأن حقيقة التصوُّر الإسلامي للحكم قد تهدمت أسسه، ثم ذهب!!!

* * *

---

(١) «العدالة» (ص١٥٥-١٥٦)، ط. الثانية عشرة.

ولاحظ كيف خصَّ عليًّا بـ: «الإمام» في هذا السياق الذي ذكر فيه أبا بكر وعمر.

و ط. الخامسة (ص١٨٢) وفيها ما يلي:

«ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر، وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى يدي عليٍّ الإمام، ثم على أيدي الملوك من أمية، ومَنْ بعدهم من بني العباس بعد أن خُنقت روح الإسلام».

(٢) «العدالة» (ص١٧٤)، ط. الثانية عشرة.

الفصل العشرون: تحطم أسس الدين في عهد عثمان في زعم سيد قطب

ويقول: «لقد كانت هذه الصيحة يقظةَ ضمير مسلم لم تخدره الأطماع أمام تضخم فاحش في الثروات يفرق الجماعة الإسلامية طبقات، ويحطم الأسس التي جاء بها هذا الدين؛ ليقيمها بين الناس»(١).

هكذا يتصور «سيد» عهد عثمان وخلافته، ويصوِّره هذا التصوير المرعب الذي من جملة مساوئه في نظره: أن الجماعة الإسلامية أصبحت طبقات، وأن الأسس التي جاء بها الإسلام قد تحطَّمت!!

لا نريد أن نناقشه، ولا نشرح كلامه؛ لأنه واضح للقارئ الفطن المنصف، فليفهمه.

ثم واصل سيد بذكر المبررات لصبر عليٍّ على حياة الجوع والشظف، ثم قال:

«ولقد كان منهاجه الذي شرعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له: أيها الناس، إنما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفِّذ فيكم ما أمرت به؛ ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل عطاء أعطاه من مال الله؛ فهو مردود في بيت المال؛ فإن الحق لا يبطله شيء(٢)، (ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء، وفرِّق في البلدان لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق؛ فالجورُ عليه أضيق)»(٣).

أولًا: إن هذا الكلام لا يثبت عن علي -رضي الله عنه، وبرأه الله منه-.

ثانيًا: هل هذا هو منهج عليٍّ لا يدندن إلَّا حول المال؟!!

---

(١) «العدالة» (ص١٧٥)، ط. الثانية عشرة.

(٢) «العدالة» (ص١٦٣)، ط، الثانية عشرة، و (ص١٩٣)، ط. الخامسة.

(٣) ما بين القوسين من «شرح نهج البلاغة» (ص١١٨)، ولم أجد فيه غير هذه القطعة، و«العدالة» (ص١٦٣)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٩٣)، ط. الخامسة.

ثالثًا: إقطاع الإمام للرعايا أمرٌ ثابت في شريعة الإسلام من تصرفات الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، واتفق عليه فقهاء الإسلام؛ فقد أعطى رسول اللَّه ﷺ عليًا بئر قيس والشجرة، وسأل علي رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقطعه ينبع.

وأقطع عمر خمسة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ: سعد بن أبي وقاص، وعبد اللَّه بن مسعود، وخباب، وأسامة بن زيد، والزبير؛ وأمر أبا موسى أن يقطع رجلًا أرضًا بالعراق لا تضر بالمسلمين. روى كل ذلك يحيى بن آدم في «كتاب الخراج»[1].

وروى أبو يوسف في «كتاب الخراج»[2] بأسانيده: أن رسول اللَّه ﷺ أقطع الزبير فيها أرضًا يقال لها: «الجرف»، وأنَّ عمر أقطع العقيق أجمع للناس، وأن النبي ﷺ لما قدم المدينة؛ أقطعَ أبا بكر وعمر، وأقطع بلال بن الحارث المزني ما بين البحر والصخر.

وعن أبي رافع قال: «أعطاهم النبي ﷺ أرضًا، فعجزوا عن عمارتها، فباعوها في زمن عمر بثمانية آلاف أو بثمانمائة ألف درهم».

وأن عثمان رضي الله عنه أقطع[3] عبد اللَّه بن مسعود في «النهرين»، ولعمار «استينيا»، وأقطع خبَّابًا «صنعاء»، وسعد بن مالك «قرية هرمزان».

وكان لعبد اللَّه بن مسعود أرض خراج، وكان لخباب أرض خراج، وللحسين أرض خراج.

وروى أبو عبيد في كتاب «الأموال»: أن النبي ﷺ أقطعَ عددًا من الصحابة أرضين: فأقطع رجلًا من الأنصار يُسَمَّى سليطًا، وأقطع الزبير أرضًا بخيبر بها شجر ونخل، وأقطع بلال بن الحارث المزني أقطعه العقيق أجمع، وأقطع فرات ابن حيَّان العجلي أرضًا باليمامة، وكتب لأبي ثعلبة الخشني على أرض بأيدي

---

(١) (ص٨٤-٨٥).

(٢) (ص٦٦-٦٨).

(٣) «الأموال» لأبي عبيد (ص٣٨٦-٣٩٣)، وقد أورد أبو داود عددًا من الأحاديث في إقطاع النبي ﷺ أناسًا من الصحابة (١٤)، كتاب الخراج والإمارة (٣٦)، باب: في إقطاع الأرضين (ص٤٤٣-٤٥٣)، لا يتَّسعُ المقامُ لذكرها، فليرجع إليها من شاء.

الروم، وكتب لتميم الداري على أرض بيت لحم، ونفَّذ ذلك له عمر لما استخلف وظهر على الشام، قال أبو عبيد: «فهي بأيدي أهل بيته إلى اليوم».

وأقطع رسول اللَّه ﷺ أبيض بن حمال الملح بمأرب، ثم استعادها منه، ثم أقطعه ما يحمي من الأراك ما لم تنله أخفاف الإبل.

وأقطع أبو بكر طلحة بن عبيد اللَّه، وردَّ ذلك عمر.

وكتب عمر إلى أبي موسى أن يقطع نافعًا أبا عبد اللَّه الثقفي أرضًا على شاطئ دجلة، وأنَّ عثمان أقطع خمسة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وتقدَّم ذكرهم.

ثم مضى أبو عبيد يشرح الأحاديث والآثار، ويبيِّن مخارجها الفقهية.

وبعد؛ فهل يصحُّ أن ينسب إلى أمير المؤمنين الخليفة الراشد العادل علي بن أبي طالب: أن يرد سنة ثابتة من سنن رسول اللَّه وخلفائه شاهدهم يعملون بها، وشاهد أبا بكر وعمر وهما يقطعان القطائع من أراضٍ موات تنفع المسلمين ولا تضرهم؟!!

وهل يصح أن يركز فقط على من أقطعهم عثمان بوجه شرعي؛ وبناءً على منهج الرسول والخليفتين الراشدين فيبتز منهم أموالهم التي تملكوها بوجوه مشروعة في شريعة الإسلام؛ لاسيما والذين أقطعهم عثمان ليسوا من قرابته؟!

أيجوز لمسلم أن يقف على هذه الصورة الحاقدة الشوهاء، فينسبها إلى إمام نقيٍّ طاهر يبرزه في صورة المنتقم المتشفِّي؟!! وممن؟!! من إمام طاهر نقيٍّ بريء، ألا وهو عثمان الخليفة العادل الراشد -رضي اللَّه عنهم أجمعين-.

* * *

الفصل الحادي والعشرون: أقوال أئمة الإسلام في الإقطاع والإحياء

قال أبو يوسف: «فقد جاءت هذه الآثار بأن النبي ﷺ أقطعَ أقوامًا، وأنَّ الخلفاء من بعده أقطعوا، ورأى رسول الله ﷺ الصلاح فيما فعل من ذلك إذا كان فيه تألف على الإسلام وعمارة الأرض، وكذلك الخلفاء إنما أقطعوا من رأوا أن له غناء في الإسلام ونكاية للعدو، ورأوا أن الأفضل ما فعلوا، ولولا ذلك لم يأتوه، ولم يقطعوا حق مسلم ولا معاهد».

وقال أبو يوسف: «وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضًا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التي ذكرنا أنَّ للإمام أن يقطع منها؛ فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك، ولا يخرجه من يدي مَن هو في يده وارثًا أو مشتريًا؛ فأما إن أخذ الوالي من يد واحد أرضًا، وأقطعها آخر؛ فهذا بمنزلة الغاصب»[1].

وقال أبو يوسف: «وكل من فرَّ عن أرضه، أو قتل في المعركة، وكل مغيض ماء أو أجمة؛ فكان عمر رضي الله عنه يقطع من هذه لمن أقطع».

وقال أبو يوسف: «وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد، ولا في يد وارث؛ فللإمام العادل أن يجيز منه، ويعطي من كان له غناء في الإسلام، ويضع ذلك موضعه، ولا يحابي به، فكذلك هذه الأرض، فهذا سبيل القطائع عندي في أرض العراق.

والذي صنع الحجاج، ثم فعل عمر بن عبد العزيز، فإن عمر رضي الله عنه أخذ ذلك بالسنة؛ لأن من أقطعه الولاة المهديون؛ فليس لأحد أن يردَّ ذلك، فأما مَن أخذ من واحد، وأقطع آخر؛ فهذا بمنزلة مال غصبه واحد من واحد، وأعطى واحدًا»[2].

---

(١) «كتاب الخراج» (ص٦٦).

(٢) «كتاب الخراج» (ص٦٣).

قال أبو يوسف: «وكل أرض من العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب، وهي غير عامرة، وليست لأحد، ولا في يد أحد، ولا ملك أحد، ولا وراثة، ولا عليها أثر عمارة، فأقطعها الإمام رجلًا فعمرها، فإن كانت في أرض الخراج؛ أدَّى عنها الذي أقطعها الخراج، والخراج: ما افتتح عنوة، مثل السواد وغيره.

وإن كانت من أرض العشر؛ أدَّى عنها الذي أقطعها العشر، وأرض العشر: كل أرض أسلم عليها أهلها، فهي أرض عشر، وأرض الحجاز، والمدينة، ومكة، واليمن، وأرض العرب كلها أرض عشر.

فكل أرض أقطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الخراج، إلا أن يصيرها الإمام عشرية، وذلك إلى الإمام، إذا أقطعَ أحدًا أرضًا من أرض الخراج، فإن رأى أن يصير عليها عشرًا، أو عشرًا ونصفًا، أو عشرين أو أكثر، أو خراجًا؛ فما رأى أن يحمل عليه أهلها فعل؛ وأرجو أن يكون ذلك موسعًا عليه، فكيفما شاء من ذلك فعل، إلَّا ما كان من أرض الحجاز، والمدينة، ومكة، واليمن: فإن هنالك لا يقع خراج، ولا يسع الإمام ولا يحلُّ له أن يغيِّر ذلك، ولا يحوله عما جرى عليه أمرُ رسول الله ﷺ وحكمه؛ فقد بينتُ لك، فخذ بأي القولين أحببتَ، واعمل بما ترى أنه أصلح للمسلمين، وأعم نفعًا لخاصتهم وعامتهم، وأسلم لك في دينك -إن شاء الله تعالى-»[1].

وقال ابن قدامة رحمه الله **في «المغني»**[2]: «وللإمام إقطاع الموات لمن يحييه، فيكون بمنزلة المتحجر الشارع في الإحياء». ثم ساق الأدلة على ذلك.

وقال الإمام الشافعي في كتابه «الأم»[3] بعد كلام له في إحياء الموات: «وإذا أبان رسول الله ﷺ أنَّ من أحيا أرضًا مواتًا؛ فهي له، والموات: ما لا ملك فيه

---

(١) «كتاب الخراج» (ص٦٥).

(٢) (٨/ ١٥٣) فما بعدها.

(٣) (٤/ ٤٦)، وانظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ١٤٨-١٤٩)، باب: من أقطع قطيعة، أو تحجر أرضًا فلم يعمرها، وانظر: «المعرفة» للبيهقي أيضًا (٩/ ١١- ٢٠)، باب: إقطاع الموات وإحياؤه. وباب: الحمى.

لأحد خالصًا دون الناس، فللسلطان أن يقطع من طلب مواتًا، فإذا أقطع كتب في كتابه: ولم أقطعه حق مسلم، ولا ضررًا عليه».

قال الشافعي: «وخالفنا في هذا بعض الناس، فقال: ليس لأحدٍ أن يحمي مواتًا إلَّا بإذن السلطان، ورجع صاحبه إلى قولنا فقال: وعطية رسول اللَّه ﷺ أثبت العطايا، فمن أحيا مواتًا؛ فهو له بعطيَّة رسول اللَّه ﷺ، وليس للسلطان أن يعطي إنسانًا ما لا يحل للإنسان أن يأخذه».

وقال الزرقاني في شرح حديث: «**من أحيا أرضًا ميتة فهي له**»: «بمجرَّد الإحياء، ولا يحتاج لإذن الإمام في البعيدة عن العمارة اتفاقًا.

قال مالك: معنى الحديث: في فيافي الأرض، وما بعُد من العمران، فإن قرب؛ فلا يجوز إحياؤه إلا بإذن الإمام».

وقال أشهب: «وكثير من أصحابنا وغيرهم يحييها من شاء بغير إذنه».

قال سحنون: «وهو قول أحمد، وداود، وإسحاق».

والشافعي قائلًا: «عطية رسول اللَّه ﷺ لكل من أحيا مواتًا أثبت من عطية من بعده من سلطان وغيره، واستحب أشهب إذنه؛ لئلا يكون فيه ضرر على أحد»[1].

رابعًا: إن «سيد قطب» نفسه قد قرَّر في هذا الكتاب «العدالة الاجتماعية»: أن إقطاع السلطان بعض الأرض التي لا مالك لها واحد من وسائل التملك الفردي، وذكر أن النبي ﷺ والخلفاء بعده أقطعوا أناسًا، فقال:

«**ثامنًا**: إقطاع السلطان بعض الأرض التي لا مالك لها مما آل إلى بيت مال المسلمين من المشركين الذين لا ورثة لهم؛ فالإمام وليهم، أو من أرض الموات لا مالك لها كذلك.

وقد أقطع النبيُّ ﷺ أبا بكر وعمر أرضًا، كما أقطع الخلفاء من بعده مكافأة على جهد بارز وخدمة للإسلام، ولكن في حدود ضيقة، ومن الأرض التي لا مالك لها، والأرض الموات؛ فلما جاء بنو أمية نهبوا الناس، وأقطعوا الأرض لذويهم؛

---

(١) «شرح الزرقاني للموطأ» (٤/ ٢٩).

فكانوا ملوكًا ظلمة، لا خلفاء راشدين كما سيجيء»[1].

فهؤلاء فقهاء الإسلام متفقون أن للإمام أن يقطع المسلمين من الأراضي الموات ما لا يضرّ بالمسلمين.

وهذا «سيد قطب» نفسه يرى أن للإمام أن يقطع الأراضي التي لا مالك لها، فما باله لا يعترض على سلطان من السلاطين إلَّا على عثمان بن عفان، ويستشهد بالرواية الباطلة المنسوبة ظلمًا وزورًا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فهل كان عثمان في نظر «سيد» من بني أمية الظلمة الذين قال عنهم: «فلما جاء بنو أمية نهبوا الناس، وأقطعوا الأرض لذويهم[2]؛ فكانوا ملوكًا ظلمة لا خلفاء راشدين».

لا شكَّ أن «سيد قطب» لا يحمل هذه الحملات على عثمان، ولا يستروح إلى الروايات الباطلة التي تطعن فيه إلَّا من هذا المنطلق؛ وقد صرَّح بأن خلافة عليٍّ كانت امتدادًا طبيعيًّا لعهد الخليفتين، وأن عهد عثمان كان فجوةً؛ وهنا يريد إبطال تصرفاته، وإبطال إقطاعاته.

خامسًا: كيف يقول علي ﷺ هذا القول: «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله؛ فهو مردودٌ في بيت المال». بهذا العموم والشمول، فلماذا أجمع الصحابة على بيعة عثمان إذن؟!! ولماذا كان إمامًا؟!! وكل عطاء أعطاه، وكل قطيعة أقطعها طوال خلافته الطويلة باطل؟!!!

ألا إنه كذب الروافض، يتعلَّق به «سيد قطب»، لماذا؟! لأنه طعن في عثمان فحسب، وإلَّا فإن مجرَّد سماع هذا الهراء يكفي للحكم على بطلانه، وأنه مفترى على عليٍّ ﷺ.

بقية الخطبة المفتراة على عليٍّ ﷺ: «أيها الناس؛ ألا لا يقولن رجال منكم غدًا -وقد غمرتكم الدنيا، فامتلكوا العقار، وفجَّروا الأنهار، واتخذوا الوصائف[3] المرققة إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٩٨).

(٢) في قوله هذا نظرٌ قوي يحتاج للأدلة الواضحة.

(٣) الوصائف: جمع وصيفة، وهي الأمَة، والعبد وصيف.

التي يعلمون- : حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا .

ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن الفضلَ له على سواه بصحبته ؛ فإن الفضلَ غدًا عند الله ، وثوابه وأجرُه على الله .

ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدَّق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ؛ فأنتم عباد الله ، والمالُ مالُ الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل لأحدٍ على أحد ، وللمتقين عند الله أحسنُ الجزاء»[1] .

وهذه الخطبة تبرز لنا أناسًا آخرين من المهاجرين والأنصار قد امتلكوا العقار ، وفجَّروا الأنهار .

*** ثم أقول :**

إن واضعَ هذه الخطبة مع كذبِهِ فهو من أجهل الناس بتاريخ عليٍّ نفسه ؛ فعليٌّ رضي الله عنه كان الجهادُ في سبيل الله والفتوحات الإسلامية في عهده قد توقفت ؛ فلا غنائم ، ولا فيء ، فما هي الأموالُ التي يقسمها بين الأغنياء والفقراء والمهاجرين والأنصار وغيرهم؟!!

إن الفتن والحروب الداخلية ومشاكل الثوَّار في داخل جيشه قد فعلت بقوَّة عليٍّ وشجاعته وعدله كل الأفاعيل .

فلو فرضنا أنه كان يرى أن إقطاعات عثمان وعطاءه كان باطلًا ؛ أكان يستطيع أن يستعيدها ممن حازوا هذا العطاء ؛ خصوصًا بني أمية الذين قاتلهم وقاتلوه حتى كان النصر والظفر لهم في النهاية؟!!

ثم أين هي البلدان التي فتحت في عهد علي؟! وكم كانت هذه المغانم التي يزعم مفتري الخطبة أن عليًا سيقسمها بالسوية؟!!

إن هناك عقبات كئيدة وقفت في وجه عليٍّ رضي الله عنه أخطرُها : تمرُّد جيشه عليه من الثوار على عثمان ، والخوارج ، والغُلاة وغيرهم .

---

(١) «العدالة» (ص١٦٣) ، ط. الثانية عشرة ، و (ص١٩٣) ، ط. الخامسة.

فهل ترك هؤلاء له الفرصة ليَعِدَ مثل هذه الوعود، فضلًا عن تنفيذها[1].

ثم هل كان عليٌّ في عهد عثمان من الكادحين المحرومين، فلا يملك أرضًا، ولا يركب خيلًا، ولا يملك وصيفة؟!

لقد كان علي ﷺ من أغنياء الصحابة؛ فعنده العقار، والمال، والعبيد، والإماء؛ وكان ممن يُفضَّل في العطاء؛ وكلُّ ذلك مما أباحه الله له وللمؤمنين جميعًا، ولا حرجَ على أحد منهم في امتلاك ذلك ما دام يؤدِّي منه الحقوق.

قال سيد:

«ولقد كان من الطبيعي ألَّا يرضى المستنفعون عن عليٍّ، وألَّا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار؛ فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقًا لأطماعهم على حساب العدل والحق اللذين يصرُّ عليهما عليٌّ ﷺ هذا الإصرار»[2].

نتساءل: مَن هؤلاء المستنفعون الذين لا يقنعون بشرعة المساواة، والذين مردوا على الاستئثار؛ فانحازوا في النهاية إلى معسكر أمية؟!

إنهم آخرون غيرَ بني أمية، إنهم أولئك المهاجرون، ومنهم: علي، والأنصار، وأبناؤهم، ومَن شاركَهم من التابعين الذين خاطبهم عليٌّ ﷺ ممن غمرتهم الدنيا، فامتلكوا العقار، وفجَّروا الأنهار، ويرون لأنفسهم فضلًا على مَن سواهم؛ فيريد علي ﷺ أن ينصف منهم الكادحين المحرومين والمظلومين في نظر «سيد قطب»، الذي تملَّك المذهب الاشتراكي عقلَه ومشاعره، حتى صار لا يعرف الحقَّ من الباطل، والكذب من الصدق، يفرح بكل هراء ولغو من القول

---

(١) إن مما يؤكد كذب هذه الخطبة التي تزعم أنَّ عليًا وعد بردِّ عطايا عثمان: أن عثمان كان قد أقطع طلحة أرضًا بالعراق تسمى «النشاستج»، ذكر ذلك ابن شبَّة في «تاريخه» (ج٣)، (ص٢٣٩)، وذكر ابن سعد في «طبقاته» (ج٣)، (ص٢٢٤): «أن عمران بن طلحة دخل على عليٍّ ﷺفأكرمَه، وأجلسه على طنفسة، ثم قال له: أما إنَّا لم نقبض أرضكم هذه السنين، ونحن نريد أن نأخذها، إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس. يا فلان، اذهب معه إلى ابن قرظة، فمُره ليدفع إليه أرضه وغلة هذه السنين، يا بن أخي، وأتنا في الحاجة إذا كانت لك».

(٢) «العدالة» (ص١٦٣)، ط. الثانية عشرة، (ص١٩٣)، ط. الخامسة.

يدعم به هذا المذهب .

ألا تعلم أنَّ هؤلاء هم خيرُ القرون الذين شهد لهم رسول اللَّه ﷺ بالخيريَّة؟!
ألا تعلم أنَّ هؤلاء هم الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلَّمُوا الناس العدل؟!

ألا تدرك أنك بتصويرهم بهذه الصورة الشوهاء تؤكِّد مطاعن أهل الرفض والزندقة، ومطاعن سائر أعداء الإسلام من اليهود والنصارى المبشرين والمستشرقين والمستعمرين .

بأي تاريخ يعتز المسلمون؟! وبأي الأمجاد يلهجون إذا كان هذا هو واقع أسلافهم؟! فكلٌّ مواقفهم تابعة لأهوائهم وشهواتهم في نظر «سيد قطب» ؛ فلا ينصرون الحق ، ولا يفكرون فيه ، ولا يبحثون عنه؟!!

واصل «سيد قطب» طعنه في بني أمية مستثنيًا عهد عمر بن عبد العزيز .

ثم ذكر خطبتين مزعومتين لمعاوية لا تليقُ بمن هو دونَه ، فكيف به؟!!!

وذكر خطبة للمنصور في زعمه!!

ثم قال :

«أما سياسة المال فكانت تبعًا لسياسة الحكم ، وفرعًا عن تصور الحكام لطبيعة الحكم وطريقته ، ولحقِّ الراعي والرعية ؛ فأما في حياة محمد ﷺ وصاحبيه وخلافة علي بن أبي طالب ؛ فكانت النظرة السائدة هي النظرة الإسلامية ، وهي : أن المال العام مال الجماعة ، ولا حقَّ للحاكم بنفسه أو بقرابته أن يأخذ منه شيئًا إلَّا بحقِّه ، ولا أن يعطي أحدًا منه إلَّا بقدر ما يستحقُّ ؛ شأنه شأن الآخرين .

وأما حين انحرف هذا التصوُّر قليلًا في عهد عثمان ؛ فقد بقيت للناس حقوقهم ، وفهم الخليفة أنه في حل -وقد اتسع المال عن المقررات للناس- أن يطلق فيه يدَه ببر أهله ، ومن يرى من غيرهم حسب تقديره .

وأما حين صار الحكم إلى الملك العضوض ؛ فقد انهارت الحدود والقيود ، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح بالحق في أحيان قليلة ، وبالباطل في سائر الأحيان ، واتسع مال المسلمين لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم

إلى غير حد، وخرج الحكام بذلك نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال»[1].

* **وفي هذا نظرات:**

الأولى: أن الرجل قد وصف عهد الرسول وصاحبيه وخلافة عليٍّ بأن النظرة السائدة فيها هي النظرة الإسلامية . . . إلخ، أما عهد عثمان فبخلاف ذلك.

لكن الرجل استدرك على خلاف عادته -أو استدرك له غيره من المشرفين على طبع الكتاب- القول الآتي: «وأما حين انحرف هذا التصور قليلًا في عهد عثمان . . . » إلخ. لامتصاص غضب من قد يغضب لعثمان ﵁.

ولكن هيهات أن تنطلي هذه الحيلة على مَن سبرَ غور «سيد»، وغور هذا الكتاب، وشاهد الحملات الكثيرة فيه على الخليفة الشهيد المظلوم ﵁ من «سيد قطب»، والتي منها:

«هذا التصوُّر لحقيقة الحكم قد تغيَّر شيئًا ما دون شك على عهد عثمان، وإن بقيَ في سياج الإسلام، فقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخٌ كبير، ومِن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام».

فهذه الحملة على ما فيها من إقدام وإحجام تبيِّن أن «سيد قطب» يعتقد أنَّ الأمرَ قد انحرف كثيرًا في عهد عثمان.

وقوله بعد أن ساق رواية كاذبة مضمونها: أنه أعطى زوج ابنته مائتي ألف، فبكى من ذلك زيد بن أرقم الذي يستشعر روح الإسلام المرهف، فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيقُ ضميره هذا التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: «ألق المفاتيح يا بن أرقم، فإنَّا سنجد غيرَك».

قال: «والأمثلة كثيرة على هذه التوسعات». ثم ذكر منحًا كبيرة للزبير، وطلحة، ومروان.

ثم يقول: «وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان، وفيهم معاوية الذي وسع عليه في الملك، فضم إليه فلسطين وحمص، وجمع له

---

(١) «العدالة» (ص١٦٨)، ط. الثانية عشرة، و (ص٢٠٠)، ط. الخامسة.

قيادة الأجناد الأربعة، ومهَّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليٍّ، وقد جمع المال والأجناد، وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول اللَّه ﷺ الذي آواه عثمان، وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرف، وفيهم عبد اللَّه بن أبي سرح أخوه من الرضاعة»[1].

ويقول: «ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره من مروان»[2].

ويقول: «مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خَلَّف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض، وبخاصة في الشام، وبفضل ما مكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام؛ من إقامة الملك الوراثي، والاستئثار بالمغانم، والأموال، والمنافع»[3].

ويقول: «ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علي ﷺ امتدادًا طبيعيًا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان الذي تحكم فيه مروان كان فجوةً بينهما»[4].

فبالله!! هل الذي ينظر إلى عثمان هذه النظرة الحانقة، ويحمل عليه هذه الحملات الشعواء وغيرها بما تحمل من قسوة وعنف، ويصدق فيه الأقاويل الباطلة؛ يقبل منه تلطيف العبارات أحيانًا، لاسيما وهو لا يزال يدير رحى الحرب على عثمان وغيره، مواصلًا حملاته التي لم تكتف بإسقاط خلافة عثمان في غمارها؛ بل استمرَّ يكيل له الضربات ولغيره إلى الحدِّ الذي يشفي غليل الروافض والباطنية، وسائر أعداء الإسلام.

الثانية: انظر كيف انتهى كلامه على بني أمية إلى قوله: «... وخرج الحكَّام بذلك نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال».

---

(١) «العدالة» (ص١٥٩)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٨٧)، ط. الخامسة.

(٢) (ص١٨٧)، ط. الخامسة.

(٣) «العدالة» (ص١٦٠)، ط. الثانية عشرة، و (ص١٩٠)، ط. الخامسة.

(٤) «العدالة» (ص١٧٢)، ط. الثانية عشرة.

إن «سيد قطب» إمامُ التكفير في هذا العصر وحامل رايته، فهل يا ترى إذا خرج حكَّام بني أمية نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال؛ هل يبقون في دائرة الإسلام أو لا؟!! ننتظر الإجابة!!

* * *

الفصل الثاني والعشرون: زعم سيد أن مذهب أبي بكر التسوية في قسمة المال

تحدث «سيد» عن سياسة المال في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وذكر:

«أن مذهب أبي بكر التسوية في قسم المال بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام، وبين الأحرار والموالي، وبين الذكور والإناث[1].

ورأي عمر مع جماعة من الصحابة أن يقدم أهل السبق في الإسلام على قدر منازلهم، فقال أبو بكر: أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل؛ فما أعرفني بذلك، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله -جل ثناؤه-، وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة»[2].

ثم قال[3]:

«هما رأيان إذن في تقسيم المال: رأي أبي بكر، ورأي عمر، وقد كان لرأي عمر رضي الله عنه سنده: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ، كمن قاتل معه، و . . . فالرجل وبلاؤه في الإسلام . . . وهو التعادل بين الجهد والجزاء.

وكان لرأي أبي بكر رضي الله عنه سندُه كذلك: إنما أسلموا لله، وعليه أجرُهم يوفيهم ذلك يوم القيامة، وإنما هذه الدنيا بلاغ.

ولكننا لا نتردد في اختيار رأي أبي بكر؛ إذ كان أقمن أن يحقق المساواة بين المسلمين، وهي أصل كبير من أصول هذا الدين، وأحرى ألَّا ينتج النتائج الخطرة التي نشأت عن هذا التفاوت من تضخُّم ثروات فريق من الناس، وتزايد هذا

---

(١) (ص٢٠٣)، ط. الخامسة.

(٢) «العدالة» (ص١٧٠)، الثانية عشرة، و (ص٢٠٥)، ط. الخامسة.

(٣) «العدالة» (ص١٧٢)، الثانية عشرة، و (ص٢٠٥)، ط. الخامسة.

التضخم عامًا بعد عام بالاستثمار؛ والمعروف اقتصاديًا أن زيادة الربح تتناسب إلى حدٍّ بعيد مع زيادة رأس المال.

هذه النتائج التي رآها عمر في آخر أيام حياته؛ فآلى لئن جاء عليه العام ليسوينَّ في الأعطيات، وقال قولته المشهورة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ؛ لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم، فرددتها على الفقراء».

ولكن وا أسفاه!! لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر»[1].

*** التعليق:**

أولًا: يجب الانتباه إلى أن «سيد قطب» إنما اختار ما يزعمه أنه هو رأي أبي بكر، وما يزعم أنه رجع إليه عمر في آخر حياته؛ لأنه كما يزعم: أقمن أن يحقق المساواة، وأحرى ألَّا ينتج النتائج الخطرة التي نشأت عن هذا التفاوت من تضخُّم ثروات فريق من الناس.. إلخ.

إن المساواة الحقيقية والواقعية، والمساواة الشريفة العادلة موجودة على أحسن صورة في الإسلام في كثير من المجالات: في القصاص، والديات، والحدود، والإرث، والعبادات، وكثير من الحقوق والواجبات.

إلَّا بعض الفروق التي تقتضيها حكمة الله بين الذكور والإناث، والأحرار والعبيد، والمسلمين والكفَّار؛ وتفاصيل ذلك معروفة لدى علماء الإسلام[2] وفي دواوينه.

لكن المساواة التي يقررها «سيد قطب» شيء آخر، إنها شعارات جوفاء كان يرددها في عهده: الشيوعيون والاشتراكيون المنتسبون إلى الإسلام، الذين تأثروا بالفكر الشيوعي في الاقتصاد.

فشرعوا يفسِّرون نصوص القرآن والسنة وقواعد الشريعة تحت شعار الاشتراكية الإسلامية بما يوافق الشيوعية في مزاعمها من المساواة المطلقة،

---

(١) (ص١٧٢)، ط. الثانية عشرة.

(٢) سوف تأتي لمحةٌ فيها شيءٌ من التفصيل في هذه الأمور.

ووجوب التوازن والتعادل والتأميم، ومحاربة الترف والتضخم المالي . . إلى آخر الشعارات التي مؤدَّاهَا فرض عبودية عامَّة على الشعوب؛ ليصبحوا عبيدًا للحزب الحاكم بعد مساواة الأغنياء بالمعدمين في الفقر والذل تحت سيطرة الحزب المتحكم المستبد.

قد تأخذ العاطفة العمياء بعض المعجبين بـ «سيد قطب» وبمنهجه ومؤلفاته، ولكن المسلم المتجرِّد من الأهواء وتقديس الأشخاص؛ سيدرك فداحة ما يقرِّره «سيد» باسم الإسلام، سواء في المجالات العقائدية، أو السياسية، أو الاقتصادية.

* * *

الفصل الثالث والعشرون:
اشتراكية سيد قطب

لقد قرر اشتراكية مدمِّرة في عدد من كتبه، مثل: «العدالة الاجتماعية»، و«الظلال»، و«دعوة الإخوان المسلمين»، و«معركة الإسلام والرأسمالية».

وحسبنا أن ننقل عنه ما قرَّره في كتابه: «معركة الإسلام والرأسمالية»[1]؛ ليعرف حقيقة فقه «سيد قطب» للإسلام عقيدة وشريعة.

قال: «سوء توزيع الملكيات والثروات[2]: لم يعد أحد يجادل في أنَّ توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع المصري توزيع سيئ مختل، يجب العمل على تعديله فورًا.

وليس الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة، وإنما الاختلاف على الطريقة التي يعالج بها وضع لا يقبل البقاء...» ثم شرع يقرر باسم الإسلام طرق العلاج وهي غير إسلامية قطعًا.

إلى أن قال: «وفي يد الدولة أن تنزع من الملكيات، وأن تأخذ من الثروات بنسب معيَّنة كل ما تجده ضروريًا لتعديل أوضاع المجتمع من الآفات: آفات الجهل، وآفات المرض، وآفات الحرمان، وآفات الترف، وآفات الأحقاد بين الأفراد والجماعات، وسائر ما تتعرض له المجتمعات من آفات.

بل في يد الدولة أن تنزع الملكيات والثروات جميعًا، وتعيد توزيعها على أساس جديد، ولو كانت هذه الملكيَّات قد قامت على الأسس التي يعترف بها الإسلام، ونمت بالوسائل التي يبررها؛ لأن دفع الضرر عن المجتمع كله، أو اتقاء الأضرار المتوقعة لهذا المجتمع أولى بالرعاية من حقوق الأفراد؛ فنظرية الإسلام

---

(١) (ص٣٩-٤٠).

(٢) هذا عنوان قرر تحته فكره الاشتراكي الغالي.

في التكافل الاجتماعي لا تجعل هناك تعارضًا بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع.

وكل ضرر يصيب المجتمع يعده الإسلام ضررًا يقع على كل أفراده، ويحتم على الدولة أن تقي هؤلاء الأفراد من أنفسهم عند الاقتضاء».

قدمتُ هذا النموذج من منهج «سيد قطب» الاشتراكي الغالي المدمر، المستمد من «ماركس وهيجل» وغيرهما من الاشتراكيين؛ ليتبين المسلم مدى ما يرتكبه قادة الحركات الحزبية المعاصرة من ظلم للإسلام، وانتهاك لمبادئه وأسسه، بل تحطيمها، واستيراد مبادئ كافرة، ثم إلصاقها بالإسلام.

وليتبين أن تعلق الاشتراكيين -ومنهم سيد قطب- بأبي بكر، وعمر، وعلي، وأبي ذر تعلُّقٌ باطل، يتجاوز أقصى حدود الخداع والتلاعب بالعقول والعواطف.

وحتى تلك الروايات الضعيفة والباطلة التي نُسبت ظلمًا إلى هؤلاء الصحابة الكرام بعيدة كل البعد عن هذه المناهج الاشتراكية الكافرة، بل المسافة بينهما أبعد مما بين المشرقين.

* أولًا: حكم من يطالب بتحكيم المبادئ الاشتراكية والشيوعية في الإسلام:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه . .

أما بعد؛ فقد ورد إليَّ سؤال من بعض الإخوة الباكستانيين هذا ملخصه:

ما حكم الذين يطالبون بتحكيم المبادئ الاشتراكية والشيوعية، ويحاربون حكم الإسلام، وما حكم الذين يساعدونهم في هذا المطلب، ويذمون من يطالب بحكم الإسلام، ويلمزونهم، ويفترون عليهم، وهل يجوز اتخاذ هؤلاء أئمة وخطباء في مساجد المسلمين؟

* والجواب: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول اللَّه، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

لا ريب أن الواجب على أئمة المسلمين وقادتهم أن يحكموا الشريعة الإسلامية في جميع شئونهم، وأن يحاربوا ما خالفها، وهذا أمر مجمع عليه بين علماء الإسلام، ليس فيه نزاع -بحمد الله-، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة

معلومة عند أهل العلم.

منها:

قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد أجمع العلماء على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن هدي غير رسول الله ﷺ أحسن من هدي الرسول ﷺ؛ فهو كافر.

كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج عن شريعة محمد ﷺ، أو تحكيم غيرها؛ فهو كافر ضال.

وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية وإجماع أهل العلم؛ يعلم السائل وغيره: أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما من المذاهب الهدامة المناقضة لحكم الإسلام كفار ضلال، أكفر من اليهود والنصارى؛ لأنهم ملاحدة، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ولا يجوز أن يجعل أحد منهم خطيبًا وإمامًا في مسجد من مساجد المسلمين،

ولا تصح الصلاة خلفهم.

وكل مَن ساعدهم على ضلالهم، وحسَّن ما يدعون إليه، وذم دعاة الإسلام ولمزهم؛ فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة، التي سار في ركابها وأيدها في طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أنَّ مَن ظاهر الكفار على المسلمين، وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة؛ فهو كافر مثلهم.

كما قال اللَّه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وأرجو أن يكون فيما ذكرناه كفاية ومقنع لطالب الحق، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، ونسأله سبحانه أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق، وأن يكبت أعداء الإسلام، ويُفرق جمعهم، ويُشتت شملهم، ويكفي المسلمين شرهم، إنه على كل شيء قدير، وصلى اللَّه وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

ثانيًا: هذا التعليل الذي علل به «سيد قطب» لا يعرفه أبو بكر، ولا عمر، ولا يعرفه المسلمون، وإنما هو تعليل الشيوعيين والاشتراكيين؛ لابتزاز أموال الناس ومصادرتها وتأميمها؛ لتئول في النهاية إلى أيدي الحكَّام والأحزاب المستبدة؛ ولتصبح الشعوب جميعًا فقراء أذلَّاء مستعبدين.

وقد وقع ذلك بالفعل، وفضح اللَّه نوايا هذه الأحزاب، وفضح اللَّه هذه الأنظمة الاشتراكية، فتهاوت روسيا سادنة الإلحاد والاشتراكية، وتهاوت يوغوسلافيا، ومزَّقها اللَّه شر ممزق؛ نتيجة لكفرهما؛ ولاشتراكيتهما المصادمة للفطر والعقول والشرائع.

ثالثًا: يقرر «سيد قطب» هذه الاشتراكية الخطيرة في كتابه «العدالة» وغيره[1]

---

(١) مثل: «معركة الإسلام والرأسمالية»، و«الإسلام ومشكلات الحضارة»، وإشارات في «الظلال».

تحت شعار: «المساواة في الإسلام»، و «التوازن في الإسلام»، والإسلامُ منها بريء؛ لأن ذلك ينافي سنن الله في الكون، ويخالف حكمته في خلقه.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢].

وما عُرفت هذه المساواة المزعومة الظالمة والتوزان الاشتراكي عن رسول الله ﷺ؛ لما سبق من حكمة الله في خلقه، ولا عُرفت عن: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﭫ.

رابعًا: ما نسب إلى أبي بكر من التسوية في العطاء الرواية به ضعيفة؛ فقد روى أبو يوسف في «كتاب الخراج»[1] قال: وحدثني ابن أبي نجيح قال: «قدم على أبي بكر ﭬ مال، فقال: مَن كان له عند رسول الله ﷺ عدة فليأت. فجاء جابر بن عبد الله، فقال: قال لي رسول الله ﷺ: **لو جاء مال البحرين؛ أعطيتك هكذا وهكذا**».

وفيه: أنه قسم بالسوية بين الصغير والكبير، والحر والمملوك، والذكر والأنثى؛ فخرج على سبعة دراهم سبعة دراهم؛ فلما كان العام المقبل جاء مالٌ كثير، وهو أكثر من ذلك، فقسمه بين الناس، فأصاب كل إنسان عشرين درهمًا.

ورواه البيهقي[2] من طريق زيد بن حباب: حدثني أبو معشر قال: حدثني عمر

---

(١) (ص٤٥).

(٢) انظر: «السنن الكبرى» (ج٦)، (ص٣٥٠).

مولى غفرة[١] وغيره قال: «لما توفي رسول اللَّه ﷺ؛ جاء مالٌ من البحرين . . .». فساقه مطوَّلًا، وفيه: قسمة عمر ﷺ، وتفضيله فيها على حسب السَّوَابق، وعلى حسب القرابة من رسول اللَّه ﷺ.

وفي كلٍّ من روايتي أبي يوسف والبيهقي إرسال.

والظاهر: أن مدار الروايتين على أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي وهو ضعيف؛ قال الإمام أحمد: «أضعفهم عنه حديثًا أبو معشر». وقال: «ضعيف». وقال: «صدوق، لكنه لا يقيم الإسناد»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب»: «ضعيف، من السادسة، أسنَّ واختلط، مات سنة سبعين ومائة».

ومما يؤكد أن مدار الروايتين على أبي معشر أمران:

أولهما: أنه من شيوخ أبي يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ، كما ذكر ذلك الإمام المزي في «تهذيب الكمال»[٣]، ولم يذكر أحدٌ ممن ترجم لأبي يوسف أن ابن أبي نجيح -وهو عبد الله- من شيوخه، ولم يذكر أحدٌ ممن ترجم لابن أبي نجيح أن أبا يوسف ممن أخذ عنه.

ثانيهما: أن أبا معشر وإن كان مدنيًا؛ فإن الخليفة المهدي العباسي أشخصه إلى بغداد سنة (١٦١هـ)، فبقي بها إلى أن مات سنة سبعين ومائة[٤]، أما ابن أبي نجيح فمات سنة (١٣١هـ) بالمدينة، وأبو يوسف آنذاك صغير عمرُه حوالي خمس عشرة سنة، ولم يكن قد رحل، ولم يذكر أحد -في حدود علمي- أن ابن أبي نجيح دخل العراق.

وإذن؛ ففي هذه الرواية علتان:

١- إحداهما: ضعف أبي معشر.

---

(١) انظر: «تقريب التهذيب» (ج٢)، (ص٥٩/ ٤٦٩).

(٢) انظر: «العلل ومعرفة الرجال»، رقم (٦٠٢، ٨٧٥، ٣٦١٦، ٣٩٩٨).

(٣) (٣/ ١٤٠٧)، وفي المطبوع (٢٩/ ٣٢٢).

(٤) «تاريخ بغداد» (١٣/ ٤٢٨-٤٣١).

٢- أن في إسنادها إرسالًا وضعفًا؛ إذ عمر بن عبد الله مولى غفرة: ضعيف، كثير الإرسال[١]، وهو لم يدرك أبا بكر ﷺ.

وإذا كان هذا هو حال هذه الرواية عن أبي بكر ﷺ؛ فلا يجوز الاعتماد عليها.

والأدهى والأمَرُّ أن تكون من مستندات الطعن في الخليفة الراشد عثمان ﷺ، وفي سائر الصحابة في عهده، بل ومعظم التابعين وقريش وبني أمية بصفة أخص.

خامسًا: مع ضعف هذه الرواية؛ فهي خَاصَّة بقسمة الفيء فقط على أهل المدينة فقط، لا على جميع المسلمين ولا في جميع الميادين.

وهي دراهم قليلة في المرتين: في الأولى كانت القسمة على سبعة دراهم، والثانية على عشرين؛ ومثل هذا لا تحصل فيه مُشاحة.

ولو جاءت الأموال الكثيرة؛ لربما غيَّر أبو بكر رأيه؛ كل هذا من باب التنزل جدلًا، وعلى فرض ثبوت هذه الرواية، وقد عرفت ضعفها.

سادسًا: أن ما نسب إليه ﷺ مستبعد جدًّا؛ لأنه كان أشد الناس اتباعًا لرسول الله ﷺ، وأشد الناس خوفًا من مخالفته؛ ورسول الله ما كان يسوي في قسمة الفيء، بل كان يراعي مصلحة الدعوة، فيحصل بهذا السبب التفاوت، بل أحيانًا التفاوت الكبير.

ومن الأمثلة على شدَّة متابعة أبي بكر لرسول الله ﷺ: أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ سألته نصيبَها مما ترك رسول الله ﷺ، فأبى عليها ذلك، وقال: لستُ تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعملُ به إلَّا عملتُ به، فإني أخشى إن تركتُ شيئًا من أمره أن أزيغ[٢].

فكيف تقبل رواية ضعيفة في رجل صِدِّيق هذا حاله ومقاله؟!!

---

(١) «التقريب»، الترجمة: (٣٩٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ٣٦٨)، ط. السلفية، حديث (٣٠٩٣).

*** تفضيل أبي بكر في العطاء :**

سابعًا : أنه قد ورد عنه التفضيل : فقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»[1] أن أبا بكر ﷺ نفل خالد بن الوليد ﷺ سلب كسرى، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وكانت مرصَّعَة بالجوهر.

وهذه الرواية وإن لم نعرف إسنادها ؛ فإنها أولى بالتصديق ؛ لأن رسول اللَّه ﷺ كان يفضل، وكان ينفل السلب، وكان ينفل بعض السرايا من الجيش الثلث بعد الخمس، والربع بعد الخمس ؛ تشجيعًا على الجهاد، ؛ ومراعاة لمصلحة الدعوة الإسلامية، وهذا هو العدل والحكمة والفقه.

ثامنًا : أن أبا بكر لم يأخذ فضول أموال الأغنياء، ولم يعزم على ذلك، فلماذا لم يحاسبه «سيد» على ذلك كما حاسب عثمان حسابًا شديدًا ؛ إن منهجه يقتضي محاسبة أبي بكر ؛ فما هو السر في اختلاف المكاييل والموازيين لدى «سيد قطب»؟!!

ثم قد عرفت أن هذا لم يثبت عن عمر، ولم ينسب إلى أبي بكر مجرَّد نسبة[2] ؛ لأن هذا السلب والنهب لا يوجد إلَّا في شريعة الاشتراكيين والشيوعيين ؛ نزَّه اللَّه عنه الإسلام، وخلفاء الرسول ﷺ، وأئمة الإسلام.

تاسعًا : للإجهاز على الدعاوى الباطلة، والمغالطات الكبيرة التي يرتكبها الاشتراكيون؛ لابدَّ من سَوق بعض الأدلة من تصرفات رسول اللَّه ﷺ أعدل العادلين، وسيد الأنبياء والمرسلين، على أنه كان يُفاوت في العطاء، ويُؤثر أناسًا على أناس، ويخص أناسًا دون أناس بحسب المصلحة العليا للإسلام، وبحسب ما يراه من الترغيب في الإسلام، وتذليل العقبات في طريق دعوته العظيمة.

وقد يحصل اعتراض أحيانًا ممن لا علم له، أو ممن ضعف دينه، ومرض قلبه.

---

(١) (٦/ ٣٤٤).

(٢) أي : أخذ فضول أموال الأغنياء.

عن أبي وائل، عن عبد الله ﷺ قال: «لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرعَ بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجلٌ: والله، إن هذه لقسمةٌ ما عدل فيها، وما أُريد بها وجهُ الله!! فقلت: والله؛ لأخبرنَّ النبي ﷺ. فأتيتُه فأخبرتُه فقال: **فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟!! رحم الله موسى؛ قد أوذيَ بأكثر من هذا فصبر**»[1].

فهذا عطاء سخيٌّ، فيه إيثارٌ لأناس على أناس، هو في نظرِ ذي الخويصرة وأمثاله ظلمٌ شديد، مجاف للعدل!! لكنه في ميزان الله ورسوله والمؤمنين عدل حق العدل، وحكمة عظيمة لها آثارُها البعيدة في خدمة الإسلام ونصرته، وانتشاره في أرض الله، وامتداده نتيجة لتلك التصرُّفات القائمة على العدل والحكمة.

عن أنس بن مالك: «أن أناسًا من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله ﷺ من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالًا من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا، ويَدَعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!! قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة أدم، ولم يدع معهم أحدًا غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ، فقال: **ما كان حديث بلغني عنكم؟!**

قال له فقهاؤهم: فأما ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا، ويترك الأنصار وسيوفُنا تقطر من دمائهم؟!!

فقال رسول الله ﷺ: **إني لأعطي رجالًا حديثٌ عهدهم بكفر؛ أما ترضون أن يذهب الناسُ بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟!! فوالله، ما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به.**

قالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا.

فقال لهم: **إنكم سترون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الخمس، حديث (٣١٥٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، حديث (١٠٦٢).

على الحوض. قال أنس: فلم نصبر»[١].

وهذا العطاء فيه إيثار لأناسٍ بأموال طائلة، ويقال فيه ما قيل في العطاء قبله.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ قال لي: «**لو قد جاءنا مال البحرين؛ قد أعطيتك هكذا، وهكذا، وهكذا**. فلما قبض رسول الله ﷺ، وجاءنا مالُ البحرين؛ قال أبو بكر: من كانت له عند رسول الله ﷺ عدة فليأتني. فأتيتُه، فقلت: إن رسول الله ﷺ قد كان قال لي: لو قد جاءنا مال البحرين؛ لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا. فقال لي: احْثُه. فحثيت حثية، فقال لي: عدها. فعددتها، فإذا هي خمسمائة، فأعطاني ألفًا وخمسمائة»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه: «أتي النبي ﷺ بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد. فكان أكثر مالٍ أتي به رسول الله ﷺ، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني، فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلًا. فقال: خذ. فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: فمر بعضهم يرفعه إليَّ. قال: لا. قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: لا. فنثر منه، ثم ذهب يقله؛ فلم يرفعه، فقال: فمر بعضهم يرفعه عليَّ. قال: لا. قال: فارفعه أنت عليَّ. قال: لا. فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا؛ عجبًا من حرصه؛ فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم»[٣].

وعن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال: «أعطى رسول الله ﷺ قومًا، ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: **إني أعطي قومًا أخاف ظلعهم**[٤] **وجزعهم، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب**. فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أنَّ لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم».

وفي لفظ: «أن رسول الله ﷺ أتي بمال، أو بسبي، فقسمه بهذا»[٥].

---

(١) البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩).

(٢) البخاري، الخمس، حديث (٣١٦٤).

(٣) البخاري، الخمس، حديث: (٣١٦٥) تعليقًا.

(٤) الظَّلَع: الميل والاعوجاج.

(٥) البخاري، الفيء، حديث (٣١٤٥).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعدٌ جالس، فترك رسولُ الله ﷺ رجلًا هو أعجبهم إليَّ. فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟! فوالله؛ إني لأراه مؤمنًا، فقال: **أو مسلمًا**. فسكت قليلًا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله؛ إني لأراه مؤمنًا، فقال: **أو مسلمًا**. فسكت قليلًا، فغلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: **يا سعد، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه؛ خشيةَ أن يكبَّه الله في النار**»[1].

وعن أنس ﷺ قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطعهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: **إما لا، فاصبروا حتى تلقوني؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة**»[2].

وعن ابن عمر ﷺ: «أن رسول الله ﷺ بعث سريَّة فيها عبد الله بن عمر قِبل نجد، فغنموا إبلًا كثيرة، فكانت سهمانهم اثني عشر بعيرًا، ونفلوا بعيرًا بعيرًا»[3].

وعنه ﷺ: «أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض من يبعث من السَّرايا لأنفسهم خَاصَّة، سوى قسم عَامَّة الجيش»[4].

وعن حبيب بن مسلمة الفهري: «أن رسول الله ﷺ كان ينفِّل الربع بعد الخمس، والثلث بعد الخمس إذا قفل».

وعن مكحول: سمعتُ حبيبَ بن مسلمة الفهري يقول: «شهدت النبي ﷺ نفَّل الربع في البدأة، والثلث في الرجعة»[5].

قال الخطابي: «والبدأة: إنما هي ابتداء سفر الغزو إذا نهضت سرية من جملة العسكر، فأوقعت بطائفة العدو، فما غنموا كان لهم منه الربع، ويشركهم سائر

---

(١) متفقٌ عليه، انظر: «اللؤلؤ والمرجان» (١/ ٣٢)، (ح: ٩١).
(٢) البخاري، المناقب، (ح: ٣٧٩٣).
(٣) البخاري (٥٧)، الخمس، حديث (٣١٣٤)، مسلم: (٣٣)، الجهاد (١٧٤٩، ٣٥).
(٤) البخاري (٥٧)، الخمس (ح: ٣١٣٤)، مسلم (٣٣)، الجهاد (ح: ١٧٤٩، ٤٠).
(٥) سنن أبي داود (٣/ ١٨١-١٨٣)، كتاب الجهاد.

العسكر في ثلاثة أرباعه، فإن قفلوا من الغزاة، ثم رجعوا، فأوقعوا بالعدو ثانية؛ كان لهم مما غنموا الثلث؛ لأن نهوضهم بعد القفل أشقُّ، والخطرُ فيه أعظم»[1].

وأسهم رسول اللَّه ﷺ لأهل السفينة من مهاجرة الحبشة: جعفر وأصحابه، وهم لم يشاركوا في القتال والفتح، ولم يعط لأحد غاب عن فتح خيبر شيئًا[2].

فهذه الأحاديث الشريفة وغيرها تبيِّن سيرة النبي ﷺ في الإيثار والحرمان على حسب المصلحة للإسلام والمسلمين، ومراعاة حال أقوام وضعفهم في الإيمان؛ خشية أن يكبَّهم اللَّه في النار، وأنه يكل أقوامًا إلى ما في نفوسهم من الخير والغنى، وهذه التصرفات كلها في الخمس.

أما أصل المغانم فإن رسول اللَّه ﷺ كان يسوِّي بين المقاتلين الذين شهدوا المعارك، فيعطي للرجل سهمًا، وللفرس سهمين بعد إخراج الخمس، وقد يتصرّف أحيانًا في هذا كما أشرك أهل السفينة في مغانم خيبر ولم يعط سواهم ممن غاب، وقد يحصل تفضيل لبعض الناس بإعطائه سلب قتيله، وقد يفضل بعض السرايا بتنفيلهم الربع بعد الخمس في الذهاب إلى الجهاد، والثلث عند الأوبة منه.

وما يعتقد مسلمٌ أن أبا بكر يخرجُ عن هذا الهدي النبوي السمح الحكيم.

وما يعتقد مسلم أنه يسوِّي بين الأحرار والعبيد، والذكور والإناث، وقد فاوت اللَّه بين درجاتهم، ومضى على هذا السنن رسول اللَّه ﷺ؛ فإن رسول اللَّه ﷺ كان يرضخ لمن حضر المعارك من النساء والعبيد رضخًا، كما قال ابن عباس لنجدة: «إنك كتبت إليَّ تسأل عن المرأة والعبد يحضران المغنم: هل يقسم لهما شيء؟ وإنه ليس لهما شيء إلَّا أن يحذيا»[3].

وعند أبي داود[4]: «قد كن يحضرن الحرب مع رسول اللَّه ﷺ، فأما أن يضرب لهن بسهم فلا، وقد كان يرضخ لهن». وقريبٌ من هذا اللفظ في «مسلم» أيضًا.

---

(١) سنن أبي داود: تحقيق عزت عبيد الدعَّاس (ج/ ٣) (ص١٨٣).

(٢) انظر: البخاري، حديث (٣١٣٦).

(٣) مسلم، الجهاد، حديث (١٨١٢).

(٤) الجهاد، حديث (٢٧٢٨).

وعلى هذه الأدلة الصحيحة اعتمد أكثر فقهاء الإسلام، فذهبوا إلى أنَّ النساء والعبيد لا يُسهم لهم، وإنما يُرضخ لهم، وخالف الأوزاعي، فقال: يُسهم للنساء. وعمدته حديث ضعيف لا تقومُ به الحجة. من كلام الخطابي تعليقًا على أحاديث أبي داود[١].

وكذلك الجزية وهي من حقوق الإسلام والمسلمين على أهل الذمة، فلا تكون على النساء، ولا على الصبيان.

فعن معاذ بن جبل ﵁: «أن النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن؛ قال: خذ من كل حالم دينارًا». أخرجه أصحاب السنن، وصححه الترمذي، والحاكم.

واختلف السلف في أخذها من الصبي: فالجمهور على مفهوم حديث معاذ، وكذا لا تؤخذ من شيخ فانٍ، ولا زمِن، ولا امرأة، ولا مجنون، ولا عاجز عن الكسب، ولا أجير، ولا من أصحاب الصوامع والديارات.

والأصحُ عند الشافعية: الوجوب على من ذكر آخرًا[٢].

وقال الموفق بن قدامة[٣]: «فصل: واختلف الخلفاء الراشدون ﵃ في قسم الفيء بين أهله:

فذهب أبو بكر الصديق ﵁ إلى التسوية[٤] بينهم فيه، وهو المشهور عن عليٍّ ﵁؛ فروي: «أن أبا بكر ﵁ سوَّى بين الناس في العطاء، وأدخل فيه العبيد، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله! أتجعل الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهجروا ديارهم له، كمن دخلوا في الإسلام كرهًا؟!! فقال أبو بكر: إنما عملوا لله، وإنما أجورهم على الله، وإنما الدنيا بلاغ».

فلما ولي عمر ﵁ فاضل بينهم، وأخرج العبيد.

فلما ولي علي ﵁ سوَّى بينهم، وأخرج العبيد.

---

(١) (ج/ ٣)، (ص١٧١).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٢٦٠).

(٣) «المغني» (٩/ ٣٠٠-٣٠١)، ط. هجر.

(٤) سبق بيان أن التسوية لم تثبت عن أبي بكر ﵁.

وذكر عن عثمان ﷺ أنه فضَّل بينهم في القسمة.

فعلى هذا يكون مذهب اثنين منهم «أبي بكر، وعلي»: التسوية؛ ومذهب اثنين «عمر، وعثمان»: التفضيل.

وروي عن أحمد -رحمة اللَّه عليه-: أنه أجاز الأمرين جميعًا على ما يراه الإمام، يؤدِّي اجتهادُه إليه؛ فروى عنه الحسن بن علي بن الحسن أنه قال: للإمام أن يفضل قومًا على قوم.

وقال أبو بكر: اختيار أبي عبد اللَّه ألَّا يفضلوا.

وهذا اختيار الشافعي.

وقال أبي: رأيت قسم اللَّه المواريث على العدد يكون الإخوة متفاضلين في الغَنَاء عن الميت، والصلة في الحياة، والحفظ بعد الموت فلا يفضلون، وقسم رسول اللَّه ﷺ من الأربعة الأخماس على العدد، ومنهم من يغني غاية الغَنَاء، ويكون الفتح على يديه، ومنهم من يكون محضره: إما غير نافع، وإما ضرر بالجبن والهزيمة؛ وذلك أنهم استووا في سبب الاستحقاق؛ وهو: انتصابهم للجهاد، فصاروا كالغانمين.

والصحيح -إن شاء اللَّه تعالى-: أن ذلك مفوَّض إلى اجتهاد الإمام، يفعل ما يراه من تسوية وتفضيل؛ لأن النبي ﷺ كان يعطي الأنفال، فيفضل قومًا على قوم على قدر غنائهم؛ وهذا في معناه.

والمشهور عن عمر ﷺ أنه حين كثر عنده المال؛ فرض للمسلمين أعطياتهم، ففرض للمهاجرين من أهل بدر خمسة آلاف . . » إلخ.

وعلى القول بأن التفضيل والتسوية مفوضان إلى رأي الإمام؛ فيجب أن نفهم أمرين:

الأول: أن هذا أمرٌ خاص بالفيء فقط.

الثاني: أنه لا علاقة لهذه التسوية بالتوازن والتأميم وما شاكلهما؛ مما يُدَنْدِنُ حوله «سيد قطب»، والاشتراكيون.

وقول سيد قطب:

«هما رأيان إذن في تقسيم المال: رأي أبي بكر، ورأي عمر؛ وقد كان لرأي عمر سنده: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ؛ كمن قاتل معه. و. . . فالرجل وبلاؤه في الإسلام . . . ولهذا الرأي أصل في الإسلام، وهو التعادل بين الجهد والجزاء».

* أقول:

١- ليس لعمر ﷺ رأيٌ، وإنما هو متبعٌ لما شاهده من تصرفات الرسول الكريم ﷺ، وقد سقنا أحاديث في ذلك فيما سبق، هذا فيما يتعلّق بأصل المسألة وهو التفضيل.

٢- أن له ملحظَيْنِ في التفضيل:

أ- السَّابقة: ومن هنا فضَّل المهاجرين؛ ففرض لهم على خمسة آلاف خمسة آلاف، ولمن شهد بدرًا من الأنصار أربعة آلاف، ولمن شهد الحديبية ثلاثة آلاف.

ب- النسب والقرابة: ففرض عمر ﷺ لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفًا، اثني عشر ألفًا، وفرض للعباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ اثني عشر ألفًا، ولأسامة بن زيد أربعة آلاف، ولعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف، وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف ألحقهما بأبيهما.

وعلى هذا؛ فإن عمر لم يراع التعادل بين الجهد والجزاء!! كما يقول «سيد قطب»، وإنما راعى الاتباع، ثم السابقة، ثم شرف القرابة من رسول الله ﷺ، كما بدأ ببني هاشم، وبني المطلب، وغيرهم من بطون قريش؛ حتى كان عمر نفسه وأهله في آخر البيوت.

وأما أبو بكر؛ فلم تثبت عنه هذه المساواة المطلقة التي تعلق بها الاشتراكيون وجعلوها شعارًا، بل هي لم تثبت عن رسول الله، ولا عن عمر، ولا عثمان، وعلي ﷺ في أبواب المال خاصَّة، وإن كانت ثابتة في باب القصاص، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وفي الحدود تقام على الشريف والوضيع: حد الزنا، والسرقة، والحرابة، والقذف، لا يفرق فيها بين شريف ووضيع، وعربي وعجمي، وغني وفقير، كما قال ﷺ: «والله؛ لو سرقت فاطمة بنت محمد؛ لقطعتُ يدها».

وإنصافُ المظلوم من الظالم ونصرته لا فرق بين هذه الأصناف كلها، إلى ميادين أخرى تتحقق فيها هذه المساواة.

والعجب: أن «سيدًا» يرى أن لأبي بكر وعمر أن يجتهدا؛ فيذهب أحدهما إلى المساواة، والآخر إلى التفضيل، ويرى أن لكل منهما أصلًا في الإسلام، ولا يرى هذا الحق لعثمان رضي الله عنه، بل يرى «سيد» هذا الحق لكل إمامٍ مسلم، بل يراه لنفسه، ولا يراه لعثمان الخليفة الراشد.

والعجب ثانية: أن «سيدًا» يخوض هذه المآزق، ولا يلتفت إلى سنة رسول اللَّه ﷺ، ولا يلتفت إلى مذاهب وأقوال أئمَّة الفقه والحديث.

والعجب ثالثة: أن «سيدًا» يقيس الأمور بمقاييس عصره، كأن عمر وأبا بكر عَايشَا عصر الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية؛ فلهذا كان عمر يرتعد فرقًا من زيادة رءوس أموال بعض الناس وتضخمها، فلما رأى هذه النتائج الخطرة؛ آلى لئن جاء عليه العام ليسوينَّ في الأعطيات، وقال قولته المشهورة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم، فرددتها على الفقراء».

هكذا يصور «سيد» عمر في ضوء أو في ظلمات هذه الروايات الزائفة؛ يصوِّره وهو يشرع، وينوي التأميم والمصادرة، كأنه من زعماء الاشتراكية الكبار -والعياذ بالله-.

إن اللَّه لم يعط هذا الحق لرسله وأنبيائه؛ فكيف يعطي «سيد قطب» هذا الحق لعمر؛ حاشى عمر، ثم حاشى عمر أن يفكر مثل هذا التفكير، أو يقول مثل هذا القول، وقد سمع محمدًا رسول اللَّه ﷺ يقول: **«ما أعطيكم، ولا أمنعكم، إنما أنا**

قاسم، أضع حيث أُمرت»[١].

وقد سمعه يقول: «إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا؛ ألا هل بلَّغت»[٢].

وقد سمعه يقول وقد غلا السعر، فقال له أصحابه[٣]: «يا رسول اللَّه، لو سعَّرت؟! فقال: إن اللَّه هو الخالق القابض الباسط الرازق المسعر، وإني لأرجو أن ألقى اللَّه ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتُها إياه في دمٍ ولا مال».

وفي الباب أحاديث عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وأبي جحيفة.

وجمهور العلماء على منع التسعير بناء على هذه الأدلة، فإذا كان رسول اللَّه ﷺ يرى التسعير ظلمًا، وأنه ﷺ إنما هو قاسم يضع حيث أُمر، ويحرِّم الدماء والأموال هذا التحريم المؤكَّد؛ فكيف يعقل أن يقوم عمر بمصادرة أموال الناس وتأميمها على المصطلح الاشتراكي؟!! حاشاه ثم حاشاه من هذا الفكر والتفكير «الثوري الاشتراكي».

ثم إن هذا الأثر: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت؛ لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم، فرددتها على الفقراء» لم أجده.

ولكن قال ابن أبي شيبة في «مصنفه»[٤]: حدثنا وكيع قال: حدثنا سفيان: عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل قال: قال عمر: «لئن بقيت لآخذن فضل مال الأغنياء، ولأقسمنه في فقراء المهاجرين».

وفي إسناده حبيب بن أبي ثابت[٥] وهو مدلس، عدَّه الحافظ ابن حجر في الطبقة الثالثة، وهم مَن أكثر مِن التدليس، فلم يحتج الأئمَّة من أحاديثهم إلَّا بما

---

(١) البخاري، الخمس، حديث (٣١١٧).

(٢) البخاري، كتاب الحج (ح: ١٧٣٩)، ومسلم (٥١)، كتاب الحج (ح: ١٢١٨).

(٣) مسند أحمد (٣/ ١٥٦)، وأبو داود: (١٧)، البيوع (ح: ٣٤٥١)، والترمذي، بيوع (ح: ١٣٢٨)، تحفة الأحوذي (٤/ ٥٤٣).

(٤) (١٢/ ٣٤٠).

(٥) «طبقات المدلسين» (ص٨٤-٨٥)، ط. دار الكتب، بيروت.

صَرَّحُوا فيه بالسماع؛ وحبيبٌ منهم؛ فلا حجَّة في روايته.

وهناك احتمال علة أخرى في إسناد هذه الرواية من قِبل أبي وائل، وهي الإرسال الخفي؛ لأن أبا وائل كان يرسل، كما ذكر ذلك ابن أبي حاتم، عن أبيه، وعن الإمام أحمد.

وهذا الأمر الخطير الذي يتضمن أخذ أموال حَرَّمَهَا اللَّه تحريمًا شديدًا كتحريم الدماء والأعراض مخالف للكتاب والسنَّة وإجماع الأمة، مخالف لما يتمتع به عمر نفسه من العدل.

ثم لو ثبت لكان حجَّة على «سيد»؛ إذ يرى أن تضَخُّم الأموال إنما كان نتيجة للتفضيل في العطاء، فعمر رضي الله عنه كان يُفضِّل المهاجرين على غيرهم، فأين نتائج هذا التفضيل؟! ألا يرى في هذا الأثر أن عمر يريد أن يأخذ فضل مال الأغنياء؛ ليقسمه بين فقراء المهاجرين، فهل يا ترى أن عمر لم يكتف بتفضيل المهاجرين حتى عزم أن يأخذ فضل الأغنياء ليقسمه بينهم؟!!

ثم إن النص الذي نقله «سيد» يفيد أن عمر عزم على أخذ فضول عموم الأغنياء في الدولة الإسلامية؛ ليعطي عموم الفقراء في الدولة؛ وهذا النص يفيد أنه يريد أن يأخذ فضل بعض الأغنياء لبعض الفقراء؛ إذ لا يعقل أن يأخذ أموال الأغنياء في العالم الإسلامي؛ ليعطي فقراء المهاجرين فقط مع تفضيله إياهم في العطاء.

والواقع أنه لا يثبت هذا ولا ذاك، ولا يجوز نسبة أيٍّ منها إلى عمر رضي الله عنه لما أسلفناه.

ثم لو فرض ثبوت أنَّ عمر كان يفكر في أخذ فضول الأغنياء، وهذا شيءٌ لا أصل له في كتاب اللَّه، ولا في سنة رسول اللَّه العملية، بل الموجود خلافه، وهو: تحريم ذلك، أكان الصحابة يسكتون لعمر؟!

والجواب: لا، والشريعة لا تأمر الأمة بالطاعة إلَّا في طاعة اللَّه، وفي غير معصية، والصحابة واعون لذلك تمام الوعي، وقد خالفوا عمر في قضايا مثل قضية متعة الحج، وقضية ترك الجنب التيمم والصلاة حتى يجد الماء، وناقشوه في قضايا كان يراها فرجع عنها؛ لأنه كان وقافًا عند كتاب اللَّه، وعمر نفسه كان يراجع

رسول اللَّه ﷺ نفسه، فيأتي الوحيُ بموافقته، وأحيانًا يأتي بمخالفته.

فالصحابة إذن لن يسكتوا عن قول كلمة الحق التي ربَّاهُم عليها القرآن والرسول ﷺ، وأخذ رسول اللَّه ﷺ عليهم البيعة أن يقولوها حينما أخذ عليهم البيعة على الطاعة لولاة الأمر.

وإذا كان هذا هو المعتقد في عمر والصحابة الكرام؛ فهل يحقُّ «السيد قطب» وغيره أن يأخذ الكلام البعيد عن هدي الرسول ﷺ وهدي عمر والصحابة على عواهنه، وعلى عُجَره وبُجَره، فيطعن به في عثمان رضي الله عنه، ويسقط به خلافته، ثم يُقدمه للأمة على أنه هو المنهج الإسلامي الحق؟!!

وما يقوله «سيد» من تضخم ثروات فريق من الناس، وتزايد هذا التضخم عامًا بعد عام بالاستثمار.. إلى قوله: «هذه النتائج رآها عمر في آخر أيام حياته، فآلى لئن جاء العام؛ ليسوين في الأعطيات، وقال قوله المشهورة: لو استقبلتُ من أمري...» إلخ.

* أقول:

يوهم «سيد قطب» القرَّاء بما يهول به من تضخم الثروات ونتائجه المؤلمة أن كل هذا وذاك جاء بسبب التفضيل في العطاء؛ فهل الواقع كذلك؟!

الجواب: كلا.

أولًا: أن هذه تهاويل من تهاويل من امتلأت أدمغتهم بالاشتراكية.

ثانيًا: أن مَنْ وسَّعَ اللَّه عليه من الصحابة الكرام لا يرجع ثراؤه إلى العطاء الذي يناله من الفيء والخراج، وإنما مردُّ ذلك أولًا إلى فضل اللَّه ومنِّه وعطائه؛ فهو سبحانه يبارك ويوسع على من يشاء من خلقه، ويَقدر على مَن شاء منهم، ثم إلى الأسباب التي يبارك اللَّه فيها من السعي في التجارة، وحسن التدبير والإدارة، والسعي في تنمية الأموال واستثمارها، ثم بركة اللَّه وحسن توفيقه، وإتاحة الفرص لنجاح الصفقات التجارية.

ولو كان سبب التضخُّم هو التفضيل في العطاء؛ لكان زوجات رسول اللَّه أكثر الناس ثراء؛ لأن عطاءهن كان أكثر، إذْ كان عمر يعطي الواحدة منهن اثني عشر

ألفًا، وكذلك العباس كان عمر يعطيه اثني عشر ألفًا، وكان يعطي البدريين المهاجرين على خمسة آلاف خمسة آلاف، ومنهم: عبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وعثمان ﷺ، وأبو ذر، وسعيد بن زيد، والمقداد، وابن مسعود، وبلال، وعمار.

فكيف استمر بعضهم مقلًا مُعدمًا، وبعضهم ذا طَولٍ وغنى مع توحُّد العطاء؟!!

فلو كان سبب التضخم المالي هو تفاوت الناس في العطاء؛ فلماذا يموت بعض المهاجرين والأنصار فقيرًا مدينًا، وبعضهم له الثراء الواسع، منه يتصدَّق ويصل، وبه يدعم الجهاد.. إلى آخر أبواب الخير والبر التي كانوا يتنافسون فيها ﷺ؟!!

* * *

الفصل الرابع والعشرون: سيد قطب تتقطع نفسه حسرات

قال «سيد قطب»:

«ولكن وا أسفاه!! لقد فات الأوان، وسبقت الأيام عمر، ووقعت النتائج المؤلمة التي أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي، كما أدت فيما بعد إلى الفتنة بما أضيف إليها من تصرُّف مروان، وإقرار عثمان»[1].

لقد نجا عمر رضي الله عنه من بطش «سيد قطب» بسبب عزمه على التسوية في العطاء، وبقولته المشهورة: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ؛ لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم، فرددتها على الفقراء».

لولا هذان العزمان لهاجمه «سيد»، كما هاجم عثمان رضي الله عنه، ومن هنا اعتبر رأيه مقبولًا له أصل، لكنه لم يدرك أنه وقع في التناقض العجيب، ولم يدرك أن كثيرًا من القراء والكتَّاب غير المؤدبين والفاقهين سينحون باللائمة على عمر قبل عثمان؛ لأنه هو الذي سنَّ هذا التفاضل في العطاء الذي أدَّى إلى النتائج المؤلمة، وأنه حين أدرك هذه النتائج المؤلمة؛ لم يبادر إلى التسوية في العطاء، ولم يبادر إلى أخذ فضول الأغنياء، ثم ردِّها إلى الفقراء، بل حتى لم يوص الخليفة بعده بتنفيذ ما عزم عليه.

بل جعل الأمر شورى بعده في الستة، وجلهم أهل ثروة طائلة بحجَّة أن رسول الله مات وهو راضٍ عنهم، وبحجَّة أنهم أفضل الموجودين وأحق الناس بالخلافة.

هذا كله لا يستبعد أن يثيره السفهاء حول عمر بجناية «سيد قطب»، بل

---

(١) «العدالة» (ص١٧٢)، ط. الثانية عشرة، (ص٢٠٦)، ط. الخامسة، وفيها: «من تصرف أميَّة وإقرار عثمان».

لا أستبعد أن تكون هذه قد ثارت في نفس «سيد».

لكن عمر ﷺ إنما هو متبعٌ، لا مبتدع، ولا مخترع، وما قال شيئًا مما نسبه إليه «سيد قطب »، حاشاه ﷺ من ذلك ، ولم يكن هناك نتائج مؤلمة كما خُيل «لسيد»؛ فلا هذا، ولا ذاك.

* * *

الفصل الخامس والعشرون:
خلافة عثمان كانت فجوة في نظر سيد

قال «سيد قطب»:

«رجع عمر إذن عن رأيه في التفرقة بين المسلمين في العطاء -حينما رأى نتائجه الخطرة- إلى رأي أبي بكر، وكذلك جاء رأي عليٍّ مطابقًا لرأي الخليفة الأول، ونحن نميل إلى اعتبار خلافة علي رضي الله عنه امتدادًا طبيعيًّا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان كان فجوة بينهما؛ لذلك نتابع الحديث عن عهد عليٍّ، ثم نعود للحديث عن الحالة في أيام عثمان»[1].

*** المآخذ:**

أولًا: أن كلًّا من أبي بكر وعمر بارٌّ راشد، متَّبع غير مبتدع، ولا خلاف بينهما رضي الله عنهما، فقد كان من هدي رسول اللَّه ﷺ الواضح الكامل الذي شاهداه من أول غزوة إلى آخرها ما يكفيهم بعضه فضلًا عن جميعه، وقد تقدَّم بيان ذلك.

وعليه: فلا رأي سابق لعمر، ولا رجوع، ولا عزم على التأميم والمصادرة، ولا رأي لأبي بكر؛ وأعاذهما اللَّه من أن يخالفا هدي النبي ﷺ الواضح.

ثانيًا: لقد وقع «سيد» في هوة عميقة بإسقاطه خلافة عثمان الخليفة الراشد؛ ضاربًا عرض الحائط بإجماع الصحابة وأهل السنَّة والجماعة على صحة بيعته وخلافته الراشدة.

أتظن هذا هينًا سهلًا على نفوس المؤمنين؟!!

كلا!! إنه لا يسهل هذا إلَّا على نفوس الخوارج والروافض، وإن تبجَّحُوا بالإسلام والجهاد؛ فالنفوس المؤمنة الزكية ترفض هذا كل الرفض، وتقول:

---

(١) «العدالة» (ص١٧٢)، الطبعة الثانية عشرة، والطبعة الخامسة (ص٢٠٦)، وفي الثانية عشرة: «وأن عهد عثمان الذي تحكَّم فيه مروان كان فجوةً بينهما».

﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وتقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ولا أدري بماذا سقطت خلافة عثمان عند «سيد قطب»: أبالكفر أم بالفسق؟!!

يقول سيد قطب فِي كتابه «الظلال»[1] في تفسير قول اللَّه تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]:

«والظلم أنواع: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي . . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة . . وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة؛ فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أيِّ صورة من صورها.

ومَن ظلم أي لون من الظلم؛ فقد جرد[2] نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها».

فهل من يرى هذا الرأي في الإمامة، ويرى أن خلافة عثمان كانت فجوةً، ويرى أن أسس الإسلام قد هدمت في عهد عثمان، وروحه قد انتهت، ويكفِّر الأمة بأجمعها؛ يبقى في نفسه أي احترام لعثمان وأمثاله من الصحابة؛ فضلًا عمَّن دونَهم؟! لا يبعد أن الرجل يكفِّر بأي لون من ألوان الظلم.

استمع إليه ماذا يقول في تفسير الآية المذكورة في الأمة الإسلامية:

«وهذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام، وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها

---

(١) (١/ ١١٢).

(٢) والعجب أشد العجب من القطبيين كيف يتخذون «سيد قطب» إمامًا ومجدِّدًا؟!! وهو قد ارتكب كثيرًا من أنواع الظلم، فقال بوحدة الوجود، وبالحلول، والجبر، وعطَّل صفات اللَّه، وقال بخلق القرآن، وأن اللَّه لا يتكلم، وأنكر رؤية اللَّه، وهوَّن من شأن معجزات الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وكفَّر الأمة بأجمعها، واعتبر مساجدها معابد جاهلية، ودعا إلى الاشتراكية الغالية .. إلخ الضلالات العقائدية والفكرية التي وقعَ فيها.

وحتى مظهره -كحلق اللحية!! وملبسه- كان يقلِّد فيها أعداء الإسلام، ويتشبَّه بهم فيها؛ فعلى أيِّ أساس إسلامي اتخذوه إمامًا، واعتبروه مجددًا؟!!

ولا غموض قاطع[١] كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما بعدوا عن طريق اللَّه، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . . . ودعواهم الإسلام وهم ينحون شريعة اللَّه ومنهجه عن الحياة دعوى كاذبة، لا تقوم على أساس من عهد الله»[٢].

وفي كتابه «الظلال» وغيره من مؤلفاته تكفير واضحٌ للمسلمين حكَّامًا ومحكومين؛ لخروجهم عن حاكمية اللَّه في نظره، ومعظمهم لا ناقة له ولا جمل، بل يتعطشون للحكم بكتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ.

مع أنه لا يرى شرك الروافض وغلاة القبوريين منافيًا لـ: «لا إله إلا الله» وللتوحيد الذي جاء به الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسلام-.

ويلاحظ القارئ أن «سيد قطب» يتحسَّر ويتأسَّف من تضخم الثروات في عهد عثمان!! والذي كان له نتائج مؤلمة أودت بالتوازن في المجتمع الإسلامي!!

فما مكانة هذا التوازن في منهج الإسلام؟!!

وهل هو أمر شرعه الإسلام والرسالات قبله؟!!

* * *

---

(١) الإشارة راجعة إلى اليهود، وقد قال فيهم نحو ما قال في المسلمين؛ فلا فرق عنده بين اليهود والمسلمين في القطع بالخروج عن ملة إبراهيم ﷺ، وعن عهد اللَّه.

(٢) «الظلال» (١/ ١١٣).

الفصل السادس والعشرون: هل للتوازن الذي يزعمه سيد قطب موضع في شرعة الإسلام؟

وهل تم هذا التوازن في عهد النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم أخنت عليه ودمرته تصرفات عثمان رضي الله عنه؟!!

والجواب: أنَّ هذا التوازن المزعوم غير واقع قدرًا؛ فقد شاء اللَّه أن يفاوت بين عباده في أرزاقهم وأخلاقهم، وفي سائر شئون حياتهم لحكم ومصالح عظيمة لا تستقيم حياة البشر إلَّا بها، ولا تقوم إلَّا عليها.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢٠-٢١].

وقد شاء اللَّه سبحانه -وهو السيد المالك المتصرف في الكون، والمدبر لشئون خلقه جميعًا- أن يكون من عباده أناسٌ أغنياء، وآخرون فقراء، وأناسٌ مرضى وزمنى، وأناسٌ أصحَّاء، وأناس جهلة، وأناس علماء، وأناس مبصرون، وآخرون أكِفَّاء إلى آخر التفاوت في هذا المجال.

*** وفي شرع اللَّه الحكيم شاء اللَّه أن يفاوت بين عباده في مجالات، وذلك عدلٌ منه وحكمة:**

- ففي باب المواريث: فاوت بين الذكور والإناث، فللذكر من الإخوة مثل

حظ الأنثيين.

وإن مات الميت عن الأبوين: فللأم الثلث، وللأب الثلثان.

وإن ماتت المرأة دون أن يكون لها ولد: فلزوجها النصف من مالها، فإن كان لها ولد: فله الربع.

وإن مات عنها وليس له ولد: فلها الربع. فإن كان له ولد: فلها الثمن.

وللرجل على المرأة القوامة إن كان زوجًا، وله عليها الولاية في عقد النكاح، فلا ولاية لها على نفسها، ولا على غيرها.

- وفي الديات: ديتها نصف دية الرجل.

*** وشرع سبحانه المساواة في مجالات، منها:**

- القصاص: قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وبيَّنت السنَّة أنه لا يُقتل مسلمٌ بكافر، كما بيَّنت أن الرجل يقتل بالمرأة، ويقتل الشريف بالوضيع، والعربي بالأعجمي، وكبار الأثرياء وكبار الأمراء بأفقر الفقراء وأوضع الوضعاء.

وفي الحدود -في الزنا، والخمر، والسرقة، والحرابة-: تقام الحدود على الجميع، لا فرق بين شريف ووضيع.

قال ﷺ لأسامة لما شفع في المرأة المخزومية القرشية: **«أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!! ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف؛ أقاموا عليه الحد؛ وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت؛ لقطعتُ يدها»**[1].

- وفي حق التملك: بالإرث، أو التجارة، أو إحياء الموات.

- وفي نصرة المظلوم على الظالم، وفي أمور أخر، وكلها فيها احترام وكرامة للمسلم، وهي أمور معنويَّة ترفع نفسيته وتشعره بكرامته، فتجعله يحتقر الدنيا،

---

(١) البخاري (٦٠)، الأنبياء، حديث (٣٤٧٥)، ومسلم (٢٩)، الحدود، حديث (١٦٨٨).

وتذيب الفوارق بين الأغنياء والفقراء إن كان هناك مجتمع متمسك بدينه مدرك بعقله؛ فهذا ما شرعه الإسلام وبيَّنه.

وأما أنه هل تم هذا التوازن المزعوم في عهد النبي ﷺ وخليفتيه رضي الله عنهما؟! فلم يكن شيء من ذلك.

ولو كان هذا من الإسلام لم تشرع الزكاة ولا سائر الصدقات، بل كان اللَّه يأمر فورًا بالتأميم والمصادرات لأموال الأغنياء أو لفضول أموالهم، بل لو كان التعادل واجبًا والمساواة واجبة؛ لبلَّغ ذلك رسول اللَّه ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار، وكان من السهل أن يتنازل الأغنياء حينذاك عن أموالهم؛ لاسيما في عهد رسول اللَّه ﷺ؛ ولاسيما الأنصار الذين أثنى اللَّه عليهم، وأشاد بإيثارهم على أنفسهم.

لكن المسلم الذي يعرف القرآن والسنة والتاريخ؛ يجد أنه كان هناك في عهد الرسول ﷺ أغنياء وفقراء، والتفاوت بينهم كبير.

فهناك فقراء في المدينة، بل وفي الجزيرة كلها، وهناك أعراب، وهناك أهل الصفة في مسجد رسول اللَّه ﷺ، كان أحدهم يحبو على بطنه من شدة الجوع[1]؛ مع وجود أغنياء وأصحاب ثروات ومزارع.

وفي عهد عمر كان عام الرمادة، اشتدت المجاعة بأهل الجزيرة، فكان يقتصر على جلب الصَّدقات من الأمصار الإسلامية كمصر والعراق والشام، ولم يأخذ الزكاة من كثير من المسلمين في ذلك العام؛ فضلًا عن المصادرة والتأميم.

أرأيت لو كان التوازن أمرًا مشروعًا في الإسلام، وأخذ فضول الأغنياء، وردها إلى الفقراء؛ أكان رسول اللَّه ﷺ يتأخَّر عن تنفيذه، أو على الأقل عن بيانه للأمة؟!!

وهل كان أبو بكر الصدِّيق الذي قاتل المرتدين ومانعي الزكاة، وقال: «واللَّه،

(١) كان هذا يحصل لشدَّة كتمان الفقر ولحالهم، وعدم علم الأغنياء بهم؛ فإذا علموا ذلك؛ قاموا بسدِّ خلتهم، بل كانوا في الأغلب يقومون بذلك بدون شكوى من الفقراء.

لو منعوني عقالًا أو عناقًا كانوا يؤدُّونها لرسول الله ﷺ؛ لقاتلتهم عليها». يتأخَّر عن تطبيق تعاليم الإسلام التي يزعمها «سيد قطب»؟!!

وهل عمر العبقري الصارم يتأخر طول خلافته عن تنفيذ هذا الأمر العظيم في نظر الاشتراكيين؟!! ويظل على خلافه طول مدَّة خلافته؟!!

وهل لو كان هذا التوازن مما حتمه الإسلام؛ يغفله الصحابة والتابعون وأئمَّة الفقه والحديث في أحاديثهم وكتب فقههم وتفسيرهم وتواريخهم؟!!

أو أن هذا التوازن الذي جاء به الإسلام لم يفهمه الرسول وخلفاؤه وعلماء الأمة بعده، ولم يعلموا به حتى جاءت الثورات الشيوعية والاشتراكية في القرن العشرين؛ فهدى الله لإدراكه الاشتراكيين المسمين أنفسهم بـ: «الإسلاميين»، فبيَّنوه للناس ووضَّحوه، وأدركوا اشتراكية الرسول ﷺ -حاشاه!!!- واشتراكية عمر، والمقداد، وعلي، وأبي ذر -رضي الله عنهم وحاشاهم-، فبيَّنوها للأمة.

وأنحو باللائمة على عثمان الذي أودت سياسته بهذا التوازن[1]، وحطم الأسس التي جاء بها هذا الدين[2]، وتابعه على ذلك: بنو أمية، أشد أعداء الاشتراكية والاشتراكيين.

وأخيرًا نبا القلم بـ«سيد قطب»، فجعل ما حصل في عهد عثمان من التضخم في الثروات ونتائجه المؤلمة إضافة إلى ما في عهد عمر.

فيا ترى هل كان «سيد قطب» يعتقد أن عمر يتحمل كبر ذلك ومسئوليته العظمى في نظره، ثم طوى عن ذلك كشحًا، واكتفى بالنظر إليه شزرًا؟!! أو كان له رأي آخر؟!! والجواب عند الاشتراكيين السياسيين.

قال سيد قطب:

«اختار علي مبدأ المساواة في العطاء، وقد نص عليه في خطبته الأولى، قال: (ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أن

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٧٢)، وبرَّأ الله عثمان من ذلك.

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص١٧٥).

الفضل له على من سواه بصحبته؛ فإن الفضل غدًا عند اللَّه، وثوابه وأجره على اللَّه، ألا وأيما رجل استجاب لله ورسوله، فصدق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا؛ فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد اللَّه، والمال مال اللَّه، ولا فضل لأحدٍ على أحد، وللمتقين عند اللَّه أحسن الجزاء).

هذا هو المبدأ الإسلامي السليم الذي يتفقُ مع روح المساواة الإسلامية، ويكفل للمجتمع الإسلامي التوازن، فلا يدع الثروات تتضخم؛ إلَّا بقدر الجهد والعمل وحدهما، لا بفضل إتاحة فرصة لا تتاح للآخرين بوجود وفر من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين»[1].

*** أقول:**

أولًا: هكذا يصوِّر «سيد قطب» أصحاب رسول اللَّه ﷺ، يختار أبو بكر مبدأ المساواة، فيأتي عمر يخالفه، فيختار مبدأ آخر هو في نظر «سيد» غير مقبول، وهو: «مبدأ التفضيل» الذي أدى إلى نتائج خطرة، ثم يندم عمر؛ فيرجع إلى المبدأ الإسلامي السليم الذي فيه روح المساواة والتوازن، لكنه لم يتمكن من التنفيذ، ثم يأتي عثمان فيختار مبدأ التفضيل الخطير، الذي أودى بالتوازن الإسلامي، ثم أودى بحياته وبالإسلام.

ثمَّ يأتي عليٌّ فيختار «مبدأ المساواة» السليم، الذي يكفل للمجتمع الإسلامي التوازن.

هذا هو حال الخلفاء الراشدين في نظر «سيد قطب»!!!

كان الإسلام -ولاسيما الاقتصاد- ملعبة في أيديهم، فكل يختار رأيًا غير ملتفت إلى كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ القولية والعملية، والصَّحَابة كلهم مستخذون أمام هذه التصرفات لا يُذكِّرون هؤلاء الخلفاء، ولا ينصحونهم، ولا يحاكمونهم إلى اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ؟!!

ولطالما شدَّدَ «سيد قطب» على الذين لا يحكمون بما أنزل اللَّه، ولطالما

---

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص١٧٢)، و(ص١٧٣) الطبعة الثانية عشرة، و (ص٢٠٦) الطبعة الخامسة.

كفَّرهم، وكيف نسي قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ونسي قوله اللَّه تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

هل تظن أنَّ أصحاب رسول اللَّه ﷺ تركوا لأنفسهم حرية الاختيار لما يريدونه في أمور حسمها رسول اللَّه ﷺ ببيانه قولًا وعملًا؟!!

أتعتمد على الروايات الضعيفة والمزيَّفة؛ فتصور أصحاب رسول اللَّه ﷺ في هذه الصورة؟!!

ثم ترجح وتمدح ما يوافق هواك، ويوافق المنهج الاشتراكي الذي رفع رايته قومٌ لا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر من أعداء الإسلام!! حاشى أصحاب رسول اللَّه ﷺ وخلفاءه الراشدين مما تنسبه إليهم!!

إنما شأنهم وديدنهم الاتباع، وهم أسوة الأمة في التمسك بكتاب اللَّه وهدي رسول اللَّه ﷺ.

وهذا هو الأصل فيهم؛ لأنهم قد زكَّاهم اللَّه في كتابه، وزكَّاهم رسوله ﷺ، وشهدت لهم الأمة بذلك، فلا نقبل ما ينسب إليهم مما يخرجهم عن هذا الأصل، لاسيما مثل هذا الأمر الجسيم، ولاسيما وقد ثبت هذا بتطبيقهم الدقيق لمنهج الإسلام؛ إضافة إلى تصريحاتهم بالتزامهم باتباع رسول اللَّه ﷺ، وبتخوفهم من مخالفته.

استمع إلى قول أبي بكر رضي الله عنه: «لستُ تاركًا شيئًا كان رسول اللَّه ﷺ يعمل به إلَّا عملتُ به؛ فإني أخشى إن تركتُ شيئًا من أمره أن أزيغ»[(١)]. كأنه رضي الله عنه يشير إلى قول اللَّه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ثانيًا: أين إسناد هذه الرواية؟! وأين مصادرها؟! ثم إذا صَحَّت ألا تحاكم إلى

(١) البخاري (٢/ ٣٨٦)، حديث (٣٠٩٣).

كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، كيف تقدم على تأويل نصوص القرآن القطعيَّة في أبواب الصفات وغيرها.

ألستَ ترد الأخبار الصحيحة الثابتة عن رسول اللَّه ﷺ، بل الأخبار المتواترة فيما تسميه بالغيبيات؟!! فلماذا تقبل الروايات التي لا تعلم صدقها من كذبها وصحتها من سقمها؟!!

إن ذلك لم يكن إلَّا للنيل من عثمان الشهيد وإخوانه الكرام.

وأعجب من التسليم المطلق والاستسلام للروايات الواهية في هذا الأمر العظيم، والشرح والتحليل بأسلوب لا يقوله ويردده إلَّا الاشتراكيون.. المساواة.. والتوزان.. والتضخم.. والجهد، فرص لا تتاح للآخرين؛ فهل كان عمر وعثمان رضي الله عنهما لا يتيحون الفرص إلَّا لأفراد، ويكبلون الأمة، ويحولون بينها وبين الفرص التجارية والزراعية وغيرها من طرق الاكتساب.

ثالثًا: يقال: سبحان اللَّه العظيم!! لماذا لم يؤاخذ «سيد قطب» عليًا بما آخذ به عثمان من عدم أخذ فضول الأغنياء، أو تأميم أموالهم، ولا على عدم عزمه على ذلك؟!! إن من وراء الأكَمة لأشياء.

قال سيد قطب:

«وقد كان عمر في آخر أيامه على أن يفيء إلى هذا المبدأ، ولكنه عوجل فاستُشهد لسوء حظ الإسلام، ولم ينفذ عزيمته التي اعتزم، بل عزيمته في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء؛ فيردها على الفقراء إذ كانت هذه الفضول قد نشأت في الأغلب من تفريقه في العطاء.

وعزيمته في أن يسوي بينهم في العطاء؛ فلا تعود هذه الفوارق إلى الظهور كما ظهرت، ولا يختل المجتمع الإسلامي كما بدأ يختل»[1].

*** أقول:**

إذن يرى «سيد قطب» أن التضخم والفوارق واختلال التوازن ظهرت في عهد

---

(١) «العدالة» (ص٢٠٦-٢٠٧)، ط. الخامسة، (ص١٧٣)، ط. الثانية عشرة.

عمر ﷺ؛ نتيجة لتفريقه وتفضيله في العطاء، فهل يخرج عمر من المسئولية بمجرَّد قوله: «لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ . . .». أو لابدَّ من الإصلاح فعلًا؟!

إنَّ منطق «سيد» في التشديد على عثمان يقتضي منه أن يُعرِّج على عمر، فيشركه مع عثمان في تحمل مسئولية وجود هذا التضخم في الثروات، ووجود هذه الفوارق والاختلال في المجتمع الإسلامي.

وإذا كانت مسألة التفضيل قد سنها رسول اللَّه ﷺ؛ فمنطق «سيد» يقتضي ألا يفلت النبي ﷺ من الحساب؛ لأنه هو الذي سنَّ هذه السنَّة، وأكَّد ذلك عمر؛ فإذا كان التفضيل في العطاء قد أدَّى إلى هذه المفاسد والنتائج التي يقولها ويزعمها «سيد قطب»؛ فما ذنب عثمان إلَّا المتابعة، وليس هو المشرع، فلماذا يقتصر عليه الحساب الشديد والجرح المؤلم؟!!

وعلى كلٍّ؛ فإما أن يعترف بأنَّ ما فعله رسول اللَّه ﷺ حقٌّ وعدلٌ وحكمة، واتباع الخلفاء الراشدين لهذا التشريع والاعتزاز به من مفاخرهم ومزاياهم «أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي».

وإمَّا أن يراه تشريعًا فاسدًا، يؤدِّي إلى الإخلال بالتوازن في المجتمع الإسلامي، ويؤدِّي إلى مفاسد أخرى، فينتقد المشرِّع الأساسي وتشريعه، ومَن تابعه على هذا التشريع، وهو عمر ﷺ قبل أن يطعن ويجرح في عثمان، ويقصر التبعة والمسئولية عليه.

أمَّا تعلقه بما يزعمه من عزم عمر: فإن كان ما فعله طول حياته في التفضيل في العطاء إثمًا؛ فلا يكفيه مجرَّد العزم، فلابدَّ من الإقلاع عنه والإصلاح فعلًا، كما قال تعالى: ﴿تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]. وشروط التوبة معروفة.

أمَّا الأمة الإسلامية من الصحابة إلى يومنا هذا: فيرون أنَّ ما شرعه رسول اللَّه ﷺ فهو حقٌّ وعدل وحكمة، ويرون أن الخلفاء الراشدين راشدين أبرارًا في اتباعهم لرسول اللَّه ﷺ في كلِّ مجال؛ ولا سيما مجال تقسيم المال وعطائه -رضي اللَّه عنهم وعمن اتبعهم بإحسان، وعرف قدرهم، وقدر الإسلام-.

وأخيرًا: فمن التجنّي والتعسُّف أن يقال: إنَّ تضخم الثروات جاء نتيجة لعطاء عثمان وعمر قبله، فإن ذلك العطاء الذي ذكره «سيد»[1] يتراوح بين خمسة آلاف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة، لا يمكن أن يكون له هذا الأثر الكبير من التضخم واختلال التوازن في المجتمع الإسلامي، كما يزعم «سيد قطب»!! فهذا أبو ذر وكثير من المهاجرين من أكثر الناس عطاء وما زالوا فقراء.

وهذا حكيم بن حزام حصلت له قصة مع رسول الله ﷺ؛ فآلى على نفسه ألّا يرزأ أحدًا بعد رسول الله، فكان يعرض عليه العطاء[2] من الخلفاء فيأباه، ويصر على هذا الإباء إلى أن مات وهو من أكثر قريش مالًا.

وهذا الزبير بن العوام ﷺ يخرج نفسه من الديوان في عهد عثمان، فلم يأخذ من العطاء شيئًا[3]، وكان من أغنياء المهاجرين.

فالغناء والفقر تابعان لإرادة الله ومشيئته، ثم للأسباب التي يهبها الله لمن يريد له ذلك، وهذه حقيقة ثابتة بالكتاب والسنَّة، ويشهد لها الواقع التاريخي للبشر.

وأخيرًا: إذا كان علي ﷺ قد أعاد مبدأ المساواة وأحياه -على زعم سيد قطب!!- فما الذي منعه من الاستمرار؟!!

فإن قلتم: وقفوا في وجهه.

يُقال: فلماذا لم يُعِدْه من يَتَمَسَّحُون بعليٍّ من: الفاطميين، والبويهيين، والصفويين، والزيدية، وغيرهم من الفرق التي تتمسح بأهل البيت؟!

ولماذا يسكت عنهم «سيد قطب»، ويصبُّ جام غضبه على عثمان ﷺ، وبني أمية، وبني العبَّاس؛ فهل هناك أسرار؟!!

* * *

(١) انظر: «العدالة الاجتماعية» (ص١٧١).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٠٢-١٠٣)، وأصل الحديث في البخاري.

(٣) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٠٣).

الفصل السابع والعشرون: طعنات في عثمان وفي سائر الصحابة وقريش بصفة خاصة

قال سيد قطب:

«وجاء عثمان رضي الله عنه[1] فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو إحداهما . . .

١- ترك الفضول لأصحابها فلم يردها.

٢- وترك الأعطيات كذلك على تفاوتها، ولكن هذا لم يكن كل ما كان.

٣- بل وسع أولًا على الناس في العطاء؛ فازداد الغني غنى، وربما تبحبح الفقير قليلًا.

٤- ثم جعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة.

٥- ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض تتاجر بأموالها المكدسة؛ فتزيدها أضعافًا مضاعفة.

٦- ثم أباح للأثرياء أن يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد.

٧- فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله»[2].

* التعليق:

أقول: أولًا: انظر كيف يلوم عثمان على عدم أخذه بهاتين العزيمتين، وقد تقدم لك أنَّ شيئًا منها لم يثبت عن عمر رضي الله عنه، وعلى فرض ثبوتها عنه؛ فلم يسلك «سيد» مسالك العلماء في احترام عثمان، ولم يرَ -مثلًا- أنَّ له حق الاجتهاد، فإن علماء الأمة يرون أنه لا يحتج على مجتهد بقول مجتهد، ولا يلزم مجتهدًا أن يقلد

(١) لا توجد جملة (رضي الله عنه) في بعض النسخ، ولعلها من بعض الناس للتلبيس.

(٢) «العدالة» (ص٢٠٧)، ط. الخامسة، (ص١٧٣)، ط. الثانية عشر، وفيها: «فإذا نوعٌ من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي ..». وما هذا إلَّا تغيير للفظ مع الحفاظ على المعنى.

غيره، فلماذا يرى «سيد» أن لأبي بكر وعمر حرية الاجتهاد، ولا يرى مثل ذلك لعثمان؟! لماذا يرى أن لأبي بكر أن يأخذ بمبدأ المساواة في العطاء؟! ولماذا لم يحاسب عمر على مبدأ التفضيل في العطاء؟![1].

ولماذا يرى أن لأيِّ إمامٍ من أئمة المسلمين أن يجتهد في مجال الاقتصاد الإسلامي وغيره، ولا يرى مثل ذلك لعثمان رضي الله عنه؟! ولماذا يرى لنفسه أن ينتقد، ويرجح، ويختار ما يوافقه من الآراء، ويكتف عثمان عن كل ذلك، ويغل يديه ويكبله وحده؟!!

ثانيًا: أضاف طعنة ثالثة فقال: «ولكن هذا لم يكن كل ما كان، بل وسع أولًا على الناس في العطاء؛ فازداد الغني غنى، وربما تبحبح الفقيرُ قليلًا».

*** أقول:**

اللَّه أكبر!! هذا من محاسن عثمان وفضائله رضي الله عنه، قال ابن شبة: حدثنا إبراهيم[2] قال: حدثنا عبد اللَّه بن وهب، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة ابن الزبير قال: «أدركت زمن عثمان رضي الله عنه وما من نفسٍ مسلمة إلَّا ولها في مال اللَّه حق»[3].

هذا السند جيِّد؛ لأنه من رواية عبد اللَّه بن وهب، عن ابن لهيعة.

حدثنا خالد بن خداش قال: حدثنا حماد بن زيد، عن هشام، عن ابن سيرين قال: «لم تكن الدراهم في زمان أرخص منها في زمان عثمان رضي الله عنه، إن كانت الجارية لتباع بوزنها، وإن الفرسَ ليبلغ خمسين ألفًا مما يعطيهم»[4].

هذان الخبران ثابتان، وقد ساقهما عروة وابن سيرين مساق المدح لعثمان رضي الله عنه؛ ولعهده الزاهر الذي ساد فيه العدل والإخاء والمحبة والجهاد، فازدهرت

---

(١) نقول هذا على سبيل التنزُّل، وإلَّا فما طريق هؤلاء الخلفاء الراشدين إلَّا الاتباع، وقد وضَّحنا ذلك فيما سلف في هذا البحث.

(٢) إبراهيم هو: ابن المنذر الحزامي: صدوق.

(٣) «أخبار المدينة» (٣/ ٢٤١).

(٤) «أخبار المدينة» (٣/ ٢٤١).

حياة المسلمين، ورفرفت على العالم الإسلامي الواسع راية الأمن والإيمان والمحبة والإخاء؛ فضاق ابن سبأ وتلاميذه وسائر أعداء الإسلام -من اليهود والمجوس وغيرهم- بهذه العظمة الإسلامية؛ فدبروا المؤامرات ضد الإسلام، لا ضد عثمان وحده، فأثاروا الفتن الهوجاء التي أودت بحياة الخليفة الراشد، ثم أعقبتها الفتن التي مزَّقَت الأمة، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا، لا يرفع عنها السيف إلى يوم القيامة؛ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

ومن العجب العجاب: أن «سيد قطب» يسوق مفاخر عثمان ومزاياه مساق الذم والطعن والتشهير؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله!!

ثالثًا: ويزيد «سيد» طعنة رابعة بقوله: «ثم جعل يمنح المنح الضخمة لمن لا تنقصهم الثروة».

أين برهانك على هذه؟!

وأين مصادرك التي تستقي منها هذه الدعاوى العريضة التي يضج منها الكون، وتضج منها الملائكة والمؤمنون؟!!

كم عدد هذه المنح الضخمة؟!!

وكم عدد أهلها؟!!

إنَّ دعواك ضخمة جدًا، أضخم من دعاوى الثوار السبئيين وأمضى منها.

رابعًا: طعنة خامسة، قوله: «ثم أباح لقريش أن تضرب في الأرض».

وأقول: متى حرَّم الله، ومتى حرَّم رسول الله ﷺ على قريش أن تضرب في الأرض تتاجر بأموالها؛ حتى تؤاخذ عثمان على هذه الإباحة، وتريد منه أن يفرض عليهم الإقامة الجبرية؟!!

ثم من أين لك أنه كان لهم أموال مكدسة، لا يخرجون إلَّا ليتاجروا فيها؟!!

فمن فتح الدنيا غيرَهم؟!! ومن المجاهدون حقًّا الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. إن لم يكن هؤلاء؟!!

ثم متى حرَّم اللَّه على قريش التجارة، وأباح لغيرهم من العرب والعجم الضرب في البر والبحر في التجارة؟!!

ومن أين لك أن أبا بكر وعمر قد فرضا على قريش الإقامة الجبرية «السجن الكبير في المدينة» ؟!!

ومن أين لك أن أبا بكر وعمر قد حرما ما أحل اللَّه ورسوله لقريش من التجارة؟!!

وطعنة سادسة قوله: «ثم أباح للأثرياء يقتنوا الضياع والدور في السواد وغير السواد، فإذا عهدٌ من عهود الإقطاع[1]، يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده -يرحمه الله-».

ونقول: متى حرم اللَّه على هؤلاء أن يقتنوا الضياع . . . إلخ؟!!

وهل كان يلزم عثمان أن يصادرها لو وقعت بغير علمه؟!!

أقول كل هذا تنزلًا مع «سيد قطب»، وإلَّا فإن الحال والواقع لم يكن على هذه الصورة، ولا قريبًا منها؛ وإذا كان لابدَّ من مثل هذا التهييج؛ فليس له أي حق أن يتخطى العصر الذي يعيشه وثلاثة عشر قرنًا ونيفًا، يتخطى ما رآه بعينه في بلده وفي أورُبا وأمريكا إلى خير القرون وخير أمَّة أُخرجت للناس؛ فيصورهم بصورة عصره الشوهاء التي شاهدها في بلدان لم تعرف اللَّه، ولا الدار الآخرة، فلا دينَ لها، ولا خلق، ولا ضمير.

فما هو الإقطاع في نظر سيد قطب؟

قال في كتابه «الإسلام ومشكلات الحضارة»[2]: «إن نظام الإقطاع في أورُبا وأمريكا لم يكن مجرَّد وجود ملكيَّات كبيرة، ولكنه كان مَصحُوبًا بخصائص هذا النظام الأساسية.

---

(١) غَيَّر «سيد» هذه العبارة في بعض الطبعات الأخيرة بقوله: «فإذا نوعٌ من الفوارق الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده -يرحمه الله-». لكنه بقي مُصرًا على أصل الفكرة، ومعنى العبارتين متقارب، فلم يفعل شيئًا ذا بال.

(٢) (ص٩٦).

وأخص خصائص هذا النظام كانت:

١- تبعية الفلاحين للأرض؛ حيث كان وضعهم فيها كوضع الآلات الزراعية، وحيواناتها وانتقالهم مع الأرض إلى المالك الجديد كما تنتقل الآلات والحيوانات، ولو كانوا لا يباعون كما هو الحال في نظام الرق، ولكن تبعيتهم للأرض تحرمهم حق الانتقال منها إلى أرض أخرى، كما تحرمهم بطبيعة الحال حق اختيار حرفة أخرى فردية مستقلة.

٢- كما كانت إرادة السيد (الشريف) هي القانون في إقطاعيته، فهو الذي يشرع للأقنان (رقيق الأرض)، وهو الذي يحدد علاقاتهم به وبالأرض، وعلاقاتهم بعضهم ببعض.

وهذا هو الإقطاع كما عرفته أورُبا، وكما ثارت عليه أيضًا، وهاتان الخاصتان تعتبران العلامتين المميزتين لهذا العهد البغيض؛ وقد ظلت أورُبا ترزح تحت وطأة هذا النظام الفظيع الذي تهدر فيه قيمة الإنسان -ابتداءً- بجعله تابعًا للأرض كالماشية وأدوات الزراعة، ينتقل معها إلى المالك الجديد، ولا يملك أن يحس بكينونته الإنسانية مستقلة عن الأرض، ولا يملك أن يغادرها ولو إلى إقطاعية أخرى، وإلا اعتبر آبقًا بحكم القانون، ووجب القبض عليه، ورَدُّه إلى الأرض التي يتبعها . . .».

فإذا أطلق «سيد قطب» الإقطاعية على عهد عثمان؛ فلا يعرف الناس الذين يكتب لهم من: اليهود، والنصارى، والمنافقين العلمانيين، والروافض، بل حتى خلص المسلمين في هذا العصر إلَّا هذه الصورة الخبيثة التي ذكرها «سيد» هنا عن عهد الإقطاع في أوربا؛ فهل كان «سيد» مدركًا جسامة الإساءة التي ارتكبها في حق أصحاب رسول الله -رضوان الله عليهم-؛ لاسيما عثمان وقريش أسرة رسول الله ﷺ!!

* * *

الفصل الثامن والعشرون: حالة قريش الاقتصادية في عهد عثمان

إن كان لابد لنا من الحديث عن حالة قريش الاقتصادية في عهد عثمان -رضي الله عنه وعنهم-؛ فلنذكر ما رواه ابن شبة[1] رحمه الله وإن كان في إسناده انقطاع:

قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثني ابن لهيعة قال: «كان عثمان قد جعل لموالي قريش طعمة: خمسة دنانير لكل رجل كل حول، وذلك أن قريشًا قالت: إنَّا لسنا كغيرنا، وليس لنا مدد، وإنما مددنا موالينا، فجعل لهم هذه الطعمة؛ فكان يموت الرجل منهم؛ فيكتب وليه ولدًا إن كان له، وإن لم يكن له ولد؛ كتب عليها من شاء، لم يجعلها عثمان لأحدٍ من الموالي إلَّا موالي قريش».

فلو كانت قريش طبقة إقطاعية؛ أتطلب هذا الطلب من عثمان؟! وعثمان لا يُعطي مواليهم إلَّا خمسة دنانير طعمة، ثم يحرصون عليها بعد موت صاحبها.

أهذا حال الإقطاعيين، ليس لهم مدد إلا مواليهم؟!!

وقد تقدَّم حال فقراء المهاجرين في حديث سابق، وإن كان في إسناده كلام؛ لكن إذا كان لابد لنا من الحديث عن أحوالهم؛ فنذكر ما يليق بحالهم، ولا يجوز بحال أن نبحث عن الروايات الطاعنة فيهم، ثم نطلق للأخيلة الباطلة العنان في تفسيرها، ونضخم ما تراه الأخيلة الباطلة من مساوئ.

قال الإمام الترمذي[2] -رحمه الله تعالى-: حدثنا أحمد بن الحسين: حدثنا

---

(١) «أخبار المدينة» (٣/ ٢٠٦).

(٢) «الجامع»، المناقب، حديث رقم (٣٩٠٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ١٧٠) عن إبراهيم ابن سعد .. به.

سليمان بن داود الهاشمي: حدثنا إبراهيم بن سعد: حدثني صالح بن كيسان: عن الزهري، عن محمد[١] بن أبي سفيان، عن يوسف بن الحكم[٢]، عن محمد بن سعد، عن أبيه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من يُرد هوان قريش أهانه الله».

قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه»[٣] عن معمر، عن الزهري، عن عمر بن سعد[٤]: أن سعد بن مالك قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «من يهن قريشًا؛ يهنه الله»[٥].

* * *

---

(١) قال الذهبي: «الصواب: عنبسة بن أبي سفيان»، وقد عده بعضهم في صغار الصحابة، ومنهم من عدَّه في التابعين، وأورده ابن حبان في «الثقات».

(٢) هو والد الحجاج بن يوسف، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول. وقال الذهبي عن كعب بن علقمة: إنه كان صالحًا.

(٣) (١١/ ٥٨).

(٤) هو ابن أبي وقاص، قال الحافظ: صدوق.

(٥) وأخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٦٤) من حديث عثمان، (١/ ١٧٦) من حديث سعد.

وأورده الألباني في «الصحيحة» برقم (١١٧٨) من حديث: عثمان، وأنس، وسعد، وابن عباس ﷺ، وذكر مصادره الكثيرة، ودرسه دراسة وافية.

الفصل التاسع والعشرون: زعم سيد أن أبا بكر وعمر كانا يتشددان في إمساك رءوس قريش

قال «سيد قطب»:

«كان أبو بكر وكان عمر من بعده يتشددان في إمساك الجماعة من رءوس قريش بالمدينة، لا يدعونهم يضربون في الأرض المفتوحة؛ احتياطًا لأن تمتد أبصار هؤلاء الرءوس إلى المال والسلطان حين تجتمع إليهم الأنصار بحكم قرابتهم من رسول اللّٰه ﷺ، أو بحكم بلائهم في الإسلام، وسابقتهم في الجهاد.

وما كان في هذا افتيات على الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام؛ فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها[1].

فلما جاء عثمان أباحَ لهم أن يضربوا في الأرض، ولم يبح لهم هذا وحده، بل يسَّر لهم، وحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم بعدما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف.

لقد كان ذلك كله برًّا ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خَاصَّة، ولكنه أنشأ شرًّا عظيمًا لم يكن خافيًا على فطنة أبي بكر وفطنة عمر بعده؛ أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة أرستقراطية فارغة، يأتيها رزقها من كل مكان دون كدٍّ ولا تعب؛ فكان الترفُ الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته، كما حاربه الخليفتان قبل عثمان؛ وحرصا على ألَّا يتيحاه!!

عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض الناس، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبو ذر، ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلَّا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصرًا بالدين أكثر

---

(١) وهنا نقول لـ «سيد قطب» ما قاله لهيكل في سياسة أبي بكر وعمر: «وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه في جوّ هذه الفترة ..».

من بصره بدينه»[(١)].

* **التعليق:**

أولًا: نقول هنا ما قاله «سيد قطب» لهيكل في سياسة أبي بكر وعمر:

«وإن أعجب فعجب لرجل يعيش بفكره ونفسه في جوِّ هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، وفي ظلِّ هذه الضمائر المرهفة الحسَّاسة الشديدة الحساسية من رجاله، ثم لا يرتفع ضميره هو وشعوره بتفسير الحوادث عن هذا المستوى المستمد مباشرة من ملابسات السياسة في عصرنا المادي الحاضر، لا من روح الإسلام وتاريخه في تلك الفترة!! إنما هذه سياسة أيامنا الحاضرة تبرر الوسيلة بالغاية، وتهبط بالضمير الإنساني إلى مستوى الضرورات الوقتية، وتحسب هذا براعة في السياسة، ولباقة في تصريف الأمور.

وما أصغر أبا بكر في هذا التصوير الذي يقول الدكتور هيكل: إنه هو التصوير الصحيح!!

لولا أن أبا بكر كان أكبر وأبعد من مدى المجهر الذي ينظر به رجل يعيش في عصر هابط، فلا يستطيع إطلاقًا أن يرتفع إلى ذلك الأفق السامق البعيد؛ فضلًا عن الجهل الفاضح بأوليات الشريعة الإسلامية»[(٢)].

ثانيًا: متى وجد أبو بكر الوقت لمثل هذا التفكير السياسي؟! فقد كانت خلافته قصيرة جدًّا لا تعدو سنتين وشهرين، خاض فيها حروب الردَّة في الجزيرة العربية.

ولقد كانت قريش أثبت الناس في الإسلام، وكانت قريش تخوض معامع المعارك لإعادة المرتدين إلى حظيرة الإسلام.

---

(١) «العدالة» (ص٢٠٧)، ط. الخامسة، و(ص١٧٣-١٧٤)، ط. الثانية عشرة، وفيها إضافة الكلام الآتي:

«ثم عادت في مناسبة أخرى، فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه عندما تغيَّرت الظروف الأولى؛ كأن دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات».

إذا ثبتت هذه الفتوى عن الهيئة المذكورة؛ فإنها تستحق ما قاله فيها «سيد قطب»؛ لأنها رجعت عن الحق إلى الباطل، ولا شكَّ أن «سيدًا» يؤمن بهذا الباطل؛ فيلام عليه أشد من الهيئة المذكورة، وهل الاشتراكية إلَّا تلاعب بدين الله ومتاجرة به!!!

(٢) «العدالة» (ص١٣٤)، ط. الثانية عشرة.

الفصل الثلاثون: قادة حروب الردة وفتوحات الخلافة الراشدة كانوا من قريش

كان أكثر قادة حروب الردة في عهد أبي بكر من قريش وحلفائهم، واستشهد فيها منهم كثير.

ثم دفع بهم أبو بكر إلى فتح العراق، ثم الشام على قصر مدة خلافته رضي الله عنه.

* أسماء قادة المسلمين للقضاء على حركة الردة :

كان أبو بكر رضي الله عنه عقد أحد عشر لواء لهذه المهمة بقيادة :

١- خالد بن الوليد.

٢- عكرمة بن أبي جهل.

٣- شرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة من قريش.

٤- المهاجر بن أبي أمية المخزومي.

٥- خالد بن سعيد بن العاص.

٦- عمرو بن العاص.

٧- حذيفة بن محصن الغطفاني.

٨- طرفة بن حاجب.

٩- سويد بن مقرن.

١٠- العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية[١].

١١- عرفجة بن هرثمة.

١٢- معن بن حاجز[٢].

هذا، وقد استشهد من قريش ومن إخوانهم الأنصار كثير رضي الله عنهم، منهم: زيد بن

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٦/ ٣١٥).

(٢) انظر: «الفاروق القائد» لمحمود شيت خطاب (ص٦٣).

الخطاب، وأبو حذيفة بن عتبة الأموي.

وبعث أبو بكر لفتح الشام الجيوش الإسلامية بقيادة:

١- خالد بن سعيد بن العاص.

٢- يزيد بن أبي سفيان، ومعه جمهور الناس، ومعه سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة.

٣- وأبا عبيدة بن الجراح.

٤- وعمرو بن العاص.

وأمدَّه أبو بكر بـ:

٥- الوليد بن عقبة.

٦- وبعكرمة بن أبي جهل، وجماعة.

٧- وأقبل شرحبيل بن حسنة من العراق إلى الصدِّيق؛ فبعثه إلى الشام.

ثم اجتمع عند الصدِّيق جماعة فأمَّر عليهم:

٨- معاوية بن أبي سفيان، وأرسله إلى أخيه يزيد بن أبي سفيان[1]، وفي المجاهدين من أصحاب رسول الله ﷺ ألف رجل في وقعة اليرموك، منهم: الزبير ابن العوام، وأبو سفيان بن حرب، وهاشم بن عقبة بن أبي وقاص[2].

وكانت لهم صولات وآثارٌ عظيمة في النصر والفتح ﷺ، وقد عرف الصدِّيق ما فيهم من كفاءة عالية؛ فقذف بهم المرتدين، ثم قذف بهم فارس والروم؛ فهم يخوضون معامع الجهاد في هذه البلدان لإعلاء كلمة الله؛ فحقق الله بهم ما يشبه المعجزات.

وما كان أبو بكر ليضعهم في الأقفاص وفي السجن الإجباري؛ خشية أن تمتد أعينهم إلى المال والسلطان؛ فهذا تفكير الماديين، لا تفكير أصحاب رسول الله ﷺ، إنما كانت أعينهم تمتد إلى الجنَّة التي وعدها الله وأعدَّها للمتقين، وتمتد إلى

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٤٠٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٩-١١).

إعلاء كلمة الله والشهادة في سبيله .

وهل كان هناك وقتٌ أمام أبي بكر لهذه الحسابات الفارغة في مدته الوجيزة التي أنجز فيها هو وإخوانه من المهاجرين والأنصار ما لا يدور بالخيال .

وأما عمر رضي الله عنه : فكان عهده عهد جهاد وفتوحات : «لقد فتح عمر : العراق، وإيران، وأكثر مناطق إرمينية، وأرض الشام بما فيها سورية، ولبنان، وشرقي الأردن، وفلسطين، ومصر، وليبيا، والنوبة .

وخاضت جيوش المسلمين في أيامه ثلاث معارك حاسمة من معارك الفتح الإسلامي : معركة القادسية، ومعركة بابليون، ومعركة نهاوند»[1] .

كان قادة الفتوحات فيها : من قريش، ومن الأنصار، ومن غيرهم من القبائل، والذي يهمنا هم القرشيون .

*** فمنهم من قادة فتح العراق وفارس :**

١- سعد بن أبي وقاص .

٢- ضرار بن الخطاب الفهري .

٣- أبو سبرة بن أبي رهم القرشي العامري .

٤- العلاء بن الحضرمي[2] .

٥- وهاشم بن عتبة الزهري[3] .

٦- وعقبة بن الوليد الأموي[4] .

* ومنهم في قيادة الفتح في الشام ومصر :

١- أبو عبيدة بن الجرَّاح الفهري .

٢- وخالد بن الوليد المخزومي .

---

(١) «الفاروق القائد» (ص٩٣).

(٢) راجع «قادة فتح فارس» لمحمود شيت خطاب.

(٣) «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٢٤، ٢٥).

(٤) «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٥٤، ٥٥).

٣- أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ.

٤- خارجة بن حذافة العدوي.

٥- الزبير بن العوام.

٦- شرحبيل بن حسنة مولى بني زهرة.

٧- عبد الله بن حذافة السهمي.

٨- عمرو بن العاص السهمي.

٩- عكرمة بن أبي جهل المخزومي.

١٠- عمير بن وهب الجمحي.

١١- معاوية بن أبي سفيان الأموي.

١٢- يزيد بن أبي سفيان الأموي.

راجع «قادة فتح الشام ومصر»، وبالذات (ص٣٩٣).

قال ابن سعد عن عمر رضي الله عنه: «كان يستعمل رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ، مثل: عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ويدع من هو أفضل منهم، مثل: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، ونظائرهم؛ لقوة أولئك على العمل والبصر به؛ ولإشراف عمر عليهم، وهيبتهم له.

وقيل له: ما لك لا تولِّي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟!

فقال: أكره أن أدنسهم بالعمل»[1].

فهذه وجهة نظر عمر وتعليله رضي الله عنه، لا ما يقوله «سيد قطب»، بل كان هؤلاء مجلس شوراه الذين لا يستغني عن رأيهم، بل وكان بعضهم يعرض عليه العمل فيأباه كـ: الزبير، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

وللمسلم أن يقسم بالله أنَّ ما قاله «سيد قطب» من أبطل الباطل، ومن أفسد الأقوال وأبعدها عن عدالة أبي بكر وعمر وطهارة القوم ونظافتهم، ولما أدرك

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٢٨٣).

«سيد» فساد قوله؛ قال: «وما كان في هذا افتيات على الحرية الشخصية كما يفهمها الإسلام، فهذه الحرية محدودة بمصلحة الجماعة والنصح لها».

فهل كانت حرية عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف تهدد مصلحة الجماعة؟!!

وهل لو رغب أحد منهم للخروج للجهاد، أو التجارة مثلًا، فسمح له عمر؛ يكون في ذلك غش للمسلمين؟!!

حاشى عمر وحاشاهم!! ألا إنه الهوى -والعياذ بالله- هو الذي يقود إلى مثل هذه الأقوال الضالة.

* **قذائف:**

ثم وجَّه «سيد قطب» قذائفه إلى الخليفة الراشد عثمان ﷺ، فقال: «فلما جاء عثمان؛ أباح لهم أن يضربوا في الأرض».

كأنهم في نظر «سيد قطب» مجرمي حرب، أو عصابات إجرام كانوا في معتقلات سجن الصدِّيق والفاروق، فأطلق عثمان سراحهم، وأباح لهم، وأطلق لهم العنان أن يعيثوا في الأرض فسادًا.

ولم يكتف بهذه القذيفة فواصل قائلًا: «ولم يبح لهم هذا وحده، بل يسر لهم، وحضَّهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع في الأقاليم بعدما آتى بعضهم من الهبات مئات الآلاف».

هكذا «سيد» يقذف بالغيب من مكان بعيد، كأنَّ أمر عثمان والصَّحَابة أهون من أن يحتاج إلى التروِّي والتثبت والاحترام، فإذا لم يجد رواية هزيلة أو باطلة يعتمد ويتكئ عليها؛ وجَّه السهام الظالمة التي هي من صنع يده وبنات أفكاره؛ وإلَّا فمن هؤلاء القرشيون الذين كان يحظر عليهم أبو بكر وعمر الخروج من المدينة، فأباح لهم عثمان الضرب في الأرض؟!! سموهم لنا إن كنتم صادقين!!

ومن أين له أن عثمان كان يحضهم على توظيف أموالهم في الدور والضياع بعد أن آتى بعضهم مئات الآلاف -أي: من بيت مال المسلمين-، ولا يخدعنك قوله: «لقد كان ذلك كله برًّا ورحمة بالمسلمين وبكبارهم خاصَّة». فلو كان يعتقد في

عثمان هذا الذي يقوله الآن؛ لما هاجمه وطعن فيه عشرات الطعنات، وإنما هذا من ذرِّ الرماد في العيون، أو من إضافات غيره خداعًا ومكرًا؛ وانظر ما في الكلام قبله وبعده من خبث وطعن مشين.

يقول: «ولكنه أنشأ شرًّا عظيمًا لم يكن خافيًا على فطنة أبي بكر وفطنة عمر بعده؛ أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة أرستقراطية فارغة تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كدٍّ ولا تعب».

أي: أن عثمان والصحابة في عهده لا فطنة ولا ذكاء لديهم، ولا نظر في العواقب، ويمكن أن يلحق بهم «سيد قطب»: عمر؛ فإنه طوال خلافته كان يُفضِّل أناسًا على أناس؛ لأن اللَّه قد فضَّلهُم.

ويمكن لو اطلع «سيد قطب» على ما ثبت عن النبي ﷺ أنه فضَّل أناسًا على أناس لمصلحة الدعوة الإسلامية؛ لنظر إليه نظرة ذي الخويصرة، وقال له: «اعدل، فإنك لم تعدل». و: «هذا عملٌ ما أُريدَ به وجهُ الله».

ولو اطلع على ما عمله أبو بكر؛ لغضب عليه وحنق؛ فقد نفَّل خالد بن الوليد سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وكانت مرصعة بالجوهر»[1].

ثم نسأل «سيدًا»: من هي هذه الطبقة الأرستقراطية؟ أليست هي كبار أصحاب رسول اللَّه ﷺ من المهاجرين والأنصار، مثل: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن ثابت، وأمثالهم من خير أمة أُخرجت للناس؟!!

أتطبق عليهم اصطلاحات الماركسيين ضد الرأسماليين والإقطاعيين، وأرباب المصارف والبنوك التي تسيطر على اقتصاد العالم، وتمتص ثروات ودماء الشعوب.

ثم هل انغمس عثمان وأصحاب رسول اللَّه ﷺ في الترف الذي حاربه الإسلام بنصوصه وتوجيهاته، فلا يفقهون ولا يحترمون تلك النصوص والتوجيهات، ويفقهها ويحترمها «سيد قطب» وأحلاس الاشتراكية الرعناء؟!!

---

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٣٤٤).

أما كان هؤلاء الأصحاب الكرام يزكون، ويتَصَدَّقون، ويصلون الأرحام، وينفقون الأموال الطائلة في الجهاد في سبيل الله؛ ولإعلاء كلمة اللَّه إلى درجة أن يموت بعضهم مدينًا، وبعضهم يكاد تنفد أمواله.

«إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح؛ فاصنع ما شئت».

* * *

الفصل الحادي والثلاثون: تمجيد سيد للثورة على عثمان وإلصاقها بأبي ذر

قال: «عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض الناس، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة: أبو ذر، ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلَّا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصرًا بالدِّين أكثر من بصره بدينه».

انظر إليه كيف يُمجِّد ثورة ابن سبأ اليهودي وأتباعه من الحثالات والأوغاد واللصوص، ويصف ثورتهم الشيطانية بأنها ثورة الروح الإسلامي، ثم يلصقها بأبي ذر رضي الله عنه الذي كان يعلن الطاعة لعثمان ولولاته، والذي لم ينكر على عثمان شيئًا ولا بكلمة واحدة، بل كان يعلن له الطاعة والأدب والاحترام، فلا ناقة ولا جمل لأبي ذر في الثورة السبئية التي يُمَجِّدهَا «سيد قطب»، ويطعن في الوقت نفسه في أصحاب رسول الله ﷺ أشد الطعنات، ويشوه صورتهم أقبح تشويه.

عن زيد بن وهب قال: «مررت بالربذة؛ فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟! قال: كنت بالشام فاختلفتُ أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرتُ ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تَنَحَّيتَ؛ فكنت قريبًا، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمَّرُوا عليَّ حبشيًّا؛ لسمعتُ وأطعت»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وإنما سأله زيد بن وهب عن ذلك؛ لأن مبغضي

---

(١) صحيح البخاري (٢٤)، كتاب الزكاة، (٤)، باب: ما أُديَ زكاته فليس بكنز، حديث: (١٤٠٦).

عثمان كانوا يشنعون عليه أنه نفى أبا ذر؛ وقد بيَّن أبو ذر أنَّ نزوله في ذلك المكان كان باختياره.

نعم، أمره عثمان بالتنحِّي عن المدينة؛ لدفع المفسدة التي خافها على غيره من مذهبه المذكور فاختار الربذة، وقد كان يغدو إليها في زمن النبي ﷺ، كما رواه أصحاب السنن من وجه آخر عنه»[1].

قلت: الظاهر من إشارة عثمان على أبي ذر بالتنحِّي إلى قريب من المدينة الرفق بأبي ذر، والشفقة عليه من أذى بعض السفهاء وإساءتهم إليه، وشماتتهم به؛ لأن الناس كثروا عليه كأنهم لم يروه قبل ذلك استغرابًا لرأيه؛ فليس هناك أسهل من أن يبتعد بنفسه عن أذى الناس.

رضي اللَّه عن عثمان الرفيق الرحيم، وعن أبي ذر المؤدب الطائع الواثق بعثمان.

قال الحافظ: «وروينا في فوائد أبي الحسن بن حذلم بإسناده إلى عبد اللَّه بن الصامت قال: دخلتُ مع أبي ذر على عثمان، فحسر عن رأسه، فقال: واللَّه ما أنا منهم -يعني: الخوارج-، فقال: إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة. فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالربذة. قال: نعم».

ورواه أبو داود الطيالسي من هذا الوجه دون آخره، وقال بعد قوله: «ما أنا منهم»: «ولا أدركهم، سيماهم التحليق، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، واللَّه لو أمرتني أن أقوم ما قعدت»[2].

ونحبُّ أن نذكر لفظ حديث أبي داود الطيالسي بكامله:

حدثنا شعبة قال: أخبرني أبو عمران: سمع عبد اللَّه بن الصامت، عن أبي ذر قال: «لما قدم أبو ذر على عثمان من الشام؛ قال: يا أمير المؤمنين، أتحسب أني من قوم، واللَّه ما أنا منهم، ولا أدركهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم،

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٧٤).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٧٤).

يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهم من الرميَّة، لا يرجعون إليه حتى يرجع السَّهمُ على فوقه، سيماهم التحليق؛ والله لو أمرتني أن أقوم ما قعدت ما ملكتني رجلاي، ولو وثقتني بعرجون في قدمي ما حللته حتى تكون أنت الذي تحلني»[1].

وهذا إسناد صحيح؛ وهذه الروايات الصحيحة تقطع ألسنة المتخرصين والمتخبطين في قضية أبي ذر رضي الله عنه، وتقطع دابر تلك الدعاوى الباطلة بأن عثمان الخليفة الراشد رضي الله عنه قد نفى أبا ذر إلى الربذة؛ ألا ساء ما يظنُّون.

فهل ترى أبا ذر يمثل ثورة؟!!

وهل تراه أشد الثائرين حرارة؟!!

بل هل ترى له أدنى إشارة إلى ما يُهوِّل به «سيد قطب»؟!!

ومن العجائب: أن «سيد قطب» ينكر على هيئة الفتوى المصرية مخالفتها لرأي أبي ذر واتجاهه، ويعيرها بأنها تزعم لنفسها بصرًا بالدين أكثرَ من بصره بدينه، وينسى نفسه فيتطاول على عثمان، ويسقط خلافته، وينسى حملاته وطعناته الكثيرة على عثمان وعلى سائر أصحاب رسول الله، ورميهم في فقههم ودينهم، ورميهم بالإقطاعية والأرستقراطية، ووصف ولاة عثمان من الصحابة أنهم أعداء رسول الله ﷺ، وأن عثمان يولي هؤلاء الأعداء زاعمًا لنفسه أنه أغير على دين الله، وأبصر به من هؤلاء الصحابة الفقهاء والنبلاء رضي الله عنهم.

* * *

---

(١) (ص٦١)، رقم (٤٥١)، ورواه ابن حبان من طريق النضر بن شميل، عن شعبة .. به، انظر: «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» (٧/ ٥٨١)، حديث (٥٩٣٣).

الفصل الثاني والثلاثون: زعم سيد قطب أن أبا ذر قام ينكر على المترفين أي: من أصحاب رسول اللَّه ﷺ

قال: «قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر على: معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف، وتستزيد منه، وتتَمرَّغ فيه.

وينكر على عثمان ﷺ نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف؛ فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين».

* أقول:

ما أجرأك على الطعن والافتراء والتشويه لأصحاب رسول اللَّه ﷺ، وما أشد إساءتك وظلمك لهم، فلم تراع لهم حُرمة الصُّحبة، ولا القرابة من رسول اللَّه ﷺ، ولم تقم أي وزن لجهادهم ونشرهم للإسلام، وعزة الإسلام بهم في مشارق الأرض ومغاربها، وإذلالهم لأهل الملل الكافرة، وإذلالهم للمنافقين وأعداء الإسلام.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون: تهم ساقطة وجهها سيد إلى عثمان رضي الله عنه

قال «سيد» بعد هذا الهذيان المحموم:

«عَلمَ أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقيَّة، والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف . . وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئًا من هذا كله؛ فانطلق يخطب في الناس: لقد حدثت أعمال ما أعرفها . . والله، ما هي في كتاب الله ولا سنَّة نبيه، والله، إني لأرى حقًّا يُطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذَّبًا، وأثرة بغير تقى . . يا معشر الأغنياء؛ واسوا الفقراء . . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، يا كانز المال؛ اعلم أن في المال ثلاثة شركاء . . .

اتخذتم ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمتم الاضطجاع على الصوف الأذربي، وكان رسول الله ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله ﷺ لا يشبع من خبز الشعير»[1].

* **أقول:**

أولًا: لا أستبعد أن يكون واضع هذه الخطبة على لسان أبي ذر رضي الله عنه من الروافض الحاقدين على أصحاب رسول الله ﷺ؛ فيصف ذلك المجتمع الخير بهذه الصِّفَات القبيحة انتقامًا منهم.

ثانيًا: أن المناقشة العلمية والخلاف الفقهي اللذان وقعا بين معاوية وأبي ذر رضي الله عنهما لا يدلَّان على هذه الصورة القبيحة التي صَوَّر بها «سيد قطب» ذلك المجتمع الخيِّر، ولا يدل على شيء مما ينسبه «سيد قطب» إلى معاوية رضي الله عنه، وبني أمية - ومنهم عثمان-، وكثير ممن أعزَّ الله بهم الإسلام، وفتح على أيديهم الفتوحات

---

(١) «العدالة» (ص٢٠٨)، ط. الخامسة، (ص١٧٤)، ط. الثانية عشرة.

العظيمة، وأذل بهم المجوس واليهود والنصارى الذين غرسوا الحقد في الروافض، واستمَدَّ «سيد قطب» منهم هذا الوباء.

ثالثًا: تقدم أن الله أفاضَ الخير على الأمة في عهد عثمان ﷺ؛ فوسع هذا الفيض، وشمل الرخاء الأمة جميعًا؛ مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ [الفتح: ٢٠].

ومصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وتقدم أن عثمان كان يعطي أقرباءه وغيرهم من ماله الخاص الذي وسع الله عليه فيه في الجاهلية والإسلام في عهد رسول الله والخليفتين قبله؛ فقد كان عظيم التجارة، واسعَ المال ﷺ؛ مما نفع الله به الإسلام والمسلمين، وقد كان يعطي العطاء الواسع في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد الخليفتين قبله برًّا بأهله وبغيرهم، وذلك أمرٌ عظيم يحبُّه الله، ويحضُّ عليه، ولا يلوم عليه إلَّا الحاقدون الجاهلون المبطلون.

رابعًا: عجبًا لـ «سيد قطب»!! كيف يستروح إلى هذا الهراء الخبيث الذي دسته نفسٌ رافضيَّة حاقدة، مثل قوله: «لقد حدثت أعمال لا أعرفها، والله، ما هي في كتاب الله، ولا سنة نبيه، والله؛ إني لأرى حقًّا يطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذبًا، وأثرة بغير تقى».

فهذه صورة في غاية القبح والرداءة صَوَّر بها ذلك الرافضي أصحاب رسول الله ﷺ على لسان أبي ذر، وحاشاه أن يقول هذا الإفك.

لقد أطفأ الله بالصحب الكرام -وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ومنهم عثمان- ظلمات الباطل، ونار المجوس، وأضاءوا الدنيا بنور الإسلام، وأحيا الله بهم أممًا أماتهم الكفر والشرك؛ هذا الذي يجب أن يقال في أولئك المؤمنين المجاهدين الأبطال ﷺ.

قال سيد قطب:

«وروى مالك بن عبد الله الزيادي، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه جاء يستأذن على عثمان ابن عفان، فأذن له وبيده عصاه، فقال عثمان: يا كعب!! إن عبد الرحمن توفي وترك مالًا؛ فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله؛ فلا بأس عليه، فرفع أبو ذر عصاه، فضرب كعبًا، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهبًا أنفقه ويتقبل مني؛ أذر خلفي منه ست أواق. أنشدك الله يا عثمان أسمعته؟! ثلاث مرات. قال: نعم»[1].

وهذا الحديث رواه أحمد في «المسند»[2]، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على «المسند»، لكن في إسناده ابن لهيعة، وهو صدوق اختلط بعد احتراق كتبه، والراوي عنه حسن بن موسى؛ ليس من العبادلة المقبولة روايتهم عنه.

وفيه: أبو قبيل حي بن هانئ المعافري: صدوق يهم.

وفيه: مالك بن عبد الله البردادي، وليس الزيادي كما حقق ذلك الحافظ في «التعجيل»[3]، وهو مجهول، لم يرو عنه أحدٌ غير أبي قبيل.

فالحديث بهذا الإسناد ضعيف، لكن يقويه ما رواه ابن شبة[4] من طريق عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، وفيه قال: «ودخل عليه وهو يقسم مال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بين ورثته، وعنده كعب، فأقبل عثمان رضي الله عنه، فقال: يا أبا إسحاق، ما تقول في رجل جمع هذا المال، فكان يَتَصَدَّق منه في السبيل، ويصل الرحم؟ فقال: إني لأرجو له (خيرًا). فغضب أبو ذر، ورفع عليه العصا، وقال: ما يدريك يا بن اليهودية؟ ليودن صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويداء من قلبه».

ففي هاتين الروايتين حُجَّة على «سيد قطب» وعلى سائر خصوم عثمان رضي الله عنه،

---

(١) «العدالة» (ص٢٠٩)، ط. الخامسة، و (ص١٧٤)، طبعة الثانية عشرة.

(٢) (١/ ٤٥٣)، حديث (٤٥٣): تحقيق أحمد شاكر.

(٣) (ص٢٥٥).

(٤) (٣/ ٢٥٥-٢٥٦).

وذلك أن فيه دليلًا على ما كان يتمتع به أبو ذر من مكانة عند عثمان وأصحاب رسول الله ﷺ، وإلَّا فكيف يضرب رجلًا عالمًا ذا مكانة عند عمر، ثم عند عثمان، ثم في المجتمع المسلم، ويتم ضربه هذا في مجلس الخليفة.

وفيه: أن أبا ذر لم يكن منفيًّا بالربذة كما يدَّعي «سيد قطب» وسائر خصوم عثمان.

فهذه السنة التي مات فيها عبد الرحمن بن عوف هي السنة التي مات فيها أبو ذر رضي الله عنه، وهي سنة (٣٢هـ)[1].

وهذا يدل على أنه كان يتمتع بمطلق الحرية؛ إضافة إلى ما يتمتع به من مكانة لدى عثمان والأمة؛ لأنَّ أبا ذر كان ترك سكنى المدينة بمحض اختياره، فسكن بالشام في خلافة أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، حتى وقع الخلاف بينه وبين معاوية رضي الله عنه في سنة ثلاثين، وذلك أنه كان ينكر على من يقتني مالًا من الأغنياء، ويمنع أن يدخر فوق القوت، ويوجب أن يتصدق بالفضل، ويتأول قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

فينهاه معاوية عن إشاعة ذلك؛ فلا يمتنع، فكتب يشكوه إلى عثمان، فكتب عثمان إلى أبي ذر أن يقدم عليه المدينة فقدمها، فلامه عثمان على بعض ما صدر منه، واسترجعه فلم يرجع، فأمره أن يقيم بالربذة وهي شرقي المدينة.

ويقال: إنه سأل عثمان أن يقيم بها، وقال: «إنَّ رسول الله ﷺ قال لي: إذا بلغ البناء سلعًا؛ فاخرج منها. وقد بلغ البناء سلعًا. فأذن له عثمان بالمقام بالربذة، وأمره أن يتعاهد المدينة في بعض الأحيان حتى لا يرتد أعرابيًّا بعد هجرته، فلم يزل مقيمًا بها حتى مات»[2].

وفي بعض ما قاله ابن كثير نظر؛ لأن الدلائل كثيرة تدل على أنه خرج إلى

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٧/ ١٦٣-١٦٥).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٧/ ١٥٥).

الربذة باختياره.

وعلى كلٍّ؛ فكان له مطلق الحرية، ويتمتع بمكانة كبيرة عند عثمان ﷺ وغيره، وإلَّا فما الذي هيأ له أن يكون عند موت عبد الرحمن بن عوف موجودًا بالمدينة؟! وما الذي خوَّله أن يتصرَّف هذا التصرف بالضرب في مجلس الخليفة عند أولي النهى؟! فليس هذا حال المضطهدين المنفيين عند أولي الألباب، لا أظن أحدًا من كبار الصَّحَابة، أو كبار بني أمية يتَجَرَّأ على ضرب رجل عالم في مجلس الخليفة، وما فعل ذلك أبو ذر إلَّا لتلك المنزلة؛ هذا هو فقه هذه القصَّة، فكيف فقهها «سيد قطب»؟!!

قال بعدَها:

«وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم؛ فما زالا به عند عثمان يحرضانه عليه؛ حتى كان مصيره إلى (الربذة) منفيًا من الأرض في غير حربٍ لله ولرسوله، وفي غير سعيٍ في الأرض بالفساد كما تقول شريعة الإسلام»[1].

*** أقول:**

إن على هذا الكلام لمؤاخذات:

الأولى: ليس هناك دليلٌ يثبت على محك النقد العلمي أن معاوية ﷺ ومروان بن الحكم كانا يحرضان الخليفة الراشد الحليم عثمان بن عفان ﷺ على نفي أبي ذر ﷺ إلى الربذة، فلا يحل لمسلم أن يطلق العنان للسانه وقلمه لينال من مسلم؛ فيدينه بالظلم ومخالفة شريعة الإسلام بدون برهان؛ فضلًا عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ فضلًا عن خليفة عادل راشد.

الثانية: ما كان لـ «سيد» من حق أن ينساق وراء روايات كاذبة ناشئة عن أحقاد وغل على أصحاب رسول الله، بل كان عليه أن يتبين ويتثبت، ويرعى لخليفة رسول الله وصهره مكانته ومنزلته من الإسلام وقرابته وصحبته لرسول الله ﷺ،

---

(١) «العدالة الاجتماعية في الإسلام» (ص١٧٥).

وكان عليه أن يرعى لمعاوية صحبته وصهره وقرابته من رسول الله ﷺ، ولا ينسى ما لمروان من حق المسلم على المسلم، وأنه يحرُم ماله ودمه وعرضه.

الثالثة: أن الروايات الثابتة تفيد أن أبا ذر إنما خرج إلى «الربذة» باختياره، فلا قهر، ولا نفي كنفي المحاربين، ولا نفي المفسدين في الأرض، ولا مخالفة لشريعة الإسلام.

قال ابن سعد في «طبقاته»[1]: أخبرنا عفان بن مسلم، وعمرو بن عاصم الكلابي قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: حدثنا عبد الله ابن الصامت قال: «دخلتُ مع أبي ذرٍّ في رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذي لا يدخل عليه منه، قال: وتخوفنا عثمان عليه، قال: فانتهى إليه منه.

قال: ثم ما بدأه بشيء إلَّا أن قال: أحسبتني منهم يا أمير المؤمنين؟!! والله ما أنا منهم، ولا أدركهم، ولو أمرتني أن آخذ بعرقوبي قتب؛ لأخذتهما حتى أموت. قال: ثم استأذنه إلى الربذة.

قال: فقال: نعم، نأذن لك، ونأمر لك بنعم من نعم الصَّدَقة فتصيب من رسلها.

فقال: فنادى أبو ذر: دونكم -معاشر قريش- دنياكم؛ فاعذموها لا حاجة لنا فيها. قال: فما نراه بشيء، قال: فانطلق، وانطلقت معه حتى قدما الربذة، قال: فصادفنا مولى لعثمان غلامًا حبشيًا يؤمهم، فنودي بالصَّلاة، فتقدَّم، فلما رأى أبا ذر رضي الله عنه نكص، فأومأ إليه أبو ذر: تقدَّم فصل، فصَلَّى خلفَه».

انظر ماذا في هذا النص من بر الخليفة الراشد الرحيم بأخيه أبي ذر الصَّحَابي الزاهد الصادق رضي الله عنهما.

١- يدخل على عثمان الخليفة من الباب الذي لا يُدخل عليه منه، وهذا دليلٌ واضحٌ على إكرام عثمان لأبي ذر، واحترامه وتقديره، وعلى إدلال أبي ذر على أخيه عثمان؛ وأيُّ حبٍّ وأي احترام متبادل بين أخوين كهذا الذي يحصل بين

---

(١) (٤/ ٢٣٢)، وذكره ابن شبَّة في «تاريخه» (٣/ ٢٥٤).

عثمان وبين أبي ذر رضي الله عنهما.

٢- احترام أبي ذر للخليفة الراشد، واعترافه بحقِّ عثمان عليه من الطاعة والأدب.

٣- طاعته للخليفة عثمان، وقوله: «ولو أمرتني أن آخذ بعرقوبي قتب؛ لأخذت بهما».

٤- اعتذاره الرقيق إلى الخليفة، وتبرئة ساحته من أن يكون من الخوارج.

٥- رغبة أبي ذر رضي الله عنه في الابتعاد عن الناس، والخروج إلى الربذة بعد استئذانه لولي الأمر.

٦- قول عثمان رضي الله عنه له: «نعم، ونأمر لك بنعم من نعم الصَّدَقة». فإنه غاية في البر واللطف رضي الله عنه.

٧- أذن عثمان له بالذهاب إلى «الربذة» رأفةً بأبي ذر؛ وتحقيقًا لرغبته؛ لأن اجتهاده رضي الله عنه في تفسير كنز الذهب والفضة اختلف مع فهم الصحابة والتابعين، فألب ذلك عليه الناس، فضاق بذلك ذرعًا، فشكا ذلك لعثمان رضي الله عنه؛ فساعده على حل مشكلته.

قال الإمام البخاري رحمه الله[1]: حدثنا علي: سمع هشيمًا: أخبرنا حصين، عن زيد بن وهب قال: «مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقلت له: «ما أنزلك منزلك هذا؟! قال: كنت بالشام فاختلفتُ أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرتُ ذلك لعثمان؛ فقال لي: إن شئت تنَحَّيتَ فكنتَ قريبًا، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا عليَّ عبدًا حبشيًا؛ لسمعتُ وأطعتُ».

---

(١) كتاب الزكاة، حديث رقم (١٤٠٦)، باب: ما أُدِّيَ زكاته فليس بكنز.

وقال ابن شبة في «تاريخ المدينة»[1]: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ضمرة بن ربيعة: قال ابن شوذب: حدثنا عن مطرف، عن حُميد بن هلال، عن عبد الله ابن الصامت قال: «دخلتُ مع أبي ذر رضي الله عنه على عثمان رضي الله عنه، وعلى أبي ذر رضي الله عنه عمامة، فرفع العمامة عن رأسه، وقال: إني والله يا أمير المؤمنين ما أنا منهم!! -قال ابن شوذب: يعني: من الخوارج-، ولو أمَرتني أن أعض على عرقوبي قتب؛ لعضضت عليهما حتى يأتيني الموت وأنا عاض عليهما. قال: صدقت يا أبا ذر، إنَّا إنما أرسلنا إليك لخير: لتجاورنا بالمدينة. قال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي في «الربذة»، قال: نعم، ونأمر لك بنعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح. فقال: لا حاجة لنا في ذاك، يكفي أبا ذر صرمته. قال: ثم خرج، فلما بلغ الباب التفت إليهم، فقال: يا معشر قريش؛ اعذموها ودعونا ودييننا.

قال: ودخل عليه وهو يقسم مال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بين ورثته وعنده كعب، فأقبل عثمان رضي الله عنه، فقال: يا أبا إسحاق، ما تقول في رجل جمع هذا المال، فكان يتصدَّق منه في السبيل، ويصل الرحم؟! فقال: إني لأرجو له (خيرًا)، فغضب أبو ذر، ورفع عليه العصا، وقال: ما يدريك يا بن اليهودية، ليودنَّ صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويداء من قلبه».

رحم الله هذا الصحابي الجليل أبا ذر، ورضي عنه؛ ليته لم يغضب، فأين هو عن قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقول النبي ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[2]. قال هذا

---

(١) (٣/ ٢٥٥-٢٥٦)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٠).

(٢) مسلم (٢٥٤٠)، والبخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، (ح: ٣٦٧٣)، واللفظ المذكور لمسلم، وابن ماجه (١٦١).

في خصومة كانت بين عبد الرحمن بن عوف وخالد.

وأين يذهب عن آيات المواريث وأحاديثه؟ وأين يذهب عن قوله ﷺ لسعد حين أراد أن يتصدق بثلثي ماله، قال له رسول الله ﷺ: «لا. قال: قلت: فأتصدق بشطره؟ قال: لا، الثلث، والثلث كثير؛ إنك إن تَذَر ورثتك أغنياء؛ خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[١].

وإذا لم يرج لعبد الرحمن بن عوف الخير؛ فلمن يُرجَى؟!!

وقال ابن شبة[٢]: حدثنا حجاج بن نصير قال: حدثنا قرة، عن محمد بن سيرين قال: «خرج أبو ذر رضي الله عنه إلى الشام، فشكاه معاوية رضي الله عنه، فبعث عثمان رضي الله عنه إليه، فلما قدم عليه قال: يا أمير المؤمنين، إني -والله- لستُ منهم. قال: أجل، ولكنما أردنا أن تروح عليك اللقاح وتغدو. قال: لا حاجة لي في دنياكم؛ فخرج حتى أتى الربذة.

فكان محمد إذا ذكر له أن عثمان رضي الله عنه سيَّره؛ أخذه أمر عظيم، ويقول: هو خرج من قِبل نفسه، ولم يُسيره عثمان».

حدثنا الحكم بن موسى، وهارون قالا: حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن غالب القطان قال: قلت للحسن: «عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا، معاذ الله»[٣].

ونحن وكل منصف يقول كما قال الحسن: «لا، معاذ الله».

فهذه الروايات الثابتة اللائقة بمكانة الخليفة الراشد الرحيم رضي الله عنه؛ ومنها يتبيَّن للقارئ أن عثمان رضي الله عنه لم ينفِ أبا ذر رضي الله عنه، وأنه اختار «الربذة» بمحض حريته واختياره، كما آثر سكنى الشام، وأنه كان يتردد إلى المدينة بحرية كاملة؛ تحقيقًا لرغبة عثمان رضي الله عنه.

وإذن؛ فليس لـ: «سيد قطب» أن يُوجّهَ هذه التهمة لكلٍّ من: عثمان، ومعاوية، ومروان.

(١) مسلم (١٦٢٨).

(٢) «أخبار المدينة» (٣/ ٢٥٦).

(٣) «أخبار المدينة» (٣/ ٢٥٦).

أمَّا إنكار رأي أبي ذر؛ فقد صدر من الصَّحَابة جميعًا، وخالفه علماء الأمة من ذلك الوقت إلى يومنا هذا، والقرآن، والسنَّة: قولًا، وعملًا، وتقريرًا.

والحديث الذي احتجَّ به أبو ذر ﷺ لا يدل على ما ذهب إليه، وليس فيه تحريم أن يُخلف الرجل لورثته مالًا.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون: الصحابة وعلماء الأمة يخالفون أبا ذر في تفسير الكنز وإيجاب التزهد الذي ذهب إليه

قال شيخ الإسلام في الجواب على ابن المطهر الحلي فيما يتعلق بأبي ذر رضي الله عنه:

«فالجواب: أن أبا ذر رضي الله عنه سكن الربذة، ومات بها لسبب ما كان يقع بينه وبين الناس؛ فإن أبا ذر رضي الله عنه كان رجلًا صالحًا زاهدًا، وكان من مذهبه: أن الزهد واجب، وأنَّ ما أمسكه الإنسان فاضلًا عن حاجته؛ فهو كنز يكوى به في النار، واحتجَّ على ذلك بما لا حُجَّة فيه من الكتاب والسنَّة، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وجعل الكنز ما يفضل عن الحاجة.

واحتجَّ بما سمعه من النبي ﷺ، وهو أنه قال: «يا أبا ذر، ما أحب أن لي مثل أُحد ذهبًا يمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار؛ إلَّا دينار أرصده لدَين».

وأنه قال: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة؛ إلَّا من قال بالمال هكذا وهكذا».

ولما توفي عبد الرحمن بن عوف، وخَلَّفَ مالًا؛ جعل أبو ذر ذلك من الكنز الذي يُعَاقب عليه؛ وعثمان يناظرُه في ذلك حتى دخل كعب ووافق عثمان، فضربه أبو ذر، وكان قد وقع بينه وبين معاوية بالشام بهذا السبب، وقد وافق أبا ذر على هذا طائفةٌ من النسَّاك، كما يُذكر عن عبد الواحد بن زيد ونحوه.

ومن الناس من يجعل الشبلي[1] من أرباب هذا القول؛ وأما الخلفاء الراشدون وجماهير الصحابة والتابعين فعلى خلاف هذا القول؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن

(١) لا عبرة بمخالفة هذين؛ لأنهما ليسا من العلماء.

النبي ﷺ أنه قال: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة، وليس فيما دون خمس أواق صدقة». فنفى الوجوب فيما دون المائتين، ولم يشترط كون صاحبها محتاجًا إليها أم لا.

وقال جمهور الصحابة: الكنز هو المال الذي لم تُؤد حقوقه، وقد قسم اللَّه تعالى المواريث في القرآن، ولا يكون الميراث إلَّا لمن خلف مالًا، وقد كان غيرُ واحد من الصحابة له مال على عهد النبي ﷺ من الأنصار، بل ومن المهاجرين.

وكان غيرُ واحد من الأنبياء له مالٌ، وكان أبو ذر يريد أن يوجب على الناس ما لم يوجب اللَّه عليهم، ويذمهم على ما لم يذمهم اللَّه عليه، مع أنه مجتهد في ذلك، مثابٌ على طاعته ﷺ كسائر المجتهدين من أمثاله.

وقولُ النبي ﷺ ليس فيه إيجاب، إنما قال: «ما أحب أن يمضي عليَّ ثالثة وعندي منه شيء». فهذا يدل على استحباب إخراج ذلك قبل الثالثة لا على وجوبه.

وكذلك قوله: «المكثرون هم المقلون». دليل على أنَّ من كثر ماله؛ قلت حسناته يوم القيامة إذا لم يخرج منه؛ وذلك لا يوجب أن يكون الرجل القليل الحسنات من أهل النار إذا لم يأت كبيرة، ولم يترك فريضة من فرائض اللَّه، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يُقوّم رعيته تقويمًا تامًّا؛ فلا يعتدي لا الأغنياء، ولا الفقراء.

فلما كان في خلافة عثمان؛ توسع الأغنياء في الدنيا حتى زاد كثير منهم على قدر المباح في المقدار والنوع[1]، وتوسع أبو ذر في الإنكار حتى نهاهم عن المباحات؛ وهذا من أسباب الفتن بين الطائفتين؛ فكان اعتزال أبي ذر لهذا السبب، ولم يكن لعثمان مع أبي ذر غرض من الأغراض.

وأما كون أبي ذر من أصدق الناس؛ فذاك لا يوجب أنه أفضل من غيره، بل كان أبو ذر مؤمنًا ضعيفًا، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال له: «يا أبا

(١) في هذا الكلام نظر، ويحتاج إلى تفصيل لإجماله، وإقامة الأدلة عليه.

ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحبُّ لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمَّرَن على اثنين، ولا تولين مال يتيم».

وقد ثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللَّه من المؤمن الضعيف؛ وفي كلٍّ خير».

وأهل الشورى مؤمنون أقوياء، وأبو ذر وأمثاله مؤمنون ضعفاء؛ فالمؤمنون الصالحون لخلافة النبوة ك: عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف أفضل من أبي ذر وأمثاله»[1].

فهذا شيخ الإسلام يبيِّن رُجحان مذهب الصحابة وجمهور الأمة، ويبيِّن ضعفَ مذهب أبي ذر في إيجاب الزهد الذي لم يوجبه اللَّه، وتوسعه في الإنكار حتى نهاهم عن المباحات، وأنه ليس له حُجَّة في الآية والأحاديث التي احتجَّ بها، وإن كان في ذلك مجتهدًا معذورًا ﷺ، وأنه ليس لأحد أن يتَعَلَّقَ بمذهب أبي ذر بعد أن بيَّنَ العلماء ضعفه ومخالفته للأدلة الواضحة من الكتاب والسنَّة.

ثم ليس له أي علاقة بما يدعو إليه الاشتراكيون الذين دانوا بمذهب ماركس اليهودي الشيوعي، ثم ذهبوا يحرفون له نصوص القرآن والسنَّة معرضين عن الحق الواضح الذي قرره: الصَّحَابة، والتابعون، وأئمَّة الإسلام.

وقال ابن جرير[2] في تفسير قوله اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾:

«واختلف أهل العلم في معنى (الكنز)، فقال بعضهم: هو كل مال وجبت فيه الزكاة؛ فلم تؤد زكاته، قالوا: وعنى بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ولا يؤدون زكاتها». وساق أسانيد هذا القول إلى: ابن عمر، وعكرمة، والسدي.

والحقيقة: أنه قول الجمهور من الصحابة والأمة.

---

(١) «منهاج السنة» (٦/ ٢٧٢-٢٧٦)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، (٣/ ١٩٨-١٩٩)، نشر مكتبة الرياض الحديثة، ومكتبة الجمهورية - القاهرة.

(٢) «التفسير» (١٤/ ٢١٧-٢٢٤)، تحقيق وتخريج: محمود محمد شاكر.

قال: «وقال آخرون: ما زاد على أربعة آلاف». ونسبه إلى علي ﷺ.

قال: «وقال آخرون: ما فضل عن حاجة صاحبه إليه». ونسبه إلى أبي ذر، وعمر، وأبي أمامة، وساق أسانيده إليهم، والأسانيد إلى عمر وعلي ضعيفة.

ثم قال: «قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة: القول الذي ذكر عن ابن عمر؛ من أن كل مال أديت زكاته؛ فليس بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر، وإن كل مال لم تؤد زكاته؛ فصاحبه مُعَاقب مستحق وعيد اللَّه، إلَّا أن يتفضل اللَّه عليه بعفوه وإن قل إذا كان مما يجب فيه الزكاة.

وذلك أن اللَّه أوجب في خمس أواق من الورق -على لسان رسوله- ربع عشرها، وعشرين مثقالًا من الذهب مثل ذلك ربع عشرها.

فإن كان ذلك فرض اللَّه في الذهب والفضة على لسان رسوله؛ فمعلومٌ أن الكثير من المال -وإن بلغ في الكثرة ألوف ألوف لو كان- وإن أديت زكاته من الكنوز التي أوعد اللَّه أهلها عليها بالعقاب؛ لم يكن فيه الزكاة التي ذكرنا في ربع العشر؛ لأن ما كان فرضًا إخراج جميعه من المال، وحرام اتخاذه؛ فزكاته الخروج من جميعه إلى أهله لا ربع عشره؛ وذلك مثل المال المغصوب الذي هو حرام على الغاصب إمساكه، وفرض عليه إخراجه من يده إلى يده التطهر منه: ردُّه إلى صاحبه.

فلو كان ما زاد من المال على أربعة آلاف درهم، أو ما فضل عن حاجة ربِّه التي لابد منها مما يستحق صاحبه باقتنائه إذا أدى إلى أهل السهمان حقوقهم منها من الصدقة وعيد اللَّه لم يكن اللازم ربه فيه ربع عشر، بل كان اللازم له الخروج من جميعه إلى أهله، وصرفه فيما يجب عليه صرفه، كالذي ذكرنا من أن الواجب على غاصب رجل ماله رده على ربه.

وبعد؛ فإن فيما حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا محمد بن ثور قال: قال معمر: أخبرني سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من رجل لا يؤدِّي زكاة ماله؛ إلَّا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جبينه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى**

يقضى بين الناس، ثم يرى سبيله، وإن كانت إبلًا إلَّا بطح لها بقاع قرقر تطؤه بأخفافها -حسبته قال: وتعضه بأفواهها-، يرد أولاها على أخراها حتى يقضى بين الناس، ثم يرى سبيله، وإن كانت غنمًا فمثل ذلك إلَّا أنها تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها»(١).

وفي ذلك نظائر من الأخبار التي كرهنا الإطالة بذكرها الدلالة الواضحة: أن الوعيد إنما هو من اللَّه على الأموال التي لم تؤد الوظائف المفروضة فيها لأهلها من الصدقة، لا على اقتنائها واكتنازها».

ثم ساق روايات عن ابن عباس وغيره في تأييد هذا القول.

فهذه الأحاديث والأقوال واضحة حاسمة في صحة ورجحان مذهب الصحابة سوى أبي ذر ﷺ، وصحة مذهب جمهور الأمة.

لماذا لم يلتفت «سيد قطب»، ولم يشر إلى هذا المذهب الحق؟!!

والجواب: أن الإيمان بالاشتراكية الباطلة هو الذي يجعله يتَعَلَّق بالباطل، ويخفي الحق، وليس أبو ذر بحاجة إلى أن يدعو إلى الإنفاق والبر؛ فإن المجتمع الذي كان يعيشُ فيه صاحب إنفاق وبرٍّ وجهاد، والمسلمون في كل زمان -والحمد لله- أهلُ إنفاق وبر.

ولكن الذي دعا إليه أبو ذر هو: وجوب الزهد، ووجوب إنفاق ما فضل عن الحاجة؛ وهذا أمرٌ لم ترد به الشريعة الإسلامية، ولم تفرضه على المسلمين، وهو الذي أنكره الناسُ في ذلك العهد على أبي ذر ﷺ.

ويرمي «سيد قطب» عثمان الخليفة الراشد بإبعاد أبي ذر إلى الربذة -كما سبق-؛ لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما

---

(١) أخرجه مسلم، (١٢) كتاب الزكاة، (٦) باب: إثم مانع الزكاة، حديث (٩٨٧)، من طريق زيد بن أسلم، ومن طريق سهيل بن أبي صالح، كلاهما عن أبي صالح، عن أبي هريرة.
وفي حديث سهيل: «ما من صاحب كنز لا يؤدِّي زكاته».
وساق مسلمٌ له شاهدًا من حديث جابر، وفيه: «ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه؛ إلَّا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع ...». إلخ.

كان يدعو إليه رسول اللَّه ﷺ من الإنفاق والبر والتعفف.

* **أقول:**

أولًا: إن في هذا طعنًا في عثمان، ورميًا لمن وسع اللَّه عليهم من الصحابة والمجتمع الإسلامي في عهد عثمان؛ فتوسع بعضهم في المباح بأنهم يخبون في الترف، وقد غلت أيديهم من الإنفاق والبر، وفقدوا صفة التعفف -والعياذ بالله-!!!

يصف ذلك المجتمع بـ: الترف، والإقطاع، والأرستقراطية، وكلها في غاية القبح.

فما حكم الترف عند «سيد قطب»؟!

يقول في هذا الكتاب الذي يصف فيه ذلك المجتمع من الصحابة وخيار التابعين بالترف:

«والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كراهة الترف وتحريمه متواترة كثيرة بصفة بارزة، تشعر بأنه من أكره الحرام إلى اللَّه ورسوله، والإسلام الذي يحض الناسَ على التمتع بطيبات الحياة، ويكره أن يحرموها على أنفسهم، وهي لهم حلال، ويدعو إلى جعل الحياة بهيجة مقبولة، لا قاتمة، ولا منبوذة.. هذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة العنيفة.

فالقرآن يصف المترفين أحيانًا بسقوط الهمَّة، وضعف القوة، وهبوط الأريحية: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]»[1].

وإذا عرفنا حرص الإسلام على الجهاد، وحثه عليه، وتعظيم من يتطوَّعونَ له، حتى ليقول الرسول الكريم: «من مات ولم يغز، ولم يحدِّث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من النفاق»؛ أدركنا في الجانب الآخر كم يحتقر أولي الطول هؤلاء لتخلفهم وقعودهم عن صفوف المجاهدين...

ولا غرابة في هذا؛ فالمترف مترهل ضعيف الإرادة، ناعم قليل الرجولة، لم

---

(١) «العدالة» (ص١٢٦-١٢٧)، ط. خامسة.

يعتد الجهد؛ فسقطت همته، ونترت أريحيته؛ والجهد والجهاد يعطل عليه متاعه الشهواني الرخيص، ويحرمه لذاته الحيوانية فترة من الوقت، وهو لا يعرف قيمة في الحياة سوى هذه القيم الداعرة الشائنة».

ثم يواصل الكلام على المترفين، ويسوق الآيات فيهم، ثم يقول معلقًا على بعض الآيات:

«ولا غرابة في هذا!! فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة، حريصون على شهواتهم ولذائذهم، حريصون على أن يكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم . . . ». ثم يواصل الكلام في هذا الصدد.

وإذا كانت هذه هي نظرة «سيد» إلى المترفين، بل هي نظرة جميع المسلمين؛ فلماذا يصف ذلك المجتمع الطيب الخير بالترف، بل بالتَّمرُّغ فيه، وكبار أغنيائه من كبار أصحاب رسول الله، والذين يحاربون الترف أكثر من «سيد» وأمثاله.

قال «سيد قطب» مُهوِّلا مرجفًا على أصحاب رسول الله ﷺ:

«وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجًا للثروات الضخام أورده المسعودي، قال: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال؛ فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلًا وخيلًا كثيرة.

وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس، وألف أمَة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك.

وكان مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفًا.

وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس، غير ما خلف من الأموال والضياع.

وبنى الزبير دارة بالبصرة، وبنى أيضًا بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بنى طلحة دارة بالكوفة، وشيد دارة بالمدينة، وبناها بالجص والآجُر والساج.

وبنى سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق، ورفع سمكها، وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات.

وبنى المقداد دارة بالمدينة، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى ابن منبه خمسين ألف دينار وعقارًا، وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم»[1].

إذن؛ فهؤلاء هم رءوس الإقطاعيين والأرستقراطيين والمترفين في نظر «سيد قطب».

ولأمرٍ ما لم يذكر المسعودي وسيد قطب عليَّ بن أبي طالب؛ فإنه كان من أكثر الصحابة مالًا، وقد بلغت زكاة ماله في عهد عثمان أربعين ألفًا، وله عقارات ووديان وعيون؛ فهل المسعودي وسيد يجهلان ذلك؟!!

أما أهل السنَّة والجماعة: فعليٌّ وسائر الخلفاء والعشرة المبشرون بالجنة، بل كل الصحابة -غنيهم وفقيرهم- هم خير الناس بعد الأنبياء، وهم خيرُ أمة أُخرجت للناس -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

*** والآن نقول:**

إن الثراء لم يطرأ على المجتمع الإسلامي ولم يفاجئه في عهد عثمان ﷺ؛ فقد كان في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد أبي بكر وعمر أناسٌ أغنياء..

فعن أبي ذر ﷺ: «أن أناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله؛ ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم. قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟! إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن منكر صدقة...». الحديث.

فمن عهد الرسول ﷺ كان يوجد أغنياء أهل دثور، واتسع الحال على الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد أبي بكر وعمر، ولا يزال حالهم في ازدياد واتساع دينًا ودنيا.

---

(١) «العدالة» (ص١٧٥)، ط. الثانية عشرة، (ص٢٠٩)، ط. الخامسة.

وكان عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو طلحة وغيرهم أهل ثراء في عهد رسول الله وخليفتيه، وكانوا يبذلون الكثير والكثير في الجهاد في سبيل الله، وفي البر، وصلة الأرحام، والبذل للمعوزين.

فأما عثمان رضي الله عنه فشهرته بكثرة المال في عهد رسول الله والخليفتين بعده أشهرُ من أن تذكر، وهو الذي جهز جيش العسرة -أي: غزوة تبوك- بالمال الكثير.

لكنه في عهده لم يحن أجله؛ حتى كاد ماله أن ينفد لجوده وسخائه، وبرِّه بالأمة وبذوي قرباه، كما أوصى الله ورسوله بهم، ولم يكن ماله كما ذكر المسعودي، ونقله فرحًا به «سيد قطب».

* **وأقول:**

إن المسعودي شيعي معتزلي حاقد على عثمان رضي الله عنه، وقد ساق هذه الأساطير بدون إسناد شأن كل مبطل حاقد ساق هذه الأساطير للطعن في عثمان، وتشويه أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن الأدلة على سوقها للطعن قوله عقبها: «وهذا بابٌ يتَّسعُ ذكره، ويكثر وصفُه فيمن تملك الأموال في أيامه، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة.

وحَجَّ عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر دينارًا، وقال لولده عبد الله: «لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا». ولقد شكا الناسُ أميرَهم بالكوفة سعد بن أبي وقاص، ثم ذكر عزله واستعماله عمارًا، وابن مسعود، وسهل بن حنيف، وما قرر لهم عمر، ثم قال: «وأين عمر ممن ذكرنا؟!!».

وأين هو عما وصفنا؟!!

ومن يفهم أنه لم يسق هذه الأساطير إلَّا ليطعن في عثمان، ويؤكد هذا بالمقارنة بين عهده وعهد عمر بن الخطاب؛ ليظهر الفرق الهائل بين الرجلين والعهدين.

ومع هذا القصد السيئ؛ فقد أثنى على عثمان وعماله وأهل عصره بعض الثناء قبل أن يسوق هذه المطاعن، فقال: «وكان عثمان في نهاية الجود والكرم

والسماحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عُماله وكثيرٌ من أهل عصره طريقته، وتأسَّوا به في فعله». ثم غلبت عليه شيعته؛ فشرع في ذكر تلك الأساطير بدون أسانيد وبدون احترام، ولا ورع، ولا قصد نبيل.

ويؤسفنا أن هذا الرجل الشيعي ساق هذا النص، وعلَّق عليه بتعليق واحد، ثم ذكر تولية عثمان لبعض عماله بعد ذلك، ثم كَفَّ لسانه وقلمه، لكن «سيد» ساق طعنات كثيرة، وحمل حملات مريرة، ولم يشبع، ولم ترو غلته؛ فيبدي ويعيد، وينقص ويزيد، ويبني القصور الضخام من لبنات الطعن والاتهام على المتهاوي والرديء من الكلام، ولم نرَ منه أي ثناء على عثمان، ولا أهل عصره الكرام ﷺ.

* * *

الفصل الخامس والثلاثون: نفاد مال عثمان ودحضه لشبه أهل الفتن

قال ابن جرير[١] في سياقه اعتذار عثمان ورده على دعاوى أهل الفتن والشغب:

«وقالوا: وحميت حمى، وإني -والله- ما حميت، حُمي قبلي، واللهِ، ما حموا شيئًا لأحدٍ ما حموا إلَّا غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعية أحدًا، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها؛ لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحَّوا منها أحدًا إلَّا مَن ساق درهمًا؛ وما لي من بعير غير راحلتين، وما لي ثاغية ولا راغية، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرًا وشاء، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجتي، أكذلك؟! قالوا: اللهم نعم».

«وكان يعطي قرابته من ماله؛ لا من بيت مال المسلمين».

قال ابن جرير[٢] -رحمه الله- يحكي دحض عثمان لشبههم:

«وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإني ما أعطيهم (إلَّا)[٣] من مالي، ولا أستحل مال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس؛ ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي؛ قال الملحدون ما قالوا؛ وإني -والله- ما حملت على مصر من الأمصار فضلًا، فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم، وما قدم علي إلَّا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء، فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتلفت[٤] من

---

(١) (٤/ ٣٤٧-٣٤٨)، وبهذا يظهر كذب وبطلان ما قاله المسعودي في حق عثمان.

(٢) (٤/ ٣٤٧).

(٣) حرف «إلَّا» التي بين القوسين زيادة مني اقتضاها السياق.

(٤) كذا بالأصل، ولعل الصواب: «ولا تبلَّغت».

مال اللَّه بفلس فما فوقه، وما أتبلغ منه ما آكل إلَّا مالي».

* وفي هذا النص أمور:

١- بيان الذين عتبوا عليه وشغبوا، وكادوا له، وتآمروا عليه.

٢- بيان أن الصحابة -رضوان اللَّه عليهم- كانوا مع أخيهم عثمان على الحق، وضد أهل الباطل والشغب، بل أفتوا بقتلهم بناءً على الدليل الشرعي الذي تلقوه من رسول اللَّه ﷺ.

٣- وفيه أن عثمان دحض شبههم المفتعلة، وفنَّدهَا واحدة تلو الأخرى، والصحابة وغيرهم يُصَدِّقونه، ويذكرون براءته ونزاهته.

والمسلم النزيه من الأغراض والأهواء لا يتلمس المثالب في روايات المغرضين والأفاكين، ثمَّ يتَعَلَّق بها، ويشغب بها على أصحاب رسول اللَّه ﷺ، بل يبحث عن حسناتهم وفضائلهم وما يدل عليها من كتاب اللَّه وسنَّة رسوله، وثناء السلف عليهم.

ويستأنس لذلك بمثل هذه الرواية التي سقناها ولو كان في إسنادها ضعف، فإن في عدلهم وأخلاقهم وسيرهم العطرة وفيما قاله اللَّه ورسوله ﷺ من تزكيتهم وحُسن الثناء عليهم ما يدعمها ويقويها.

هذا هو المنهج السديد والمنطق السليم، لا منهج أهل الأهواء والأغراض ومنطقهم الأعوج الضال المتناغي مع منهج ابن سبأ وتلاميذه.

وقال ابن جرير[1]: «وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطي؛ فبدأ ببني أبي العاص؛ فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب».

فهذا هو البر، وهذا هو الجود والسخاء؛ وهو من مزاياه ومحاسنه رضي الله عنه.

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ... ولكن عين السخط تبدي الْمَسَاويا

(١) (٤/٣٤٨).

وبهذا يظهر كذب وبطلان ما قاله المسعودي في حقِّ عثمان، وفرح به «سيد قطب».

*** وأما الزبير ﷺ فإليك ما يقوله أهل السنة فيه:**

قال البخاري[1] -رحمه الله-: «باب: بركة الغازي في ماله حيًا وميتًا مع النبي ﷺ وولاة الأمر بعده».

ثم روى بإسناده إلى عبد اللَّه بن الزبير ﷺ قال: «لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمتُ إلى جنبه، فقال: يا بُني لا يُقتل اليوم إلَّا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا، وإن من أكبر همي لديني، أفترى يبقي دَيننا من مالنا شيئًا؟! فقال: يا بني بعْ ما لنا؛ فاقض ديني، وأوصى بالثلث وثلثه لبنيه - يعني: بني عبد اللَّه بن الزبير-، يقول: ثلث الثلث؛ فإن فضل من مالنا فضل بعد قضاء الدين؛ فثلثه لولدك.

قال هشام: وكان بعض ولد عبد اللَّه قد وازى بعض بني الزبير -خبيب وعباد-، وله يومئذ تسعة بنين وتسع بنات.

قال عبد الله: فجعل يوصيني بدَينه، ويقول: يا بُني إن عجزت عن شيء منه؛ فاستعن عليه مولاي. قال: فواللَّه، ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت، من مولاك؟ قال: اللَّه. قال: فواللَّه، ما وقعت في كُربة من دينه إلَّا قلت: يا مولى الزبير، اقض عنه دَينه؛ فيقضيه.

فقتل الزبير ﷺ ولم يدع دينارًا ولا درهمًا إلَّا أرضين منها الغابة، وإحدى عشرة دارًا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارًا بالكوفة، ودارًا بمصر؛ قال: وإنما كان دَينه الذي عليه أن الرَّجُل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه؛ فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف، فإني أخشى عليه الضيعة، وما ولي إمارة قط، ولا جباية خراج، ولا شيئًا؛ إلا أن يكون في غزوة مع النبي ﷺ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ.

قال عبد اللَّه بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدَّين فوجدته ألفي ألف ومائتي

---

(١) كتاب الخمس، حديث (٣١٢٩).

ألف، قال: فلقي حكيمُ بن حزام عبدَ اللَّه بن الزبير، فقال: يا بن أخي، كم على أخي من الدَّين؟ فكتمته، فقال: مائة ألف؟ فقال حكيم: واللَّه، ما أرى أموالكم تسع لهذه. فقال له عبد الله: أرأيتك إن كانت ألفي ألف ومائتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه؛ فاستعينوا بي.

قال: وكان الزبير اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد اللَّه بألف ألف وستمائة ألف، ثم قام فقال: من كان له على الزبير حق؛ فليوافنا بالغابة، فأتاه عبد اللَّه بن جعفر، وكان له على الزبير أربعمائة ألف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم. قال عبد الله: لا. قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخِّرُونَ إن أخَّرتم. فقال عبد الله: لا. قال: فاقطعوا لي قطعة. قال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا. قال: فباع منها، فقضى دينه فأوفاه، وبقي منها أربعة أسهم ونصف.

فقدم على معاوية وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن الزبير، وابن زمعة، فقال له معاوية: كم قومت الغابة؟ قال: كل سهم مائة ألف. قال: كم بقي؟ قال: أربعة أسهم ونصف. فقال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهمًا بمائة ألف. وقال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهمًا بمائة ألف. وقال ابن زمعة: قد أخذت سهمًا بمائة ألف. فقال معاوية: كم بقي؟ فقال: سهم ونصف. قال: أخذته بخمسين ومائة ألف. قال: وباع عبد اللَّه بن جعفر نصيبَه من معاوية بستمائة ألف.

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه؛ قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا. قال: لا والله!! لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا مَن كان له على الزبير دَين فليأتنا فلنقضه. قال: فجعل كل سنة يُنادي بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

قال: وكان للزبير أربع نسوة، ورفع الثلث؛ فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف».

* ففي هذا الحديث:

١- كرامة هذا الصحابي الجليل عند اللَّه.

٢- تقوى هذا الصحابي لله، وخوفه من اللَّه، واهتمامه بديون الناس

وحقوقهم .

٣- الدلالة على صدق نيته في خروجه إلى العراق لمواجهة قتلة عثمان، واعتقاده أنه مظلوم في مقام يصدق فيه الكذوب .

٤- شكه في وفاء ماله بدينه الكثير .

٥- وصيته ولده باللجوء إلى اللَّه إذا واجه كُربة في قضاء هذا الدَّين الذي أهمه ﷺ، وحسن ثقته بمولاه .

٦- أن ابنه كان يواجه كربات في قضاء دين والده، فيلجأ إلى الله ؛ فيستجيب اللَّه دعاءه، وهذه أحوال أولياء اللَّه الصادقين المخلصين ؛ لا حال الإقطاعيين المترفين .

٧- أن اللَّه سبحانه بارك في مال الزبير، وإلَّا فإن الزبير، وابنه، وحكيم بن حزام، وعبد اللَّه بن جعفر كانوا يعتقدون أنَّ مال الزبير لا يفي بدينه ؛ فضلًا أن يبلغ إلى ما بلغ إليه من البركة والكثرة التي غطت ديونه وزادت إلى درجة لا تخطر ببال أحد منهم، وذلك من فضل اللَّه، ثم ببركة إخلاص الزبير وولده ﭭ .

فأين أكاذيب المسعودي وتهويل سيد قطب؟!!

ثم إنَّ الدور التي خلفها كان قد أوقفها على من تطلق من بناته ؛ وهذا من الأدلة على برِّه ببناته في حياته وبعد موته ﷺ .

٨- قدمنا ما يدل على أن الزبير ﷺ قد أخرج نفسه من الديوان بعد استشهاد عمر ﷺ، وفي هذا الحديث أنَّ الزبير ﷺ ما ولي إمارة قط، ولا جباية، ولا خراجًا، ولا شيئًا ؛ إلَّا أن يكون في غزوة مع رسول اللَّه، أو أبي بكر وعمر وعثمان .

٩- انظر إلى دينه حيث بلغ ألفي ألف ومائتي ألف، وكان العقلاء يرون أن ماله لا يبلغ أن يفي لسداد مائة ألف، لكن اللَّه بارك في ماله، وحل مشكلاته ؛ رحمة وتفضلًا منه على عبده الصادق المخلص ؛ فأين ما يقولُه ويفتريه المسعودي ويُهوِّل به سيد قطب؟!!

إن طه حسين على خلاعته وخبثه، وطعنه في الصحابة؛ كانت نفسُه الخبيثة قد تسمح له بأن يمدح كثيرًا من الصَّحَابة، ويذكر محاسنَهم، ويعتذر بعض الأعذار لهم إلى جانب طعونه التي يعتمد فيها على الروايات الضعيفة والباطلة، ويعتمد أحيانًا على مخيلته الفاسدة وهواه الأعمى.

ومع كل هذا لم نجد فيه تشنج «سيد قطب» وحقده على كثير من الصحابة؛ وخصوصًا عثمان وبني أمية -صحابيهم وتابعيهم ومن بعدهم-، فما كانت نفسُه لتطاوعه في ذكر شيء من محاسنهم، وما كان دينه يزعه عن اعتماد الروايات الباطلة في مثالبهم والطعن فيهم، وأكثر من هذا اعتماده على مخيلته وإرسال عنان قلمه في الطعن والتهويش عليهم.

وللفرق بينه وبين طه حسين انظر ما قاله «سيد قطب» من أول كلامه في «العدالة الاجتماعية» إلى آخره في أصحاب رسول اللَّه، وفي عثمان، وبني أمية خَاصَّة، وفي قريش عامة، وانظر عمومَ ما قاله طه حسينْ؛ تجد «سيدًا» أشد لهجة، وأكثرَ تهجُّمًا وظلمًا، ولا أثر لاحترامهم وإنصافهم في كتابه، وتجد في كتابة طه حسين من الخبث والهوى ما اللَّه به عليم، ولكن -كما قلت- كثيرًا ما تسمح له نفسه بالمرونة والاحترام والثناء على كثير منهم، وإن كان ما سلم من ثلبه إلَّا القليل منهم.

وكنتُ أتصور أن «سيد قطب» كان متأثرًا بطه حسين في الطعن والثلب في الصحابة في الجملة، لكنه لم يتابعه فيما يذكره من محاسنهم؛ فما كان في نفسه تلك المرونة التي عند أستاذه، وما كان عند الأستاذ من العنف الملتهب مثل ما كان عند التلميذ.

وعلى سبيل المثال: انظر ما نقله «سيد قطب» عن المسعودي من الطعن في الصحابة، وكيف اختار عثمان، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف[1]، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد، وانظر تعليقه على كلام المسعودي حيث كان أشد طعنًا وأقل أدبًا من المسعودي الشيعي نفسه، وانظر ما قاله طه حسين في هؤلاء

(١) «العدالة» (ص٢٠٩)، ط. الخامسة، (ص١٧٥)، ط. الثانية عشرة.

الصحابة في كتابه «الفتنة الكبرى (عثمان)»؛ ترَ الفرق واضحًا بين الرجلين[1].

ومع ما يُرمى به طه حسين من إلحاد وطعن في الصحابة؛ فإنك تجده ألين عريكة من «سيد قطب»، وأقل قسوة وعنفًا، فقد ترجم للزبير وخلط فيها بين الغمز والمدح.

أما الغمز: فهو المبالغة في ثرواته، ولم يكن مخلصًا ولا صادقًا في عرضه لها، ولو كان مخلصًا؛ لذكر رواية البخاري في ذلك، ومحصلها ما سبق.

وأما المدح: فذكره أن للزبير قرابة من رسول اللَّه ﷺ، وصهرًا إلى أبي بكر، وأنه عرف من طفولته بالبأس والقوة والإقدام، وأنه كان من السَّابقين إلى الإسلام، وأنه شهد بدرًا والمشاهد كلها، وأنه حواري النبي ﷺ، وأن عُمر وضعه في الشورى، وكان مرشحًا للخلافة، وذكر أنه مع ثروته مات وعليه دين كثير.

وهمَّ كثير من الدائنيْن أن يتركوا دينهم للورثة، ولكن عبد اللَّه أبى، وأدى الدين كله لأصحابه، ولم يدرك طه حسين ما في قصَّة الدَّين من الدلالة على كذب الروايات التي بالغت في ثروات الزبير، ولم يدرك أن الديون كانت أكثر بكثير من ماله الذي خلفه، لكن اللَّه بارك فيه بعد موته.

* * *

(١) (ص٧٦٥-٧٧٢) «مجموع إسلاميات طه حسين».

الفصل السادس والثلاثون: الذب عن عبد الرحمن عوف رضي الله عنه

* وأما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

فهو من سادات المهاجرين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الشورى الذين توفي رسول اللَّه وهو عنهم راضٍ، وكان كثير المال، بارك اللَّه له في تجارته في حياة رسول اللَّه ﷺ، وكان كثير البر والإحسان والإنفاق في سبيل اللَّه.

تصَدَّق عبد الرحمن على عهد رسول اللَّه ﷺ بشطر ماله، ثمَّ تصَدَّق بأربعين ألف دينار، ثم حمل خمسمائة فرس في سبيل اللَّه وخمسمائة راحلة، وكان بينه وبين خالد بن الوليد كلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحُد ذهبًا؛ ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

وقال جعفر بن برقان: بلغني أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألف نسمة، وأوصى عبد الرحمن بن عوف لكل من شهد بدرًا بأربعمائة دينار؛ فكانوا مائة رجل.

وقد ترجم له طه حسين، وفي كلامه غمز مُبطن فيما يبدو، إلَّا أنه في الوقت نفسه ذكر ثناءً حَسنًا يرجع إليه من شاء في كتابه، ومنه بعد ذكر ثروته الضخمة على حدِّ قوله، قال: «فكلُّ هذا إن صور شيئًا؛ فإنما يصور ثروة ضخمة نامية لم تنقصها الصَّدقة الدائمة والبر المتواصل دائمًا لأزواج النبي ﷺ، ثم لذوي قرابته من بني زهرة، ثم لغيرهم من عَامَّة المسلمين».

وكان طه حسين يرد هذه الثروة إلى نجاح عبد الرحمن في التجارة لا إلى أعطيات عثمان التي يزعمها «سيد قطب»!! ففرقٌ كبير بين موقف الرجلين.

* وأما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه[1] :

فهو سابع سبعة في الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومُدوِّخ

(١) راجع ترجمته في «الإصابة» (٢/ ٣٠-٣١)، و «السير» للذهبي (١/ ٩٢-١٢٤).

الفُرس، وصاحب القادسية.

وقد استعمله كلٌّ من عمر وعثمان، فكان الناصحَ الأمين، ولم يكن من الأثرياء، بل عجز عن تسديد دَين كان عليه في عهد عثمان ﷺ.

وقد نقم عليه المسعودي وسيد قطب أن يبني لنفسه دارًا يسكنها، وما أدري هل الروافض لا يسكنون إلَّا في الخيام والأكواخ حتى ينقموا على سعد أن يبني دارًا.

ومن العجيب!! أن طه حسين لم يغمزه بأي مغمز، بل ترجم له ترجمة طيبة قال في آخرها: «إنَّ معارضته لعثمان لم تتجاوز حد النصح والأمر بالمعروف، فلما خرجت المعارضة عن طورها، وقاربت أن تكون ثورة؛ كَفَّ سعد ولزم الحياد، ولم يشارك في الفتنة، ولا في أعقابها، وكان إذا سُئل: لِمَ لا تقاتل؟ قال: حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول: هذا مؤمن، وهذا كافر!! وكأن سعدًا تحرَّج من أن يظهر النكير على عثمان؛ فيتهم بأنه إنما فعل ذلك لأنه ينقم على عثمان عزله عن الكوفة.

ومهما يكن من شيء؛ فقد لزم سعد السيرة التي سارها أيام النبي؛ فجاهد ما عرف الجهاد مع النبي ﷺ وأيام عمر، فلما أشكل الأمر عليه؛ اعتزل وترك الناس وما هم فيه.

ولما مات سنة خمسين أو خمس وخمسين طلب أزواجُ النبي ﷺ أن تمرَّ جنازته عليهنَّ، فمُرَّ به في المسجد فصلين عليه.

ولم يترك سعد ثروة ضخمة حين مات بالقياس إلى أصحابه، وإنما ترك ما بين مائتي ألف وثلثمائة ألف، وليس هذا بالشيء ذي الخطر كما رأيت وكما سترى»[1].

وفرقٌ كبير بين «سيد قطب»؛ إذْ يشيد بالثورة على عثمان، وبين طه حسين حيث يشيد بسعد لابتعاده عن الفتنة.

* * *

---

(١) لم يتركه طبعه من الإشارة إلى الطعن في أثرياء الصحابة. انظر هذا الكلام (ص٧٦٩) في «الإسلاميات».

الفصل السابع والثلاثون :
الذب عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

* **وأمَّا طلحة بن عبيد اللَّه التيمي رضي الله عنه :**

فهو أحد السابقين الأولين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

قال الذهبي : «وفي مسلم من حديث أبي هريرة : أن رسول اللَّه ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول اللَّه ﷺ : اثبت حراء، فما عليك إلا نبيٌّ، أو صدِّيق، أو شهيد» .

وقال مجالد : عن الشعبي، عن قبيصة : صحبت طلحة فما رأيت أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه .

وعن موسى بن طلحة : أن أباه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف، فبات ليلتَه يتململ، فقالت له زوجتُه : ما لك؟ فقال : تفكَّرت . فقلت : ما ظن رجل بربِّه يبيت وهذا المالُ في بيته . قالت : فأين أنت عن بعض أخلائك؟! فإذا أصبحت فاقسمها . فقال : إنك موفقة . وهي أم كلثوم بنت الصدِّيق؛ فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى عليٍّ منها، وأعطى زوجته ما فضل؛ فكان نحو ألف درهم .

وعن محمد بن إبراهيم التيمي قال : كان يغل طلحة بالعراق أربعمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار، وكان يكفي ضعفاء بني تيم، ويقضي ديونهم، ويرسل إلى عائشة كل سنة بعشرة آلاف»[1] .

وفي «تاريخ ابن عساكر»[2] : «وكان لا يدع أحدًا من بني تيم عائلًا إلَّا كفاه مؤنته ومؤنة عياله، وكان يُزَوِّج أياماهم، ويخدم عائلهم، ويقضي دَين غارمهم؛

---

(١) «تاريخ الإسلام»: عهد الخلفاء (ص٥٢٧).

(٢) «تهذيب تاريخ دمشق» (٧/ ٨٤-٨٥).

ولقد كان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته بعشرة آلاف في كل سنة، ولقد قضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم، وقضى عن عبيد الله بن معمر ثمانين ألفًا، وأتاه مرَّة من العراق خمسمائة ألف درهم؛ فقسَّمَهَا حتى أتى على آخرها».

أمثل هذا الجواد الكريم السمح المعطاء يُلامُ على غنى، ويُطعن فيه به، وكان إخوانه الذين صنفهم «سيد» في الإقطاعيين لا يقلون عن طلحة جودًا وبذلًا.

ولم يسلم طلحة من غمز طه حسين، لكنه مع ذلك اتسع صدرُه بذكر كثير من محاسنه؛ فمن ذلك قوله: «وكان طلحة كثير الصَّدَقة، لا يحب أن يجتمع في داره المال السَّائل؛ فكان إذا اجتمع في داره شيءٌ كثير؛ لم يسترح حتى يتخفف منه بتقسيمه في ذوي قرابته من تيم، وفي ذوي مَودَّته من قريش والأنصار، وكان أسرع الناس معونة لمن يحتاج إلى المعونة، وأداء عَمَّن يثقل عليه الدين، وكان أعطى الناسَ للمال والكسوة، وأسخاهم بالطعام»[1].

* **أما المقداد بن عمرو الكندي:**

فهو أحد الصَّحَابة السابقين الأولين، شهد بدرًا والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر فارسًا؛ قال ﷺ: «استعملني رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعت قال: كيف وجدت الإمارة؟ قلت: يا رسول الله، ما ظننتُ إلَّا أن الناس كلهم خول لي، والله؛ لا ألي على عمل ما دمتُ حيًّا».

وقال له بعض الناس -وهو يريد الغزو وقد بدن-: قد أعذر الله إليك؟ فقال: أبت علينا سورة البحوث: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

قال الذهبي: «عن كريمة بنت المقداد: أن المقداد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفًا، ولأمهات المؤمنين لكل واحدة بسبعة آلاف درهم»[2].

وقال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني موسى بن يعقوب، عن عمته، عن أمها قالت: «بعنا طعمة المقداد التي أطعمه رسول الله ﷺ بخيبر خمسة

---

(١) «إسلاميات طه حسين» (ص٧٧٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٨٨-٣٨٩).

عشر وسقًا شعيرًا من معاوية بن أبي سفيان بمائة ألف درهم».

والروايتان -كما ترى- غير ثابتة: فالأولى لا إسناد لها، والثانية فيها الواقدي، وفيها عمة موسى وهي قريبة فيها جهالة.

ولو ثبتت الروايتان؛ فإن هذا المال يُعدُّ قليلًا بالنسبة لعهد عثمان وعهد معاوية؛ لأن اللَّه كان أفاض على المسلمين بالخير الكثير، ولا يحنق منه إلَّا أهل الأدواء والأمراض النفسية.

*** وأما يعلى بن أمية:**

فهو الصحابي الجليل التميمي، حليف بني نوفل، أسلم عام الفتح، استعمله عمر بن الخطاب على بعض اليمن، واستعمله عثمان على صنعاء، فبلغه قتل عثمان؛ فأقبل لينصره، فقدم مكة بعد انقضاء الحج، واستشرف إليه الناس، فقال: من خرج يطلب بدم عثمان فعلي جهازه، فأعان الزبير بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلًا من قريش؛ وكان يعلى جوادًا معروفًا بالكرم، ثم صار من أصحاب علي، وقُتل معه بصفين[1].

ولم يذكر أحدٌ ممن ترجم له مقدار ما خَلَّفَ من المال غير المسعودي حسب اطلاعي، ويكفيه أنه بذل بسخاء في نصرة ما يرى أنه الحق، وأنه كان جوادًا كريمًا.

قال «سيد قطب» مُعلقًا على كلام المسعودي الشيعي:

«هذا هو الثراء الذي بدأ صغيرًا بإيثار بعض المسلمين على بعض في العطاء في أيام عُمر؛ ذلك الإيثار الذي كان مُعتزمًا إبطاله وتلافي آثاره؛ لولا أن عاجلته الطعنة التي لم تصب قلب عمر وحده، بل أصابت قلب الإسلام، ثم نما وازداد بإبقاء عثمان عليه؛ فضلًا عن العطايا والهبات والقطائع، ثم فشا فشوًّا ذريعًا بتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال بما أباحه عثمان من شراء الأرضين

(١) «أسد الغابة» (٥/ ٥٢٣)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٠٠)، و«تهذيب الأسماء واللغات»، القسم الأول (ص١٦٥).

في الأقاليم، وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة.

وبمقاومة الصيحة الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر، وكانت جديرة لو بلغت غايتها، ولو وجدت من الإمام استماعًا لها أن تعدل الأوضاع، وأن تحقق ما أراده عمر في أواخر أيامه من ردِّ فضول الأغنياء على الفقراء بما يبيحه له سلطان الإمامة؛ لدفع الضرر عن الأمة، بل بما يحتمه عليه تحقيقًا لمصلحة الجماعة.

وبقدر ما تكدست الثروات وتضخمت في جانب؛ كان الفقر والبؤس في الجانب الآخر، وكانت النقمة والسخط كذلك، وما لبث هذا كله أن تجمع وتضخم؛ لينبعث فتنة هائجة يستغلها أعداء الإسلام، فتودي في النهاية بعثمان، وتودي معه بأمن الأمة الإسلامية، وتسلمها إلى اضطراب وفوران لم يخب أواره حتى كان قد غشى بدخانه على روح الإسلام، وأسلم الأمة إلى ملك عضوض»[1].

هكذا يُصوِّر «أبو الثورة» -كما يسميه المعجبون به- ذلك العهد الطيب المبارك، وذلك المجتمع الخير الذي شهد له رسول اللَّه بالخيريَّة، يُصَوِّره في صورة المجتمعات الأوربية، فهناك إقطاعيون تتجمع في أيديهم الأملاك والضياع وموارد الاستغلال، ويحمل عثمان أوزار هذا الوضع الإقطاعي الرهيب في نظره:

١- بما أباحه من شراء الأرضين في الأقاليم، وتضخيم الملكيات في رقعة واسعة، كما هو حال الإقطاعيين في أوربا في العصور المظلمة.

٢- وبمقاومة الصَّيحَة الخالصة العميقة التي انبعثت من قلب أبي ذر، ولم تنبعث من قلوب الصَّحَابة جميعًا البدريين والمهاجرين والأنصار، وسائر السَّابقين واللاحقين؛ لأن الجشع المادِّي والاستئثار بالهبات، والاستئثار بالإقطاع، وتجميع الأملاك والضياع وموارد الاستغلال في أيديهم قد أمات قلوبهم في نظر «سيد»!! ولم يبق إلَّا قلب أبي ذر زعيم الاشتراكيين -حاشاه- ينبض بالثورة والغيرة.

---

(١) «العدالة» (ص٢١٠)، ط. الخامسة.

هذا ما يُصوِّره كلام «أبي الثورة»!!!

أمَّا أصحاب رسول الله؛ فواللَّه، ما كانوا في شيء مما يتقوله ويفتعله «سيد قطب»، وما كان أبو ذر في شيء مما يقوله، وليست هناك صيحة ثورية يطالب فيها بالتأميم وأخذ فضول الأغنياء.

وليس في الإسلام ما يبيح للسلطان أن ينهب أموال الأغنياء، ثم يعطيها للثوار الكادحين.

وليس في ذلك المجتمع الطاهر تكدس ثروات كما هي عند الإقطاعيين والرأسماليين الأوربيين، وليس هناك طبقات إقطاعية ورأسمالية، وطبقات فقراء وبؤساء؛ ذلك أن الذين مَنَّ اللَّه عليهم بالمال كانوا يجودون بهذه الأموال في سبيل اللَّه وسائر طرق البر والخير.

والذين دونهم في الغناء ما كانوا يكدحون في المزارع والحقول، وأحيانًا يفاجئون بالتعطل والتبطل، إنما كانوا جنودًا في سبيل اللَّه كالليوث، يجاهدون في سبيل اللَّه، ولإعلاء كلمة اللَّه من عهد رسول اللَّه إلى أن استشهد عثمان، فينالون من الغنائم ومن الخراج ومن غيرها من أبواب الدخل.

بالإضافة إلى الدين والأخلاق العالية، الأمر الذي يجعلهم أبعدَ الناس وأبعد المجتمعات عن الحال والصورة التي يصورهم بها «سيد قطب»، تلك الصورة الشوهاء التي استَمَدَّهَا من أوضاع المجتمعات الغربية والشرقية النكدة من تَكَدُّس الأموال في جانب، والفقر والبؤس في جانب آخر، ثم الثورات المدمرة الناتجة عن هذه الأوضاع السيئة.

٣- ويقول مشيدًا بالثورات بما فيها ثورة القرامطة:

«والواقع أن اتهام النظام الإسلامي بأنه لا يحمل ضماناته إغفال للممكنات الواقعة في كل نظام، كما أن فيه إغفالًا لحقائق التاريخ الإسلامي الذي شهد الثورة الكبرى على عثمان، وشهد ثورة الحجاز على يزيد، كما شهد ثورة القرامطة وسواها ضد الاستغلال والسلطة الجائرة وفوارق الطبقات، وما يزال الروح الإسلامي يصارع ضد هذه الاعتبارات جميعًا على الرغم من الضَّرَبَات القاصمة

التي وجهت إليه في ثلثمائة وألف عام»[1].

ولعله أغفل حركة الفاطميين والباطنيين كعلي بن الفضل، وسائر حركات الروافض؛ لئلا يستيقظ النوام، وينتبه الغافلون!!!

* * *

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٢٣)، ط. الخامسة.

الفصل الثامن والثلاثون: موقف الصحابة وعلماء الأمة من الثائرين على عثمان

قال ابن شبة رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا حيان بن بشر قال: حدثنا يحيى بن آدم: حدثنا أبو معاوية، عن أبي مالك الأشجعي قال: «قلت لسالم بن أبي الجعد: ما ردك عن رأيك في عثمان؟ قال: كنا مع محمد بن علي في الشِّعب وابن عباس، فذكرنا عثمان فنلنا منه، فقال: كفُّوا عن هذا الرَّجُل. ثم نلنا منه، فقال: ألم أنهكم.

ثم أقبل على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال له: أتذكر عشية الجمل وأنا عن يمين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي يدي الراية، وأنت عن يساره، فسمع هدَّة في المربد، فأرسل فلانًا فجاء، فقال: هذه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تلعن قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرفع عليٌّ يديه حتى سترتا وجهه، ثم قال: وأنا ألعن قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لعنهم اللَّه في السَّهل والجبل -مرتين أو ثلاثًا-.

قال: فصدقوا[1] ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فأقبل علينا فقال: أما فيَّ وفي هذا لكم شاهد عدل».

ثم روى بأسانيده عن عليٍّ أنه كان يدعو على قتلة عثمان، وتارة يلعنهم[2]، وهي تصل بمجموعها إلى درجة الصحة.

وذكر ابن جرير[3] رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن الثوار المصريين أتوا عليًا، فسلموا عليه، وعرضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد علم الصَّالحون أن جيش ذي المرة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صحبكم اللَّه. قالوا: نعم. فانصرفوا عنه على ذلك».

وأتى البصريون والكوفيون الزبير، فقال لهم مثل قول علي، وذكر لهم أن

---

(١) لعله: فصدقه.

(٢) «أخبار المدينة» (٤/ ١١٩).

(٣) «تاريخ ابن جرير» (٤/ ٣٥٠).

جيش ذي المرة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ.

وساق ابن شبة بإسناده إلى الحسن بن علي رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله قتلة عثمان»[1].

وقال الإمام البخاري[2] رحمه الله: حدثني محمد بن المثنى: حدثنا يحيى: حدثنا إسماعيل: حدثنا قيس قال: سمعت سعيد بن زيد يقول: لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم، ولو أن أحدًا انقض لما صنعتم بعثمان؛ لكان محقوقًا أن ينقض».

وقال ابن كثير رحمه الله: «وفي هذه السنة -يعني: سنة ثلاث وثلاثين- سيَّر عثمان بعض أهل البصرة منها إلى الشام وإلى مصر بأسباب مسوغة لما فعله رضي الله عنه؛ فكان هؤلاء ممن يُؤلب عليه ويمالئ الأعداء في الحطِّ والكلام فيه، وهم الظالمون في ذلك، وهو البارّ الراشد رضي الله عنه»[3].

والواقع: أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان والأمة وعلماءها على أنَّ عثمان رضي الله عنه خليفةٌ راشد، وشهيد مظلوم، وأنه على الحق الأبلج، وخصومه من الثوار وغيرهم على الباطل، لا يخالف في هذا إلَّا: الروافض، والخوارج، وأهل الإلحاد والبدع.

* * *

(١) «أخبار المدينة» (٣/ ٣٥٤).

(٢) في الصحيح (٦٣)، كتاب مناقب الأنصار، حديث (٣٨٦٧).

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ١٦٦).

الفصل التاسع والثلاثون: طعون سيد قطب في خلفاء بني أمية وبني العباس

ولسيد قطب طعون في بني أمية، وفي بني العباس يخرجهم بها من الإسلام، ولا ترى هذه الضغائن والحرقة إلَّا في كلام الروافض وفصائلهم؛ فللرجل كلام كثير مشحون بالطعون والحقد لا يتَّسعُ المجال لذكره ومناقشته، منه قوله بعد حكاية خطبتين مكذوبتين على معاوية ﷺ، وللمنصور الذي قضى على دولة الرفض والإلحاد، فدفع بذلك عن الإسلام والأمة شرًّا عظيمًا وخطرًا رهيبًا.

قال «سيد» بعدهما:

«وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًّا عن دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام»[1].

وقال مرة أخرى بعد أن رمى عثمان بالانحراف في تصور الحكم، وقيَّده بالقلة تقية:

«وأمَّا بعد أن صار الحكم إلى الملك العضوض؛ فقد انهارت الحدود والقيود، وأصبح الحاكم مطلق اليد في المنع والمنح بالحق في أحيان قليلة، وبالباطل في سائر الأحيان، واتسع المال لترف الحكام وأبنائهم وحاشيتهم ومملقيهم إلى غير حدٍّ، وخرج الحكام بذلك نهائيًّا من كل حدود الإسلام في المال»[2].

ومعلومٌ أن «سيدًا» ومَن دار في فلكه يكفِّرون بمثل هذا!! فلا حول ولا قوة إلا بالله!!!

❋ ❋ ❋

(١) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٠)، ط. الخامسة، (ص١٦٧-١٦٨)، ط. الثانية عشرة.

(٢) «العدالة الاجتماعية» (ص٢٠٠).

الخاتمـة

لقد تبين للمؤمنين أولي الدين والعقول والنهى من هذا العرض مدى ما كان ينطوي عليه «سيد قطب» من حقد وكراهية لعثمان بن عفان الخليفة الراشد المظلوم، وما ظلم به هذا الخليفة الحيي الصالح الوقور العادل.

ومدى التطاول والافتراءات والاتهامات التي جمع فيها بين حقد الروافض والاشتراكيين.

فتارة يرى أن خلافته كانت فجوة!!

وتارة يقذفه بأن أسس الإسلام في عهده قد تحطمت!!

وتارة يرميه بالانحراف عن روح الإسلام!!

وتارة يرميه بأنه يولي أعداء رسول الله، ويعزل أصحاب رسول الله!!

وتارة يرميه بأنه مَكَّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، وبأنه سيقة لمروان!!

وبأنه يحمل بني أمية وبني معيط على رقاب الناس!!

وبأنه يغدق الأموال والولايات على بني أمية!!

وبأن تصور حقيقة الحكم في عهده قد تغيَّر!!

وبأن الثوار أقرب إلى روح الإسلام من عثمان!!

وبأن الثروات قد تضخمت في عهده نتيجة لسياسته . . .

وطعون كثيرة قبيحة لا تتسع لذكرها هذه الخاتمة.

وطعن في الصحابة الذين عاشوا في عهده وخيار التابعين بأنهم مستنفعون، وبأنهم لم يقنعوا بشرعة المساواة؛ لأنهم اعتادوا التفضيل!!

وبأن عهدهم صار عهد إقطاع!!

وأنهم لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم!!

وفضَّل عليهم تلاميذ ابن سبأ الثوَّار!!

وطعون أخرى طعن بها وشَوَّه أهل ذلك العهد الزاهر.

واللهُ حسيبُه، واللَّه يكافئه بما يستحق، وكفى شباب الأمة سوء أفكاره ومبادئه المنافية للمنهج الإسلامي الحق اللابسة لباس الإسلام ظلمًا وزورًا.

* * *

فهرس الموضوعات

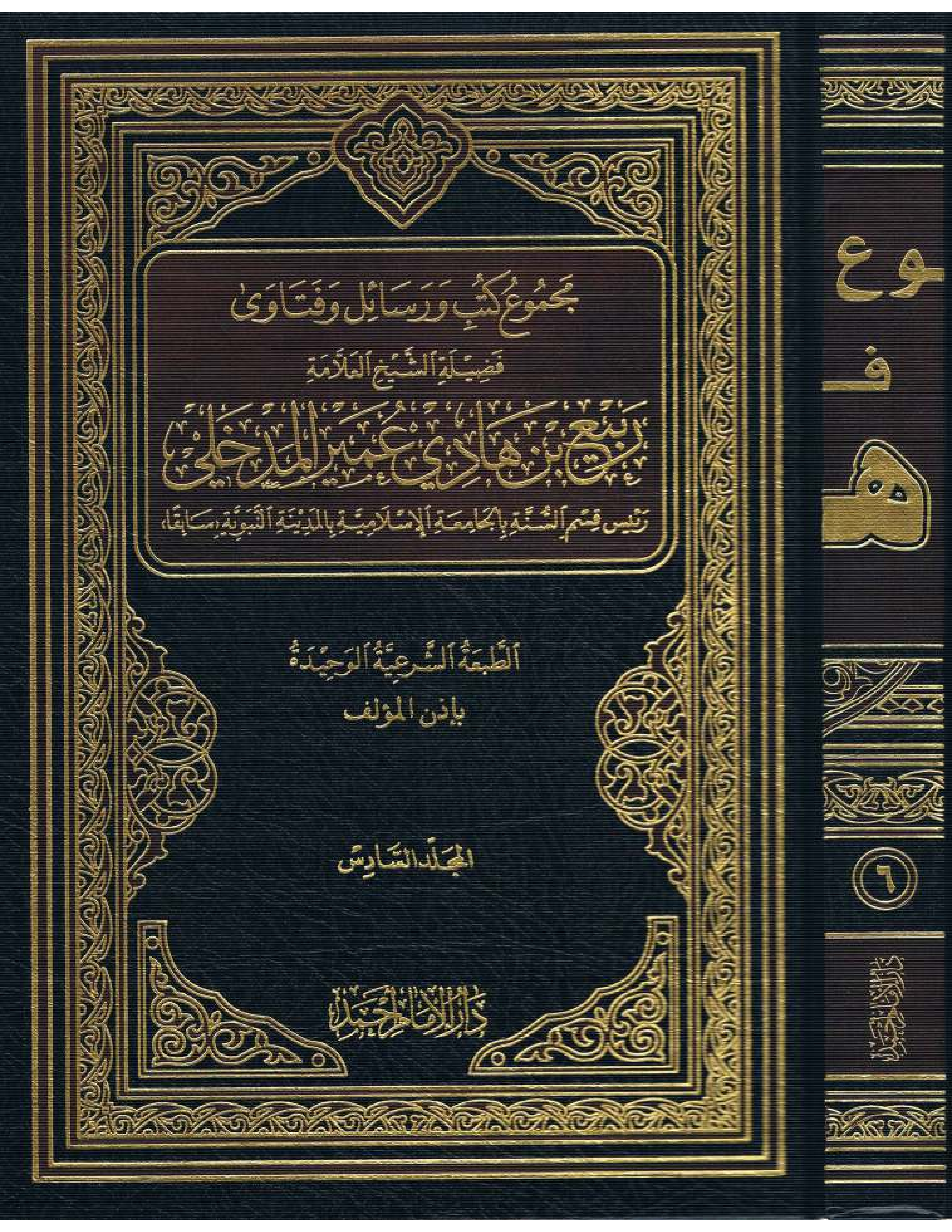
بوزيد بلقاسم

فهرس «أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره»

* * *

فهرس «مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ»

* * *


مجموع كتب ورسائل وفتاوى
فضيلة الشيخ العلامة
ربيع بن هادي عمير المدخلي
رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية (سابقاً)
الطبعة الشرعية الوحيدة
بإذن المؤلف
المجلد السادس
دار الإمام أحمد
٦